إطار لملامح المجتمع وصورة العصر

تطور الصحافة العربية في مصر

أنور الجندي



إطار لملامح المجتمع وصورة العصر

تطور الصحافة العربية في مصر

أنور الجندي

تطور الصحافة العربيـــة

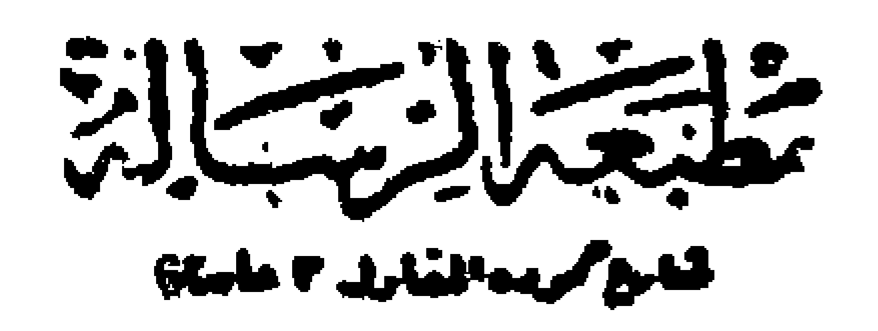
وأثرها فى الأدب العربى المعاصر

(الأول) : الصحافة السياسية فى مصر منذ نشأتها إلى الحرب العالمية الثانية (صدر)

(الثانى) : تطور الصحافة العربية فى مصر (إطار لملامح المجتمع وصورة العصر)

(الثالث) : تطور الصحافة العربيـــة بين الحربين (١٩١٩ — ١٩٣٩)
فى العالم العربى (تحت الأعداد)

(الرابع) : تطور الصحافة فى العالم العربى بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم
(تحت الأعداد)



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

فى مجال البحث فى تاريخ الأدب العربى المعاصر منذ أوائل حركة اليقظة فى العقد السابع من القرن التاسع عشر إلى أوائل الحرب العالمية الثانية ، تجىء الصحافة فى المكان الأول من نهضة الكلمة وأثرها البعيد المدى ، فاذا قلنا أن الحركة السياسية والاجتماعية والتطور اللغوى والبيانى ، والمؤلفات والأبحاث والدراسات المختلفة ، كل هذا إنما خرج إلى الرأى العام من نافذة الصحافة أولا ، لا نعدو قول الحقيقة ، ولأهمية الصحافة ، هذه الأهمية البالغة كان لابد من إجراء دراسة واسعة فى قطاعين هامين : القطاع السياسى ، والقطاع الاجتماعى .

وقد كان كتابنا « الصحافة السياسية فى مصر منذ نشأتها إلى أوائل الحرب العالمية الثانية » قد حفل بالدراسات الخاصة بالقضايا السياسية . وقد وجد إهتماما طيبا من الباحثين ، والدارسين فى هذا الحقل ، مما دفعنا إلى إستكمال البحث فى نفس المرحلة بالنسبة للقطاع الاجتماعى ، فكان ثمرة العمل ، هذا البحث الذى نقدمه اليوم ، والذى يعد موازيا للبحث السياسى فى نفس الزمن والمراحل ومكملا له . .

وقد كان أهم ماعنى به هذا البحث : محاولة رسم إطار لملامح العصر وصورة المجتمع ، وهو فى هذا المجال يكمل دراستنا المستقلة « الشرق فى فجر اليقظة » وكنا قد تناولنا فى كتابنا « الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب والتبعية الثقافية » عديد من القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية — فى مرحلة ما بين الحربين — ومن هنا ، فاننا لم نكرر أنفسنا فى هذا الكتب الأربعة التى ذكرناها وقد اختص كل منها بجانب مستقل ، وهى

فى مجموعها تكمل بعضها البعض فى دراسة شاملة للعصر كله منذ (١٨٧١ تقريبا إلى ١٩٣٩) (صحافة — سياسة — مجتمع — حضارة — فكر) . بوصفها مرحلة متكاملة فى تاريخ الشرق الاسلامى والعالم العربى .

أما هذه الدراسة التى بين أيدينا فقد إمتازت بأنها قدمت أبحاثا جديدة أهمها :

(١) نماذج متعددة لتطور الأسلوب منذ فجر الصحافة إلى نهاية الفترة .

(٢) تراجم عديدة للصحفيين ، ودراسة لرؤساء التحرير .

(٣) معارك ومساجلات الصحف .

(٤) قضايا الصحف ، طرائف الصحافة ، الأخطاء المطبعية ، توقيعات الصحفيين .

(٥) خطوط عريضة للمجتمع فى مرحلتيه : قبل الحرب الأولى وبين الحربين فى مجال المسرح ، والمجتمع ، والأزهر ، والرحلة ، والفكاهة ، والأغانى .

(٦) مذكرات الصحفيين ، والكتاب فى مجال العمل الصحفى .

(٧) صحافة النقد السياسى الساخر ، وصحافة الأدب والثقافة .

(٨) الكاريكاتير والصحف الهزلية .

(٩) دراسة شاملة للصاحفين (الكتاب الذين يكتبون فى الصحف من غير محرريها) .

(١٠) دراسة دخائل الصحافة وأسرارها من الداخل .

* * *

ويمكن القول أنه بهذا الكتاب تكون دراسات الصحافة العربية فى مصر (إلى أوائل الحرب العالمية الثانية) قد يسرت بجهد المقل ، وإن صورة للمجتمع قد وجدت ، وأصبحت قادرة أن ترسم ملامح العصر ، وإن كانت فى حاجة إلى استيفاء بدراسة أرجو أن أجد من الله العون على اتمامها وهى :

« جبرتى العصر الحديث » : [الأخبار والتراجم] : وستضم شحنة ضخمة من يوميات

الصحف فى مختلف الأحداث الكبرى خلال هذه الرحلة التى اخترنا تغطيتها . فإذا راجعنا هذا العمل — الذى بدأناه معتمدين على الله منذ مطالع الشباب ونحن اليوم على أبواب الخمسين من العمر — لوجدنا أن دراسة تضم الآن (١٨) مجلداً قد أصبحت فى يد الباحث :

(١) الشعر (٢) القصة (٣) النثر (٤) اللغة العربية (٥) أدب المرأة (٦) الترجمة (٧) الفكر العربى (٨) أدب المقاومة والتجمع (٩) الصحافة السياسية (١٠) الصحافة الإجتماعية (هذا الكتاب) (١١) المعارك الأدبية (١٢) الشرق فى فجر اليقظة (١٣) الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال أفريقيا (١٤) أضواء على الأدب العربى المعاصر (١٥) صفحات مجهولة من الأدب العربى المعاصر (١٦) مفكرون وأدباء، وهى تضم ٢٧٥ شخصية فى العالم العربى .

وفى مجال الترجمة للأعلام خارج مجال الأدب قدمنا : (١٧) أعلام ورجال أقلام (١٨) أعيان الجيل ، وتضمان دراسة لـ ١٢٥ عالما ، وبهذا يمكن القول بأن الدراسة جميعها تكون قد شملت ٤٠٠ شخصية من أبرز المفكرين والباحثين فى العالم العربى كله عبر فترة من أدق فترات اليقظة فى الشرق (١٨٧١ — ١٩٣٩) خلال ما يقرب من سبعين عاما .

* * *

وتبلغ حصيلة هذه الدراسة حتى الآن عشرة آلاف صفحة ، وقد استنفدت من الجهد والوقت سبعة عشر عاما كاملة ، فقد بدأت هذه المراجعات فى دار الكتب المصرية بباب الخلق والقلعة بالقاهرة عام ١٩٥٠ ومضينا نواصل البحث خلال هذه السنوات ، لا نتخلف يوما ، للكشف عن الغائب فى مجال توقف بحث الباحثين فيه عن حدود المؤلفات المطبوعة، ولذلك فإننا لا نبالغ إذا قلنا أن أبرز ما فى هذه الدراسات، أنها تقدم المادة الخام المدفونة فى بطون الصحف والتى لم يتحقق لها أن تنسق فى مؤلفات أو دراسات قبل ذلك ، وإنى لأرجو

أن أواصل هذا العمل حتى استكمل قطاع اليوميات الوطنية والأحداث التاريخية والوفيات والمواقع والتراجم، خلال هذه الفترة على نحو يضع بين يدى القارىء «الخطوط العامة للعصر كله» من خلال الصحافة، وهذا هو العمل الذى أطلقت عليه «جبرتى العصر الحديث».

وقد تقدمنى فى هذا المجال ثلاثة أعلام : (١) عبد الرحمن الجبرتى، فى موسوعته التى توقفت عند عام ١٨٢٥م (٢) أمين سامى فى موسوعته «تقويم النيل» . . . (٣) أحمد شفيق باشا فى موسوعة «حوليات مصر السياسية» . . .

فإذا أتممت هذا العمل رجوت أن أكون قد قدمت فى مجال الأدب والصحافة المعاصرة حفرية نافعة، تسد نقصا، وتحقق عملا يلقى الضوء على هذه المرحلة الهامة الدقيقة من تاريخ الأمة العربية، وإذا كان هذا العمل قد إستطاع فعلا أن يغطى فى مجال الأدب العالم العربى كله خلال تلك المرحلة، فإنه فى مجال الصحافة لم يتحقق بعد تغطية تطور الصحافة فى غير مصر، وقد حاولنا محاولات كثيرة مستعينين بالصحف الموجودة فى دار الكتب بالقلعة، لإتمام هذه الدراسة، غير أن الدوريات العربية على كثرتها وتنوعها لم تكن كافية كفاية فنية لأن تحقق رسم صورة كاملة للصحافة العربية وتطورها توازى ما استطعنا أن نحققه بالنسبة لمصر، وذلك لأسباب عدة أهمها : أن الصحف الوطنية فى هذه الأقطار لم تكن - فى خلال تلك المرحلة - وهى مرحلة إحتلال لأغلب هذه الأقطار - تصل إلى القاهرة، وإنما كانت تصل الصحف الموالية للاستعمار والحكومات التى يقيمها الاحتلال .

ومن هنا فإن الصورة التى يمكن أن ترسم عن المغرب أو العراق لا يمكن أن تكون كاملة، لأن صحافتها الوطنية المدافعة عن الحرية والمقاومة للاستعمار غائبة عن مجال البحث، ولذلك فإنى أرجو أن تتاح لنا الفرصة لزيارة علمية واسعة خلال وحدات العالم العربى نستطيع فيها إتمام هذه

البحث واستكمال ما تحتاج إليه الدراسة الموضوعية من رسم صورة المجتمع، والمعارك الأدبية، ودراسة الأعلام على نحو يوفى حواشى الصورة العربية ويكملها ، وذلك أمل معقود بفضل الله وهو المسئول عن تحقيقه .

* * *

وفى هذا المجال نستطيع أن نتحدث عن « الموسوعة » فنقول إننا قرأنا لها ألفى مرجع وإطلعنا على ثلاثة آلاف دورية .

ولقد كانت الفكرة أساساً هى «القضاء على النظارة الإقليمية الضيقة» التى كانت سائدة فى دراساتنا عن الأدب العربى ، لذلك كان من الضرورى أن يكتب الأدب العربى من جديد على نحو موحد تدرس فيه الظواهر المختلفة التى مرت بالوطن العربى فى ضوء «وحدة الفكر والضمير والشعور والذوق». وقد كشفت دراستنا فى أدب المقاومة عن هذه الحقيقة فى مواجهة «النفس العربية» للاستعمار والاحتلال ومعارك المقاومة ، والثورات المتعددة ، وكان من الضرورى أن يرود هذا العمل « كاتب » لا يتطلع إلى الثمرة السريعة ، ولا الجزاء المادى ، فيكتب دراسة على مستوى الأمة العربية فى فترة تبلغ حوالى سبعين عاما ، وهى الفترة التى واجهت فيها الغزو الاستعمارى والاحتلال .

ولست أذكر مدى الجهد الذى بذلته والذى اضطرنى إلى اتخاذ « نظارة » طبية ، وكيف أمضيت أكثر من ثلاثة أعوام مقيما إقامة تامة فى مكتبة القلعة بالقاهرة بين الأضابير القديمة من الصحف والدوريات ، ولكنى أذكر أننى لا أعد هذا العمل شيئا كبيراً أو عظيما ، وإنما — أعده مخلصا — عملا تمهيديا لعمل أكبر منه وأكثر شمولا وتحقيقا ، ومع ذلك فإن عملى بالنسبة لهذه الدراسة لما ينته بعد ، فقد تولدت عشرات الموضوعات والدراسات الفرعية التى تحتاج إلى مزيد من العمل، ومع هذا الجهد الذى بذلت، وقد طبع أغلب هذه الأجزاء على حسابى الخاص ومن رزق أولادى ، فإن قليلين جداً

هم أولئك الذين أولوا «الموسوعة» بالنظرة الفاحصة والنقد البناء أو ألقوا الضوء على بعض أجزائها ، ولم يكن مطمحى فى هذا تطلعا إلى شيء ما ، سوى الرغبة فى الانتفاع بآراء الباحثين ووجهات النظر الأخرى التى توسع أمامى آفاق البحث .

وقد أعطتنى هذه دراسة التى مازلت أعيش فى دائرتها ، أعطتنى فكرة ونظرية ، أما «الفكرة» فهى أن فكرنا العربى الإسلامى : فكر حى متحرك إيجابى مرن متطور ، قادر على الحياة والاستمرار والنمو ، والتجاوب على المستويين : الزمنى والبيئى ، فهو ممتد «زمنيا» دون أن يتحطم ، ويقاوم كل مؤامرات تمزيقه أو تدميره ، وممتد «بيئيا» فيشمل العالمين العربى والإسلامى ، فضلا عن أنه قدم إلى أوربا أعظم مقومات الفكر الأوربى المعاصر وهو «المنهج التجريبى» ، فضلا عن عديد من المقومات التى قامت عليها النهضة والحضارة الحديثة أما «النظرية» فهى أننا فى حاجة إلى تأكيد أساس فكرى نقيم عليه نهضة فكرنا الحديث ، هذا الأساس الذى لا يمكن أن نستمده إلا من جوهر فكرنا العربى الإسلامى ، وتتمثل فيه قيمه الأصيلة ومقوماته الأساسية . فقد كان فكرنا دائما مفتوحا وقادراً على الأخذ والعطاء ، وله من مقوماته ما يمكنه من الحفاظ على شخصيته وملامحه ولن يستطيع أبداً أن يتخلى هذه المقومات .

ولن أستطيع أن أنسى فى هذا المجال أنه بالرغم من قصور التقدير الأدبى لهذا العمل ، ربما لجنوح الباحث عن الدعاية لنفسه ، لن أنسى أولئك الأبرار الكرام من شبابنا الذين إتصلوا بى وما زالوا يتصلون وهم يعدون رسائلهم وأطروحاتهم وسأظل بعون الله مستعداً لأن أكون فى خدمة أى باحث فى هذا المجال بكل ما يمكن تقديمه من أجل إحسان العمل وإبلاغه من الكمال قدر المستطاع .

هذا وبالله التوفيق ؟

نهاية ١٩٦٧ م أنور الجندى

موضوعات البحث

ص

(الباب الثالث) معارك ومساجلات الصحف :

(الباب الرابع) : إطار لصورة العصر والمجتمع (من الاحتلال إلى أوائل الحرب

محاكمات الصحافة :

ص

(القسم الثانى)

ص

(مرحلة بين الحربين) . . .

ص

مصادر البحث

إذا كانت الآثار المكتوبة فى العصر الحديث هى الكتاب والصحيفة . فإن « الصحافة » : هى أبرز النوافذ وأهمها فى مجال البحث والدراسة والتاريخ ، وعن طريقها يمكن رسم إطار لصورة العصر والمجتمع والصحافة نفسها ، هذه الصورة التى نحاول أن نرسمها من خلال هذه الدراسة . أما « الكتاب » فهو موجود فى أيدى الباحثين . أما الآثار الصحفية المنثورة فى بطون « الدوريات » : الجرائد على اختلاف أنواعها واتجاهاتها فهى ما تزال أشبه بالضائعة ما لم تجد من يتاح له الفرصة لمراجعتها وتنسيقها واستخلاص عصارتها . وهذا ما حاولنا أن نقوم به فى سبيل رسم « إطار لصورة العصر والمجتمع » من خلال الصحافة. فلقد كانت الصحافة نفسها أبرز المجالات لتأريخ العصر ورسم صورة المجتمع فى مختلف أدواره وأحداثه ومواقفه وقضاياه ، وفى مجال المعارك الفكرية والأدبية والاجتماعية ، وعن طريق الصحافة ظهر الأدب وتطور الأسلوب وبرزت مختلف قضايا الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، ولقد حرصنا فى هذا البحث أن لا نكرر ما أوردته الكتب والمؤلفات ، وإنما رغبنا فى أن نضيف إضافات جديدة تحقق للباحث آفاقاً أرحب من خلال نظره محدثه ووثائق مطوية .

أهم المصادر :

— المجلات —

(١) كل شىء والدنيا والاثنين — ١٩٢٩
(٢) مصر الحديثة المصورة — ١٩٢٩
(٣) المصور — ١٩٢٦
(٤) اللطائف المصورة — ١٩١٦
(٥) الكشكول — ١٩٢٢
(٦) روز اليوسف — ١٩٢٦
(٧) السياسة الأسبوعية - ١٩٢٦
(٨) البلاغ الأسبوعى — ١٩٢٦

— الصحف اليومية —

(١) جريدة الأهرام — ١٨٧٥
(٢) اللواء — ١٩٠٠
(٣) المؤيد — ١٨٨٩
(٤) الجريدة — ١٩٠٧
(٥) الأخبار « أمين الرافعى » — ١٩٢٢
(٦) البلاغ — ١٩٢٣
(٧) السياسة اليومية — ١٩٢٢

المراجعة (إلى عام ١٩٣٩)

صحف وأقلام وصراع أفكار

تطور صحافة الرأى إلى أوائل الحرب العالمية الأولى

يدور البحث حول رسم إطار للعصر والمجتمع من خلال نافذة الصحافة في هذه المرحلة ، من ظهور صحافة الرأى فى مصر إلى أوائل الحرب العالمية الأولى . وقد بدأت صحافة الرأى فى اعتقادى بظهور الصحف التى وجهها جمال الدين الأفغانى منذ ١٨٧١ . . . . هذه هى المرحلة الأولى التى عمقت مفاهيم الكتابة بظهور صحافة أكثر إيمانا بالرأى الحر وأكثر قدرة على التعبير المصرى المتحرر من قيود السجع والصناعة اللفظية ، ثم كان تحول الوقائع المصرية[1] إلى صحيفة رأى عام ١٨٧٩ بإشراف الشيخ محمد عبده ، وجاءت المرحلة التالية فى هذا التطور بظهور «المؤيد» سنة ١٨٨٩ كأول صحيفة وطنية مصرية وذلك بعد فترة السنوات الأولى من الاحتلال ثم توالت الصحف اليومية السياسية : اللواء ، الجريدة ، الدستور ، ثم كان الصراع بين اللواء والمؤيد ، وبين المؤيد والجريدة ، وبين الدستور وهذه الصحف جميعا .

لا بد لكى تكون «صورة العصر» واضحة من خلال الصحافة ، بوصفها المجال الحيوى ، لليقظة الفكرية وللحركة الوطنية ، والذى كان أشبه بنهر يجرى ، حاملا كل شىء فى طريقه ، رأى الأحرار ، ورأى النفوذ الأجنبى : بريطانيا أو فرنسا ، ورأى الخديو وقصر عابدين ، ورأى السلطان وقصر يلدز ، وحتى تكتمل الصورة لا بد من إلقاء نظرة على أطرافها ، فالدولة العثمانية قائمة تضم العالم العربى ، ومصر منذ أوائل القرن واجهت الحملة الفرنسية التى جربت حظها كأول حملة استعمارية فى العصر الحديث ، وقد حاولت أن تسيطر لإقامة

---

(١) صدرت الوقائع المصرية ٣ /٨ / ١٨٢٨ ، أدخل عليها تعديل جعلها صحيفة رأى باشتراك محمد عبده وتلاميذه سعد زغلول وعبد الكريم سلمان وإبراهيم الهلباوى وصدرت بعد : روضة الأخبار عبد الله أبو السعود (١٨٧٤/١١/٢٩) فالإهرام (سليم وبشارة تقلا) ١٨٧٦/٨/٥ والوطن (جندى إبراهيم وميخائيل عبد السيد) ١٨٧٧/١١/١٧ .

إمبراطورية فرنسية على أرض مصر والشام ، ولكنها فشلت ، وقامت حركات ثلاث تريد أن تجدد الشرق ولكنها لم تستطع أن تتكامل أو تستمر ، وغلبتها القوى التى كانت تتحفز لالتهام المنطقة ، هى حركة محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية وحركة محمد على فى مصر وحركة الإصلاح فى تركيا . . . ومن محمد على إلى إسماعيل حيث التوسع الحضارى والديون وحفر قناة السويس التى كانت نقطة التقاء الغزاة وسيطرة النفوذ الأجنبى ، وفى الشام حلبة صراع يقوم به النفوذ الاستعمارى ، بين القوتين الغازيتين ، فرنسا مع المارون وانجلترا مع الدروز ، ثم يقع الصدام ويضع النفوذ الأجنبى يده فى نفس الوقت الذى تبدأ فيه حركة المقاومة ، وفى فارس استبداد ومحاولة للتحرر ، وفى تركيا محاولات لإيجاد دستور وحكم نيابى ، وفى مصر نفس المحاولة ، أما الصحافة فهى فى أول أمرها لسان الحكام والأمراء والنفوذ الأجنبى ، ثم هى بعد قليل لسان الأمة والنفوذ الأجنبى والحكام جميعا ، ثم هنالك الصراع بين ألوان النفوذ المختلفة . .

وفى هذه الفترة تبرز مواقف متعددة ترسم حركة التاريخ :

(١) صدر الدستور العثمانى الأول (٢٣ ديسمبر ١٧٨٦) أصدرته وزارة مدحت ، ثم حل السلطان مجلس المبعوثان بعد (٤٢ يوماً) فى ٥ فبراير ١٨٧٧ ، وأعيد الدستور (بعد تسع وعشرين عاماً) عام ١٩٠٨ .

(٢) بدأت الهجرة من الشام (لبنان وسوريا وفلسطين) إلى الولايات المتحدة بأمريكا عام ١٨٧٦ وفى نفس الوقت إلى مصر وإلى مناطق كثيرة من أفريقيا .

(٣) قدم جمال الدين الأفغانى من فارس والهند إلى تركيا ثم إلى مصر عام ١٨٧٠ ثم عاد إلى مصر ١٨٧١ للمرة الثانية فأقام بها حتى ١٨٧٩ .

(٤) فى مصر كان حكم إسماعيل فى نهايته ، وقد تشكل مجلس شورى النواب (إبريل ١٨٦٦) ومجلس شورى بديل فى اغسطس ١٨٧٨ ثم عزل إسماعيل ٢٦ يونيو ١٨٧٩ وتولى

إبنه محمد توفيق الذى كان قد تعرف على جمال الدين الأفغانى ، وقال له كلمته المشهورة : أنت فى مصر موضع آمالى أيها السيد ، ثم لم يلبث أن أخرجه من مصر بعد أن تولى الحكم بأيام .

فى هذه الفترة وجد الكتاب السوريون الذين هاجروا من الشام مجالا فالتفوا حول جمال الدين ، الذى كان قد إحتضنه رياض باشا وأجرى عليه راتباً ، ومن حول جمال الدين تجمع من السوريين العاملين فى ميدان الصحافة : أديب اسحق وسليم النقاش وسليم عنحورى ، وقد صدرت لهم بنفوذ جمال الدين صحفاً ثلاث :

مصر : (أديب اسحق وسليم النقاش) ١٨٧٧

التجارة: (« « «) ١٨٧٩

مرآة الشرق : (سليم عنحورى) ١٨٧٩

وقد اشترك فى تحرير هذه الصحف جمال الدين ، ومحمد عبده وإبراهيم اللقانى ـ الذى أشرف على مرآة الشرق ـ ، وتبدأ هذه الصحف مرحلة جديدة يمكن أن يطلق عليها (صحافة الرأى) وقد استمرت على هذا النحو حتى أخرج جمال الدين .

ولكى تكتمل الصورة من بعد نعلم أن الاحتلال عام ١٨٨٢ قد أوقف الصحف الوطنية ، كانت الأهرام هى الصحيفة الوحيدة التى بدأت عام ١٧٧٦ وعاودت الصدور بعد الاحتلال مباشرة ، ومضت ثمان سنوات طويلة مريرة ، لم يرتفع فيها صوت وطنى واحد ، حتى أصدر النفوذ الاستعمارى جريدة : (المقطم أوائل عام ١٨٨٩) ، ثم صدر «المؤيد» قبل نهاية العام. وكان كرومر ممثل الاحتلال الإنجليزى فى مصر يرسم للصحافة سياسة ماكرة ، ترمى إلى إطلاق الشحنة الوطنية مما وصف من بعد بعبارة : رفع الغطاء عن الإناء الموضوع فوق النار لتصريف البخار » . .

وكان «المؤيد» صحيفة الوطنية والمقاومة منذ صدر ١٨٨٩ ولم يصدر « اللواء » إلا عام

١٩٠٠ بعد مرور أحد عشر عاماً على صدور المؤيد ، وكان أشد ثقلا فى ميزان الحركة الوطنية ، وأكبر مقاومة للنفوذ الاستعمارى ، ومن هنا حرص الاستعمار على مقاومة هذا التيار وتأكيد مركزه فشجع ظهور « الجريدة » عام سنة ١٩٠٧ لساناً لحزب الأمة : حزب للمعتدلين الذين يؤمنون بالالتقاء بالانجليز فى منتصف الطريق .

وكان عام ١٩٠٧ خطيرحقا ، فقد تأسست فيه أحزاب ثلاث : «الأمة» وصحيفته الجريدة و«الحزب الوطنى» وصحيفتة اللواء ، وأسس الشيخ على يوسف صاحب المؤيد « حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » وما كاد كرومر يخرج من مصر فى نفس العام حتى تبلور الموقف ، جاء الدون غورست بدلا منه فأقر مع الخديوى سياسة الوفاق ، فمال الخديو إلى الانجليز وأدار ظهره للحركة الوطنية بعد أن كان يشجعها ، وتكشف الموقف عن أربع جبهات تمثلها الصحف الأربع :

المقطم : لسان الانجليز .

المؤيد : لسان الخديو .

الجريدة : لسان الطبقة الجديدة « أصحاب المصالح الحقيقية » التى صنعها الانجليز

اللواء : لسان الحركة الوطنية عامة والحزب الوطنى فى هذه المرحلة .

وكانت هناك زعامات مختلفة تتصدر العصر فى مختلف مجالاته الفكرية :

محمد عبده (الذى أطلق عليه الشيخ المفتى ثم الأستاذ الامام) يمثل التحديد الدينى واللغوى .

ومصطفى كامل ومحمد فريد من بعده يمثلان الزعامة الوطنية .

ولطفى السيد يمثل فلسفة المنفعة ، ودعوة مصر للمصريين ، ومقاومة كلا الدعوتين : الجامعة الاسلامية والحركة الوطنية وفق مفهوم الوطنيين وأسلوبهم .

وقاسم أمين : صاحب الدعوة إلى تحرير المرأة .

صحافة جمال الدين

قبل الاحتلال كانت صورة جمال الدين الأفغاني هي أبرز الصور ، الرجل الذي قدم مصر من أرض الأفغان تحيط به هالة من الإعجاب والحذر في أواخر عصر إسماعيل ، وكون مدرسة من الشباب المثقف كانوا يلتفون حوله في قهوة (متاتيا[1]) ومن بين هؤلاء كان محمد عبده أبرزهم وأكثرهم إعجاباً بالسيد ، وكان حول جمال الدين مجموعة من الصحفيين السوريين : أمثال أديب اسحق ، سليم عنحوري ، سليم النقاش . . وأغلب هؤلاء قد تحول من بعد وانضوى تحت لواء النفوذ الاستعماري ، وفي هذا العصر كان ذلك الرجل الذي كسب شهرة أكثر مما يستحق : يعقوب صنوع المسمى « أبو نضارة »[2] وقد ألقى جمال الدين الأفغاني في هذه الفترة خطباً وأحاديث في مختلف الأندية وكتب هذه الخطب تلميذه الشيخ محمد عبده ونشرها في الأهرام والتجارة وغيرها ، ثم سافر السيد مطوفاً في الأرض ، فلما وقعت الثورة العرابية نفي الشيخ المفتي ، وفي باريس التقيا فأصدرا « العروة الوثقى » حتى عاد محمد عبده إلى مصر وقصد جمال الدين إلى اسقانبول ، وانطوت صفحة وبدأت صفحة جديدة في ظل الاحتلال ، صفحة ذلك الصراع الضخم بين الوطنية المصرية من ناحية وبين الاحتلال ، ودارت المعركة من خلال الصحف ، كان سلاح هذا الصراع الأول هو : الصحافة والصحف حتى الأحزاب السياسية في هذه الفترة تكونت من خلال الصحف ، فقد صدرت الصحف أولا ثم تكونت الأحزاب من داخلها ، وفي ظل المرحلة الجديدة ظهرت أقلام كثيرة . . عشرات الأقلام . ولم تكن كل الأقلام شامية ولكن كانت هناك أقلام مصرية بارزة : إبراهيم اللقاني ، إبراهيم المويلحي ، علي يوسف ، محمد عبده الخ . .

وقد كان أغلب المناضلين والمكافحين في مجال الوطنية والسياسة والاصلاح الديني

(١) تفاصيل هذه الصورة في كتابنا « الشرق في فجر اليقظة » .

(٢) التفاصيل حياته في كتابنا « الثقافة العربية في معركة التغريب والشعوبية » .

والاجتماعى صحفيون أو مصاحفين[1] ، كلهم حمل القلم وعمل فى الصحافة ، ومن هنا كانت الصحافة هى الاطار الحقيقى لليقظة الفكرية ، وهى بؤرة النهضة وحركة الحرية واليقظة . فجمال الدين الأفغانى ، وسعد زغلول ومحمد عبده ، ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وأمين الرافعى وأحمد وفيق كل هؤلاء حملوا القلم تحت لواء الصحافة .

هذه أبعاد الصورة فى هذه المرحلة التى تبدأ بظهور صحافة الرأى المعارضة للنفوذ الأجنبى والاستبداد الداخلى ، وقد كانت أولى هذه الصحف «نزهة الأفكار» لابراهيم المويلحى وعثمان جلال الصادرة ١٨٦٩ والتى أغلقتها حكومة إسماعيل بعد عددين عندما تبين للمسئولين خطورتها عليهم .

وعندما وقع الاحتلال توقف إصدار صحف جديدة فى القاهرة ١٨٨٢ ولم يصدر خلال السنوات التالية له صحفاً ذات بال حتى صدر المقطم فى ١٨٨٩/٢/١٤ والمؤيد ١٨٨٩/١٢/١ .

وقد استمرت هذه الصحف تؤدى دوراً ثوريا إيجابيا متحرراً حتى أخرج جمال الدين الأفغانى من مصر بعد أن قبض عليه عشية ٢٩ أغسطس ١٨٧٩ ، هنالك نشرت الصحف البلاغ الرسمى الخاص بإبعاده ثم تحولت وجهة أخرى .

وكانت صحيفة مصر توالى نشر كلمات جمال الدين الأفغانى وندواته

---

(١) المصاحف : اصطلاح أطلق على الكتاب غير المحترفين لمهنة الصحافة .

(٢) صدرت جريدة مصر مرة أخرى عام ١٨٩٥ بإشراف قيصر وصمويل تادرس المنقبادي .

جريدة مصر

(٢٣ نوفمبر ١٨٧٨)

فى عشية يوم الجمعة وفد على الإسكندرية سيدنا فهرست كتاب الكمال ، وفذلكة حساب الجلال ، أستاذنا الأجل الفيلسوف الأكبر السيد جمال الدين الأفغانى ، فابتسم له الثغر عن درر الهناء به ، وغرر الثناء عليه ، وسعى إليه النبهاء والوجهاء ، وما من جارحة فيهم إلا وهى تود لو كانت أذنا فتلتقط درره وجواهره ، أو عينا لتجتلى مطالعه ومناظره .

وقد أعد له جبريل افندى المجلع نجل بارودى دى فنشى مأدبة فائقة الحسن والظرف تأخذ باللب والظرف ، جامعة لمحاسن الكمالات وكمالات المحاسن متوفرة أسباب الهناء والسرور كاملة وسائل الأنس والحبور .

* * *

مساء الأربعاء (٢١ مايو ١٨٧٩)

كانت قاعة زيزينا محفلا لنبهاء الناس ، أحدقت الأعين فى الحجرات والمقاعد بروح الفضل والحكمة المتجسمة فى ذات سيدنا الأستاذ وانتحت الأسماع لالتقاط درر ألفاظ الحكمة والتشنف بجواهر أقواله الفلسفية ، فقام أعزه الله فى هذا المجمع خطيبا ، يصقل الألباب ، ويمهد مناهج الأدب بالكلام البرىء الكاف الخالى من الكف حتى تمثلت الجوارح لو كانت آذانا تلتقط درر حكمه .

خطاب جمال الدين فى زيزنيا

يا أيها السادة[١] ويا أيتها السيدات : أرى من الواجب علىّ أولا أن أثنى على الجرائيم الشريفة الشرقية التى مضت عليها الدهور ومرت العصور وهى فى حالة الكمون لمنع الموانع الخارجية وقسر القواسر الداخلية ، ومع ذلك لم تفقدمزاياها العالية ولم تعدم سجاياها السامية بل برزت ونمت ، فرأينا أصولها الشريفة سادة شرفوا هذا المحضر لإعلاء كلمة العلم ورفع منار

---

(١) جريدة مصر : ٤ ٢مايو (ايار) ١٨٧٩ :

المعارف وتأييد أمر الفضل إعتقاداً بأن العلم سلطان عادل حكيم، إذا حل ببلد قوم تبعه الغنى والثروة لأنهما لا يحصلان إلا بالتجارة والزراعة والصناعة التي لا تحصل إلا بالعلم .

لا أريد أن أذكركم بمجد آبائكم الكرام وأنكم إما أن تكونوا من آباء المصريين أو من حفدة الفينيقيين أو من سلالة الكلدانيين، وأن المصريين قد بلغوا في الهندسة ذروتها ومن الحساب غايته ومن المساحة قاصيتها ومن جر الأثقال منتهاه، وعلموا اليونان الحكمة والفلسفة، بل إن شخصا واحدا منهم قد بث في اليونان روح المعرفة وعلمهم فن تدبير المنزل حين كانوا همجا متوحشين، وأبان لهم كيفية الزراعة والصناعة على حين كانوا يعيشون بالصيد والقنص، وإن جل علمائهم ومعظم حكمائهم لم ينالوا الفلسفة إلا بما تعلموه في مدرسة مصر العظيمة. ولا أذكركم بالفينيقيين وأنهم واضعوا أصول الصناعة وخاضوا عباب البحار وكانت إنكلترا واليونان من مستعمراتهم ولا تزال أسماء بلاد أسبانيا وسلانيننا شاهدة بأنهم رفعوا على تلك الأقطار ألوية تمدنهم، وأن أهلها كانوا لا يعرفون الصناعة ولا التجارة بل كانوا يقدمون لجدودكم كنوز الطبيعة ومعادنها الثمينة، وأنهم علموا اليونان الخط وكان أعظم حكمائهم منسوبا إليهم وهو تاليس الصوري .

أن الهرمين والمسلات وأعمدة الكرنك تفقأ بأصابعها الدهرية أعين المترضين الذين يرمون الشرقيين بالهمجية والنقص في الفطرة ، وأن تلول نينوى وأطلال صور وبعلبك ومنفيس وشيبه ما بقيت إلا لتثير الغبار على أبصار المفكرين الذين ينظرون إلينا بعين الاستخفاف والاحتقار. (وانك) لن تجد لتأخرنا غير سببين أصليين وهما : التعصب والاستبداد فأما الأول فهو عبارة عن سوء استعمال الدين ، فأما إذا نظرنا بعين المتأمل البصير إلى الشارعين من عهد (مهاديو) إلى ذردشت إلى موسى إلى عيسى إلى محمد ، لا نجد في شرائعهم إلا الدعوة لمعرفة مبدأ حق ، وهو الله ، والحث على الفضائل وفعل الخير والزجر عن الرذائل والشرور . ولكننا إذا نظرنا إلى الكثير ممن اتبعوهم فإنا نراهم قد استعملوا تلك الشرائع للشقاق

والنفاق واتخذوها وسائط لإضرام الفتن ووسائل لإلقاء الإحن ، حتى أمكن للشاعر العربى أن يقول :

إن الديانات ألقت بيننا إحناً　　وأودعتنا أفانين المداوات

أما الاستبداد فهو أن تكون أمة من الأمم مقيدة بسلسلة رأى واحد من الناس لاتتحرك إلا بإرادته ولاتفعل إلا لارضاه ، فإذا الأمة على هذه الصورة لزمها لامحالة أن يصرف كل منهما ما أودع فيه من العقل والذكاء لمرضاة شخص واحد فيكون الكل فانيا فيه ؛ ومن المعلوم أن الرجل الواحد ولو انفرد فى العقل والذكاء والهمة وعلو النفس لا يستطيع جلب السعادة لنفسه فضلا عن جلبها لأمة كثيرة . » ا . هـ .

« مرآة الشرق »

× ولما تولى إبراهيم اللقانى تحرير جريدة مرآة الشرق ابتداء من العدد ١٦، بدأ طابع جديد من الكتابة الوطنية والسياسية فى الصحافة العربية فى مصر يمكن أن نستكشفه من نظرة إلى نماذج منه وعلى هذا النحو[1]:

على وزرائنا — حفظهم الله — أن يميطوا عن أنفسهم جلابيب الراحة ويقاوموا الإغفاء ويصلوا شيئا من بياض نهارهم بسواد ليلهم جداً وسعيا فى تحصيل أسباب الإصلاح واستجلاب دواعى السعادة ، نعم ، لا ننكر ما يعترض دون ذلك من المصاعب ولكن همم الرجال تزلزل الجبال وتسهل المشاق ، خصوصا إذا انبعث السعى عن غيرة حقيقية وحمية وطنية ونفس أبية ضاع حقها وتداعى ركن عزها وانبنى على تدبير محكم وسياسة مستقيمة ، كما يكون سعى وزرائنا فهم وطنيون أحرار الطباع أشراف النفوس لا يرضون الخسف ولا يدينون للعسف وقد توفرت فيهم بواعث السعى ودواعى الاجتهاد .

وتشهد الأحوال الحاضرة أن حكومتنا فى قبل هذا الزمان لم تفقد القانون العادل الذى يكفل لكل ذى حق حقه ولكنها فقدت من يقوم بحفظ ذلك القانون ، وذلك لتآلف أعضائها من عبدة الهوى وعبيد الشهوات لا يرون الحق لا ما يوافق أغراضهم ولا ما يوافق القانون ، واستيلاء أفكارهم الرديئة الناشئة عن مبادئهم الفاسدة على أفكار رئيس الحكومة القابض على زمام الأمر فيزينون له المشوه ويحسنون القبيح ويظهرون الحق باطلا والباطل حقاً .

وأهم المفاسد هى عدم مراعاة الاستحقاق فى منح المراتب والمناصب، فكنت ترى الحاشية والقريبين إليهم يقدمون من شاءوا من أقربائهم وأوليائهم مع مصادرة التيار الجديد » .

---

(١) مجلة مرآة الشرق ١٨٧٨ تولى تحريرها إبراهيم اللقانى (العدد ١٦) ١٤ أغسطس ١٨٧٩ .

وقد عارضت الرقابة هذا الاتجاه ولم تتوقف عن نقده حتى أنها أصدرت أمرها بمصادرة جريدة الوطن خمسة عشر يوما ، وقد نشرت الوطن هذا القرار فى عددها (١ - يونية ١٨٧٨) تحت عنوان : إخطار رسمى من إدارة المطبوعات » على هذا النحو : « مع سبق إخطار أرباب الجرائد بتعديل مسلكهم بالنسبة للمآل والزمان ، ما زال مشاهداً عدم الالتفات لذلك ، لذلك وحيث أن ما سطر فى كل من جريدة الوطن ، وجريدة التجارة مخالف ، قد استوجب الحكم بتعطيل الجريدتين المذكورتين مدة خمسة عشر يوماً » ثم علقت الجريدة قائلة : « .. فامتثالا لهذا الإخطار الرسمى وجب علينا تعطيل جريدتنا مدة خمسة عشر يوماً ، وكنا نود لو صرح فى هذا الإخطار ببعض العبارات التى لم تحظ بالقبول أو التى خرجت على الأصول ، وذلك لإصلاح الخلل وعدم الوقوع ثانية فى الزلل . لا أن تعمد إلى تعطيلها بدون سبب فإننا لم نعلم سببا سوى ذكر فصل عن لزوم تنقيص فائدة الديون أما إذا كان التعطيل بسبب ذكر حقوق أعضاء مجلس النواب فهذا ليس بشىء بالنسبة لما هو مذكور .

وقد سئل أحد كبار وزراء أوربا عن سن قانون لمنع حرية المطبوعات وذلك لمنع الضرر ورفع تشويش الأذهان والخطر ، فقال إن الواقى الوحيد لمنع الخطر هو ذات حرية المطبوعات ، ولعمرى لقد أصاب هذا التحرير فى هذا المقال . فالجرائد هى بمنزلة بلسم للعليل وماء لرواء الغليل ودواء لشفاء السقام ونوراً لأولى الأفهام وهدى لرفع فاسد الأوهام » .

* * *

هذا هو الطابع الصحفى الجديد الذى رسم صورة جديدة للكتابة يمكن أن يطلق عليها صحافة الرأى من خلال تلاميذ جمال الدين غير أن أمر هذا اللون لم يطل فلم يلبث أن أبعد جمال الدين الأفغانى[1] وصدر بلاغ رسمى بإبعاده نشر على هذا النحو :

رسمى : (ورد الينا الإخطار الآتى بطريقة رسمية فنشرناه امتثالا وهو بالحرف الواحد)

---

(١) جريدة مصر : الجمعة ٢٩ اغسطس (آب) ١٨٧٩ .

« لما كان الأمن والأمان والراحة والاطمئنان يتوقف عليهما تمام العمران فى جميع الممالك والبلدان ومن أنجح الأبواب وأصلح الأسباب التى بها نجاح الممالك وسلوكها فى أقوم المسالك قطع دابر المفسدين فيما يضر بالدنيا والدين ، وبكون ذريعة الطائشين المتظاهرين بين الناس بمظهر الحرية بدون أساس البانين ذلك على غير شرع واصل ثابت وفرع ، وإنما هى مجرد خزعبلات وترهات وإشراك وأحبولات نصبوها لاقتناص أمثالهم السفهاء والجهال الذين هم بمعزل عن معرفة شىء من صوالح الأحوال وللتوصل إلى اغراضهم الفاسدة ومقاصدهم السيئة الكائدة .

وحكومتنا . . . التى ما زالت على بصيرة متيقظة كل التيقظ ، فمن ثم قد إستشعرت بأن هناك جمعية سرية من الشباب ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا المضر بالبرية رئيسها شخص يدعى بجمال الدين الأفغانى مطرود من بلاده ثم من الآستانة العلية لما إرتكبه من أمثال هذه المفسدة فى ديارنا المصرية المتحققة بالقبض من أهل الضبط والتيقظ والربط ، على أوراق عنده مضمونها شاهد عليه بالتوسل بتلك الجمعية إلى السعى فى جميع القبائح والمفاسد التى لا تخفى على أهل الكياسة ، خصوصا رجال الحكومة المتمكنين المدربين على السياسة والرئاسة ، فالتزمت هذه الحكومة الحازمة أن تتخذ الطرق اللازمة ، وتستعمل السداد فى قطع عرق هذا الفساد فأبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية ووجهته من طريق السويس إلى الأقطار الحجازية لإزالة هذا الفساد من هذه البلاد عبرة للمعتبرين ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين » ا.هـ

(٢) تلاميذ جمال الدين بعد سفره من مصر

لا شك كان للشاميين فى مجال الصحافة العربية دور ، ليس فى مصر والشام وحدها ، بل فى العالم العربى كله ، وفى الجزائر والمغرب الأقصى وتونس . وإذا نظرنا إلى الصورة من الداخل فى مصر فى مدة ما قبل الاحتلال رأينا مجموعة من شباب الشام (سوريا ولبنان فى الأغلب) الذين طمعوا فى الهجرة إلى مصر ، فى ظل تشجيع إسماعيل باشا للعناصر غير المصرية التى كانت تعاونه فى هذه الفترة والخلق ولاء يدين له ، ويخدم أغراضه ، غير أن أغلب هؤلاء لم يلبثوا أن انقضوا عليه ، وعاونوا خصومه ، فسليم تقلا هاجمه فى الأهرام واستظل بالحماية الفرنسية ، ويعقوب صنوع الذى كان معلما للرقص فى قصر عابدين ثم طرده الخديو فسافر إلى باريس أصدر صحفاً متعددة هاجمه فيها وأطلق عليه اسم « شيخ الحارة » منها : أبو نظازة ، أبو نظارة زرقا ، أبو صفارة ، ولم تكن خصومته لإسماعيل ولاءاً لمصر ، ولكنه كان يعمل على ولاء واضح لفرنسا[1] .

أما أديب إسحق وسليم عنحورى وسليم النقاش فقد أخذوا صف جمال الدين خلال إقامته فى مصر ، أما أديب اسحق فقد خرج من مصر مغاضباً للوزير رياض لخلاف شخصى معه وأصدر صحيفة أطلق عليها (مصر القاهرة) هاجم فيها الاحتلال البريطانى (وحده) وأيد النفوذ الفرنسى ووصفه بالرحمة والعدل ، ثم عاد أديب اسحق إلى مصر وأصدر صحفاً والت الاحتلال البريطانى وأيدت القصر .

وهذا نموذج من كتابات أديب اسحق فى جريدته التى أصدرها فى باريس :

---

(١) اقرأ دراسة عنه فى كتابنا (الثقافة العربية بين التعريب والشعوبية) .

جريدة مصر القاهرة

مصر «القاهرة» جريدة حرة سياسية ، محرر الجريدة وصاحبها : أديب اسحق
تطبع فى باريس تحت سماء الحرية ، وتنشر ما يعود بالنفع على البلاد العربية .
«حرية . إخاء . مساواة» باريس فى ٢٤ ديسمبر (كانون أول) ١٨٧٩
[نشر فى أول أعدادها افتتاحية جاء فيها] :

(الافتتاحية) إننا على يقين من أن استبداد رياض باشا فى الحكومة المصرية يحمله على منع البريد المصرى من نقل الجريدة فى داخل القطر ، غير أننا لا نعدم الوسيلة لإيصالها إلى المشتركين فى أوقاتها ، فقد أقمنا فى المدن والثغور المصرية وكلاء من الأجانب ترسل إليهم الجريدة بطريقة مأمونة العاقبة وأما من رام أخذها بغير واسطة هؤلاء الوكلاء فإنا نرسلها إليه فى ضمن ظرف على شكل الرسالة فلا تصل يد الاستبداد إلى منعها عنه .

وكل ما يرد إلينا من مستهدفات الصحيفة يلشر مكتوم النية أو مشهورها على ما يروم المرسل . نوافق على ذلك من يكاتبنا من البلاد الشرقية المحفوفة بمكاره الاستعباد ميثاقاً نحفظه حفظ الشرف ونصونه صيانة الروح .

هذه صحيفة مصر ــ طواها الاستبداد فماتت شهيدة ثم أحيتها الحرية فعاشت سعيدة . حاول رياض باشا المتصدر فى مصر إطفاء نورى وأبى الله إلا أن يتم نوره وإن كره الظالمون . أماتنى بدعوى الحرص على الخواطر أن أثيرها إلى الفتنة بل خاف أن أكشف الحجاب عن حقيقة أحواله فزعم أنى ناصية الشر لغرة منه أو تشيعا لسواه .

مسلكى : أن أكشف حقائق الأمور ملتزما جانب التصريح متجافيا عن التمريض والتلميح ، وأن أجلو مبادىء الحرية وآراء ذوى النقد وأن أوضح معائب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحا أولى الأمر ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهما أمناء الأمة ومفاسد الظلم الذين نلقبهم جهلا ولاة النظام .

مقصدى : أن أثير بقية الحمية الشرقية وأهيج فضالة الدم العربى وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين وأحيي الغيرة فى قلوب العارفين ليعلم قومى أن لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ومالا منهوبا فيطلبوه . وليخرجوا من خطة الخسف وينبذوا عنهم كل موالس ، ويستميتوا فى مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم إلى الأجانب بما يطمعون فى رفعة المقام فمن مات دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد . ومن عاش بعد أولئك الشهداء فهو سعيد .

ومضى أديب اسحق يهاجم حكومة رياض باشا فإذا تعرض للاستعمار ركز الهجوم على انجلترا فقط ، أما فرنسا فهى ليست فى نظره دولة مستعمرة تنكل باخوآننا فى شمال أفريقيا وإنما هى منار الحرية يقول :

« على مثل ذلك طبعت حكومة الإنجليز وعلى مثله نراها فى الهند قد جعلت أمراءها غلمانا واتخذت أبناءها عبيدا واستخدمت عامتها فيلة وبعرانا وعلى مثل هذا نراها المصريون أن رضوا برياض باشا وزيراً يقول ليس فى هذا القطر من يفقه بخطاب أو يحسن بجواب أو يميز بين الخطأ والصواب ، ويستقدم الأجانب لأعظم المناصب ويشمخ على الأمير ويشد على الوطنيين النكير ويلغى الجرائد الناطقة بالصدق الرائدة عن الحق .

أما سائر الدول فإنها أقل من تلك الدول شرا وأكثر منها رفقا وبرا . تعامل الخاضعين لها بالتى هى أحسن حتى يكادوا يحمدون وفادتها ويشكرون ولايتها .

ثم يجامل فرنسا فيقول : رياض باشا « أدماخنستون » القائل بهمجية المصريين المعتقد بانحطاط مداركهم المصرح بضعف عزائمهم المجاهر بالازدراء بهم . « الأمة الفرنسية المعروفة بحب الإنسانية المشهورة بالحرص على حقوق الحرية والمدنية القائمة بأمر العدل المتبوئة فى قلوب الشرقيين مكانا عاليا » .

ما هو رياض باشا

« رجيل[1] » دون الربعة . خفيف العارضة . أغبر اللون . منكسر العين تشير صفرته إلى الضغينة وتدل نتوء جبهته على صلابة الرأى . فيه مزية العزم والإقدام وهو من بيت الوزان من يهود مصر الأذكياء . أقيم جده على وزانة النقود فأظهر الإسلام وتبعه بنوه من بعده إلى هذا العهد ، وللناس ما ظهر ولله ما استتر . وهو نبيه الفكر لو حصل من العلم شيئا لما بعد عن مقام أهل الفضل ، على أنه عريض الدعوى يتنمق فى كلامه تنمق الميزاب فى كانون فإذا سمعته بعد الهمهمة والتمتمة يقول بكلام العوام خدمة الوطن ظننته من الجديرين . بالرئاسة الخبيرين بالسياسة فإذا راقبت أعماله رأيت حركة ولا بركة . صاحبته صبيا كانت سببا فى ترقيته بأنه كان من مفروزه الأمير عباس فيستحضره فى عامل أنسه ومجالس طربه فلما دب عارضه رفعه إلى بعض المناصب فما لبث أن أنته البكوية . لم أر فى سيمائه ما يدل على الصباح ليكون محلا لهذه الشبهة .

أثر الصحافة فى مجلس شورى النواب

ولم يلبث أثر صحافة الرأى أن بدا واضحا فى دوائر مجلس شورى النواب .

يتمثل ذلك فى جلسة مجلس شورى القوانين (الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩) فقد عقد مجلس شورى النواب جلسته وبدأ ينظر فيما لديه من الأعمال وإذا عطوفتلو رياض باشا رئيس مجلس النظار يدخل وفى يده مرسوم لفض المجلس وثارت ثائرة الأعضاء . ودارت مناقشات حادة ، وكان عبد السلام المويلحى أبرز خطباء الجلسة الذين اشتبكوا مع رئيس النظار فى المناقشة . وكانت الوزارة قد تألفت فى أوائل هذا العام (١٨٧٩) برئاسة ولى العهد (محمد توفيق) ودخل بين أعضائها وزيران أوربيان أحدهما انجليزى وهو سير ريفرس ويلسن وقد تولى وزاره المالية وثانيهما فرنسى وهو سير بلنير وقد تولى وزارة الأشغال ، وذلك بناء على

---

(١) عدد ٢٣ يناير ١٨٨٠ (مصر القاهرة) باريس .

الاتفاق الذى تم بين الخديوى إسماعيل والدولتين الانجليزية والفرنسية ، وكان مجلس الشورى قائماً فى ذلك الحين فتقدم باقتراحات إلى وزارة المالية لتخفيض الضرائب الفادحة وطلب المجلس حضور وزير المالية فلم يحضر فأرسل ملاحظاته على ذلك لوزارة الداخلية فلم ترد إجابة على المقترحات ، وطلب النواب الإجابة وألحوا فى الشكوى من الضرائب فرأى الوزيران الأوربيان وكان لهما الرأى الأول فى الوزارة ، أن بقاء مجلس شورى النواب يسبب لهما العقبات فاعتزما التخلص منه ووافقهما وزيرا الداخلية والحقانية (رياض باشا) ثم استقر رأى الوزارة كلها على حل المجلس بحجة أن مدة نيابته قد انتهت وهى ثلاث سنوات وأصدر مرسوم الحل ، هنالك قال عبد السلام المويلحى : أن المجلس طالب بعدم قطع أى أمر فى أى شيء كان إلا باشتراكه، وجرت بينه وبين رياض مناقشة حادة ، اشترك فيها محمد راضى الذى قال : الامر الصادر الآن ذكر فيه أن المجلس انتهت مدته مع انها ما انتهت وحاصل الأمر أنه لابد من عودة المجلس بعد المدة التى قررها لأجل رؤية تلك المسائل الملحوظات .

ورد عبد السلام فهمى على ما وجهه (رياض) فقال : من ضمن ما قلتموه أن أهالى مصر همج ، وأنه لا يوجد فيهم عشرة يفهمون ما يقال فى الجرانيل (الجرائد) مع أنه لا يصح نسبة جميع أهالى الوطن لهذه الحالة التى لا تليق » .

واتجه الرأى إلى إسقاط الوزارة الأوربية بعد أن فضت المجلس ، واجتمع النواب الأحرار فى بيت الشيخ البكرى نقيب الأشراف ثم فى منزل إسماعيل راغب رئيس مجلس النواب الأول على هيئة جمعية وطنية تضم صفوة أصحاب الرأى وطالبوا بإسقاط الوزارة وتأليف وزارة وطنية برئاسة محمد شريف ، كما طالبوا بتعديل نظام مجلس شورى النواب وتخويله السلطة المعترف بها للمجالس النيابية فى أوربا .

وقد أذعن الخديو إسماعيل للمطالب وكان ذلك انتصاراً للمجلس .

صحف عربية فى لندن و باريس

أصدر السوريون الموالون للاستعمار صحفاً متعددة خارج الوطن العربى خلال فترة ما قبل الاحتلال البريطانى لمصر ١٨٨٢ ، وقد صدرت هذه الصحف باللغة العربية فى لندن وباريس وكلها تحارب الدول العثمانية وتحمل عليها ومن هذه الصحف :

لويس صابونجى : جريدة النحلة . . . . (لندن) ١٨٧٠

لويس صابونجى ويوسف شلفون : جريدة النجاح . . . . . (لندن) ١٨٧١

يعقوب صنوع : أبو نضارة (زرقا) ، أبو زمارة ، أبو صفارة (باريس) ١٨٧٩ ، ١٨٨٠

أديب اسحق : جريدة مصر . . . . (باريس) ١٨٧٩

رزق الله حسون : مرآة الأحوال . . . . (لندن) ١٨٧٦

ويحاول رزق الله حسون أن يستدرج المصريين والعرب إلى الكتابة فى صحيفته فيتعهد بأنه لن ينشر أسمائهم على شريطة أن يطلموه هو عليها ، يقول :

مرآة الأحوال — بريطانيا ١٨٧٦ (رزق الله حسون)

« كل ما يرد من مطالعة مضمونها الانتقاد على سياسة أو حكومة محلية فإنها تندرج فى المرآة من دون أن يشعر باسم كاتبها إلا برغبة منه وليعلم أنه بمقتضى الحرية الإنكليزية الوارف على الدنيا ظلالها لا يطالب بما فى صحيفة وقائع إلا مديرها فلهذا تلق المراسلة بلا إمضاء يلتبس المعتمد عليهم بآخرين ، وكل رسالة ليست من مستهدفات مرآة الأحوال يغضى عنها » . والواضح أن أغلب الصحف التى صدرت فى لندن وباريس كانت ذات ولاء للنفوذ الأجنبى فى البلدين ، وقد استهدف أغلب هذه الصحف تمزيق وحدة الروابط القائمة فى هذه المنطقة وفق المخطط الذى رسمه الاستعمار لذلك فى مقدمة الاستيلاء عليها والقضاء على وحدة الفكر العربى الإسلامى .وقد وجدت الدعوات التغريبية وخاصة

الصهيونية مجالا ضخماً فى هذا المجال ، وقد عاون الصحفيون الشاميون فى العالم العربى كله نفوذ الاستعمار الفرنسى والانجليزى معاً ، سواء فى الصحافة المصرية أم فى صحافة طرابلس الغرب أو تونس أو الجزائر أو المغرب الأقصى ، والسودان وكلها كان لهم سبق الاشتراك فى أنشائها . ولهذا التيار إمتداد بعد الاحتلال البريطانى لمصر .

فقد أتاحت بريطانيا لرزق الله حسون إصدار جريدة « مرآة الأحوال فى لندن للتنديد بخصوم بريطانيا وهو فى نظر المؤرخين أعظم كاتب هاجم الدولة العثمانية وعمل على تمزيق وحدة العالم الإسلامى العربى فى هذه الفترة وعاون المستشرقين فى انجلترا وفرنسا ، وقد قاد معركة مقذعة ضد أحمد فارس الشدياق صادق صاحب جريدة الجوائب التى كانت لساناً للدولة العثمانية ، حتى أنه أصدر مجلة خاصة لهذا الغرض أسماها (رجوم وغساق إلى فارس الشدياق) يكتب ضد خصومه بلهجة قاسية ، ومن هؤلاء عبد القادر قبانى صاحب مجلة ثمرات الفنون البيروتية) .

أما لويس صابونجى ، فقد كان صاحب ولاء واضح لبريطانيا ، وكانت صحفه بها تحمل اتجاهها ومفاهيمها ، وفى صحفه النحلة ، وموسى الحلاقة ، والنجاح والخلافة حملات شديدة على ما أسماهم توفيق حبيب (خصوم الموارنة) = مجلة المستقبل (١٩١٤) . وهو الصحفى الوحيد الذى جمع فى هذه الفترة بين العلم والدين فهو قس ودكتور فى الفلسفة . وقد طاف العالم كله وتنقل بصحفه بين آسيا وأفريقيا وأوربا .

وقد أصدر صابونجى جريدة (الخلافة) فى لندن سنة ١٨٨١ وكان يطبعها على الحجر ، وينقد فيها العثمانيين ، وقد تبرع لها بعض المولين من الانجليز بعشرة آلاف جنيه . كما أصدر « الاتحاد العربى » عام ١٨٨١ فى لندن يدعو فيها العرب إلى الثورة على الدولة العثمانية ، كما أصدر جبرائيل عبد الله الحلبى للحكومة الفرنسية فى باريس جريدتى المشترى والصدى عام ١٨٦٧ لنفس الغرض .

وكانت هذه الصحف سبيلا من سبل الاستعمار فى الشرق ، إذ كانت ترسل إلى المستعمرات

الفرنسية والبلاد المحتلة لتؤيد وجهة نظر معينة وتخلق تياراً فكريا مضللا ، أما أبو نضارة المسمى (جيمس سانوا) فهو ليس شاميا ولكنه يهودى إيطالى ولد فى مصر وكان يصدر صحفه فى باريس بعد أن نفاه الخديو ، وقد أوقف صحفه على ذم إسماعيل ، وكان يكتب باللغة العامية وهو أول من حاول اتخاذها أسلوباً عاماً ، وقد وجه همه إلى الكاريكاتير والفكاهة والزجل وأدخل كلمات فرنسية وعربية عامية إلى كتاباته كقوله (دخلنا الرستوران وأكلنا بشمبانيه) وقد تردد أن جمال الدين الأفغانى كان يشجعه ، وقد قرأت نصاً لجمال الدين فى صحيفة مصر يشير فيه إليه إشارة الازدراء والاحتقار .

وقد عمل كثيرون من الشاميين المسيحيين فى أوربا منهم جبرائيل دلال وابن الشميل وخليل غانم ، وكانوا جميعاً أولياء للنفوذ الغربى بقسميه الفرنسى والبريطانى من أجل الخصومة مع على الدولة العثمانية التى كانت تقف فى طريق إستيلاء الاستعمار بعض أجزاء العالم العربى وتقسيمها . وقد أعانت هذه الحملات فعلا على تحقيق هذا الغرض .

وقد نشر محمد عبده مقالاته فى الأعداد الأولى للأهرام ١٨٧٦ كما نشرت مقالات فى صحف هذه الفترة باسم (مظهر بن وضاح) وهو اللقب الذى اختاره جمال الدين لنفسه ولم يكن الأفغانى يكتب ولكنه كان يملى ، ومن ذلك مقالاته (الحكومات الشرقية وأنواعها) وأهم مقالاته كانت فى الحملة على الإنجليز .

(١) الأهرام

وانطوت مرحلة ما قبل الاحتلال وبدأت مرحلة جديدة حافلة بالأحداث والتيارات الممددة بعيدة المدى ، فقد توقفت الأهرام بعد الاحتلال (١٠ يولية ١٨٨٢) حتى صدرت فى ٢٩ سبتمبر ١٨٨٢ حاملة على عرابى واصفة إياها « بالعاصى عرابى ورفاقه البغاة » مادحة سلطان باشا والجنرال ولسلى ، ثم لم تلبث الأهرام أن حددت موقفها من الاحتلال البريطانى فى ١٩ أغسطس ١٨٨٤ ثم صــدر الأمر العالى بتعطيلها وجاء فى أمر التعطيل « نظراً لأن جريدة الأهرام نشرت جملة مواد سياسية من شأنها خدش سلطة واعتبار الحكومة الخديوية ونظراً لأن العدد الصادر من هذه الجريدة فى ١١ أغسطس ١٨٨٤ نشر فيه مراسله من لندرة من هذا القبيل أشد طعنا مما سبق نشره ونظراً لأن نشر مثل هذه الجمل مع ما عليه من حالة القطر الحاضرة وحالة الأفـكار يعد مخلا للنظام العمومى تغلق الأهرام شهرا من تاريخ إعلان صاحبها » .

وكانت الأهرام قد إصطدمت بنفوذ الخديو إسماعيل بعد صدورها بسنوات قليلة ، فى إبريل ١٨٧٩ هاجمت الأهرام الخديو إسماعيل واتهمته بالاستبداد والإسراف وسرقة أموال الدولة ، وقالت إن الخديو إحتجز لنفسه بغير حق من أموال الفلاحين مائة ألف جنيه إسترلينى وكانت المراقبة الإدارية قد تقررت على مالية مصر ، وتعهد إسماعيل باشا بإرسال الأموال إلى خزانة المالية فحدث أن قطاراً حمل من طنطا إلى عابدين ٨٥ ألف جنيه فـكتبت (صدى الأهرام) فصلا بعنوان (ظلم الفلاح) : حملت على إسماعيل باشا حملة شديدة فاستاء إسماعيل وأرسل قوة من الجند أحاطت بالفندق للقبض على سليم تقلا ولـكن بشارة تقدم من المحاصرين فأخذوه فأمر إسماعيل بسجنه فى سجن مظلم فمكث ثلاثة أيام لا يدرى ما يحل به أما أخوه فقد استنفر قناصل الدول فسعوا عند الخديو .

قال له إسماعيل : إنك تـكتب ضد من توجد حياتك وموتك بيده ، فأجابه إنما نشر هو رأى حقير لا يستحق غضب أفنديها ولـكن إذا قطعه نبت رأسا أكبر ، قال : فغضب إسماعيل

لهذا الكلام وأمر بسجنى فأيقنت إنى مائت ولكن توفيق باشا على أثر ذلك اضطر الإخوين إلى الالتجاء لحماية فرنسا فنالاها ، ولما أثيرت المسألة المصرية سنة ٨١ سافر بشارة تقلا إلى الآستانة ومنها سافر إلى باريز ولندرة . وظل سليم وحده يصدر الأهرام يوميا وجاهد فى أوربا جهاداً حسنا وعاد سنة ١٨٨٢ فأنعم عليه الخديو بالرتبة الثانية .

فى الثورة العرابية حرقوا دار الأهرام فسافر إلى سوريا وعاد فأصدر الأهرام فى نشرة صغيرة على صفحة واحدة وفى سنة ١٨٩٢ قصد الآستانة وقابل السلطان الذى أدلى له بحديث عن مد السكة الحديدية من دمشق إلى المدينه ومن معان إلى العقبة وأنعم عليه بالباشوية .

وقد وسم سليم تقلا سياسة الأهرام بهذه العبارة « سلطة سنية وتابعة عثمانية ومصر للمصريين ورأى عام فى الشرق العثمانى » فلم يتحول عنها طوال حياته ، ولم يتحول عنها الأهرام بعدها ، ثم نقل بشارة إدارة الأهرام إلى القاهرة (٩٨ شارع الإسماعيلية) ثم أصدر البرامهد الفرنساوية وتوفى (١٥ يونيو ١٩٠١) .

* * *

وفى أوائل عام ١٨٨٩ صدر المقطم مواليا للنفوذ البريطانى ، ولم ينته العام حتى صدرت أولى الصحف الوطنية الكبرى « المؤيد » وكان صدورها هو رد الفعل على صدور المقطم . واستمر المؤيد أحد عشر عاما الصحيفة الوطنية الأولى والوحيدة فى مصر حتى صدرت اللواء عام ١٩٠٠ وتوالت الصحف .

الدستور : فريد وجدى . . . . (١٩٠٧ — ١٩١١)

الجريدة : لطفى السيد . . . . (١٩٠٧ — ١٩١٥)

المنبر : محمد الههياوى و أحمد حافظ عوض . . . . . (١٩٠٦ — ١٩٠٨)

النظام : محمدمسعود ١٩٠٩

وكانت سياسة الأهرام خلال فترة ما قبل الاحتلال ضد العرابيين فكان حزب

الخديو يوزع الأهرام خلسة بين الجنود . ولما دخل الإنجليز القاهرة عاد سليم من سوريا فاستأنف مع شقيقه إصدار الأهرام وأعطيا تعويضا قليلا فابتاعا مطبعة . وفى ١٨٨٤ سافر بشارة إلى لندن لحضور المؤتمر الخاص للتباحث فى المسألة المصرية .

وعطلت الحكومة جريدة الأهرام فى ٢٠ سبتمبر ١٨٨٤ بحجة أنها كتبت فصلا قالت فيه (إن حكومة مصر تخدم انجلترا دون مصر) . وقصد بشارة باريز وحمل وزارة خارجية فرنسا على تأييد مطالب الأهرام واعتذر نوبار لقنصل فرنسا . « هذه الحوادث التى حملت مؤسسة الأهرام إلى الاحتماء بدولة أجنبية فلولا هذه الحماية لم يبق عليهما إسماعيل وكانا يقولان أنهما يعضدان سياسة فرنسا لأنها الدولة الوحيدة التى نهضت للدفاع عن حقوق مصر .

وعرفت صداقة الأهرام للدولة العلية وقد سافر بشارة إلى الآستانة بعد محاكمة العرابيين وأعلن ولائه للسلطان .

وفى هذه الفترة استقدم أصحاب المقطم مجلتهم « المقتطف » فأصبحت تصدر من القاهرة منذ عام ١٨٨٦ ثم صدرت مجلة الهلال ١٨٩٢ وفى نفس الوقت ظهرت مجلات شهرية تحاول أن تنافس المجلتين وتأخذ نفس الطابع الشكلى مع الاختلاف فى المضمون .

(١) المنار « رشيد رضا » ١٨٩٩

(٢) الحياة « فريد وجدى » ١٨٩٩

(٣) الموسوعات « محمد فريد وحافظ عوض » ١٨٩٩

(٢) الطائف

وصف الثورة العرابية

فى خلال الثورة العرابية كانت هناك صحافة تهاجم الانجليز والخديو وتؤيد عرابى أبرزها « الطائف » التى كان يصدرها عبد الله نديم فى معسكرات القتال ، ومما يذكر له من عبارات الحماسة وإثارة المشاعر فى خطبه التى كان يلقيها فى التجمعات الشعبية قوله : إذ قذائف مدافع الإسكندرية تصل إلى قبرص من هذه الناحية ، وقذائف مدافع الآستانة تصل إليها من الناحية الأخرى ، فكلما جاءت المراكب الإنجليزية فهى تحت رحمة مدافعنا » وصفق له الناس . .

وكان أحمد سمير أحد محررى الطائف يصف المعارك الحربية فيقول :

فى[1] ليلة الأربعاء قام الهمام سعادة أحمد بك عبد الغفار ومعه ستون فارسا من العساكر ومائة من مشاة الحرب وكمن للعدو بجوار عزبة نوبار باشا وكانت قد توجهت أورطة على خط سكة الحديد خشية أن يكون للعدو هناك أرصاد أو طلائع وفى منتصف الساعة الثامنة من الليل ألقت العرب ثيابها وبقيت بألبستها وفاجأت العدو وكبسته وهو فى رباطه فأطلقت النيران من الجانبين ثم جاءت السوارى وهجمت من خلف العرب ففرت طليعة العدو وتركت الميدان وما زال هذا الهمام يتبعهم ونار البنادق تمطرهم حتى اختفوا خلف ربوة فى وسط سكة الرمل » .

وقد كان للثورة العرابية آثار ومعقبات فقد بلغ الذين حوكموا بعد محاكمة عرابى ونفيه أكثر من ثلاثين ألفا ، وقد جمع هذه المحاكمات سليم خليل نقاش فى كتابه « مصر للمصريين » فى ثلاثة آلاف صفحة منع صدور أجزاءها الثلاثة (الأول والثانى والثالث)

---

(١) الطائف — ١١ أغسطس ١٨٨٢ .

وسمح بالأجزاء الستة من الرابع إلى التاسع عام ١٨٨٤ ، أما الثلاثة الأول فبعد أن شرع في طبعها أوقفته الحكومة إذ ذاك عن نشرها وتحتوى تاريخ مصر منذ عهد محمد على وإبراهيم وعباس وسعيد وإسماعيل وتشتمل على وقائع مصر والسودان ، وقد ذكر إذ ذاك أن الرقابة وجدت فى ترجمة محمد على وإسماعيل ما يجب حذفه ، والوقائع الموجودة بالكتاب مستقاة من جريدته (المحروسة) .

ومما يذكر أن محمود سامى البارودى أحد زعماء الحركة العرابية قد قال مصوراً حركة العرابيين : لقد كنا نرمى منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية مثل سويسرا ولكنا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم . . .

(٢) العروة الوثقى

وكان من آثار الثورة العرابية أيضا نفى الشيخ محمد عبده الذى سافر إلى بيروت ومنها لحق بأستاذه جمال الدين الأفغانى فى باريس وأصدرا معا العروة الوثقى عام ١٨٨٤ ، هذه الصحيفة التى أصدرت ثمانية عشر عدداً ولم تسكمل العام وكان لأعدادها دوى وأثر من ناحيتين : من ناحية الصياغة الأدبية ومن ناحية المضمون . وقد صادرتها بريطانيا فى كل مكان وصل إليها نفوذها ، كما منعت فى مصر بلاد الدولة العثمانية ، ومع ذلك فقد نفذت إليهما ونسخها الكثيرون وتتلمذوا عليها أمثال رشيد رضا وعبد القادر المغربى .

وفى مصر قرر مجلس النظار فى جلسة يوم ٢١ يوليو ١٨٨٤ منع دخول جريدة العروة الوثقى إلى القطر المصرى بحجة أنها مهيجة للأفكار ، ولما كانت إدارة البريد الفرنسى لا يمكنها منع إرسال الجريدة المذكورة من باريس إلا بأمر خاص من الحكومة الفرنسية فقد خابرت الحكومة المصرية الحكومة الفرنسية فى ذلك . وكان جمال الدين الأفغانى منذ عام ١٨٨٣ يكتب فى صحف أوربا ومن كلماته هذه الكلمة بعنوان :

(الحق والباطل أو نتائج سياسة الإنجليز فى مصر)

للعلامة العامل والفيلسوف الكامل جمال الدين الحسينى الأفغانى نشرها البصير (باريس) نيسان (إبريل) ١٨٨٣ . قد طبعت ترجمة هذه المقالة فى جريدة الجوستيس الفرنسية وهى أهم الجرائد الراديكالية فى فرانسا ونقلها منها بعض جرائد باريس ونشر قسم منها فى الستندرد والديلى تلغراف والديلى نيوز وهى من أعظم الجرائد الإنكليزية وفى النيو فرى برس أشهر جرائد النمسا .

يقول « ما أختلف رأيان فى أمر إلا كان أحدهما حقا والآخر باطلا ، إن الحق أوسع الأشياء تواضعا وأجلاها برهانا وأوضحها بيانا ، ولقد صنف الحكماء فيه كثيرا وبينوا سننه ، وذكروا شواهده وقسموه إلى أقسامه ، من حقوق الملك والدول والرعاة والرعايا وشرحوا فى مصنفاتهم إن الحق قوام الاجتماعات الإنسانية منزلية كانت أو مدنية ، وأن مدة دوام الاجتماعات وبقاء الدول بمقدار دوام الحق فيها وبقائه لأن الحق يحصل التكافؤ بين القوى

المجتمعة لاكتساب الأمنية والسعادة اللتين هما غاية سير الأمم فى حياتهم ، فإذا حصل الانحراف عنه زال التكافؤ فاضمحل الاجتماع ووقفت الأمم دون بلوغ غايتها .

انظر إلى الحزب الحر فى الحكومة الإنجليزية كيف كانوا يحامون عن حرية الأمم ويحثون الدول على إطلاق ربق العبودية عن الشعوب ويدافعون عن الإيرلنديين ويجاهرون بذمائم الحزب المحافظ ويذكرون شنائع أعمالهم فى حرصهم على الفتوحات ، وكانوا ينددون على دزرائيلى فى إقدامه على حرب الأفغانيين قائلين له أن سير على خان حر فى بلاده له أن يقبل سفير الروس ويرفض سفير الإنكليز وليس لأحد أن يعارضه فى أمره هذا .

وأعجب من هذا أن المصريين بأجمعهم ولا أستثنى منهم أحداً أرادوا أن يضعوا فى بلادهم أساس الحرية بتشكيل مجلس النواب تخلصا من ربقة الاستبداد الذى كان يستجلب الوبال على المستبد ومن استبد عليه كليهما وخروجا من مضيق العبودية التى نشأت من الإيثار والاستيثار بلا ملاحظة المنافع والمضار ، وطلبا للانخراط فى سلك الأمم المتمدنة رجاء أن يحظوا من السعادة بما حظيت به الأمم . لما رأى الغرب ميل المصريين إلى الحرية وسيرهم إليها وسعيهم فى طلب أسبابها ما ونو أن واجهوهم بالرد وعارضوهم بالعنف ودافعوا هم عن الوصول إليها وأوجبوا الشقاق بين الراعى والرعية » أ هـ .

(٤) المقطم

فى ١٤ فبراير ١٨٨٩ صدرت المقطم وغرضها ما أسمته « تأييد السياسة الإنجليزية التى لولاها ما كان فى الشرق بلد يستطيع أن يعيش فيه ويجاهر بآرائه وأقواله » .

وقد اتخذ الثلاثة (صروف ونمر ومكاريوس) دكانا صغيرا فى شارع أولاد عنان وسموه (دار المقتطف) وكان شرط كرومر عليهم : لا ترجو باسم الوكالة البريطانية إذا أخطأتم فقدمتم للقضاء ، ثم توهمون الناس بأنكم إنما تدافعون عن الاحتلال البريطانى للاحسان إلى مصر . ثم لكم بعد ذلك من الأموال ما تشاءون . وفى تقدير الباحثين والمؤرخين أن جريدة الأهرام تحولت ١٨٨٤ إلى جانب الشعب ، وكتب فيها مصطفى كامل ، هنالك أصدر الاحتلال صحيفة تحمل لواء دعوته فكانت « المقطم » ، فلم يلبث أن واجه الوطنيون التحدى باصدار المؤيد فى نفس العام ، فلما تحول المؤيد إلى صف الخديو أصدر الوطنيون اللواء عام ١٩٠٠ وقد كتب فارس نمر فصلا صور فيه مدى ثقل المهمة التى قام بها المقطم وذلك بعد نيف وأربعين عاما من إصدار المقطم ،قال : بعد الهجرة إلى مصر[١] فتحنا مطبعة كاملة العدة لطبع المقتطف وطبع ما يأتينا من الخارج لنستعين به على شد نفقاتنا ونفقاته ، وكانت عواقب الحوادث العرابية قد أوقعت مصر فى أزمة مالية ظلت تئن من عسرها أعواما فلم يرد على المطبعة مطبوعات تسد الربح منها الحاجة أو تكفى لإدارة المطبعة فأنشأ المرحوم شاهين مكاريوس « اللطائف » وكنا نحرر لها الفصول التاريخية والمواضيع السهلة الطلية رجاء أن تروج بين العامة وتساعد على إدارة المطبعة ، فلم يأت ذلك بالفائدة المرجوة ، ولذلك خطر لبعضنا أن نصدر جريدة أسبوعية لنشر الأخبار المحلية ومقتطفات سياسية عمومية فعارضت فى ذلك كراهة الاشتغال بغير العلم ، وتخوفا من الدخول فى مآزق السياسة حتى اشتدت

---

(١) ذكريات فارس نمر — المقتطف (مايو ١٩٣٦) .

الحاجة إلى تدبير عمل كاف للمطبعة وجعلنا نفكر إما فى إصدار جريدة أسبوعية أو المهاجرة إلى الولايات المتحدة كما كان قد خطر لنا قبل الهجرة إلى الديار المصرية .

ثم تغلب رأى شريكى على رأى وأزمعنا إصدار جريدة إخبارية أسبوعية تكفى مع المقتطف لإدارة حركة المطبعة وتثمير رأس المال ، وبينما نحن نستعد لذلك شاء القدر أن يتصدى لنا من استخف بعزة أنفسنا واستفزنا إلى استبدال الجريدة الأسبوعية بجريدة يومية رغما عنا ، وسبحان من قسم الحظوظ ، فقد قسم لى أن أحمل أعباء هذه الجريدة اليومية وأفقد راحتى ولذتى وما تميل إليه فطرتى ومن الاشتغال بالعلم ، وبرز المقتطف رجاء أن يكون دخل الجريدة اليومية عونا لنا على إدامة المقتطف وانقطع زميلى إلى تحريره من كل عمل سواه ، ولا أتعرض هنا لذكر شىء مما لقيت من جراء الاشتغال بالسياسة وخوض معاركها على مبدأ الاشتغال بالعلم فى قول الصدق والانتصار للحق ، لا يثنينى عنه إرهاب بوعيد ولا وعود عال ورتب ونياشين وما قاسيت من المتاعب التى كثيرا ما غادرتنى أقضى الليالى وأنا أتقلب فى فراش الهموم من تعاقب الاضطهاد تلو الاضطهاد بسبب الدسائس التى تحاك لى فى الظلام وأن أكتم خبرها فى أعماق صدرى مخافة أن يدرى بها شريكاى فيضطربا فلا يستطيع أحدهما متابعة الدرس والمطالعة وتحرير المقتطف بما يفيض ذلك من راحة البال وصفاء الذهن ، ولا يستطيع شريكى الآخر القيام بأشغال المطبعة والجريدة والمجلة بما يقتضى من الأمن والاطمئنان ، وإذاً قلقا قلقى واضطربا اضطرابى بارت الأشغال وساءت حالة العمل والعمال ، ولذلك بلغ منى أنى كنت أتلقى أخبار الحكم على بالإعدام من الناقمين على بسبب سياسة المقطم وأنا صامت حتى ألفت الصبر على المكايد ولم أعد أعبأ بتلك الأحكام بعد ما تكررت على ثلاثا بالإعدام وهى لا تزال محفوظة بين أوراق ليقرأها من تقع إليه بعدى ويترحم على مصدريها كما أترحم أنا عليهم اليوم بعد

ما بلغت من العمر عتيا ولم يبق أحد منهم حياً فبعضهم مات حتف أنفه وبعضهم مات غيلة أو بإنفاذ حكم الإعدام عليه . . »

* * *

وقد نظم الشاعر أحمد شوقى فى وصف المقطم عجالة نشرتها المؤيد (٢٦ سبتمبر ١٨٩٥) جاءت على هذا النحو :

زعـــم المقطـــم أنه يشنىء وينشر فلسفه

صــــدق المقطم ياله من فيلسوف فى السفه

وقد كان أصحاب المقطم بجاه كرومر والاستعمار يهاجمون الحركة الوطنية ويهاجمون الخديو عباس ، وقد حاول عباس الإنعام على فارس نمر برتبة الباشوية فرفض .

(٥) المؤيد

ظهر المؤيد قبل نهاية العام الذى صدر فيه المقطم وقد توالى صدور المؤيد منذ ١٨٨٩ حتى توقف عام ١٩١٥ (وكان الشيخ على يوسف قد تركه عام ١٩١٢ وتوفى فى ٢٥ أكتوبر ١٩١٣) وقد أنقذه سعد زغلول من الحجز حين اختلف مع شريكه أحمد ماضى ثم إتخذه الخديو عباس لساناً لسياسته من بعد، وأعطاه أربعة آلاف جنيه فاشترى ماكينة طباعة رأس كبرى عام ١٩٠٦، هى أول ماكينة روتانيف تطبع ١٢ ألف نسخة فى الساعة. وقد قام على تحريره بعد صاحبه (على يوسف) على التوالى: سيد كامل، وحافظ عوض ومحمد أبو شادى وحامد إبراهيم أول من قال بتقديم الفاتورة للانجليز بعد الحرب.

وكان تقرب على يوسف من رياض باشا فاتحة نجاحه وما زال يحوم حول الوزراء والحكام حتى عام ١٩١٢ حين تولى أعلى سلطة صوفية وكانت له الكلمة الأولى فى أعلى الجهات «وقد لبس الشيخ لكل زمن لبوسه واتخذ حيال كل ذى سلطة من الوسائل والحالات ما يؤدى لنجاح خطته على يديه بحكمة وحصافة».

وقد وصف الخديو عباس جريدة المؤيد فى مذكراته(١) فقال: كان المؤيد فى الواقع يحفل بالمقالات العظيمة، بأسلوبها البارع وأفكارها العميقة، وكان الشيخ (على يوسف) بأسلوبه اللاذع وبلاغته التى لا تغيض وعاطفته التى كان يطامن من غلوائها لحسن الحظ فلسفة إنسانية فائقة، قد غدا بفضل اتصاله اليومى بالشخصيات البارزة متقدما فى كل علم وفن وكان يتحدث إلىالقراء عن مسائل تستثير مخيلاتهم.»

وقد صورت الأهرام موقف «المؤيد» فى الحركة الوطنية — يوم وفاة الشيخ على يوسف(٢) فقالت: سار المؤيد بين عثرة من قلم المطبوعات وعسر مالى، ولكن عين المغفور له رياض باشا ظلت ترمقه وتقيه العثرات إلى أن اشتد ساعده وكثر إقبال

(١) المصرى: مايو ١٩٥١.
(٢) الأهرام — ٢٥ أكتوبر ١٩٣١.

الأمة عليه بعد نشره تلغرافاً عن الحملة السودانية بقيادة اللورد كتشنر وصل إليه خلسة من فتى قبطى فأقامت عليه الحكومة قضية برىء منها ، وكانت هذه القصة عرضاً للشعب ليقبل على المؤيد ، وتلا ذلك نشوب الحرب بين الدولة العلية واليونان ، فأوعز رياض باشا إلى الشيخ على بفتح باب الاكتتاب فى جريدته لإعانة التأسيسات العسكرية العثمانية ولإعانة المسلمين الكريديين وترأس دولته ذلك الاكتتاب ، ونمت الحركة الوطنية وقتئذ نموها الكبير فصار المؤيد معرضاً لأفكار الكتاب وآراء العظماء ومن الوطنيين إلى أن أنشأ المرحوم مصطفى كامل جريدة اللواء ، فانشطرت القوة شطرين ، كان أكثرها إلى جانب مصطفى كامل ، ولكن المؤيد ظل مجاهدا فى سبيله ، ولما ألف مصطفى كامل (الحزب الوطنى) ألف الشيخ على حزب (الإصلاح على المبادىء الدستورية) لتظل له الزعامة وفى مناهضته للحزب الوطنى أكبر دليل على ثباته وعزمه وصبره ، وقد نعاه المقطم فقال : شق علينا نعى هذا الرصيف الهمام . . . بعد ما قضينا أحسن سنى العمر جميعاً فى جهاد عظيم ، وصدام سياسى مستديم حتى قيض الله للجميع الاتفاق على مراعاة أحوال معلومة ومبادىء سياسية مفهومة » ، والمقطم يقصد بهذه العبارة الإشارة إلى اتجاه المؤيد حين اختار السير فى نفس خط المقطم فى تأييد السياسة البريطانية فى مصر بعد إنعقاد الاتفاق الودى بين الخديوى عباس وممثل بريطانيا فى مصر « الدون فورست » .

(٦) اللواء

ظهر اللواء (أول يناير ١٩٠٠) لحمل لواء الحركة الوطنية على نحو يختلف مما كان من اتجاه المؤيد . إتسم طابع اللواء بالحماسة الخطابية والإصرار على خصومة الانجليز دون أن ترتبط هذه الخصومة بعلاقة الخديو عباس ، وفى نفس الوقت الذى تحول فيه الخديوى عن الحركة الوطنية بقى اللواء على خطته ، وعندما قضى مصطفى كامل أختير الشيخ عبد العزيز جاويش رئيسا لتحريره فكانت أقوى مراحل الجهاد الصحفى فى مقاومة النفوذ الانجليزى فى مصر . ولا عبرة بما يذكره بعض الكتاب من إعتماد اللواء على موارد يلدز وعابدين ، فقد كانت الأهرام تعتمد على الفرنسيين وكان المقطم يعتمد على البريطانيين والمؤيد يعتمد على عابدين .

ذلك أن الصحف يومها لم تكن من القدرة بحيث تستطيع الاعتماد على مصادرها ، وكانت تابعة لجهات أو موالية لها وواضحة فى تأييد موقف هذه الجهات ، ولعل اللواء هو أول جريدة لم يكن لها اعتماد على جهة ذات نفوذ واضحة التأثير فى سياسته ، أو أنه لم يضع نفسه تحت ضغط جهات تفرض عليه سياسة تختلف مع هدفه الأساسى الذى رسمه لنفسه ، فقد كان الخديو عباس يؤيده فى أول المراحل فلما تحول الخديو سنة ١٩٠٤ لم يتحول اللواء كما تحول المؤيد ، ثم وانقطعت مؤازرة يلدز بعد عام ١٩٠٨ ومع ذلك فإن اللواء لم يتحول عن خطته السياسية ، والواقع أنه إنما كان يعتمد فى مصادره على سراة المصريين الذين يؤيدون سياسته وفى مقدمتهم المرحوم محمد فريد الذى كان ينهض بأضخم جوانب هذه الأعباء .

٧ـ (الجريدة)

وصدرت الجريدة عام ١٩٠٧ وأعلنت عن هدفها واضحاً وهو « تحقيق الأمانى الوطنية باتفاق يتم بين الاحتلال وبين الأعيان المصريين ـ وحدهم ـ باعتبارهم أصحاب المصالح الحقيقية » وقد كشف لطفى السيد عن مفهوم الأمة عنده حين قال : « إن الأمة لا تتكون من الأفراد وإنما تتكون من العائلات والأعيان هم رؤساء الأمة الطبيعيون لأنهم رؤساء العائلات وان السبيل إلى تحقيق مطالب الأمة ، هى الطرق السلمية المشروعة التى لا تمس مصالح الأجانب ولا تجعل للانجليز ذريعة جديدة لتثبيت مركزهم فى مصر ، أما التطرف من جانب الجمهور فإنه يؤدى إلى العناد والقسوة من جانب الاحتلال القوى ، وإننا نظلم الانجليز إذا لم نعترف بالتحسن المادى والإدارى الذى وصل إلى مصر فى عهد الاحتلال» .

ثم ظهرت صحيفة « الظاهر » لمحررها محمد أبو شادى وحملت على الشيخ محمد عبده بمناسبة فتواه بأكل لحوم المنخنقة وأقذعت فى هجاء الشيخ وطالبت بعزله ، كما تولى مهاجمة الشيخ بمقالات على درجة كبيرة من الاقذاع ، الصحفى الأفاق « محمد الشربتلى » ، يقول الشيخ رشيد رضا ان كل الصحف قد ردت على الظاهر ودافعت عن الشيخ عبده ما عدا « اللواء » .

ثم ظهرت صحيفة « المنبر » لمحرريها : أحمد حافظ عوض ومحمد مسعود وتابعت سياسة عابدين .

وظهرت مصباح الشرق لإبراهيم المويلحى (١٤ أبريل ١٨٨٨) وكانت موالية للسلطان عبد الحميد ، وقد نشرت مقالات فياضة فى هذا دعم هذا الولاء .

وكانت تنشر خبر تنقلات صاحبها على هذا النحو :

« حضر صاحب هذه الجريدة من سفره إلى دار السعادة بعد أن حاز جميل الانعطاف السلطانى ونال جزيل الانعام الشاهانى وكيف للقلم واللسان أن ينطلقا بشكر بعض هذه المنن المتوالية والنعم المترادفة » وكان يقدم رسائل أبو الهدى الصيادى بقوله : رسالة طلعت علينا من أفق المشرق لعظيم من عظماء الإسلام[1] .

---

(١) ٢٢ يولية ١٨٩٩ .

- ٢ -

دخائل الصحافة

(١) الهلال — جرجى زيدان م ٧ ١٩٠ و م ١٩١٠ .
(٢) مصر الحديثة المصورة (١٩٢٩ — ١٩٣٢) .
(٣) مجلة كل شيء : لعدد من الأدباء (١٩٢٩ — ١٩٣٠) .
(٤) مجلة الجامعة (محمود كامل المحامى) مجلد سنة ١٩٣٢ .

يرى عديد ممن كتبوا فصولا ومقالات عن الصحافة فى هذه الفترة ، أن الصحافة الشرقية وضعت فى الأصل لخدمة أغراض الحكومة أو موظفيها وأن أرباب الصحف كانوا يستعينون على نشر جرائدهم بنفوذ الحكومة ، وكانت الحكومة تشترك بمئات النسخ ، وكان بعض الوزراء يزود وكلاء الجرائد بكتب التوصية للمديرية تأمرهم بمساعدة تلك الجرائد ، وكانت الجرائد آلة فى يد الحكام تسبح باسمهم ، وتترنم بأعمالهم ، وكانت الصحف فى عهد إسماعيل تقضى بإبعاد الوطنيين وتقريب الأجانب ولم تكن الجرائد تصرح بهذا الغرض إما تزلفا إلى إسماعيل أو خوفا من عصاه . وأشار جرجى زيدان إلى ما أصاب صاحب الأهرام وكيف كان حاله لو لم تنصره دولة أجنبية (يقصد فرنسا) .

فلما بدأ العرابيون حركتهم أنشأوا عدة جرائد للدفاع عن سياستهم أشهرها جريدة التنكيت التى سماها عرابى (لسان الأمة) وجريدة الحجاز والزمان والطائف وغيرها واتجهت الحكومة إلى إيقاف هذا التيار وتقييد الأقوال ، فسنت قانونا للمطبوعات عام ١٨٨١ يقضى أنه لا يحق للمطابع نشر كتاب ما ، قبل الإذن بطبعه من قلم المطبوعات .

وما أن مرت فترة قليلة بعد الاحتلال حتى أطلق للصحافة العنان وسمح بإصدار الصحف فصدرت صحف كثيرة وكانت الصحف فى هذه الفترة تعيش فى أزقة ومنحنيات ولها ما كينات تدار باليد .

وكان راتب أعظم محرر يتراوح بين خمسة جنيهات إلى ثمانية ، والأغلبية المطلقة للصحفيين كانت من السوريين واللبنانيين ثم كثر عدد الجرائد والمجلات ، واحترف الصحافة كل من لاصناعة له ولا حرفة ، وصارت الصحافة «مودة» وملهاة لأبناء الأغنياء والأعيان ينشرونها لمجرد التسلية ، ولكنها لم تجد سوقا فأقفلها أصحابها . أما الأغلبية الساحقة من أصحاب الصحف فى ذلك الحين ، فكانت جماعة ممن لاعمل لهم « يتخذونها وسيلة لابتزاز الأموال بالطعن على العمد والأعيان والتدخل فى شؤنهم الخاصة بعبارات سمجة جافة » ولما كان أغلب أصحاب الصحف بعيدين عن هذه الصناعة فقد استخدموا جماعة من الكتاب والمحررين ، وكان بعضهم يكتب إلى ثلاث أو أربع جرائد أسبوعية ، وكانوا يكتبون صحفهم فى الأندية العمومية والقهوات وكان معظمهم يجلسون فى قهوات ميدان باب الخلق والعتبة الخضراء ، وعمارة متاتيا ، وميدان الخازندار . وفى هذه الأندية كانوا يكتبون الغلافات (غلاف الصحف الذى يرسل به فى البريد وعليه العنوان حيث لم تكن الصحف كلها توزع مع الباعة) ويحاسبون وكلائهم ومحصليهم ويسارمون الذين يريدون الطعن فيهم ومن يريدون الدفاع عن أنفسهم ؛ وممن اشتهروا فى هذه المرحلة :

(١) الشيخ الشربتلى ، يكتب فى جريدة (النهج القويم) ويكتب لصحف متعارضة ومختلفة فى المبدأ والمذهب .

(٢) محمد توفيق صاحب (حمارة منيتى) وقد اشتهر بقدرته على التنكيت والإضحاك وقد سبق غيره من الكتاب إلى فن البارودى (المسخ) وتقليد عبد الله نديم فى تدوين المحادثات البلدية ، وقد بلغ عدد ما يطبع من حمارة منيتى عشرة آلاف نسخة ، وامتاز صاحب الحمارة على زملائه بأنه لم يكن يتحدى غير أصحاب الشخصيات البارزة وقد أسرف فى الطعن على الشيخ محمد عبده وصوره صورا قبيحة منكرة فحوكم وحكم بسجنه .

(٣) الشيخ النجار صاحب الأرغول ، اشتهر بنظم الزجل البديع بلغة عامية عذبة متضمنة نكتا بديعة رقيقة .

٢ — وكان عماد موارد الصحافة إلى ما قبل ثلاثين سنة قائما على الاشتراكات لضعف موارد البيع والإعلانات ، والاشتراكات كانت عادة تدفع مؤخرا ، ولكل جريدة سجل حافل بأسماء المشتركين وما فى ذمتهم من متأخرات تربو أحيانا على ألوف الجنيهات يقبل صاحب الجريدة بيعها بالمئات .

ولكل صحيفة وكيل يتجول فى منطقة معينة من البلاد فيختص أحدهم بمديرية أو مديريات مجاورة ينتقل من قرية إلى قرية مطالبا بالاشتراكات ناشرا مقالات المدح والثناء على المديرين والمأمورين ورؤساء المحاكم ومعاونى الضبط مشهرين بهذا أو ذاك من العمد والأعيان « جرا لمغنم أو إرضاء لشهوة فرد أو جماعة ، وقد بلغ من (شطارة) بعض وكلاء المقطم فى الأقاليم أنهم كانوا يوهمون العمد والأعيان أن مجرد الاشتراك فى المقطم يجعلهم « حماية انجليزى » وما عليهم لإثبات ذلك إلا الاحتفاظ بغلاف الجريدة المطبوع عليه اسم المشترك وإبرازه لرجال الحكومة وغيرهم وقت التوزيع » .

ويقول جرجى زيدان أن الصحف إنقسمت بعد الاحتلال إلى أقسام تحزب بعضها للدولة العثمانية على الإنجليز والبعض الآخر لفرنسا على الإنجليز ، وأول صحيفة ناصرت الإنجليز هى «الزمان» لصاحبها (علكسان سرافيان) ، ثم المقطم فامتعض الوطنيون منها فأنشأوا جريدة المؤيد ، وأن ظهور المؤيد كان خطوة كبيرة فى الصحافة لأنها أولى الجرائد الوطنية الكبرى ، وقال جرجى زيدان (فى مقال له عام ١٩١٠) أما بقاؤها إلى الآن - أى المؤيد - وما نالته من الشهرة ونفوذ الكلمة فإنه راجع إلى أقتدار صاحبها وثباته ، وما لم يذكره جرجى زيدان إن إفلن بارنج (اللورد كرومر) قد اتصل به أصحاب المقطم عام ١٨٨٨ وأنه مهد لهم الطريق لإنشاء جريدة يومية ، صدرت عام ١٨٨٩ ، وقد أوعز مصطفى رياض (المعروف رياض باشا) إلى الشيخ على يوسف فأصدر المؤيد بعد ظهور المقطم بستة أشهر فلما اشتد الخلاف بين عباس واللورد كرومر ١٨٩٢ اتخذت المعية جريدة المؤيد لسانا لحال الخديو .

* * *

٣ — صدرت بين ١٨٢٩ - ١٨٩٢ نحواً من ١٥٠ جريدة بين سياسية وعلمية وطبية وحقوقية وأدبية لم يبق منها حيا حتى عام ١٩١٠ إلا ثلث هذا العدد .

ويقول جرجى زيدان : بلغت الصحافة منذ ١٨٨٢ ما لم يبلغه غيرها ، وسبقت سائر الأمصار العربية ، فقد انحطت الصحافة فى سوريا قبل إعلان الدستور (١٩٠٨) فأصبحت مصر محط رحل أرباب الأقلام وعشاق الحريه وطلاب الرزق ، ونحن نرى أن حرية الصحافة هذه كانت أسلوبا من أساليب كرومر فى التنفيس بالكلمة ، وفى نفس الوقت فتح الطريق لكتابات السوريين للطعن على سياسة السلطان عبد الحميد خصم بريطانيا وفق خطة مرسومة تهدف إلى تمزيق الدولة العثمانية ، والسيطرة على مختلف الأقطار التابعة لها .

ويقول جرجى زيدان إن الفترة من تولى عباس ١٨٩٢ إلى ظهور اللواء ١٩٠٠ تمثل دوراً مستقلا من أدوار الصحافة ويرى أنه خلال هذه الفترة نضج المقطم والمؤيد واشتد ساعداها ، وحمى وطيس الجدل بينهما ، وأهمل قانون المطبوعات فأطلقت حرية الصحافة وتكاثر ظهور الجرائد الأسبوعية ، وأن الأهرام ثبتت فى خطتها (أى مؤازره وجهة نظر فرنسا) ، كما تنبهت الطائفة القبطية فى أثناء ذلك إلى الصحافة ، فأعادت جريدة الوطن وكانت قد توقفت ، وصدرت جريدة مصر وهى أكبر الجرائد القبطية ، ويرى جرجى زيدان أنها على الإجمال كانت احتلالية الخطة (وهى غير جريدة مصر التى كان يصدرها أديب إسحاق وسليم النقاش من قبل) .

ويحصى جرجى زيدان ما صدر من الصحف ١٨٩٢ — ١٩٠٠ فيقول إنه بلغ فى العالم العربى ١٥٠ صحيفة منها ٨٩ صحيفة فى مصر وحدها ، وقال إن أسباب كثرتها إطلاق سراح المطبوعات « فأصبح الكاتب لا يسأل عما يكتب ولا حرج على الناس فى إصدار الصحف » .

وقد كثر فى هذه الفترة تحدث الصحف عن العرش العثمانى والخلافة الإسلامية لا سيما بعد انتصار

الدولة العثمانية على اليونان ، ولما أعلن الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ « تملقت آمال المصريين بقرب نيله لأنفسهم وأخذوا يجاهدون لطلبه » فلما تولى بطرس غالى الوزارة أراد أن يخفف لهجة الصحافة الوطنية فأعاد قانون المطبوعات .

وكانت الصحف فى هذه الفترة تتضمن : الإفتاحية ، بريد أوربا ، بريد الاستانة العلية ، أخبار دواوين الحكومة والقضاء ، رسائل مكاتبى الأقاليم ، وكانت تحوى مدح شيخ الخفراء ، أو شكوى من قلة المياه ، أو هجاء فى أقلام كتاب المحكمة . أما المحليات فكانت تنشر دون عنوان ، والتلغرافات كانت قليلة مختصرة . وكانت تضم مقالات لعدد من الصحافيين . وكان يعمل بها : (المحرر) للمقالة والإفتتاحية و (المترجم) لترجمة بريد أوربا (المخبر ، والمراسل) لأخبار دواوين الحكومة والمحاكم (المصحح) لمراجعة التجارب (البروفات)[1] .

* * *

٣ — وبدأت فى هذه المرحلة حملة على الصحف المنحرفة والضالة وقد استغل النفوذ الاستعمارى هذه الحملة لتوجيهها ضد الصحف الوطنية فقد هاجمت (مصباح الشرق عام ١٨٩٨ ما اسمته (الجرائد الساقطة) قالت : لا تزال هذه الجرائد الساقطة الهاوية تهوى من مهاوى الدناءة إلى حضيض العدم ، وأصحابها يسحبون من ضيق الحياة إلى ضيق السجون جزاء ما يسحبون فيه من أقذار التعرض للناس بالأفك والبهتان وأوضار الشتائم والسباب صناعة اتخذوها لأكل العيش مغموساً بماء حيائهم ، ووقاحة وجوههم ولعل تواتر صدور الأحكام من المحاكم عليهم وتشديد العقاب سد فى أوجههم هذا الباب » .

---

(١) ألقى « يعقوب أرتين » خطاباً إحصائياً من الصحافة المصرية فى المجمع العلمى المصرى عام ١٩٠٥ جاء به إن الصحف عام ١٨٨٩ = كانت ٢٣ جريدة ومجلة وعام ١٩٠٤ = ١٧٦ جريدة ومجلة منها ١١٨ عربية (١١ عربية يومية) ٥٥ عربية أسبوعية ، ٣٠ عربية شهرية ، ١٩ عربية نصف شهرية منها ١٣٣ جريدة فى القاهرة . وأبرز صحف القاهرة : الأهرام ، الجوائب ، اللواء ، المؤيد ، المقطم ، الوطن ، مصر ، الظاهر .

وقد أوردت مصباح الشرق هذا التعليق إشارة إلى حكم محكمة السيدة زينب الجزئية (١١ يولية ١٨٩٨) بحبس حسين شاكر صاحب جريدة الطالب مدة شهرين وبغرامة قدرها ألف قرش .

* * *

ومن هذه النماذج قضية الشيخ محمد عبده على أصحاب جريدة : النهج القويم والشيخ سليمان العبد كما ترويها (مصباح الشرق ٧ يوليو ١٨٩٨ :)

قدم حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبده بلاغا إلى النيابة العمومية بأن أصحاب جريدة النهج القويم نشروا فى جريدتهم مقالة تحت عنوان (أدوار الأزهر) تضمنت طعناً شديداً فى حقه ، وقد اعتنت النيابة بهذا الأمر وابتدأت فى صباح ذلك اليوم لتحقيق الدعوى بمركز محكمة السيدة زينب الجزئية ، فاستحضرت الشيخ محمد الشربينى والشيخ محمد الخيمى بصفتهما متهمين ومحمد القليوبى وإراهيم سعد ومحمد حسان شهوداً .

سئل الشيخ محمد الشربينى : عما إذا كان رأى فى المقال تغييراً عن الأصل الذى كتبه فأجاب بالسلب إلا ما كان من بعض الخطأ المطبعى . ثم سئل عن حضور الشيخ سليمان العبد هل كان صباحاً أم مساء وهل كان يتردد على المطبعة وإدارة الجريدة قبل الآن، فأجاب بأن حضوره كان فى الساعة التاسعة قبل الظهر تقريباً وأنه لم يسبق له تردد عليهم إلا حينما كانت المطبعة بشارع محمد على ، فلما انتقلت إلى محلها الحالى حضر إليهم مرتين الأولى ليقص عليهم ما كتبوا المقالة فى موضوعه ، والثانية ليقدم لهم الشكر على نشر هذه المقالة وكان معه فى هذه المرة الشيخ حمزة فتح الله وشيخ آخر .

س : هل سبق أن كلفكم بنشر شىء فى الجريدة .

ج : لا

س : قلت الآن أن الشيخ سليمان العبد أتاك متشكرا على نشر ما قصه عليك

فنى أى يوم كان ذلك وهل كان معه أحد وهل كان أحد حاضراً وقت مجيئه .

ج : كان معه الشيخ حمزة فتح الله وكنت أنا موجوداً ومعى القليوبى رئيس جمعية المطبعة وعلى ما أظن جاء قبل الظهر من اليوم الخامس أو السادس بعد العيد ولم يجلس بل ظل هو ومن معه واقفين .

* * *

وهذه القصة كما ترويها جريدة مصباح الشرق : « كانت النيابة العمومية قد اتهمت صاحب النهج القويم : الشيخ محمد الشربينى عن المقالة التى نشرها فى جريدته عدد ٢٤٩ الصادر فى شهر الحجة ١٣١٥ الماضى ونسب فيها لحضرة الأستاذ الشيخ محمد عبده مطاعن تتعلق بأعماله فى الأزهر مثل تمزيقه للكتب التى كانت فى أيدى الأساتذة الذين يتلقون الدروس فيها وكذلك الإدعاء بأنه سبهم وأمر المشرفين باهانتهم ونحو ذلك من الأباطيل التى جاءت فى تلك المقالة بعبارة التشنيع ولما استدعى صاحب النهج القويم قال إن من روى له هذه الأخبار هو الشيخ سليمان العبد فإنه حضر إلى إدارة جريدته وأمر بنشر تلك المقالة وما جاء فيها برمتها وأنه بقى عنده حتى كتب المقالة ووعده بترويج جريدته مكافأة له على نشرها ، ثم حضر إليه بعد النشر وتشكر له على نشرها وكان يصحبه الشيخ حمزه فتح الله .

ولما سئل الشيخ سليمان العبد أنكر كل الإنكار وقال انه لا يعرف صاحب جريدة النهج القويم ولا يعرف محل إدارته ولا علاقة له به أصلا ، وإن بينه وبين حضرة الشيخ محمد عبده الصداقة التامة والوفاء الكامل وأنه يجل مقام حضرة الشيخ عن أن يقال فيه ذره مما جاء فى تلك المقالة وأن ما بينهما من الود لا يسمح له أن يأتى بأقل شىء يغير خاطر حضرة الشيخ . ثم استدعت النيابة شهود صاحب النهج القويم (محمد الخيامى ، إبراهيم سعد ، محمد ، محمد العليوى حسان) وكلهم أجمعوا على أن الشيخ سليمان العبد هو الذى ذهب إلى محل إدارة الجريدة وروى تلك الوقائع بصوت جهورى سمعه كل منهم لأنه

كان يتكلم بحدة زائدة واستدعى الشيخ سليمان العبد مرة أخرى حيث واجهته النيابة مع الشربينى ، فأصر سليمان على الإنكار وأصر الشربينى على اتهام سليمان وطلب من النيابة أن تستدعى الشيخ حمزة لأخذ أقواله ، فأجابت النيابة أن الشيخ حمزه أخذت أقواله وهو ينكر حضوره مع الشيخ سليمان فى إدارة جريدته . وطلب الشربينى من النيابة أن تستحلفه اليمين وقال : فإذا أنكر أيضا أفوض أمرى إلى الله ولو كنت أعلم أن الشيخ سليمان العبد ينكر ما وقع وهو متصف بالمالية لتركته وتحملت المسئولية كلها على عاتقى فأجابته النيابة بأن الشيخ حمزه حلف اليمين أمامها فلا ضرورة لاستحلافه مرة أخرى .

س : حقيقة إنكم نصحتم الشيخ محمد عبده وبذل النصيحة يستلزم من المنصوح حالة ذلك النصح فهل رأيتم فى الأستاذ الشيخ محمد عبده حالة توجب تلك النصيحة .

ج : طريق السلف الصالح رضى الله عنهم أجمعين بث النصيحة للأخ متى اجتمع على خيه ولو بدون شىء يستدعى ذلك ، وأنا ليس بينى وبين حضرة الأستاذ إلا الصداقة لا أعرف إنسانا مستقيما مثله .

س : هل شكوت الشيخ محمد عبده لحضرة الشيخ حسونه كما ذكر فى مقالة النهج القويم .

ج : كلا إنه من كبارنا فهل اشتكى كبير لكبير .

س : قلتم : إنكم لم تروا حضرة الشيخ محمد عبده يستعمل الغلظة مع المدرسين والطلبة فهل سمعت من غيرك أن حضرة الأستاذ الموى إليه استعمل تلك الغلظة .

ج : لم أسمع من غيرى ذلك ولو سمعته لكنت نصحت الشيخ لأنه يقبل النصيحة .

وبعد ذلك انتقل حضرة الفاضل مصطفى بك بيرم إلى الجامع الأزهر إبراهيم لسؤال فضيلتلو الشيخ حسونه النواوى عما يعلمه فى هذه المسألة وقد بلغنا أن إجابة الشيخ الموى إليه كانت

قاصرة على أنه لم يسمع قط من أحد المدرسين أو الطلبة أدنى شكوى فى حق الأستاذ الشيخ محمد عبده وإنما سمع بمثل تلك الإشاعات عنه فيما مضى وقد حققها حضرته بنفسه فتحقق من كذبها » ١. هـ

وفيما يتصل بهذا الاتجاه ما بلغه التوسع فى هذا النوع من الصحف فقد اشتهرت صحف الحمارة ، حمارة منيتى (أحمد توفيق) والسيف أحمد عباس وكان أصدر محمد توفيق الحمارة عام ١٨٩٨ واقتفى فى كتابتها أثر الشيخ سانو (أبو نظارة) وعبد الله نديم ، والشيخ حسن الآلاتى ، والشيخ محمد النحار على نظام الأزجال والمقامات والمحادثات بين شخصين ، يدخلون فى عباراتهم جملا وألفاظا ينفر منها الذوق السليم . كما قامت مجلة السيف على النقد الهزلى فى جملة لا تزيد عن سطرين ، وعبارته محتوية على نكتة أو إشارة دقيقة لا يدركها إلا الواقفون على أسرار البلد ودخائل أكابرها .

وقد بلغ هذا الاتجاة مداه سنة ١٩٠٩ حين اضطر مجلس شورى النواب والجمعية العمومية إلى بحثه حين تلقى اقتراحا من (أمين الشمسى) عضو المجلس يتصل بخطر هذه الصحف . يقول التقرير : إننا نرى أسافل الناس يقدمون على إنشاء الجرائد ، وقد ملأوا الدنيا سفاهة وتعديا على الأعراض ، على أن الجرائد هى مرشد الأمة والحكومة والمطبوعات هى ركن من أركان العمران ، فاقترح على الجمعية العمومية أن تطلب من الحكومة الاتفاق مع وكلاء الدولة على سن قانون عمومى للمطبوعات يقى الناس شر هذه الفوضى أو أنها تقرر معاقبة من يخرج عن حده وعلق الشيخ محمد عبده فى المجلس على هذا التقرير فقال : « إن القدح فى الأعراض ونشر ما يخل بالآداب سواء كان بصفة رسائل مستقلة أو نشر مقالات بالجرائد ، قد كثر فى هذه السنين بسبب إطلاق حرية المطبوعات ، وبما أن ذلك ممنوع شرعاً وسياسياً فنلفت نظر الحكومة إلى ذلك . »

(١ ، ٢) الهلال م ٣٥ (أكتوبر ١٩٢٦) .

٤ — وقبيل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ كانت الصحف الكبرى فى مصر هى : الأهرام ، المحروسة . الوطن ، المقطم ، مصر ، الأخبار ، البصير ، الرقيب ، الأقدام (وذلك بترتيب ظهورها وأقدميتها) وقد رسمت إحدى صحف الحزب[1] الوطنى دور هذه الصحف فى هذه الفترة على هذا النحو :

الأهرام (لسنة ٣٧) : سياستها عثمانية مصرية ، لا تتأخر عن محاباة فرنسا ، والدفاع عن مصالحها فى مصر سواء أكانت اقتصادية أو سياسية ، ومع ذلك لا تهمل المصالح المصرية غالباً إلا إذا كان الأمر متعلقاً بشركة من الشركات . وهى مع الحكومة فى موقف الاعتدال ، تقر لها بالحسنة وتنتقد السيئات عليه وهى فى حيدة مع الأحزاب الساسية وتجاملها كلها أو بعضها أحياناً وهى أكثر الصحف (الشامية) عناية بمصالح الوطنيين .

المحروسة : مكتوب عليها أنها فى سنة ٢٧ (١٨٧٥) ولكنها لم تصدر إلا (٩٩٧ عددا) وهى مع حداثة عهدها قد تطورت فى مشربها مرات ، ولكنها الآن تكتب بلهجة مصرية ، وهى فى آرائها بالنسبة للمعية (عابدين) كالمؤيد وبالنسبة للمصالح الفردية وطنية صرفة .

الوطن : (السنة ٣٤) احتجبت ٢٢ عاماً بعد أن أبطلها ميخائيل عبد السيد ثم أعادها (جندى إبراهيم) بعد ١٢ عاما ليتسنى له نشر الإعلانات القضائية ، وهو يرى العمد (يقصد عمد البلاد) هدفاً تراش له السهام فلا يترك فى كتابته سهماً إلا وجهه إلى واحدمنهم أو أكثر ، وسياسة الوطن العمومية ، احتلاليه أكثر من المقطم حتى انه كان يحرض الانجليز على ضم مصر إلى المستعمرات الانجليزية ورفع الراية عليها مستعملا فى ذلك سماجة لم تصل إليها جريدة قبلها ، ولا يخلو عدد من أعداده من طعنه فى المسلمين أو إيلام لمواطنهم .

---

(١) (جريدة الشعب ٨ مايو ١٩١٢) .

المقطم : سياسته انجليزية صرفة . لولا أنها تكتب بحروف عربية وكل أعمال الحكومة ممدوحة لديه . ولقد بلغت ثقة الاحتلال به حداً متناهياً حتى أنه يقوم بترجمة وطبع التقرير الذى يصدره المعتمد البريطانى سنوياً فيكون علمه به أسبق بكثير من علم أعضاء البرلمان الانجليزى، أما مصلحة المصريين لديه فلا شىء ، وهو يتقدم مشروعات الحكومة يبسطها للجمهور ويرشح الأذهان لقبولها والتماس المعاذير لكل أعمالها ، حتى لو كانت إرسال المشانق قبل عقد المحكمة (والمعروف أن المقطم أعلنت فى ابان التحقيق فى حوادث دنشواى ١٩٠٦ أن المشانق قد أرسلت إلى مكان المحاكمة قبل إصدار الحكم بأيام) .

وأصحاب المقطم أغنى الصحافيين مالا ، وأكثر أطياناً ، ورغماً من أن الصحافة فى مصر مجلبة للخسارة ، فإنهم جمعوا منها ثروة يقصر عن جلها أكبر أرباب المشروعات، وربما كان لديهم فى كل شركة أسهم ، وهم أقدر الصحفيين على الضغط على عواطفهم ودس أشد المطاعن وأكثرها أفعاماً بالسموم فى قالب نصيحة مبرقشة .

مصر : قبطية بمعنى الكلمة ، واحتلالية بأوسع من ذلك . ومن مناقبها أنها وضعت عريضة وقدمتها للوكالة البريطانية تثبت فيها أن الدستور ضار بمصر غير مفيد ، وقد أنشأت هى وجريدة الوطن السفارة القرياقصية فى انجلترا بمساعدة القسس البروتستانت وقد حبذت قانون المطبوعات عند صدوره لما علمت أن المقصود به هو الصحف الوطنية وحدها .

الأخبار : (يوسف الخازن) فى سنتها (١٦) وهى جريدة لا مبدأ لها ولكنها تحافظ على عدائها للدولة العلية وصداقتها للاحتلال .

المؤيد : عاشت مهملة إلى سنة ١٨٩٢ ثم أصبحت منذ ١٩٠٤ جريدة احتلالية باطناً وظاهراً .

(الجريدة) : أول جريدة أنشئت برأس مال كبير قدره ٢٠ ألف جنيه ، لما وقعت حادثة العقبة ١٩٠٦ وظهر اللورد كرومر ، تأثر الرأى العام بجريدة اللواء ورفعها على كل

الصحف التي سارت طوع إرادته أو من صنع يد عربية وأفرنكية ، سورية وغير سورية ، فرأى كرومر أن تصدر جريدة مصرية بحتة ، تكون سياستها مصرية غير مرتبطة بالدولة العلية ، لذلك كاشف أخصائه والمترددين عليه من الأعيان أمثال : محمود سليمان ، حسين عبد الرازق ، عبد الرحيم الدمرداش ، فألفوا شركة من نحو ١٢٠ ذاتاً من أعيان الأربعة عشر مديرية لتمثيل سكان البلاد وأرباب المصالح بمقدار ما يمثلهم مجلس شورى القوانين أربع مرات ، لأنه يؤلف من ثلاثين عضواً ، وألفت شركة الجريدة من أضعاف هذا العدد وكان مقدراً لها أن تسير على خطة يرسمها لها اللورد .

وقد غيرت حادث دنشواى السياسية العامة للاحتلال فتضعضعت أركان ذلك الغرض الذى أنشئت له الجريدة وكان هدفها هو اتفاق الأعيان (لا غيرهم) مع الاحتلال وتقبل كل شيء منه بالرضا باعتباره كسباً للأمة ، حتى تتوفر لها الكفاءات للحكم الذاتى ، وهى أول من أسمى المعتمد البريطانى صاحب السلطة العملية والخديوى صاحب السلطة الشرعية .

وتتمثل خلاصة هذه المراجعة فى هذه المرحلة حقائق واضحة :

- الصحف هى التى أنشأت الأحزاب .
- جميع الصحف كانت تطالب بالاستقلال والدستور مع اختلاف المفاهيم بينها .
- انتقلت الصحف الوطنية إلى أيدى المصريين بعد أن كانت فى أيدى السوريين .
- أدى تكاثر الصحف الوطنية إلى تمكين الروابط الفكرية والروحية والاجتماعية بين الشرقيين والمسلمين ، وكثر الحديث عن الجامعة الإسلامية ، وأولت الصحف اهتمامها بأخبار العالم الإسلامى ونقلها من لغاتها الهندية والفارسية والروسية والتركية فضلا عن الانجليزية والفرنسية .

• إرتقى الإنشاء وارتفعت أجور الكتاب حتى بلغت ضعف ما كانت عليه .

• ظهر نفوذ الصحافة فى مسألة (مد امتياز قناة السويس) فالصحافة هى التى ألزمت الحكومة عقد الجمعية العمومية لاستشارتها فى هذا الأمر ، وقام الحزب الوطنى بدور ضخم رئيسى فى هذا الأمر ، وقام الوطنيون بالمظاهرات ، يطلبون رفض المشروع .

• ظهرت الصحف فى مختلف عواصم القطر : القاهرة والأسكندرية وأسيوط وطنطا والفيوم والمنصورة .

• وكانت الجرائد العربية فى أوائل نشأتها تطرح على المشتركين طرح الصابون ، على حد تعبير جرجى زيدان فمن اشترك عد ذلك أريحية منه للأخذ بناصر صاحبها — ولا يعد دفع الاشتراك من جملة الحاجيات ، ثم أصبح القراء يطلبون الصحف وكثيرون منهم يرسلون البدل مقدماً .

• تألفت للصحفيين نقابة اشترك فيها أرباب الصحف .

معارك ومساجلات الصحف

- ١ -

بين المؤيد واللواء والجريدة

جرت المعارك[1] والمساجلات بين الصحف الوطنية الثلاث التى تمثل الاتجاهات الثلاث فى فترة ١٩٠٧ وما بعدها : المؤيد يمثل الخديو واللواء يمثل الحزب الوطنى ، والجريدة تمثل حزب الأمة ولكل منها وجهة نظر .

١ — بين على يوسف ولطفى السيد

كتب الشيخ على يوسف عام ١٩٠٦ بعد إصدار (المؤيد) بسبعة عشر عاماً يشرح ظروف إنشاء صحيفته فقال :

أصدرت الآداب ١٨٨٩ مجلة أدبية أسبوعية ، وسنحت لى فرصة بعد ذلك ، تقدمت فيها إلى رياض باشا (رئيس الوزارة المصرية) فأشار إلى بعض المقربين من دولته ، أن استرخص منه لإصدار جريدة سياسية يومية ، ولكنى ترددت كثيراً فى ذلك ، لعلمى أن جريدة سياسية تصدر عن مصرى مسلم ؛ بعد خلو القطر من جرائد مصرية مسلمة سبع سنين ، جريدة قادرة على أن تعيش بين الصحف القومية التى كانت قابضة إذ ذاك على زمام أميال القراء اختياراً أو اضطراراً ، جريدة لا تتأثر بدسائس الدساسين ووشايات الواشين الأوربيين وغير الأوربيين ، وتحتاج إلى رأس مال أكثر من مالى ، وإلى حول أكبر من حولى ، وإلى معارف جمة ووسائل عدة أنا خلو من كثير منها . ولكن جد دافع قوى لى ، ذلك من إحسان دولة الوزير أو إشارته إلى نظارة الداخلية مسترخصاً بهذه الجريدة ، صدرت أول ديسمبر ١٨٨٩ فى حجم أربع صحف قليلة المواد ، سار المؤيد

---

(١) المؤيد ١٨٨٩ اللواء ١٩٠٠ الجريدة ١٩٠٧ .

كالوليد ، وبينما هو يحبو حبو الطفل فى مهده ، إذ عصفت به ريح خبيثة من مكائد مناظريه الذين كانوا يخشون أن تعيش جريدة مصرية مسلمة ، فتستحوذ على أميال المصريين وعواطفهم وقانون التنازع فى هذه الحياة يجعل النضال أشد فى زحزحة الغير عن مكانه من هذا الوجود ، سنة الله فى خلقه ؛ ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ودب دبيب الخلف بين مدير المؤيد (المرحوم الشيخ أحمد ماضى) وبين صاحب إمتيازه كاتب هذه السطور بسبب ما دس أولئك الدساسون ، وليس من حق هذا القلم أن يزيد الآن فى التفصيل إكراماً لرفات صديق فى عالم آخر ، ولكن نتج عن هذا الخلف احتجاب المؤيد عن قرائه من ٣٠ سبتمبر إلى ٢٠ نوفمبر ١٨٩١ .

وكانت اليد الحاسمة لهذا الخلف هى يد ذلك الغيور المفضال سعد بك زغلول (وكان وقتئذ محامياً) إذ اختاره الشريك حكما للفصل فى موضوع النزاع ، فانتهى حكمه بترك المؤيد لصاحب إمتيازه بعد ما أرضى محكمة بمال من عنده ومن آخرين من فضلاء الشبيبة المصرية . ويومئذ خاطب سعد بك زغلول قائلا : قد صار لك المؤيد بلا منازع فإن كفت كفؤا لمملك فاجعل من همتك وثباتك فيه رأس مالك وبرهن على ثقة إخوانك به » .

وكانت هذه الكلمات أشد تأثيراً على نفس من كل مشجع ومرغب فى عمل ، وظهر « المؤيد » بعد الاحتجاب وكنت خاليا من رأس مال له سوى القلم والصبر والاحتمال ، وكانت رئاسة النظار فى يد عطوفتلو مصطفى فهمى والدسائس ضد المؤيد أقوى منهما قبل ، وقد هال أعداءه ظهوره ثانياً ، فوشوا إلى الحكومة بأن هناك جمعية سرية أخذت على نفسها الانفاق على المؤيد والكتابة فيه ضد الحكومة والاحتلال ، وكانت ريح الشر تؤذى أولئك الأفاضل الذين مدوا يد المساعدة لولا أن مقربا من الوكالة الانجليزية ومن عطوفة رئيس النظار (ونعنى به المرحوم محمد بك بيرم) تولى يومئذ تحقيق تلك الوشايات بنفسه فظهرت له الحقيقة ، وانتهى الأمر بمقابلة سعد زغلول لعطوفة رئيس النظار ليدحض بالبراهين اللاحقة تلك الدسائس البالغة .

وأنا بين جواذب الأنصار ودوافع الأعداء أعمل جهدى لكى يثبت المؤيد ويعيش فلا يكون العار على المصرى أن يسجل عليه الفشل كلما شرع فى عمل . ثم وجدت اضطهاداً من الحكومة ظهر بأقبح مظاهره حتى وصل إلى حد اقفال أبواب الدواوين فى وجه صاحبه وكتابه ومخبريه ، ولم ينتهى هذا الدور حتى جاءت وزارة رياض باشا فى يناير سنة ١٨٩٣ ويومئذ ألغى قلم المطبوعات التى أنشىء لمضايقة المؤيد ليس إلا ، يوم كانت وظيفة البارودى دى مالورونى مدير قلم المطبوعات محصورة فى مطاردة المؤيد وصاحبه فى كل ديوان . فلما تولى رياض باشا منحه أجازة لم يعد بعدها إلى العمل وخلص المؤيد من عوامل الاضطهاد الشديد واستمر فى طريقه . حتى كانت سنة ١٨٩٩ قضية التلغرافات المشهورة التى لم تنته حتى بلغ المؤيد بفضل اقبال الأمة عليه أضعاف ما كان قوة وانتشاراً .

ويوم كان عدد مشتركيه لا يتجاوز ٦٠٠ نسخة وعدد ما يباع منه لا يتجاوز الستين فى القاهرة كانت الآلة التى تطبع بها صغيرة جداً تدار باليد الواحدة وتطبع بالكبس ولا يزيد عدد ما تطبع فى الساعة عن ١٠٠ نسخة وكان هذا من شأنه فى السنتين الأولين ثم ازداد عدد ما يطبع منه رويداً رويداً حتى كان فى آخر سنته الرابعة ١٤٠٠ نسخة فاضطررنا إلى شراء آلة من معمل الوزيه تدار باليدين معاً وتطبع بكابس اسطوانى إلى ٦٠٠ نسخة فى الساعة الواحدة (١٦ يناير سنة ١٨٩٤) حيث ظهر المؤيد فى أربع صحف كما كان ، ولكن فى كل صحيفة ستة أعمدة . ثم تضاعف الانتشار حتى يبلغ عدد ما يطبع منه خمسة آلاف وكثرت المواد والاعلانات حتى اضطررنا إلى جلب مطبعة ألمانية كبرى تطبع بكابس اسطوانى وتدار بالبخار فظهر المؤيد فى ثمان صحف (١٦ يوليو ١٨٩٩) . ثم وفقنا لطبعها على آلة طبع من أحسن طراز أخير من اختراع الخواجة مارينونى الفرنساوى ، ولما كانت هذه أول مطبعة من نوعها أوصى بها فى مصر وجلبت إليها ، وتبدأ بعملها منذ اليوم (٢ أكتوبر ١٩٠٦) فقد دعونا الكثيرين من حضرات العلماء والذوات والأعيان لتشريف إدارة الجريدة وقت الشروع فى الطبع (الساعة الثالثة بعد الظهر) .

الآلة روتاتيف تطبع بواسطة صفاعة جديدة غير الحروف المعتادة وتنجز فى الساعة الواحدة طبع اثنى عشر ألف نسخة من الجريدة ذات الثمـــان صحف مقطوعة ملصوقة مطوية معدودة .

٢ — من الجريدة إلى المؤيد

ساء العقلاء ما كتبه المؤيد أمس من الطاعن على أعيان الأمة ونوابها الذين يرجو كل مصرى أن تـكون لهم الـكلمة العليا فى حكومة بلادهم ، أن كل مصرى يحب بلاده يعلم أن الأمم لا تقوم إلا بمثل هذا الحزب ، حزب الأمة الذى وقف المؤيد قلمه على معاداته ، وأنه ليوعده بأن يحاربه بالسلاح المسموم ، سلاح السعى بينه وبين صاحب السلطة الشرعية أيده الله . ويرى أن يفهم أعضاء حزب الأمة إذ يقول ما معناه أنها تتعرض فى قولها للسلطة الشرعية ، وأن حزب الأمة وجريدته براء من هذه التهمة . اشتهر[٢] المؤيد من زمن قلمه بالمقرب ، ومحاولة استبقاء الوهم الذى سرى فى نفوس كثير من الناس، أنه دون غيره لسان حال مسلمى مصر والنائب عن الأمة فى بيان سياستها والدعوة إلى مصالحها ؛ نقم الشيخ من حزب الأمة تسميته بهذا الاسم ، وأنـكر علية احتـكار النيابة عن الأمة ، وحجته أن هؤلاء الأعيان الذين حضروا ليسوا هم أغلبية رؤساء العائلات ونواب الأمة ، وما كان هؤلاء وحدهم هم المؤسسين للحزب بل معهم أكثر منهم من المشتركين فى الجريدة ويوافقهم على ذلك أضعاف أضعافهم من غير المشتركين .

وقد إدعى حافظ عوض فى لندره أنه يمثل أكبر حزب فى الأمة ، ولا ينـكر عليه رفيقه الشيخ على ذلك ، بل يقولون أنه قد كان هو الواضع الأول لخطابة حافظ أفندى الذى تربى فى حجر المؤيد تربية السياسة ، وهو الذى لقنه هذه الدعوى ، فـكيف أحرقت سعادة الشيخ نيران الغيرة على الأمة عندما قام يمثلها أماثلها وأعيانها ، إن هذه الغيرة ليست

(١) ٣ اكتوبر ١٩٠٧ (٢) ٥ اكتوبر ١٩٠٧ .

غيرة على الأمة وإنما هى غيرة على (المؤيد) وخوف عليه من السقوط بعد ظهور الحق الذى يقوم به حزب الأمة وجريدته ، فإن بقاء الباطل تكون فى غفلة الحق عنه ، ولذلك بدأ الشيخ على فى السعى والكيد للحزب والجريدة .

٣ — من الجريدة إلى المؤيد

أنشأ[١] بعض أهل الغيرة من الأمة جريدة (المؤيد) إذ رأوا من العار عليها ألا يكون لمسلميها وهم السواد الأعظم فيها جريدة يشتغلون بادارتها وسياستها . ولا أذكر وفاء الشيخ على يوسف أو كنوده لنعم الذين منحوه هذا الينبوع من الثروة والجاه ، فإن ذلك من تاريخه الشخصى . أنشأوا المؤيد وغذوه بمداد أقلامهم وفضل أموالهم حتى كان له من الشهرة ما كان باسمادهم وامدادهم وبوحدة بين الجرائد التى أنشأها أدباء المسيحيين[٢] (السوريين) لا بعلم الشيخ على يوسف وسياسته ولا بدهائه وكياسته ، فالمقطم علة من علل وجوده ، وسبب من أسباب بقائه ؛ فلقد تنكر منه بعض الذين أسسوه ودعوه قبل أن يبلغ أشده ، ويقدر على رميهم بسامهم وهجومهم بقوافيهم . لا أنكر دهاء الشيخ على وحذقه فى الحيلة على ما قصد إليه المؤيد من نيل المال والجاه ، وكيف وأنا ممن رأى كيف ثبتت قوادمه وخوافيه ، ورب البيت أدرى بما فيه ، إنما حذق الشيخ على محصوراً فى أمر واحد ، هو اختباره لحال البلد واختباره لأوسع أبواب الربح فيها ، أموال تبذل ومقالات تنشر ، فاشتهر المؤيد بأنه جريدة المسلمين ولسان حالهم بمصر إذ لم يكن لهم جريدة أخرى تشاركه فى هذه المزية وطفت أنهار المؤيد بالنعوت والألقاب (الجريدة الإسلامية الكبرى) أكبر جريدة عربية وظن الشيخ على يوسف بمثل هذه الألفاظ أنه هو نفسه لسان مسلمى مصر وممثل سياستهم . ولو كان هو الذى تولى تحرير المؤيد منذ

---

(١) ١٣ أكتوبر ١٩٠٧ .

(٢) جرى العرف فى هذه الفترة على أن تستعمل كلة المسيحيين بمعنى أنهم السوريون .

أنشىء بمعارفه التى خرج بها من الأزهر وهو لم يصل بدراسته فيه إلى شهادة العالمية ولا قاربها لما قيل أنه لسان أحد ، وكيف كان الأزهر على عهده يعد علم الجغرافيا والتاريخ مما ينافى التعلم الدينى ويعد عقبة فى طريقه ، حتى ظل الشيخ على عهد قريب يظن أن مكة والمدينة (زادهما الله شرفا) فى أفريقيا . ثم زالت ثقة التابعين بالمؤيد من جهة ، وتعدد الجرائد الاسلامية من جهة ثانية .

لهذا يتألم الشيخ على حين يرى لجريدة ما فوق ما يرضى أن تثبت بها وتدوم ، كما يرى من سمومه التى ينفثها على اللواء فى مذاهب السياسة فإن خطتهما فى الأصل واحدة . وقد كان ينشر فى المؤيد لمصطفى أفندى كامل وقتئذ — أبلغ وأشد تأثيرا فى تلك الخطة مما يكتبه الشيخ على نفسه ، ولكن لما صار لمصطفى أفندى كامل جريدة ونال بها الجاه والشهرة مثلما نال الشيخ على وأوسع ، صار مصطفى باشا كامل ذلك من أسباب ذبذبة الشيخ على التى عرفها الناس كلهم وعرف رأيه فى الظاهر والمنبر واعتقاده بأنهما لن يصلا إلى مساماة المؤيد ومنازعة احتكار زعامة الجرائد الاسلامية والعربية .

ومن يعرف هذا كله ولو اجمالا لعرف السر فى وقوع تأسيس الجريدة على قلبه كالصاعقة فى محاولة الايقاع لها واسقاطها ، وحزبها مما يسعى فيه من السعاية ويدأب فيه من الكد كثيرا وبما يكتب قليلا حتى قال غير مرة أنى أسقط هذه الجريدة بأربع مقالات .

وإذا نفر كثير من الناس أو نفروا من الجريدة لسوء ظنهم فى خطتها فالشيخ على يوسف هو الذى ينفر عنها ويكيد لها ولأصحابها لحسن ظنه فيها واعتقاده بأن خطتها هى الفضلى وأن طريقتها هى المثلى وأنه مهما وصف نفسه بالاعتدال لن يستطيع أن يجاريها فى اعتدالها ، لو كان الشيخ على قانعا بما نال من غفلة الأمة بمساعدة الحوادث والظروف غير كاملة فى احتكار زعامة الصحافة منها ، وإيهام تمثيل الرأى العام فى مصالحها

لسر بوجود حزب الأمة وجريدتهم واتخذهم عونا له ، وأن كانوا على غير خطتة وطريقته ، حفظا لكرامة الأمة التى يتقرب إليها ، كبر على الشيخ على يوسف أن يدعى عشرات من أعيان الأمة ونبهائها ورجال الشورى منها أنهم يمثلونها ويتكامون عنها لا اكبارا للأمة وتعظيما لها بل اكباراً لنفسه التى يراها أولى باحتكار ذلك بما سبق لجريدته من الشهرة أيام كانت الضرورة تلجئهم وتلجأ أمثالهم إلى نشر آرائهم فيها .

٤ — من المؤيد إلى الجريدة

شرحت(١) كيف قدمت فى نوفبر ١٨٨٩ إلى (رياض باشا) وهو يومئذ ناظر الداخلية ، وطلبت منه إعطائى رخصة لإنشاء جريدة يومية باسم (المؤيد) وكيف وجدت من دولته مساعدة المشجع والناصح المفيد أشهرا لم تطل ثم تغيرت الوزارة ، وكيف اختلف بعد السنة الأولى من إنشاء المؤيد الشيخ أحمد ماضى مع صاحب امتيازه ، حتى احتجبت الجريدة عن الظهور شهرا ونيفا وقام عشرة من الفضلاء وفرضوا على أنفسهم مائة جنيه يدفعها سعد باشا للشيخ المرحوم مقابل تنازله عن حقه فى الشركة ، بعد أن تحقق أنه كان مدفوعا ومؤيدا من الخلف من أشد خصوم المؤيد السياسيين .

وصاحب المؤيد يفخر بأنه سوعد ماديا وأدبيا ، وأنه وجد من الكتاب الفضلاء خير الأعوان فى نشر المقالات والطباعة والآراء النافعة ، والحقيقة أن المؤيد لم يقم إلا بصاحبه ، وأنه لولا ما وجد المؤيد فى عالم الصحافة ، لدام العار الذين كان لاحقا بالمسلمين (بالوطنيين) لعدم وجود صحيفة لهم زمنا طويلا .

إن اليد التى أوجدت المؤيد فى أشد الظروف حرجا على الصحفى المسلم هى يد صاحبه ، من شهر سبتمبر ١٨٨٢ إلى ديسمبر ١٨٨٩ (سبعة أعوام ونصف) لم يكن لمصرى

---

(١) ٧ أكتوبر ١٩٠٧ و٨ و ٩

مسلم فى بلاده جريدة ، لأنه كان قد قدر على أقلامه أن تكسر بعد الثورة العرابية وقضى على الجرائد الاسلامية أن لا يكون لها فى مصر وجود ، خشية أن تثير ثائرة التعصب الدينى كما كانوا يزعمون ، حتى أن صاحب المؤيد قضى نصف عام يطرق باب قلم المطبوعات وهو يطالب رخصة بإنشاء جريدة علمية أدبية فلم ينل الاختبار بها وتحقيقها إلا بعد شق الأنفس وما عرفه بعضهم إلا بتلك الجريدة الأدبية الصغيرة « الآداب » ، لم يمض عليها عاماً حتى أخذت حظها من الانتشار وكانت الخطوة الأولى لجريدة المؤيد (هى) صاحب المؤيد على ما به من ضعف وقصور (فقد)قام بواجب كبير على الأمة الإسلامية فى مصر لم يقم بمثله هذا الجمع من سراة القطر ولا أمثاله ، وسد نقصا كان واجبا على القادرين وفتح طريقا كان مسدودا فى وجه كل علم وفاضل وأديب ، وقاوم من الصعوبات التى اعترضته فى طريق عمله بالصبر والثبات والعمل ، ما لو حاول غيره مقاومته لتحطم وتلاشى أمام القوى الهائلة .

ومن تاريخ المؤيد أن جميع أصحاب الجرائد العربية قاموا قومه واحدة وكانوا كلهم من السوريين واتفقوا وهم فى أمرهم على بعضهم مختلفون ، على أن يزهقوا روح المؤيد وليدا فصاروا يسدون عليه كل طريق ويتعقبون له كل أثر لشدة ما كانوا يخشون من قيام صحافة اسلامية تأخذ بزمام الرأى العام فلا يكون لصحافتهم بعد ذلك السلطان الذى كان لها وأعظم به من سلطان ، لطالما استمان أولئك الرصفاء بسلطة القناصل ، وللضرورات أحكام واتنازع البقاء قرائن ، ولطالما استعملوا الصحافة الأفرنجية المحلية لتحريف أقوال المؤيد التى أوجفت القلوب ، وكانت التلغرافات تغدو وتروح بين مصر وأوربا قائلة حذار حذار مما وراء الستار .

والحكومة فى أدوار كثيرة تساعد هذه الحملات وتضاعف مكائد الكائدين تارة بمضايقة البارون مالورتى الذى أنشئت له وظيفة المراقبة على المطبوعات المصرية لأجل المؤيد فقط ، وما رأت باقفال أبواب الدواوين دون صاحب المؤيد ومخبريه .

وكان كثيرون من المعممين والطارشين يوارون وجوههم من بعيد وفى مقدمتهم بعض أعضاء مجلس شورى القوانين حتى لا يتهموا بإعطاء الأخبار ، أو الاتحاد فى الأفكار مع المؤيد ' وقصة التلغرافات ذيل من ذيول ذلك الاضطهاد ، كل هذا وصاحب المؤيد صابر على هذه المكائد محتاط لها ساع ليل نهار لإحباط المساعى المضرة به حتى تغلب عليها ، وبهذا مهد السبيل لكل مصرى مسلم قادر أن يصدر صحيفة ولو يوما واحداً أن يصدرها .
وإذا صح أن يقال أن للمقطم فضلها فى وجود المؤيد واشهاره ، فانما مثله فى هذا مثل المبارز المغلوب فى اعلان فضل غالبه . إن روح المناظرات التى قامت بين المؤيد والمقطم سنين عديدة كان أصحاب المقطم فيها من أكفأ المناظرين ، أى كانت منحصرة فى تنازع أولية المقام فى الصحافة المصرية وقد انتهى ذلك التنازع وأخذت الصحافة الاسلامية مكانتها اللائقة بها من الأمة ، وصار المؤيد لسان حال أرباب الأقلام . أما شأن المؤيد مع غيره فعلى عكس ما زعم . . .

زعم هذا الكاتب أن المؤيد ناهض الجرائد الاسلامية التى صدرت بعده ليحتفظ على ذلك الامتياز الذى انفرد به سنين عديدة ، إمتياز كونه جريدة المسلمين ولسان حالهم . والكاتب خصم ذو غرض سىء فلا يعتبر قوله حجة فى هذا الموضوع إلا بالأدلة الدامغة والأدلة فى هذا إنما تؤخذ من كتابات المؤيد وكتابات غيره ، والقضية قد تكون معكوسة ، فيقال أن الجرائد الإسلامية التى ظهرت بعد المؤيد ربما تظن أو يظن بعضها أنه ما دام المؤيد حائزاً على مكانته الأولى ، معروفا به عند العموم ، مختصا بالثقة الكبرى فلا سبيل لإزاحته وأخذ مركزه إلا بعمل يزعزع تلك الثقة فيه ، ويميل ببعض الناس عنه ، ومع الدأب من الاستمرار على ذلك وانتهاز الفرص والضرب على نغمة التشهير به كلما هفا هفوة أو غلط غلطة أو ارتكب خطأ (والعصمة لله وحده) . وقد بينت أن بعض الزملاء وصل إلى أقصى ما يمكن الجرى فيه بهذا المضمار إلى حد تصور الغلبة والفوز .

٥ — من على يوسف إلى لطفى السيد

قدر[١] مدير الجريدة أن خطة اللواء والمقطم خطتان متطرفتان إحداهما تتجه إلى سلطة قصر الدوبارة وتزيد أعمال المحتلين ، ولو كان ملؤها الخطل ، والأخرى تدعو إلى الاستقلال بالطفرة وخطتها عدائية ، والجريدة ترى أن الطفرة محال وعوافيها مضرة .

بقى أن مدير الجريدة بلسان حزب الأمة يقول : أن المؤيد ينحاز دائماً فى سياسته العامة إلى إحدى السلطتين ، وقد قلنا فى بيان أصول خطتنا أننا ننتصر للسلطة الشرعية دائماً ، كلما نازعها الاحتلال فى حقوقها ، وقال هو عن سياسة « الجريدة » أنها لا تتحيز لجهة من السلطتين ، ومعنى هذا أن سلطة المؤيد الشرعية وسلطة الاحتلال الغاصبة ، كلتاهما عند « الجريدة » سواء فلا تحيز لواحدة دون الأخرى ، إذا اختلفا وتنازعا . ولا ندرى كيف يوفق مدير الجريدة بين ادعائه خدمة الأمة بالصدق ، وبين قوله أن الجريدة لاتتحيز لإحدى السلطتين ، مع العلم بأن مصلحة الأمة فى التحيز للسلطة الشرعية كلما قام نزاع بينها وبين سلطة الاحتلال التى ظل اللورد كرومر طول مدته فى مصر يعمل على إحلالها محل السلطة الشرعية حتى تكون البلاد مستعمرة انجليزية فعلا ولو لم تكن كذلك اسما .

أما خطة الجريدة فهى الخطأ المحض ، لأن السلطتين الموجودتين فى مصر الآن لا يمكن أن يوضعا فى كفتين متعادلتين ليقال أن مصالح الأمة بينهما .

رأى المؤيد فى حزب الأمة

وقال[٢] الشيخ على يوسف : إن الحجر الأول الذى وضع فى أساس عمل (الجريدة)

---

(١) (المؤيد) ٨ أكتوبر ١٩٠٧ .
(٢) المؤيد ٩ أكتوبر سنة ١٩٠٧

مقاومة الجرائد الوطنية التي تغضب سادتنا المحتلين . والحزب هو شركة الجريدة ، والشركة هي الحزب ، وعلى أثر حادث العقبة إشتد سخط اللورد كرومر على جميع المصريين ، ورأى النفر من مقربي الوكالة البريطانية أن يشتغلوا بتأسيس جريدة تعزى إلى جماعة من كبار الأعيان ، يكتب فيها العارفون بدخائل الأشياء وبما وراء الأمة حتى يتسنى لهم بعد ذلك أن يقولوا أن سراة الأمة يقولون غير ما يقول أولئك الصماليك الذى لا ناقة لهم فى هذه البلاد ولا جمل ، وأضيف أن المشروع هو مشروع الشيخ محمد عبده وأنه مات قبل أن يتمه ، أو من فكرة المرحوم سلطان باشا قبل موته ، وهو المشهور بغيرته الوطنية (!) فيجب على سراة الأمة الذين يقتفون أثره فى خدمتها أن يبرزوا هذه الفكرة إلى الوجود ، وكان فى مقدمة المشتغلين بتأسيس شركة الجريدة جماعة من كبار موظفى الحكومة لما رأو من فائدة هذا المشروع العمومية ، ولعلمهم أن خدمة الأمة بالصحافة عن طريق استرضاء الوكالة البريطانية واستعطافها على المصريين خدمة شريفة ، ولا تتنافى مع الأوامر التى تحظر على المواطنين مكاتبة الجرائد والإدلاء بالأخبار ، ومحمود باشا سليمان رئيس الشركة كان أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة ونجله — يقصد محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستورية من بعده — سكرتير مستشار الداخلية من أعضائها والداعى الذى يباشر دعوة العمد والأعيان أى هذا المشروع المبارك ، وجرى توزيع التذاكر والنشرات بأسماء المكتتبين .

وأن مستر روبرتستون أحد أعضاء الحزب الحر فى البرلمان الانجليزى فى مصر قابل كثير من المصريين والانجليز ، وكان ممن قابلهم اثنان من كبار مؤسسى الجريدة بإشارة من اللورد كرومر ، فقال كل منهما لذلك العضو : إننى تمكنت من تأسيس جريدة وطنية ستكون لسان حال المصريين بدلا من هذه الجرائد التى تتاجر بالوطنية (يقصد بالجرائد التى تتاجر بالوطن صحيفتى اللواء والمؤيد) .

وكل ما كان حول العمل يجعل « الجريدة » فى واد وما تدعيه الآن من تجرد مبادئها على

كل تحيز لإحدى السلطتين فى واد آخر ، لذلك قال الكثيرون أن خروج كرومر من القطر المصرى أضاع دفة سفينة الجريدة أو غير وجهة ربانها ، لذلك اضطروا للاعلان من جديد بمبادىء جديدة ، المبادىء حسنة ، ولكنها محتاجة إلى التنقيح فى الوضع حتى تذهب الريب التى خالطت النفوس فيها ومحتاجة إلى استكمالها ، لأنهم يريدون أن يكونوا لسان الأمة ، وليس لأحد حق أن يدعى خدمتها ، أما الحزب فهو مشكل لأن يكون قوة أمام الحكومة باسم الأمة ، وقد يضارها فى الوجهة إلى حد تنازع السلطة .

رأى حسن موسى العقاد

قد ذاع قبل صدور الجريدة أنها احتلالية فى صورة وطنية ، فيكون أنها احتلالية فى صورة وطنية ، فيكون المقطم الثانى ، أو يحل محله لعدم تأثيره ، فتشاءم الناس منها ، فقلت لهم على صفحات جريدة المخبر ، مهلا حتى تصدر ، فإن كانت لصالح البلاد فرحبا بها ، وإلا فيصيبها ما أصاب المقطم من قبل فما كان غير يسر إلا وهى فى الدنيا تقسم الأيمان أن لا تحيد عما فيه صالح الأمة ، فكذت أطالعها متأملا فيما تسكنه الضمائر ، حتى بلغ منها أربعون عدداً ، فما استطعت عليها صبراً ، ففاجأتها برسالة أندد فيها على اعوجاج خطتها فاعتدلت فى الجملة ولكن بصورة كان الغرض منها ذر الرماد فى الأعين، ولم يفدها ذلك سوى انحطاط شأنها .

وما نشعر إلا وقد أعلنت عن تأليف حزب الأمة مبينة خطة مباديه ، فقلت كما قال غيرى : خيراً ، ودخل معه من أحسن الظن به مؤملا ، وما لبثت إلا أن أسفرت عن عدم أحقيتها للاستقلال ، حتى تتعلم العلم الوافى ويكون لها معامل كمعامل أوربا ، مما أثبت لها الخداع الذى رماها به الأهرام وغيره حتى قام مساهموها يرمونها بالإعوجاج وسوء الخطة نحو البلاد .

ولما كان محمود باشا سليمان هو الساعى والمؤسس لهذه الجريدة وله التأثير على سياستها حق لنا أن نخاطبه فى هذا الشأن فنقول ما الذى حمله على أن يسلك بها خطة الأضرار بوطنه العزيز .

---

(١) المؤيد ١٨/١/١٩٠٩ وحسن موسى العقاد من أبطال الثورة العرابية .

- ٢ -

الصحافة الوطنية والاحتلال

كيف حارب الاحتلال الانجليزى الصحافة الوطنية ، يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى تقرير له سنة ١٩١٠[1] ، أن الصحافة السياسة فى بلادنا كانت ولا تزال روح الحركة الوطنية فيها ، لما دخلت الجنود الانجليزية مدينة القاهرة وقبض الانجليز على أزمة الحكومة قضوا على الدستور الذى نالته الأمة فى عهد توفيق وأعادوا الحكومة إلى نظامها الاستبدادى واستعملوا منتهى القسوة والشدة فى أماتة الحركة الوطنية . ولم يبق فى البلاد صحيفة وطنية تعبر عن لسان الأمة ، واستولى الرعب والنفور على الأفئدة ، هنالك فكر اللورد كرومر فى إطلاق العنان للصحف الوطنية لا رغبة فى الحرية ولكن على يقين من موت الحركة الوطنية ، توهم أن الصحف بحملاتها لا تستطيع أن تزعزع الثقة فى سياسته ، وأنه رمى باطلاق حرية الصحافة إلى الامتنان على الأمة باطلاق الحرية لها وإعلان ذلك أمام العالم الأوربى ليوهمه أن الاحتلال الانجليزى يتبع فى مصر سياسة الاصلاح والحرية . لكن الصحافة الوطنية لما عادت إلى الميدان واسترجعت حريتها ، أعلنت على اللورد كرومر حربا عوانا ، وأخذت تذيع للقراء الوطنيين الفظائع التى ارتكبها الاحتلال .

إستخدم اللورد كرومر فى تلك الحرب الصحفية (جريدة المقطم) التى كانت تدافع عن سياسته وتجتهد فى إكسابه ثقة الأغلبية من الأمة ، ولكن الصحافة الوطنية كانت بحملاتها المتوالية تقصى القلوب عن الادارة الانجليزية وتنفرهم منها ، وتبث روح العداء للاحتلال فى كافة الطبقات . ساعدها على الانتشار لفيف من رجال الحرب الوطنى القديم الذين اضطروا بعد إخماد الثورة العرابية إلى الازواء فى منازلهم فساعدوا أولا جريدة المؤيد التى كانت لسان حالهم إلى أن ظهر المرحوم مصطفى كامل فى ميدان الجهاد الوطنى وأنشأ

---

(١) جريدة العلم — ٢٥/١٠/١٩١٠ .

جريدة المؤيد ، وتذبذب المؤيد فى خطة العداء للاحتلال فنبذته الأمة ، وأقبلت على (اللواء) وصار المرحوم مصطفى كامل يضم حول جريدته الأنصار والأتباع ، ويجاهد فى تكوين رأى عام وطنى وجهته الاستقلال والتطرف فى معاداة الاحتلال واستمرت الصحافة الوطنية تبث كراهية الإدارة الانجليزية وتنشر فكرة الجلاء .

كان كرومر يرى أن الحرية الصحافية فى مصر لا يمكن أن تؤثر على مركز الاحتلال وسياسية فجاهر فى تقاريره بأنه ليس من مبدأه تقييد حرية الصحافة وكتب فى تقريره سنة ١٩٠٤ فصلا عن الصحافة يهدىء فيه من روع الانجليز من جهة ويمن على الأمة المصرية من جهة أخرى ويشير من طرف خفى ، إلى أن الحكومة قادرة على إسترداد تلك الحرية فى الوقت الذى تريده .

كان يعتقد أن مبدأ الضغط على حرية الصحافة ومنعها من إعلان شكوى الأمة من سياسة الاحتلال ربما يفضى إلى إشتداد حركة العداء للاحتلال وكون نار الحقد فى القلوب فكان يرى حملات الصحف الوطنية كالبخار الذى يتصاعد من ماء فى درجة الغليان لا يلبث أن يتكاثف فيتساقط ماءاً بارداً لاضرر فيه .

وظل كرومر على رأيه إلى أن حدثت حادثة دنشواى فظهرت الصحافة الوطنية فيها بمظهر جليل ونالت مركزاً خطيراً ومنزلة كبرى فى ميدان المعركة الوطنية ، فقد كانت الصحف قبل وقوع هذه الحادثة تبث فى طبقات الأمة فكرة الاستقلال ، وكانت تتخذ من مساوىء الادارة البريطانية حجة لها فى نشر مبادئها ، ولكن صحف الاحتلال كانت من جهة أخرى تضعف تأثيرها بتذكيرها الأمة بمظالم العهد القديم ومقارنته بحكم الاحتلال البريطانى ، فلما وقعت حادثة دنشواى ضعفت حجة الصحف المحبذة للاحتلال وارتفع صوت الصحف الوطنية وقويت شوكتها ورأت الفرصة سانحة للتشهير بالفظائع التى ارتكبها الاحتلال ، وانتهز مصطفى كامل هذه الفرصة فاتخذ حادثة دنشواى سلاحا ماضيا فى يده شهره فى وجه اللورد كرومر وسياسته ، وبذلك أصلح فى تقوية فكرة العداء للاحتلال وتكوين رأى عام قوى غايته تحرير البلاد ونزع كل ثقة فى السياسة الانجليزية تقوى مركز الصحافة

الوطنية بعد هذه الحادثة وصار لها صوت مسموع فى البلاد، والتف حولها الألوف من المعضدين والأنصار ، فقد كان طلبه المدارس قبل وقوعها منصرفين عن قراءة الصحف ، وأهل القرى فى غفلة عنها فلما تردد صدى حادثة دنشواى فى الأذهان وصورت الصحف الوطنية فظائع الانكليز بعبارات مؤثرة تنبهت أفكار الطلبة إلى قراءة الصحف فأقبلوا عليها أفواجا ، وصارت لهم من ذلك العهد مجموعة دروس وطنية كانوا محرومين منها فى مدارسهم ، لأن يد الاحتلال قد أنهت من قلب نظام التعليم ، وإقامته على مبادىء المصلحة الانكليزية فأخذت الصحف الوطنية تعوضهم مافقدوه بين جدران المدارس التربية الوطنية التى هى أساس نظام التربية والتعليم فى مدارس أوربا .

وبدأ اللورد كرومر بعد حادثة دنشواى يتخوف من ترك ذلك العامل القوى ، عامل الصحافة حراً يشهد بأعماله السيئة ويفسد عليه سياسة غش الأمة ، هنالك بدأ يجاريها وجهاً لوجه فأفرد فى تقريره سنة ١٩٠٦ فصلين خطيرين عن الحركة الوطنية وصحافتها ملأهما طعنا فيها وسباً فى سياستها ، وكان يرى بذلك إلى إضعاف تأثير الصحافة الداعية إلى الثورة والتعصب الدينى ، وكانت كتابته فى هذا الصدد دالة على شدة حقده على الصحافة الوطنية التى أحرجت مركزه وفضحت سياسته فى مسألة طابه ودنشواى .

ومن ثم أبدى اللورد كرومر فى الصحافة رأياً مخالفاً لرأيه سنة ١٩٠٤ فقد شعر اللورد بعد حادثى طابه ودنشواى أن الصحافة الوطنية قادرة على إهاجة الرأى العام عليه وعلى إحراج مركزه ، وقد رمى السواد الأعظم من المصريين بأنهم من أعظم الناس تصديقا لما يقال ، إلا أن اللورد كرومر لم يجسر على المجاهرة بتقييد حرية الصحافة وإن كان أشار من طرف خفى إلى ذلك .

وكان يتخذ من الحرية المعطاة للصحافة فى مصر حجة فى يده ، يوهم بها الأمة المصرية أن انجلترا تميل إلى الحرية فى وادى النيل ، وأنها تتمتع بفضل الاحتلال الانجليزى بما لا تتمتع به الأمة العثمانية تحت حكم عبد الحميد ، لأن اللورد كرومر كان يتوخى دائما فى

سياسة تنفير المصريين من حكم السلطان السابق ويحسب ألف حساب لميلهم إليه ، فكانت الحرية الصحفية من ضمن الوسائل التي استعملها اللورد كرومر في سبيل هذه الغاية ولذلك لم يجرأ على تقييدها . وزاد حرج كرومر بعد حادث دنشواى ومما زاد احراج مركزه إنشاء مصطفى كامل لجريدتين يوميتين إحداها باللغة الفرنسية (الاتيندار اجبسيان) والأخرى بالانجليزية (ذى اجبشيان ستاندرد) فكانتا تردّدان صدى الحملات التي ينشرها اللواء وتنشره في العالم الأوربى .

تغير مركز الصحافة بعد رحيل كرومر وقدوم الدون غورست .

يظن البعض أن الضغط الذى لاقته الصحافة المصرية في عهد الدون غورست يرجع إلى تمادى الصحافيين[١] الوطنيين في شدة اللهجة والتطرف ويعتبرونهم السبب الذى ألجأ الاحتلال إلى تقييد حرية الصحافة وإعادة قانون المطبوعات القديم ، والحقيقة أن ما لاقته الصحافة الوطنية من الضغط كان جزءاً متمما لبروجرامــه السياسى الذى أتبعه المعتمد البريطانى الجديد فقد كانت مهمة (الدون غورست) في مصر هى تهدئة الخواطر الثائرة ضد الإدارة الانجليزية وتثبيت مركز الاحتلال الذى زعزعته سياسة اللورد كرومر . وكان الدورن غورست يتوهم أن الحركة الوطنية ليست حركة استقلال بل حركة تذمر من تصرفات اللورد كرومر ، فبدأ عهده بالموافقة على الافراج عن مسجونى دنشواى ، حتى يقل هياج الوطنيين وانفعالهم بهذه الحادثة ، وبدأ يعامل الخديو معاملة لينة تناقض تلك المعاملة الوحشية التى كان يعامله بها اللورد كرومر ، وكان يظن أن الخديو هو قوام الحركة الوطنية فإذا رضى الخديو عن سياسة المعتمد الجديد وسار على خطة الوفاق معه لم يعد هناك محل لبقاء الحركة الوطنية .

وقد أتبع المعتمد البريطانى تلك السياسة مؤملا ايجاد رأى عام معتدل يسكت عن الاحتجاج على الاحتلال في ذاته ويسير في سبيل الاتفاق والتفاهم مع السياسة البريطانية

(١) هكذا كانوا يكتبونها .

فى وادى النيل ، وفعلا جاراه فى هذا المضمار بعض الصحف العربية مثل المؤيد والمنبر ، فأخذتا تطمئنان فى سياسة الحزب الوطنى المتطرفة وتدعوان الأمة إلى التفاهم مع الاحتلال ، ولكن صحافة الحزب الوطنى وفى مقدمتها (اللواء) وقفت حجر عثرة فى سبيل نجاح غورست فى سياسته وإدراكه غايته وظهرت فى تلك الفترة التى تغيرت لها سياسة انجلترا فى وادى النيل بمظهر جليل ضمن بقاء الحركة الوطنية واستمرارها ، ذلك أن (اللواء) الذى كان ونتئذ لسان الحزب الوطنى المعارض للاحتلال أخذ ينادى بالاستقلال والجلاء ويجدد إحتجاجه على بقاء الاحتلال ويحذر الأمة من الركون إلى سياسة انكلترا فكانت خطة (اللواء) مقاومة الاحتلال فى ذاته لا فى سياسته ، لم تقو الصحافة المعتدلة الداعية إلى التفاهم والانجليز على مكافحة الصحافة المتطرفة التى كانت مكونة فى ذلك العهد ، من اللواء والدستور والاستندار أجيسيان واجيشيان ستندارد ، كذلك لم يضعف تأثيرها الفعال فى الرأى العام ذهاب وفود المعتدلين إلى لندن وسعيهم فى وضع أساس للتوفيق بين المصريين والاحتلال ، وتقهقرت صحافة المعتدلين أمام الصحافة المتطرفة ، وأصبحت موضع سخط الأمة وظلت صحافة الحزب الوطنى آخذة قيادة الرأى العام المصرى ، وأمكن فريد بك أن يحفظ سياسة الحزب ويحول دون خمود الحركة الوطنية وركونها للاحتلال حتى أداه ذلك الغرض الشريف إلى المجاهرة بانتقاد خط الخديو السياسية واستنكار اتفاقه مع المعتمد البريطانى فاخترق الحزب الوطنى فى تلك الأثناء أزمة صعبة . لما رأى غورست ذلك ، عول على محاربة صحافة الحزب الوطنى التى هى الحائل الوحيد دون نجاحه فى سياسته ، واعتقد أن محاربتها ستفل من حدها وتضعف من شوكتها ؛ (هنالك) عمد إلى تقييد حريتها والتنكيل برجالها ، وكان غورست يعتقد أن تخلى الخديو عن الحزب الوطنى وامتعاضه من حملاته على سياسة الوفاق واستياءه من مجاهرة (فريد) بأن أرادة الأمة شىء وأرادة الخديو شىء آخر ، كل ذلك مفض إلى أضعاف شوكة الحزب ، وكان هناك من رجال الحكومة من يحقدون على صحف الحزب الوطنى لحملاتها المتكررة على

خياناتهم فكانوا يحرضون المعتمد البريطانى على تقييد حرية الصحافة ، وقد فكر أولا فى محاربة الصحافة الوطنية بالمحاكم ، وانتهز فرصة كتابة اللواء مقالا عن (فظائع الانجليزية السودان) وطلب أن ترفع الدعوى العمومية على الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس تحرير اللواء ، وانتظر أن تحكم المحاكم على الأستاذ حكما قاسيا ولكن المحاكم أظهرت استقلالا تاما فى تلك القضية ، فبرأت الشيخ من التهمة ،(هنا) بدأ يفكر فى طريقة أخرى بعد أن وجد أن المحاكم ليست السلاح الفعال فى محاربة الحركة الوطنية ، وقد أعرب عن ذلك فى تقريره سنة ١٩٠٩ . لذلك فكر فى أعادة قانون المطبوعات الصادر فى ٢٦ نوفبر ١٨٨١ ذلك القانون الذى يفقد الصحافيين كل ضمانة قانونية حيث يجعلهم تحت رحمة الإدارة مباشرة فيستطيع أن يعطل أى جريدة بدون محاكمة ولا إبداء أسباب معقولة . وأهم موارد (المادة ١٣) وهى « يسوغ محافظة على النظام العمومى والآداب والدين تعطيل أو قفل أى جريدة أو رسالة دورية بأمر من ناظر الداخلية بعد انذارين أو بقرار من مجلس النظار بدون إنذار » وقال الدون غورست فى تقريره ١٩٠٩ عن قانون المطبوعات ١٨٨١ : إنه الطريقة الوحيدة التى يستطاع بها مراقبة الصحافة وأن تطبيقه بالحكم والدراية لايفتح بابا لتهييج الآمال السياسية كما يكون فى محاكمة الصحف ولا يترك سبيلا للمظاهرات وأنه فعال فى منع وقوع الجريمة .

وصدر قرار مجلس النظار بإعادة هذا القانون فى ٢٤ مارس ١٩٠٩ وهو يوم تعتبره الأمة من إيام حدادها المشئوم ، اليوم الذى قضى فيه على حرية الصحافة . وقد فهم الناس جميعاً أن هذا القانون ما أعيد إلا لمحاربة صحافة الحزب الوطنى التى آلمت بصراحتها كلا من الاحتلال ورجاله . وأشار مجلس الوزراء فى قراره حيث أن عدم تنفيذ قانون المطبوعات لم يزد هذه الجرائد (جرائد الحزب الوطنى) إلا تماديا فى التطرف والخروج عن الحد حتى أدى ذلك بشكوى الناس بلسان الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين من هذه الحالة التى بالبلاد

ضرراً بليغاً . فقد قرر مجلس النظار (كذا) . . . والحقيقة التى حاول الاحتلال إخفاءها تذرعاً بالعالم المتمدين هو أن الجمعية العمومية قد أظهرت تألمها من ترك الحكومة للصحف الساقطة تنهش أعراض الناس بلا رادع ولا زاجر ، ولا شك أن محاربة هذه الصحف الحقيرة أمر واجب لا شبهة فيه ، ولكن ذلك شيء ومحاربة مبدأ حرية الصحافة شيء آخر . ولما أعيد قانون المطبوعات أصبحت الصحف الوطنية تحت رحمة الإدارة وكان السير غورست ينتظر أن تكون مجرد إعادته سببا فى القاء الرعب فى قلوب الصحفيين الوطنيين من جهة وانفضاض الجمهور المصرى عن صحافة الحزب الوطنى من جهة أخرى موهما أنها كانت السبب فى القضاء على حرية الصحافة . ولكن مركز الصحافة لم يتزعزع بل زاد ثباتا وارتقاء . واستمرت صحافة الحزب الوطنى على خطتها بعد صدور قانون سنة ١٨٨١ ولكنها صارت مهددة بأن تصاب بضربات ، ولم تمر ثلاثة أشهر حتى نفذ القانون لأول مرة فى اللواء . أنذرت الحكومة (اللواء) وبنت إنذارها على أنه نشر مقال تأبين لدنجرا ذلك الشاب الهندى الذى قتل السير كرزون ويلى فى الهند وسيق الشيخ جاويش للمرة الثانية أمام المحاكم لمحاكمته على مقالة نشرها إحياء لذكرى دنشواى وانتهت محاكمته بحبسه ثلاثة أشهر ، وقبل أن يصدر الحكم صرح ناظر الحقانية فى حديث له ان لابد من الحكم على الشيخ جاويش . وفى يوم واحد أنذر اللواء وحبس الشيخ جاويش فكانت الصدمة شديدة حتى خشى الكثيرون أن يتزعزع مركز الصحافة ويخفت صوتها .

وخشى الكثيرون أن يتسرب اليأس إلى النفوس ولكن الجلد الذى أظهره الشيخ جاويش فى الحبس وثبات الصحافة الوطنية على خطتها واستمرار الحزب الوطنى فى مقاومة الاحتلال وإعطاء الأمة مثال الصبر والثبات ، كل ذلك حفظ مركز الصحافة ووقاها شر التقهقر أمام ضربات الاحتلال وانقلبت الحرب التى أعلنها الاحتلال على الحزب الوطنى خيراً له وشراً على الاحتلال حتى كان يوم خروج الشيخ جاويش من الحبس يوم ابتهاج عظيم ، قلدته فيه الأمة وسام الشعب إظهاراً لتعلقها الشديد به ، وخفت صوت المعتدلين .

(٣) الصحافة ومسألة قناة السويس

ظهرت فى ميدان المسائل السياسة حوالى شهر أكتوبر ١٩٠٩ مسألة سياسة خطيرة قامت لها الأمة وقعدت وظهرت فيها الصحافة الوطنية بمظهر جليل زادها قوة ورفعة ، هى مسألة مد امتياز قناة السويس . أخذ المستشار المالى مستر بول هارفى يفكر فى وسيلة يحصل بها على المال بعد أن بدده الاحتلال فى مجاهل السودان ، ورأى أن خير طريقة يصل بها إلى غرضه المفاوضة مع شركة قناة السويس لمد امتيازها أربعين عاما إلى عام ١٩٦٨ وقسمة الأرباح بعد هذا التاريخ مناصفة بين الحكومة والشركة ، وذلك فى مقابل (أربعة ملايين من الجنيهات) تدفعها الشركة للحكومة المصرية وجانب من الأرباح من سنة ١٩٢١ إلى ١٩٦٨ على طريقة اتفق عليها المستشار والشركة .

وظل المشروع تحت طى الخفاء زهاء سنة ، وكان فى عزم الحكومة إنهائه بسرعة حتى لا يزعجها احتجاج الصحف الوطنية ولكن فريد بك تمكن من الحصول على نسخة من المشروع ونشرها فى اللواء . وقد أظهر ما فيه من الغبن الفاحش الذى يلحق بمصر إذا تم هذا المشروع ، وأخذت الصحف الوطنية بعد ذلك تتناول المشروع بالانتقادات المالية والسياسية المبنية على الآراء الناضجة والحقائق الثابتة ، وتكاتفت صحف الحزب الوطنى فى هذه المسألة الحيوية واتفقت جميعها على مطالبة الحكومة بعرض المشروع على الجمعية العمومية قبل البت فيه ، فقامت فى البلاد حركة أفكار كبيرة نورت الرأى العام وارتفعت أصوات الأمة من كل جانب ملبية نداء صحافتها مطالبة بعرض المشروع على الجمعية العمومية ولم يسع الحكومة إلا إجابة مطلب الأمة ، تهدئة للخواطر ، وفعلا أحيل المشروع على الجمعية العمومية ، وكانت الصحف انتهت من درسه وإظهار ضرره بالمصالح المصرية من الوجهتين المالية والسياسية وأجمعت الأمة على مطالبة أعضاء الجمعية برفضه بتاتا وإقامة الحجج القومية على ذلك الرفض . وألقيت فى خلال ذلك خطب عديدة فى أنحاء البلاد وعقدت جماعات جمة وأقيمت مظاهرات رهيبة ، كل ذلك لابلاغ أعضاء الجمعية العمومية

رغبة الأمة فى رفض المشروع وكانت هذه الحركة نتيجة كتابات الصحف فى مسألة القناة وقد بلغ من قوة الصحافة فى هذه المسألة أن هيأت الأفكار بالدليل والبرهان إلى مقاومة مشروع الحكومة وكونت رأيا عاما قويا هيأته الحكومة واحترمه أعضاء الجمعية العمومية لأنه كان يمثل إرادة الأمة فانتهت مذاكرة الأعضاء فى المشروع برفضه بإجماع الآراء وفازت الأمة فوزاً مبينا وأكبرت صحافتها الوطنية (حتى أن) أعضاء الجمية العمومية الذى قدروا خدمة الصحافة فى مسألة القناة قرروا الاحتجاج لدى الحكومة على إعادة قانون المطبوعات المقيد لحرية الصحافة فكان قرارهم أعظم رد على الدعوى التى نسبت إليهم وهى أنهم كانوا البادئين بدعوة الحكومة إلى محاربة الصحافة . أما المعتمد البريطانى فقد ساءه بلوغ قوة الصحافة الوطنية إلى هذا الحد رغم إعادة قانون المطبوعات ، وأخذت الحكومة تمد المدة لاتخاذ وسائل أخرى أشد صرامة فى مقاومة تأثير الصحافة المعادية للاحتلال .

وحدث فى أثناء حادث الوردانى أن ألقى السير غورست مسئولية الحادث على الحزب الوطنى فكان ذلك إعلانا للصحافة بحرب جديدة يزاد فيها الضغط عليها وفعلا طوردت صحافة الحزب الوطنى قبل أن يتم طبع التقرير وبعد ظهوره مطاردة عنيفة . وصدر قرار مجلس النظار بإيقاف جريدة العلم فلم يسكت الحزب الوطنى بل أنشأ عدة جرائد جديدة لم ينقطع صدورها مدة الشهرين يوماً واحداً ، فكانت الأمة تتهافت على قراءة تلك الجرائد ولا يظهر الحزب جريدة إلا ويزداد إقبال الجمهور عليها وأثبت حادث إيقاف (العلم) أن الرأى العام قد تشبع بمبادىء الحزب الوطنى وأصبح لا يهمه إلا الاقبال على صحفه مهما حاربها الاحتلال واشتد فى محاربتها وجرى التفكير فى وضع نظام لمحاكمة الصحافيين يفقدهم الضمانات التى كان قانون المطبوعات يخولها لهم وكان هذا النظام الجديد حلقة من سلسلة قوانين جديدة وضعت بعد حادثة الوردانى ارهابا للأمة كانت محاكمة الصحافيين تجرى على حسب القواعد المتبعة فى محاكمة الأفراد فكان لهم درجتان للحكم ، ابتدائية واستئنافية ، وفى ذلك من الضمان القانونى ما فيه لأن مرور القضية أمام هيئتين متعاقبتين فيه ضمانة كافية لظهور الحقيقة

وتقرير العدل فيها وقد ظهرت فائدة هذا النظام القضائى فى محاكمة الشيخ جاويش لأول مرة ، حيث حكمت (محكمة أول درجة) على الأستاذ بعقوبة (غرامة) على إحدى التهمتين اللتين أسندتهما إليه النيابة ، ولكن محكمة ثانى درجة ، بعد أن نظرت فى القضية من جديد حكمت ببراءته من التهمتين . وكان هذا النظام من شأنه إطالة مدة المحاكمة فيزداد إهتمام الجمهور بالحركة الوطنية ويتشوقون إلى أنباء المحاكمة وما ينشر فيها من المرافعات والاجراءات والأحكام فكانت المرافعات التى تلقى فى القضايا السياسية عبارة عن دروس وطنية تستفيد الأمة منها فائدة كبرى ، ويتمثل فيها الغرض المقصود من سوق زعماء الحركة الوطنية أمام المحاكمة . وكانت كل محاكمة تضم إلى صفوف الحزب الوطنى أنصاراً وأشياعاً تزداد بهم صولة ورفعه ولم يلبث أن ظهر فى ١٦ يونيه ١٩١٠ قانون إحالة جنح الصحافة على محاكمة الجنايات وقد قصد الاحتلال من ذلك أن تتم محاكمة جنح الصحافة بأقرب ما يمكن من السرعة حتى لا يترك القصد الكافى لاهتمام الرأى العام بالقضايا السياسية .

بين مصطفى كامل وعلى يوسف

(اللواء - المؤيد)

بدأ مصطفى كامل يكتب فى المؤيد منذ ظهوره فى ميدان الكتابة ، ثم أصدر اللواء ١٩٠٠ ، وكان اللواء والمؤيد تسيران فى خط واحد أول الأمر ، وكانت الحركة الوطنية مؤيدة بالخديو ، ثم تغير الموقف ، عزل كرومر وجاء خلفه غورست بسياسة الوفاق وأدار الخديو ظهره للحركة الوطنية ، واختلف معه اللواء ، وسار معه المؤيد ، ثم جاء عام ١٩٠٧ فأعلن الشيخ على يوسف إنشاء حزب الإصلاح ، فى نفس الوقت الذى أعلن فيه حزب الأمة عن نفسه ، وكان الحزب الوطنى مشكلا من قبل ولكن أعلن رسميا فى نفس العام .

وفى ١٩١٢ سجلت جريدة الشعب[1] (إحدى صحف الحزب الوطنى) صورة للعلاقة بين مصطفى كامل وعلى يوسف ، والخديو ، تقول : يظهر أن صاحب المؤيد (على يوسف) كان قد وطن نفسه على أنه زعيم الصحافة الإسلامية (الوطنية) فى مصر واطمأن لذلك ، فلما ظهر اللواء رأى فيه أكبر مزاحم ، فأخذ ينصب له الإشراك فى داخل المعية « قصر عابدين » ، وخارجها ويعقد له كل مرصد أملا فى إسقاط اللواء) ليخلو له الجو ، ولم يظفر اللواء بالمؤيد إلا بعد سفر صاحب المؤيد إلى لندرة عام ١٩٠٣ ووقوفه بين الإنجليز ذلك الموقف المعلوم ، وتسميته لوندره (كعبة المصريين السياسية) فلما التزم الصمت متوخيا مرضاة الاحتلال وتقبله وفاق ١٩٠٤ قبولا حسنا كان ذلك مصرعا لجريدة المؤيد

---

(١) ١٣/١٩/٢٦ مايو ١٩١٢ .

نفسها وفاز اللواء عليها وكان صاحب المؤيد قد حاول نكث عهده الوطنى بعد أن أصبح ذا مال وعقار ، فانسلخ عنه مصطفى كامل وأنشأ اللواء سنة ١٩٠٠ حتى لا يلعب صاحب المؤيد بالرأى العام ، وكان أبرز أهداف اللواء : العقيدة الوطنية والدفاع عن مجد الإسلام ، وظهرت غيرته جلية فى غارة المسيو هانوتو على الإسلام والمسلمين ، ومع هذا كانت الكلمة العليا فى عالم الصحافة للمؤيد لظن السواد الأعظم من الأمة فى ذلك الحين أنه لا يزال الجريدة المخلصة للوطن ، لذلك استمر اللواء جريدة ثانوية حتى سافر صاحب المؤيد إلى لوندرة فى ١٩١٣ ووقف من الإنجليز موقفه المعلوم فيومئذ عرفت الأمة طويته فنبذته ظهريا واحتلت اللواء المحل الأول وظل المؤيد جريدة التلون .

وكان للاقتدار الصحفى الفضل الأول ما جعل للواء المنزلة الرفيعة ، وكان الحديث بين صاحبه وبين الغازى مختار باشا (ممثل الدولة العثمانية فى مصر) وفيه أنزل المؤيد منزلته الحقيقية فكان فى ذلك القضاء عليه وردت إليه النسخ رزما حتى ضاقت بها نوافذ مصلحة البريد وتظاهر ضده الكثير من أهل القطر ، وأحرقت نسخه فى الجهات على مقروعة الطرق وزاد اللواء رفعة بعد حادث « دنشواى » فقد رفع صوت مصر فى أوربا .

وهز كرسى اللورد كرومر هزا لم يسبق إليه مصرى من قبل ، واجتمع لدى إدارته عدة آلاف من الإمضاءات بطلب العفو عن مسجونى دنشواى ، الذين كان محكوما على بعضهم بالأشغال الشاقة أو المؤقتة وعلى بعضهم بالسجن ، فلما أضاف نسختيه الإنكليزية والفرنسية ، بلغ اللواء غاية لم يبلغها قبله جريدة فى الشرق .

وقد ألف مصطفى كامل (الحزب الوطنى) وهو طريح الفراش بعد إلقاء خطابه فى أكتوبر ١٩٠٧ فى مسرح زيزنيا بالاسكندرية ، وفى ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ طبع من اللواء (٢٩ ألف نسخة) وزعت وقت مرور جنازة صاحب اللواء ، وهو أكبر

رغم بلفته الصحافة إذ ذاك ، ثم انتقلت إدارة اللواء إلى يد الحزب الوطنى بواسطة شركة تألفت لهذا الغرض وقدرت رأس ماله بمبلغ أربعين جنيه وبلغ أوجه بعد أن تولى رئاسته الشيخ عبد العزيز جاويش ، فقد برأ القضاء جاويشا فى قضية العاملين وطعن المعتمد البريطانى فى القضاء . ولما وقع الاعتصاب بين المحررين والكتاب وعمال الإدارة وجامعى الحروف والسباكين والطباعين والموزعين ، حتى آلة الطبع نفسها ، وصناديق الحروف امتدت إليها يد الإفساد ، صدر اللواء فى يوم عطلته تحديا وعمل الأعضاء بأنفسهم فى إصداره .

صحف وطنية وصحف معتدلة

لإلقاء ضوء كاشف على صورة المجتمع ، والحياة الفكرية ، وأثر الصحف فيها ، نختار فترة من أدق الفترات فى هذه الرحلة ، هى فترة عام ١٩٠٧ الذى يعد من الأعوام الحاسمة ، حيث ظهرت فيه الأحزاب السياسية الثلاث الوطنى ، الإصلاح ، الأمة وكانت أهم الصحف فيه هى (الأهرام ، المؤيد . اللواء ، الدستور ، الظاهر ، المقطم) والسؤال هو : كيف كان موقف هذه الصحف من الحركة الوطنية ، ومن الرأى العام ، وكيف كان الصراع بينها جميعا .

يقول العلامة فريد وجدى : لم تظهر الجرائد السورية فى مصر لمطالبة الحاكمين بحق مسلوب ، أو محاسبتهم على عمل مألوف بل بالعكس ، كانت تتقرب إلى الحاكمين ، بالمديح والإطراء وتلبسهم شفوفا من حلل الثناء ، ولا تطلب إليهم إلا من طريق الاستماحة والرجاء ، و (الأهرام) التى لازمت الأمة فى سائر أدوار تدرجها فحضرت استبداد إسماعيل ولقيت منه ما لقى الناطقون بالحق أمام السلطات المطلقة ، وشهدت أول عهد توفيق ، تلك الأيام الحادثة الباسمة ، وبلغت فيها من الشهرة والانتشار غاية ما يمكن لجريدة فى تلك الأيام ثم شهدت حركة الأمة قبيل ثورتها (الثورة العرابية) وبعدها فى أول عهد الانجليز .

وظهرت (المقطم) بلهجة وطنيه واستمرت على ذلك نحو العام حتى كان (المؤيد) يستظهر بأقوالها فى كثير من الأحيان ، ثم تحولت إلى مشايعة الاحتلال وتسوىء سيرة الدولة العلية ، ذلك لأن أصحاب المقطم ليسوا من أبناء هذه البلاد ، وهم مهما انتحلوا

لأنفسهم من صفات الوطنية فأن يكون منها إلا بقدر ما تحققه أقوالهم وأعمالهم ، وإذا كانت الأمم تتبرأ من أبنائها الذين يذهبون فى سياستهم غير مذهبها فهى تتبرأ بالأولى من الملتحقين بها إذا نهجوا فى سياستهم غير منهاجها .

فالأمة لا تعتبر (المقطم) جريدة وطنية ، حتى يصح أن تثور عليه جرائد مصر بالتأنيب لاجباره على أن يقول مالا يريد قوله ، ولو كان المصريون اكتفوا بهذا الإعلان كلما كتبت المقطم شيئا ضد مصلحة البلاد لكان المقطم اليوم لا يعرفه أكثر المصريون ، ولكنهم أخذوا يناقشونه الحساب ويبادلونه السباب فاشتهر بين الناس اسمه وذاعت مبادئه . أما (الجريدة[1]) . . . فليس تحت سماء مصر من يجهل المبدأ الذى تكونت من أجله الجريدة ، والأصابع الكرومرية التى أقامتها لإطفاء جذوة الشعور الوطنى ، الذى أشعلها مصطفى كامل فى أفئدة المصريين فقضت سنتها الأولى فى نكران مبدأ الوطنية وتهجين الحزب الوطنى ورجاله . ثم دالت دولة كرومر ووجدت الجريدة نفسها بالعراء ، وسقط فى يد مديرها الذى أجاد الدفاع عن مظلومى دنشواى .

ولم تبرهن الأمة المصرية على حياة شعورها ويقظة عاطفتها الوطنية فى حادثة من الحوادث بأحسن مما فعلت بإزاء الجريدة ولن تزال الجريدة بما تأخذ كل يوم من دروس الأدب عن الأمة حجة حية على قوة الرأى العام فى هذه البلاد . وقد اجتمعت طائفة من أعيان الأقاليم قبل نحو السنتين من الزمان وفكروا فى التعاون على تأسيس جريدة مستقلة من كل سلطة تجمع إلى علو تحريرها جمال الرداء ، وأبهة الثراء ، فتجذب هذه الأمة المسكينة من بين مخالب هؤلاء المتحمسين (الحزب الوطنى) همس بذلك بعض الأعيان فاتصل خبر هذا العزم باللورد كرومر قيصر قصر الدوبارة إذ ذاك فوجدوا منه كل تشجيع وبلغ الناس هذا الشعور فقالوا : إن فى الأمر لسراً وقد عمد الإنجليز بعد أن أعجزهم

---

(١) الدستور — ٤ سبتمبر ١٩٠٨ .

إماتة شعور المصريين بجرائدهم المأجورة ، إلى تحذيره ، والتغرير به بواسطة هذه الحيلة العجيبة ، وكان الناس بين مكذب ومصدق حتى انتخبت اللجنة التأسيسية مديراً للجريدة محاميا لم ترض الأمة عن دفاعه فى حادثة دنشواى (يقصد : لطفى السيد) فقوى ظن الظانين ، وزاد فى الظنون السيئة ما تفضلت به جريدة التيمس على الجريدة من التفريط والإطراء قبل ظهورها ، كيف علمت التيمس خطة هذه الجريدة قبل نشرها إن لم تكن قد رسمت لها خطة السير فى الوكالة البريطانية ولكن هذه الأحكام لمن تكن إلا ظنية لا يعول عليها المتثبتون الذين يريدون بناء أحكامهم على الحوادث المحسوسة فظل هؤلاء منتظرين حتى قرب إبان ظهورها وتعيين المحررين ، فكان فى تسميتهم دليلا حسيا تمهيديا على مجافاة مشرب (الجريدة) لمطالب المصريين .

(جريدة الظاهر[١]) . . . ظهر للكافة عيانا تحامل الظاهر على الشيخ محمد عبده رحمه الله مشايعة لما اشتهر من سخط الجناب العالى (الخديو) عليه إذ ذاك فارتكب (الظاهر) فى الحط من كرامة ذلك الإمام الجليل والغض من قدرة مالا يليق صدوره من هداة الأمم وأطباء هيئتها الاجتماعية ، لا سيما وبراءة الشيخ مما كان ينسبه إليه ويعزوه له ظاهرة للعيان لا تحتاج لبرهان ، فأثر ذلك فى قلوب المصريين أثرا سيئا ، ولم ير فى (الظاهر) . ما يجب أن يكون فى (الجريدة) التى يديرها رجل قانونى ، له مواقف مشهودة فى التفرقة بين الحق والباطل ، وظل الظاهر على غلوائه فى حق ذلك الأستاذ الكبير حتى تحقق الناس سوء القصد فى تلك المطاعن فكان ذلك أول ما شهدته النفوس له بالانقباض والمضاضة . وبينما الناس وإياه على هذا الحال من الشك وإذابة حالت به الحال

---

(١) جريدة الظاهر لصاحبها محمد أبو شادى حصلت على نص فتوى أصدرها الأستاذ محمد عبده إلى جماعة من سكان الترنسفال المسلمين الذين رحلوا من الهند إلى جنوب أفريقيا ، هذه الفتوى خاصة بإباحة أكل المسلم اللحوم التى يذبحها أهل البلاد من المسيحيين عن طريقة أسماها الظاهر ، الموقوذة ، ثانيا : جواز لبس المسلم القبعة تفاديا من سخرية أهل البلاد من العمامة والطربوش .

إلى تقمص مبدأ جديد وهو مشايعة المحتلين ، والضرب على نغمة الغالية فى اطرائهم ، والتمدح بهم ، ظهر ذلك فى لحن كلامه فتبين للناس سرعة تقلبه من غير ما سبب ظاهر ، ولا حكمة معقولة ، وبدت بوادر خطيرة عليه بلا تدريج واوهمته أهواءه أن من الشكاية عن تقرب إليهم أولا أن يناقض خطته السابقة معهم فيمدح من كان يذمهم ويذم من كان يمدحه ، فانقلب يمدح الأستاذ المفتى (محمد عبده) ويطربه ويبنى له من صروح الثناء ما ينقض سابق مطاعنه فيه ، حتى أنه صبغ نفسه بالسواد يوم موته حداداً عليه وشفع ذلك بالطعن فى (الشيخ على يوسف) فى قضية الزوجية وغلا فى ذلك غلوا أخرجه عن حدود المعقول فتحققت الأمة عند ذلك أنه سريع التحول منقاد لأهوائه ، يرمى إلى حيث رمت إليه ، والأمم إن لم تأنس من خدامها الثبات والحزامة لم تحس من الصلابة والشهامة غضت طرفها عنهم .

(جريدة المنبر) : أصدر المنبر حافظ عوض ومحمد مسعود ، وكانا يعملان فى المؤيد وقد ظن الناس أن انفصال الشابين عن تحريره سيورثه الفاقة الكتابية ، وسيقضى عليه بالسقوط التحريرى ، فأصبح المؤيد أرقى مما كان عليه تحريراً ومادة ، أحدهما ملم بالإنجليزية والآخر ملم بالفرنسية ، فلماذا لا تكون جريدتهما فى مثل (المؤيد) الذى لا يعرف صاحبه ما يعرفانه من اللغات الأجنبية ، هذا هو الدور الأول للمنبر .

أما الدور الثانى فقد بدأ بعد ذهاب أحد صاحبيه إلى لوندرة (حافظ عوض) وتصريحه لأحد مكاتبى الجرائد بأن فى مصر حزبين متشاكسين ، أحدهما المتطرفون وهم قوم قليلو العدد ، يطلبون الشهرة ليس إلا ، وليس لهم أقل تأثير فى سياسة مصر ، وثانيهما المعتدلون وهم الذين يمثلهم حضرته ، وهم أكثر عددا وأصحاب المصالح الحقيقية فى مصر . وذكر فى عرض كلامه أن المعتدلين لا يحبون الآن أن يتكلموا فى الاستقلال ولا فى نبذ سلطة الاحتلال بل ولا عزل الموظفين الإنجليز ، وإنما هم يطلبون توسيع اختصاص المجالس الانتخابية وشيئا من الاصلاح فى التعليم ، وقال الناس : شاب خوّل لنفسه

خق السفارة بين المصريين والإنجليز بدون أن يستشير فى هذا الأمر أهل البصر عن الأمة التى ينوب عنها ، وذهب الناس فى تعليل هذه السفرة الفجائية كل مذهب وقابلت الأمة هذه السفارة بالاستخفاف وأعرضت عن (المنبر) استياء من هذا الدور الذى لعبه صاحبه بغير احتياط ولا تحفظ ، وزاد استياءها أنها أحست بتغير ذريع ظهر فى سياسة (المنبر) فبعد أن كانت تدعو إلى التأليف وتحث على التضامن أخذت تعمل على التفريق بفصول كتبها يخطىء فيها كل من خالفه بلسان الساحر المتنمر .

أما (المؤيد) فقد تحول عن خطته وتغير عن سابق طريقه ، كان اعتقاد الناس أن يقرأوا فى المؤيد غارات شعواء ضد الحكومة وسيرها ، فخلف ذلك مسالمة ظاهرة ، ثم اتفق أن ذهب صاحب المؤيد إلى لوندرة فاحتفل به فخطب خطبة سياسية شفت عما فى صدره ، من التحول إلى سياسة الملاينة والمخادعة فأكد للناس صدق ظنه فى تحوله عن منهاجه الأول ، فكان جواب بعضهم أنه تابع فى سياسته لبعض المصادر العالية فأشارت إليه بالصمت فأمتثل .

(الوطن ومصر) تذهب الجريدتان مذهب مسالمة الإنجليز فهما ممن يعتقدون أن الانجليز دخلا هذه البلاد لإصلاحها ثم تركها لأهلها حاصلة على كل وسائل الحياة الأدبية والاجتماعية، وقد أدرعا بصراحة فى القول تخرج عن حد التهور وتسلحا بلهجة ليست العادلين فى شىء فهما لا يتأدبان بآداب طائفتهما .

(اللواء)[١] هى اليوم ترجمان الشعور الوطنى ، تمثل فى عبارتها وأسلوبها صورة الروح المصرية بكل دقائقها ، وقد كان هذا التأثير للمؤيد قبلها ، فلما تحول عن مذهبه الأول خلفه اللواء وهو لم يزل فى خلافته إلى اليوم ولو تحول لتحولت الأمة عنه . ويعيب العائبون على اللواء تطرفا فى مذهبه وشدة فى لهجته وينسى هؤلاء بأن الرجل الحى إذا شعر بفقد

(١) يلاحظ أن فريد وجدى كان مواليا للحزب الوطنى فى هذه الفترة .

أمته للاستغلال ، وهو أكبر ما تصاب به الأمم من جائحات الحياة كان من أقل واجباته أن يتألم ويظهر ألمه .

لا حرج على المطالب بحقوق بلاده أن يحتد فى لهجته ، وأن يشتد فى عبارته ، بذلك إنما يترجم عن شعور طبيعى ، هو أول علائم المحقين ، وأوضح دلائل الصادقين ، وإنما الحرج والويل لأولئك الذين يظهرون بإزاء ضياع استقلالهم بادرين ، جامدين ، هل يصح أن يتكلم مصرى عن شئون بلاده وحقوقها المسلوبة بغير تلك اللهجة التى هى لهجة طبيعية لكل متكلم مسلوب الحق ، ويعيب المؤيد ، على اللواء هذه اللهجة ويعدها أنا تطرفاً وطوراً تهوراً ، وحيناً يسميها جبناً وتهوساً ، ولو تذكر أنه بنى دوره وقصوره وركب عربته بثمن مثل هذه اللهجة القديمة لما خط من تلك المسبات حرفاً واحداً ، ولقد كان مصطفى كامل مثالا من هذه الأمثلة الحية على هذا اللون فمن نازعه فى ذلك فقد نازعه فى أخص أوصافه وصميم صفاته .

بين فريد وجدى ولطفى السيد

صدرت جريدة الدستور لصاحبها ومحررها العلامة محمد فريد وجدى فى ١٦ نوفبر ١٩٠٧ وفى ١٨ نوفبر ١٩٠٧ استقلت «الجريدة» : جريدة الدستور فقال لطفى السيد :

(١) ظهر العدد الأول من الدستور بمقال عن الحالة الإجتماعية والسياسية لمصر حمل فيها لأول يوم من ظهوره على آراء المعتدلين فسفهها بأدلة كأدلة (اللواء) ولا مندوحة لمقرظ الدستور من أن يقول بأنه من (اللواء) بمنزلة (المنبر) من (المؤيد) لم يأت بخطه جديدة فى إصلاح ذات البين ، وتقصير مسافة الخلاف بينهما ، أو رتق فرجة المماكسة بل جاء على العكس يزيد فى طنبور التفريق نغمة وينصح لشيوخ حزب الأمة أن يستعصموا بآراء بنيهم وأحفادهم من الشبيبة ويطالب بجمع الأمة إلى زعامة مصطفى كامل » .

* * *

وقال فريد وجدى : أما نحن فنقول أننا نعتقد أنه ليس فى مصر فى عهدها الحاضر فتنة أشد حلا لروابطنا وتفريقا لألفتنا ، وتمكيننا للمستعمرين من محقنا بقصد إنقسامنا إلى معتدلين ومتطرفين . تقول الجريدة : إننا ما جئنا بخطة جديدة لإصلاح ذات البين ، بلى !إننا جئنا بمحاربة فكرة التطرف والاعتدال ، وكفى بإزالتها مصلحا لذات البين وجامعا للطرفين المتنازين . إننا نعتقد أن أكثر الخلاف بين الجرائد منشؤه التنازع على الرئاسة ، فالمؤيد هو أبو الجرائد الإسلامية (الوطنية) ومؤسسها الأول ، يرى أنه أحق بقيادة الرأى العام و (اللواء)

لا يرى (المؤيد) أهلا لذلك التحول الذى طرأ على لهجته فى السنين الأخيرة ، فجاءت (الجريدة) نابذة الرئاستين محمية النفس يميل الأمة إليها دون غيرها لاشتراك الأعيان فى تأسيسها . لقد انتظر الناس ظهور الجريدة بلهف يوم صدورها فما حان اليوم حتى برزت الجريدة مكتوب عليها . «من حقق النظر وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن ألمها فى أول صدمة كان اغتباطه بذمهم إياه» فقال الناس ، بالعجب ، جريدة مصرية يقوم بإنشائها أعيان مصر لخدمة المصريين وإيقاظ عواطفهم ، تصدر بهذه الجملة الدالة على أنها ستحمل على العقائد الموروثة والعواطف المتأصلة فى النفوس حملات منكرة حتى تحرج صدور الناس عليها فيوسعها الناس ذما ، ويشبعونها شتما ، فتكون بما راضت به نفسها على السكون للحقائق أفرح بذم الناس لها من مدحهم إياها .

هل نحن من الدين على باطل فجاءت الجريدة لكي تخفيفنا فيه ، هل نحن من الوطنية على ضلال حتى أتت الجريدة لمنازعتنا فيه ، وقرأ الناس فى الجريدة مقالات فلسفية ومباحث فى الاقتصاد والتعليم ، مما اعتاد الناس مطالعته فى المجلات الشهرية ، فهل مرت الجريدة بذكر الاستقلال ، هل مست موضوعا دقيقا بين المصريين والمحتلين ، هل ناضلت عن حقوق مصر بلهجة المصرى الغيور ، هل علمت المصريين كيف أن الوطنية ، سياج الأمم ومساك الشعوب .

كلا ، لعلنا على باطل فى أمرنا ، وجاءت الجريدة لهدايتنا إلى الحق فيه ، فهل سعت فى التوفيق بيننا وبين المحتلين ، هل دعتنا إلى تسلم قيادنا إليهم ، إذن ما الجريدة ؟ فلا هى على مشرب الجرائد الوطنية تعبر عن شعور المصريين وتمدهم بالدروس المرقية لمواطفهم ، ولا هى على هدى الهداة المخالفين ، فتستحق منا احترام المخالف المخلص فنقرأ لندرك وجه الحق من النقيض ، قال الناس ليست الجريدة على شىء فاتركوها وكادت تصبح خبرا لكان لولا أن تداركها مجلس الإدارة فأعلن أن وراء الجريدة حزبا يقال له (حزب الأمة)

وأعضاؤه رؤساء العائلات السرية فى البلاد وأنه ساع فى نشر التعليم بماله وجاهه وتهيىء الأمة للاستقلال وحكم نفسها بنفسها .

فصفق الناس طربا ، وقامت الجريدة زاعمة أن الأمة طفلة قد غرر بها المتهورون ، وأنها فاقدة الشعور قد ألهاها بالخيال الموهون ، فآلت على نفسها لتفضحن تلك الجرائد ولتنتقدن عليها عملها وأنها لن تصرح للأمة إلا بما يناسب حالها ويتفق مع قابليتها ، فلما مارست الأمة وعالجتها تبين لها أنها بإزاء أمة ذات شعور حى وعواطف وطنية صحيحة . فكافحتها أشهراً متعددة كفاحا يصح أن يسمى إنهزاما ثم اضطرت لمشايعة الأمة فى شعورها فكانت النتيجة على عكس ما قصدت ، قصدت أن تجذب الأمة لجذبتها الأمة ورامت أن تهذبها فرأت أنها هى المحتاجة للتهذيب ، فكانت الجريدة بهذا الاعتبار أول الأدلة على قوة شعور المصريين وعلى حياة وطنيتهم .

فالمؤيد ومن نحا نحوه يقولون أن الأمة لم تزل محتاجة إلى الإرشاد ، ولم تصل بعد إلى سن الرشد الذى يسمح لها بانتخاب سياسة لنفسها ، بل لا بد للصحف من تعديل رأيها والصبر على شططها . وكلمة (الجريدة) شعارها يشعر بأنها تمد خطة للحملة على الرأى العام حملات منكرة حتى أنها توطن نفسها على أن ستلاقى فى ذمة وسخطه مالا يطيقه إلا من راض نفسه على السكون إلى الحقائق .

أما (اللواء) فمبدأه اعتبار الأمة راشدة عاقلة يجب إحترام شعورها ، فهو بعيد عن ذات صدرها ، وهى عين الخطة التى كان عليها (المؤيد) قبل عشر سنين ، حتى بلغ التحمس به إلى حد فقدت الأمة معه رشدها . أن زعم زاعم أن اللواء متطرف فى خطته ، فالأمة كلها متطرفة معه إذن ، فمن نقم على اللواء فينقم عليها كلها ، وإذا تقرر هذا فإن مسألة اختلاف الجرائد مسألة تنازع فى الرئاسة وهذه الرئاسات من حقوق الأمة الطبيعية .

أقد بعد[١] لطفى السيد حياته السياسية ضعيف القلب خائر العزيمة ، يائسا أو قريبا من اليائس ، وأدار جريدته على مبدأ يغاير مبدأ الحزب الوطنى كل المغايرة ، فما كان يقرأ القارىء فى تلك الصحيفة إلا حملات عنيفات على الشعور الوطنى وطلاب الإستقلال بحجة أن الأمة لا تزال عمياء صماء بكماء ، وأن كل الذى فيها حركة مصطنعة أوجدها بعض السياسيين المتحمسين الذين لا ينظرون إلا لمصالحهم الذاتية ، فلم يمض على لطفى السيد فى هذا الظن عام حتى توالت عليه من الضربات ما جعله ينظر غير النظر الذى دخل به معها فى معمعان السياسة .

وتكلم[٢] لطفى السيد عن (الوطنية) كلاما يعتبر فى علم الفلسفة اليوم من بقايا القرون المظلمة ، التى كان فيها أمر النوع الإنسانى قائما على مبدأ (المنفعة) المادية المحضة ، والحاجات الحيوانية الصرفة ، ولم يدر أن العالم الإنسانى قد تدرج نحو الكمال ، فهو كل يوم يطلب وجوداً أرقى وحالا عن حالات الحيوانية أبعد ، مما يظهر لى أن لطفى بك قليل الإطلاع على معارك الإفهام والهمم ، فى العالم الإجتماعى ، فهو من أمثال نظرية الوطنية والمنفعة فى دورها الأول . وما ظنك بخطيب يقوم فى القرن العشرين وسط أمة فى مضطرب الأمم ومزدحم المذاهب الاستعمارية تعتبر عطشى لسلسبيل العلم الراقى لتحل به غوامض المتناقضات التى تراها بين يديها ، ومن خلفها ، فلا يواتيها من نظرية الوطنية والروابط الإجتماعية إلا بأخس مما كانت عليه أيام كان الرجل يسلب جاره عاملا على «مبدأ المنفعة» . نعم ، قامت الوطنية على المنفعة كما يقول ، ولكن غاب عنه أن المنافع قد ارتقت فى ذاتها ، وفى نظر الأمم ، فبعد أن كان الإنسان يرى أن المنفعة هى أن يعيش على هيئة قبيلة ، وأن يطارد جميع مجاوراته من القبائل كما هى حال الوحوش الهائجة ، ارتفعت المنفعة فى ذاته واتسعت نظرية الإجتماع فى نظره فمال لتكوين أمة فانساق لتوحيد قبائله ففعل فكانت الأمم ، وكان من لوازم اتساع نظرية

---

(١) ١٨ / ٥ /١٩٠٨ جريدة الدستور . (النص مع بعض التصرف).
(٢) ٢٦ أغسطس ١٩٠٨ .

الوطنية ارتقاء شخص « المنفعة » وكانت المقدمات هي التي تبذل التمهيد لعصر تلك الحياة الاجتماعية التي يتسع معها معنى الوطنية فلا يقصر على أبناء البلد الواحد ونشر مبادىء الإخوة الإنسانية. وقد بدت مقدمات هذا العصر الأوربي الجديد، فانشئت لديهم محكمة التحكيم في لاهاى وحلت مشاكل كثيرة قامت بين الأمم وتكلموا في توحيد اللغة لتوحيد العواطف ولتصبح الأمم كالأسر المختلفة في مملكة عامة هي أوربا بأسرها ! فأين لطفي السيد من هذا كله ، أنه لا يزال من الوطنية في أدنى أشكالها ، فهو يقول المصريين إبنوا وطنيتكم على المنفعة المجردة . وتقتضي هذه النظرية الخشنة أن لا يضحي المصريون أي مصلحة لهم ولا يكابدون أي تنازل كان في مصلحة أمة أخرى .

مذكرات صحفي . سليم سركيس

لم أجد بين ما قرأت من كتابات الصحفيين ما هو أكثر احاطة وجرأة من كتابات سليم سركيس المبثوثة بين ثنايا مجلدات مجلته[1] التى ظلت تصدر من ١٩٠٦ — ١٩٢٦ كان متقدما عصره فى مفاهيمه للصحافة ومنهج تحريرها ، بدأ حياته الأدبية فى صف الحروف ثم انتقل إلى تصحيح المسودات ، إلى تنقيح الرسائل ، فكتابة المقالات فى المواضيع المختلفة ، تنقل بين سوريا مسقط رأسه ، فأوربا (باريس ولندن) ثم عاد إلى مصر ، أصدر جريدة المشير وحمل على السلطان عبد الحميد ، واختلف مع قادة تركيا العثمانية ، ولم ترض كتاباته الخديو عباس فقبض عليه وحوكم فسافر إلى أمريكا وعاد بعد خمس سنوات إلى مصر ١٩٠٥ وعزم على الابتعاد عن السياسة ، وكان على ولاء كامل مع اللورد كرومر والاستعمار البريطانى وانضم إلى تحرير المؤيد ١٩٠٦ وعرف بمقالاته التى كان يكتبها تحت عنوان « الشيء بالشيء يذكر » .

كيف كنت أحرر المشير

يقول : فى سنة ١٨٩٦ كنت أقيم فى القاهرة أصدر (المشير) زارنى من يقول : مالك ولأبى الهدى ، وذلك على أثر حملة على أبو الهدى الصيادى فى صحف مصر (كان أبو الهدى أبرز مستشارى السلطان عبد الحميد وهو حلبي الأصل) المتحدث هو الشيخ كمال الصوفى مفوض الاستانة الموفد لمصالحه الجرائد واسترضائها : قال : أنت تطعن عليه ، وهذا خطأ ، أليس الأفضل أن يكون هذا الرجل العربى صاحب الكلمة العليا فى الآستانة فيستطيع العرب أن يصلوا إليه ، خير من رجل تركى .

---

(١) مجلة سركيس .

وكان قد علم أننى سأنشر صورة كاريكاتورية لأبى الهدى فى المشير فى حالة منكرة (صورة الأخطبوط) فى العدد الذى يصدر غدا .

فقال : اسحب الصورة وأنا انقدك أربعين جنيها ، فأرسلت خادمى إلى المطبعة ، وبعد قليل عاد بالخشبة وعليها الرسم فدفعتها إلى الشيخ ، فنقدنى أربعين جنيها انجليزيا ، وانصرف ، وصدر المشير بدون صورة هزلية . وفى العدد التالى نشرت الصورة وكتبت الحكاية وكيف إشترى الصورة الأولى منى ، بأربعين جنيها وقلت بما أن هذا المال مرصود لرشوة الصحافة فاذا لم أخذه تناوله سواى فقد أخذته وأعدت نشر الصورة .

المشير : ٨ يوليو ١٨٩٩

أعترف بأنى ارتكبت فى هذين اليومين جريمة اللصوصية ، ولعل ذنبى لا يكون أعظم من ذنب حواء وآدم فانهما سرقا تفاحة ، وأنا سرقت مقالة من منزل الدكتور شميل لأنه كان بخيلا بها . فاذا وصل هذا العدد من المشير إلى صديقى الفاضل ، وذهب إلى مكتبة ، وفتش على مكان فيه فلم يجده ، وتحقق ما أقول ، فارجوه أن لا يعاقب البواب أو الخادم . بلغنى أن الدكتور شميل مصاب بجدار (روماتزم) فهرولت إلى منزله العامر أعوده نحو الساعة السادسة مساء ، فقال الخادم أن الطبيب خرج فى عربة للنزهة ، فدخلت إلى مكتبة الدكتور وجلست بين الكتب والأوراق التى تحيط حضرته فى غربته ، وأردت أن أسلى نفسى بالقراءة ريثما يعود ، ثم حانت منى التفاتة إلى مكتبه وإذا هناك أوراق مبعثرة مكتوبة فدلتنى سليقة الصحافى التى عندى أنها أصول مقاله يكتبها الدكتور وحملتنى الوقاحة المذمومة فى كل انسان إلا الصحافى على الاطلاع عليها ونظرت إلى ماحولى فلم أرمن يراقبنى فأخذت تلك الأوراق وقرأتها ، وإذا هى مقاله بدأ بها وكتب منها ثلاثة أوراق لاغير ، وبدأ بالرابعة والمقالى بيان مفاوضة بين الروح الانمى والدكتور ، أما أنا فأخذت أوراق المقالة ووضعتها

فى جيبى ، وخرجت قائلا للخادم ، أن الطبيب تأخر ، وأنا لا أستطيع الانتظار ، وكان للمقالة التى اختلستها من مكتب الدكتور شميل رنة وحديث بين الناس ، فقد علمت جريدة الأخبار يوم الجمعة بأمر السرقة وتلاها مكاتب البصير هنا، وفى الغد نشرت الأخبار رسالة منى ونشر المقطم رسالة أخرى إعترفت فيها أننى السارق ، وما ظهر المشير يوم السبت حتى طاف الباعة ينادون ، محرر المشير حرامى ، فتهافت الناس على قراءة المشير ليقفوا على جلية الخبر .

٤ سنوات و ٤ شهور و ٢٠ يوما فى تحرير المؤيد

عملت فى تحرير المؤيد (يونيو ١٩٠٦) بعد أن اختلف (مع صاحبه) محمد مسعود وحافظ عوض وكان محرران المؤيد منذ اثنى عشر عاما على صاحب الجريدة اتركا الادارة ، وقد أدخلت إلى الصحافة العربية بواسطة طريقتى المستحدثة فى تحرير المؤيد .

(١) المحادثات على طريقة (الانترفيو) فكتب فى كل حادث خطر ، انتقل إلى مكان الحادث وأحادث الأعيان وذوى الرأى . (٢) أدخلت إلى المؤيد طريقة العنوانات الواضحة وهى طريقة جرت عليها سائر الجرائد بعد ذلك (٣) أدخلت : كتابة المقالات القصيرة وتقطيع المقالات والاكثار من أوائل الكلام ، بل إن كانت المقالات أطول من لسان النمام . (٤) أدخلت المقالات الأمريكية .

وقد تأكد صاحب المؤيد من أننى أعيش لأكتب ، ولا أكتب لأعيش ، فكان إذا تغيب فى أوربا أو سوريا أو الآستانة يضمن ما يريده لجريدته من الثبات على مبادئها لوجودى محرراً بها .

× حدث مساء ٢٤ يوليو ١٩٠٨ أننى كنت جالسا وإذا بالشيخ يوسف الخازن يقول : ورد تلغراف الأمة بإعلان (الدستور العثمانى) ، توجهت إلى إدارة المؤيد ففتحت الأبواب وراجعت ما فى مكتبتها من المجموعات السياسية والدولية وقضيت الليل فى الكتابة حتى الصباح ،

وكان (المؤيد) أول جريدة أذاعت هذه البشرى ، ونشرت القانون الأساسي وتاريخ الدستور الأول والمعاهدات ، ثم أصدرت المؤيد مرتين في النهار .

× أردت أن أكون أول من ينشر شيئا عن كتاب كرومر (مصر الحديثة) فارسلت إلى إحدى المكتبات في لندن ، قالت المكتبة أنه من المستحيل ذلك، غير أنها أرسلت بعض نسخ من إعلان صدر بمناسبة صدور الكتاب بصفة نموذج ، هي ورزمة من الأوراق مؤلفة من ٨ صفحات بحجم كتاب اللورد وهي الملزمة الأولى فيها الصحيفة الأولى والفهرسة ونصف المقدمة .

الشيخ على يوسف : كيف كان يحرر جريدته

على يوسف حرر المؤيد ٢٠ سنة ووصل بجريدته إلى حالتها الحاضرة ، وهو لا يعرف حرفاً واحداً من لغة أجنبية ، ومع هذا فإن من يقرأ مقالاته لا يصدق أنه هو الذى كتبها لأنها لا تختلف في شيء مما يكتبه لطفى السيد ويعقوب صروف وهما قد برعا في اللغات .

حدث ذات يوم أنني خرجت من منزلي وعرجت على القهوة وهى كما لا نجهل مرجع الناس في مصر كل ساعة من ساعات النهار والليل ولقيت منها عزيز خانكى .قال « مقالة على يوسف عن المجالس النيابية من يقرأها يتصور أنه يقرأ فصلا من روح الشرائع لمونتسكيو .

والشيخ على يوسف مزية مدهشة عرفتها في كل هذه السنوات ، هى أنه أقدر كاتب على الاقتباس وأن له ذاكرة ليس أقوى منها في استيعاب ما يعرض لها . ويدهشنى من (على يوسف) مقدرته النادرة على الكتابة في أى موضوع خطير مهما كانت الظروف المحيطة به ، وأغرب من هذا أنه إذا حادث أميرا أو وزيرا أو صحفيا ثم أراد بعد أسبوع كامل أن يدون ماسمعه من محدثه فإنه يستطيع أن ينقل ما سمعه صحيحا ، وقد يظن قوم أن كل الذى يفعله الرجل أنه يكتب مقالة افتتاحية لجريدته ، وهذا خطأ فاضح ، فهو دون سواه من الصحفيين الذين أعرفهم يقرأ كل سطر ينشر في جريدته قبل نشره وقبل تسليمه

إلى مرتبي الحروف ، حتى أنه ليقرأ إعلان « فقد ختمى » ورسالة فاقوس ، ولا يقرأها فقط بل عر بقلمه على أكثر الكلمات إيضاحا لكتابها وتسهيلا لمرتبى الحروف

عرفت صاحب المؤيد يكتب أفضل مقالاته وأكثرها أهمية والقيامة قائمة حوله والأصوات كثيرة والجلبة عظيمة ، وعنده أكثر من زائر فلا ينقطع فكرة ولا يقف تيار قريحته ، ورده على اللورد كرومر يوم استقال ، أعجب ، فما فرغ اللورد من إلقاء خطابه فى الساعة الحادية عشرة ونشرت ترجمة الخطاب ليلا ، فلما أصبح الصباح كان رد الشيخ بين أيدى العمال ، ومقالات (قصر الدوبارة) كان يكتبها قبل الظهر وتصدر فى المؤيد الساعة الثانية فى اليوم نفسه .

كيف يحررون الجرائد فى مصر ومن هم الذين يحررونها ؟

أننى طويل(١) اللسان بشهادة الحكومة العثمانية الماضية التى سبق لها أن رفعت على قضية بحجة إطالة اللسان، والحقيقة أننى إذا لم أكتب فإننى أتكلم وإذا لم أكتب ولم أتكلم نصف ساعة فإننى أنتحر .

انتقلت من تحرير المؤيد رحمة بقراءه وبفلوسه ، أن الذين يعيشون من شق القصبة (يقصد القلم) لم يدركهم الفن كما أدرك صاحبنا البابلى فهم لا يملكون أكثر الأحيان وخصوصا فى الشهر ٢٠ ريالا ولذلك أرسلت إليهم التذاكر مجانا لوجه الله — استغفر الله — بل أرسلتها مجانا طمعا بما يكتبونه غدا من الإطراء والثناء عملا، أنهم يحررون الجرائد بطريقة شرقية محضة أى بدون أى قياس ولا قاعدة ولا ضابط . فيكيلون الألقاب جزافا على نسبة الفائدة . وإذا كتبوا عن رجل أنه الوجيه الأريحى الهمام ، فأعلموا أن صاحبها مشترك جديد ، وأن اعتدوا على حقوق الخديوى فزادوا على اسم ممدوحهم «سعادة البيك» وما هو كذلك فاعلموا أنه مشترك جديد وقد دفع قيمة الاشتراك نقدا . ومتى ذكروا اسمه أكثر من مرة

---

(١) ٢٠ / ١٢/ ١٩١٠ مجلة سركيس .

فى أسبوع واحد، فتأكدوا أنه عمدة ؛ وقد وعد أن يكثر عدد المشتركين ، ولوكلاء الجرائد فى الداخلية سلطة مفيدة فهم يكتبون رسالة عن افتتاح « كتّاب » قد يكون أضيق من هذه الاوحات وعدد الطلبة قد لا يزيد عن مجموع الدنانير فى جيبى وجيوب جميع الماليين وعلاً الوكيل نصف عمود فى وصف الرجل وأطرائه . فأعلم متى قرأت ذلك أن الوكيل قد أرسل دفعه من التحصيل وأعلم أنه أيضا أبقى لنفسه دفعة أخرى .

أما أخبار أوربا وأمريكا والهند والصين وسوريا وكل بلاد ماعداً مصر فلا أهمية لها عند جرائدنا، والذين لا يقرأون إلا جرائد مصر يعيشون ويموتون بعد عمر طويل وهولا يعلمون شيئاً عما يجرى فى العالم إلا ما ينقله إلينا أحمد زكى بك (يقصد العلامة شيخ العروبة) من حين إلى آخر ، بل يحدث أحيانا لجرائد ما أن تحذف تلغراف روتر عن الانتخابات فى انجلترا لتضع محلة إعلان « فقد ختمى » . أوترفع إحدى مقالات (بيان لا بدمنه) لنشر رسالة من سرياقوس ، بل أن بعض جرائدنا إذا جاءها تلغراف هافاس متأخرا وكان المحرر كسولا، تصدر(الجريدة) وفيها العبارة الآتية:(لم يرد شىء مهم فى تلغرافات هافاس اليوم) .

ومن عادات جرائدنا أن الصحافى يقرأ فى جريدة رخيصة خبرا جديدا لم يحصل عليه فى وقته فينقله إلى جريدته دون أن يشير إلى مصدره بعد أن يغير لغته ، فإذا كان الخبر صحيحا (صهين) وإذا ظهر أنه مكذوب ، يقول أن العهدة على الرصيفة الفلانية لأننا نقلنا الخبر عنها. وألطف ما فى جرائدنا تقريظ الكتب فإنها تقرظها ناظرة إلى المؤلف لا إلى التاليف فلو أن فتحى باشا زغلول وضع اسمه غدا على طوابع اللوك لأصبحت تيمس مصر .

لما كنت أحرر المؤيد رفع إلى صاحب المؤيد كتابا فى الإنشاء لأقرظه فقرأته واستأت كثيرا لما فيه من الضعف والسخافة فكتبت فى مؤيد ذلك اليوم ما معناه «وضع حضرة فلان كتابا فى الإنشاء جمع بين الركاكة والضعف وكان الأول أن لا يصدره للناس بل أنه ارتكب جريمة فى إصداره ولو علم المتنبى وابن المقفع أنه يتحداها بمثل هذه السخافة

لاضطربت عظامهما فى قبريهما» . . فلما اصبحت دعانى صاحب المؤيد وبصرت عند رجلا لا أعرفه ،قال الشيخ : أن الأستاذ ناقم عليك لأنك إنتقدت كتابه أمس فخذه إلى مكتبك وانظر فى الأمر، فجائنى المؤلف عاتبا ناقما ، فبينت له أننى إن كتبت رأيى فى كتابه وبعد مناقشة قال : أنت لا تريد أن تسيء إلى فأرجوك أن تقرظ كتابى . . وأنت بارع وفى وسعك أن تحتال على تقريظه ، فكتبت : « كنا قد أبدينا رأينا أمس فى كتاب فلان ثم علمنا أنه لا يريد الانتقاد بل يريد الثناء المحض فراعاة لإرادته نقول أهدانا (فلان) كتابا فى الإنشاء لم ينسج على منواله فى بلاغته ويليق أن تزدان به المكاتب » .

وأسرعت إلى غرفة صاحب المؤيد وعرضت عليه التقريظ فأدهشه جدا ، وقال أنت تهزأ به . فقلت : لقد قرأ الثناء واستحسنه كثيرا ، فضحك الشيخ وقال : انشره لعل فيه عظة له .

تعريف جرائدنا

« مصر » مسيحية مثل كل شيء . «المؤيد» مسلم قبل كل شيء .

« الوطن » قبطى قبل كل شيء . «الأهرام» فرنساوية قبل كل شيء .

«المقطم» إنجليزى قبل كل شيء . «الجريدة» أمية قبل كل شيء (نسبة إلى الأمة) .

«اللواء» جلاّنى قبل كل شيء . «مصر الفتاة» ريفولفر (مسدس) قبل كل شيء .

« العلم » كل شيء قبل كل شيء .

كتاب الصحافة وأعلامها

(فى المؤيد) حامد إبراهيم — إسماعيل شكرى — محب الدين الخطيب — عمر منصور — عبد المؤمن عبد الحكم — محمود الباجورى .

حافظ عوض : (وصل إلى المية عن طريق الصحافة) ثم لا يزال يتناولها مجانا .

محمد مسعود (انتقل من المنبر إلى قلم المطبوعات) فريد وجدى : (الدستور) .
مصطفى لطفى المنفلوطى : خليل مطران :

الصحف ومحرروها

«الأهرام» : داود بركات . انطون الجميل . × «المقطم» : الدكتور نمر . يعقوب صروف . سامى قصيرى . × «الجريدة» : لطفى السيد . نجيب شاهين . يوسف البستانى . (ى . ب) صالح شاكر . × «اللواء» : فرج انطون . عثمان صبرى × «العلم» : عبد العزيز شاويش . أحمد حلمى . أمين الرافعى . × «مصر» : تادرس شنوده . توفيق حنين . عوض واصف . × «الوطن» : صبرى إبراهيم ، اسكندر شاهين . جرجى طنوس × «الأخبار» : يوسف الخازن . توفيق حبيب × «مصر الفتاة» : الحازن × «الأهالى» : عبد القادر حمزة سليمان فوزى

تعريف بالكتاب

سأبدأ بنفسى : واد حشرى ، كاتب يحاول معرفة ما سيطبع ، يقول أكثر ما يعلم ، مكثر فكيف يجيد ، لا يرى من يمدحه فيمدح نفسه

«الشيخ على يوسف» يحرر المؤيد بكل معانى الكلمة ، ولا يفوته فيه حتى إعلان حبوب ولكنه لا يستعملها . يقولون أن المنية احتكرته ولكن بالفاتحة فقط ، وهو طويل النفس ، والصبر ، شديد الغمز واللمز إذا أحرجه .

«محب الدين الخطيب» نابغة قومه فى صحافة مصر اليومية بينما جميع مواطنيه يتاجرون بالبن اليمنى والصابون ، إذ به يداعب الدولة العثمانية على صفحات المؤيد .

«داود بركات» معجزة الأنباء ومعجم المعلومات . يستطيع أن يحرر محضر الجمعية العمومية ولو لم يحضر جلساتها . «أنطون الجميل» . خفة روحه تشفع لسكوله . «الدكتور نمر» : شرس فى مناظرته مراعاه لإسمه ، مولع بالسجع ولو لم يكن صوتة

مطربا . « الدكتور صروف » : اقتطف من كل بستان ثمرة حتى لقد تلخبطت معدته فأصيب بتخمة ، فاستعان بالملوف .

« لطفى السيد » : صديق الفلاح ولكنه يخاطبه بالبادوجوجيا ، لو كنت إياه لا تخذت المقامرة حرفة وأقمت على طول فى مونت كارلو . فإن بخته يفلق الصخر ، الا ترى كيف سخر الله له مائةوجيه غنى سلوه الجريدة ومطبعتها ، كان (أفوكاتو) محامى الأفراد فصار المحامى عن الأمة ، كان يخطب فى المحكمة فصار يكتب فى الألوف .

« نجيب شاهين » . لو اهتم بمواد الجريدة اهتمامه بملابسه لكانت الجريد آية الآيات ، ما عابة القصر فهو طويل النجاد .

« يوسف البستانى » : اختصر اسمـــه إلى (ى ب.)

« فرج انطون » : هو دخيل فيه مع أنه صاحب الجامعة .

«عثمان صبرى» / اللـــواء . «سامى قصيرى» / المقطم .

«الشيخ شاويش» : مولع بزيارة دوائر الحكومة حتى لقد زار مصلحة السجون ، ولكن فى سبيل ما يراه حقا ، وترك اسمه الثانى فى السجن ، هو وأحمد حلمى من زملائى فى العطف على المسجونين .

«أمين الرافعى» : إذا كان موفقا فى المحاماة توفيقه فى كتابه القالات بشره يكرس القضاء . هو نجدة قســوية الصحافة . يحب فيكتور هيمو أكثر من حبه لدالتون .

«مصر» : تادرس شنوده توفيق حنين . عوض واصف .

«الوطن» : صبرى إبراهيم : أهم ما يشغله وضع عنوانات المقالات يعتقد أن المكتوب يعرف من عنوانه . اسكندر شاهين : الوطن

«جرجى طنوس» : هو مكاتب وادى النيل فى الإسكندرية ومحرر فى الوطن بمصر .

الأخبار : يوسف الخازن : لو أن الشيخ يوسف الخازن فى اعوجاج طربوشه لباظت الأخبار .

توفيق حبيب : كثير الحركة والنشاط والمعلومات والأسماء .

مصر الفتاة : كبير محرريها (جراحى) فى مضاء المبضع وحدة الفولاذ .

الأهالى : عبد القادر حمزة : هو الآن فى أهالى اليوم محل إسماعيل باشا أباظة فى أهالى الأمس ، ولكنه حل الحسام فقط ، وليست له اليد التى تضرب به عذرة فى ذلك السن .

سليمان فوزى : لما فرغت الجوائب من ترشيحه للتحرير ماتت كما تفعل دودة القز . انتقل من المؤيد إلى الأهالى .

محمد مسعود : انتقل من المنبر إلى قلم المطبوعات فأصبح يقتل نفسه بيده .

محمد فريد وجدى : تنازل عن الدستور للدولة العثمانية بعد أن قالت له تركيا الفتاة دستورك بابك .

المنفلوطى : كان يعمل فى المؤيد أسبوعيا فأصبح يعمل فى المعارف، يوميا هو فى المسلمين توفيق حنين فى الأقباط .

خليل مطران : حاول فى جوائبه (يقصد مجلة الجوائب) أن يدرك منزلة أحمد فارس الشدياق ولكن مصر غير الآستانة . وإسلام مطران أصعب من إسلام الشدياق مع محاولة شوقى وسعد .

لسان الحال والسكونمى

يشهد الله ومجلدات سبع سنوات من جريدة لسان الحال البيروتية أننى أول ما نالته

أساءت المراقبة الصحافية وأنني نكبت أكثر من أى صحاف آخر بالتشديد والضغط على حرية قلمي وفكرى . كانت سوريا أقدم مكان ظهرت فيه الجرائد السياسية، كان الحرية مطلقة لجرائد بيروت لا مراقبة عليها ولا سيطرة حتى بلغ من الخبر والجنان (بطرس البستانى) ومن لسان الحال أنها كانت تكتب بحرية لا تقل عن الحرية التى تتمتع بها الآن فى مصر ، وفى عام ١٨٨٥ كنت أحرر لسان الحال، وبدأت المراقبة فى بيروت . وكانت مسودة الصحف ترسل صباحا وتعاد بعد الظهر فإذا رأى (مساعد الرقيب) أى عبارة يعرف أنها لا ترضى المكتوبجى (الرقيب) حذفها بحبر أسود ، ثم تعرض له أحيانا بعض عبارات لا يدرى ماذا يفعل بها فيضع عليها علامة مستطيلة بحبر أحمر ، ثم تقدم إلى المكتوبجى الذى لا يعرف اللغة العربية ، فيضرب على كل عبارة عليها إشارة حمراء ، ثم يؤشر بكلمة (كور لشدو) هذه كلمة الأجازة ، وتعاد إلى محرر الجريدة الذى يحل الحروف ويحذف ما حذفه المكتوبجى ويضع مكانه مقالات أخرى ، وترسل المسودة ثانية إلى المكتوبجى ، فيجرى ما جرى أولا وهكذا إلى أن تطبع الجريدة ، فلما عجزت عن احتمال هذه القيود تركت بيروت ١٨٩٤ إلى باريس ومنها إلى الإسكندرية فأنشأت المشير ، ولم يكن فى مصر جريدة خاصة بالمباحث الحرة العثمانية ، ومبالغة فى الحرص على سلامتى استعنت بصديق انجليزى اسمه المستر فولر فوضعت اسمه فى ذيل المشير بصفة مدير ، ولما وصلت أعداد المشير إلى (بيروت) صدر الأمر بإحراقها .

× إن حياة[1] سليم سركيس من فضل الوكالة البريطانية ، ساعده اللورد كرومر على حفظ حياته ، فقد طلبته ولاية بيروت من حكومة مصر لمحاكمته ١٨٩٥ وتسليمه ، وعرض الأمر على الوكالة البريطانية

---

(١) العبر : ١ سبتمبر (أيلول) ١٩٠٨ .

× قال كرومر : أنك تطمع فى حكومتك طمعا جارحا فاننى قرأت بعض مقالاتك ، ثم قال : إذا طلبوك فأنت لا تترك مصر أن شاء الله .

وقال لى كرومر : ألست (بروتستانتى) ، ألا تذكر قول الكتاب والأنبياء : لا تقل سوءاً فى رئيس شعبك .

وكنت كثير الطعن ، والشتائم تترى كل يوم ، وقالوا عنى : سركيس ابن ابليس وفى ١٨٩٥ نقلت المشير إلى القاهرة ، ونشرت كتاب (سر مملكة) الذى فصلت فيه كيف قتل مدحت .

× منذ نشأت الجرائد العربية فى الشرق لم يجتمع المال والعقل لصاحب جريدة واحدة . نحن فى حاجة إلى حالة وسط بين مجلة الضياء مثلا وحارة مفيتى ، كانت الحارة تبيع ١٢ ألف نسخة من كل عدد ، وكان (الضياء) يعانى المشاق فى الحصول على ٥٠٠ مشترك .

× أن الصحفى هو خادم «القرش التعريفة» لأنه يعتمد فى حياة جريدته على إقبال القراء خصوصا غير المشتركين الذين يشترون جريدته كل يوم ، بقرش تعريفة ، فهو مضطر أن يرضى ألف شخص، فانظروا إلى مركز الصحافى الحرج ، متى استاء واحد من جريدته امتنع عن شرائها .

× جرائدنا العربية فى وصفها وترتيبها وتبويبها وتحريرها وإعلاناتها لم تتقدم منذ نشأتها خطوه واحدة ، بل لا تزال على حالها كما كانت فى عهد آبائنا وأجدادنا ، وأريد بالأباء والأجداد : الجنة والجنان فى سوريا والجوائب فى الآستانة لأحمد فارس والمحروسة والعصر الجديد (أديب إسحق والنقاش) فى مصر ، وتأخذ الجريدة العربية اليوم فتجدها مثل الجنان والجنة منذ ٤٠ سنة؛ الصحيفة الأولى المقالة الافتتاحية ، وأخبار البريد ، والثانية لأخبار الجهات والثالثة للأخبار المحلية والتلغرافات والرابعة للاعلان .

× كان البستانى ينقل لجرائده من الصحف الانكليزية فتقرأ اسم الجنرال مولتكى هكذا ولا تزال جرائدنا حتى الآن تقول (موليك) وكان البستانى يترجم كلمات الاستحسان فى خطب البرلمان ترجمة حرفية بقوله (اسمعوا اسمعوا) ولا نزال نترجمها كذلك حتى الآن .

المقالة الافتتاحية فى الصفحة الأولى ، الصحف ٤ صفحات وبعضها ٨ صفحات ، لماذا لا نجعل مقالاتنا الافتتاحية فى الصفحة الرابعة ، ومختصرة ومفيدة ، فيكون فى العدد الواحد فى مكان معين معروف ثلاث مقالات افتتاحية ، فى ثلاث موضوعات خطيرة .

× نقش المؤيد تحت اسمه بحروف كبرى أنه جريدة يومية سياسية وتجارية ، وزادعليها اللواء أدبية ، وزاد المنير علمية والمقطم كاللواء تماما وكذلك الوطن والدستور .

× اشتراك المؤيد ١٧٠ اللواء ١٨٠ المقطم ١٧٠ كالمؤيد ، والجريدة ١٦٠ (قرشا) مع أن الجرائد جميعا تصدر فى حجم واحد تقريبا .

× المؤيد تقول أن جميع المكاتبات ترد باسم صاحب الجريدة ومدير سياستها (على يوسف) وليس فى المؤيد اسم آخر ، أما فى اللواء فتجد أن مؤسسها مصطفى كامل باشا وأنها لسان حال الحزب الوطنى وأن جميع الرسائل ترسل باسم رئيس تحريرها ومدير سياستها المسئول الشيخ عبد العزيز جاويش ، أما الأهرام فقد اكتفت بأن المكاتبات ترسل باسم إدارة الأهرام ؛ أما المقطم فقد اكتفى بأن تكون الرسائل باسم (أصحاب المقطم) واكتفى الوطن باسم صاحبه بحروف عادية كما فعل المؤيد والجريدة ومصر ، بينما كتبت أصحاب المقطم بحروب فارسية .

× يميل رؤساء اللواء إلى النفرة من إشراك المحررين معهم فى الشهرة بل يريدون حفظها لذاتهم . وصاحب الدستور يضع توقيعه فى عدد واحد على أكثر من مقال ، أما صحف اللواء والجريدة والدستور ، فإن رؤساء تحريرها يوقعون دون سائر أصحاب الصحف .

نهاية المؤيد

يصور سليم سركيس فى مذكراته ماذا آلت إليه جريدة المؤيد فى أواخر أيام منشئها وبعد وفاته ؛ يقول :

ان سوء الادارة يرجع إلى أن الشيخ على يوسف جعل نفسه مديرها ومحررها فتم له ما أراد من جهة التحرير وفسد أمره من جهة الإدارة ، ولما شعر بالتأخر سلم إدارتها إلى اسكندر طراد المحامى ثم عبد الخالق مدكور ، ثم عهدوا برئاسة تحرر المؤيد إلى حامد ابراهيم كل مدة حرب البلقان وحرب طرابلس والحرب الأوربية الحاضرة .

فاذا جاء روتر بتلغراف « أن السير إدوارد جراى ألقى خطبة فى (البارلمان) عن الحالة السياسية صدرت الأهرام وفى صدرها تعليق على ذلك بقلم داود افندى بركات رئيس تحرير الأهرام ، وهو رجل قضى نحو الثلاثين عاما فى مطالعة الصحف الأوربية والوقوف على آراء رجال السياسة ثم هو يطالع فى الأسبوع ٢٠ جريدة ومجلة أوربية ويستوعب ما فيها .

ويصدر المقطم وفى صدره تعليق على ذلك التلغراف بقلم الدكتور فارس نمر الدكتور فى الفلسفة والعارف باللغات الكثيرة والذى قضى نحو ٤٠ سنة فى المطالعة والكتابة . ثم يصدر المؤيد وفيه تعليق على ذلك التلغراف بقلم الشيخ حامد ابراهيم وهو لم يقرأ أصل التلغراف بل ترجموه له ولا يعرف لغة أجنبية ولا قرأ جريدة أو مجلة سياسة وإنما اكتسب بعض معلومات عن السياسة من مطالعات مقالات الأهرام والمقطم .

سليم مكاريوس قضى شطراً من عمره فى أوربا لدراسة الصحافة وعاد إلى مصر ملأ القاهرة من أولها إلى أصغر حاراتها بباعة المقطم حتى لقد نسمع نداء عليه مع نداء باعة اللبن . وظل مشرفا بنفسه على البيع .

---

(١) أول ديسمبر ١٩١٥ مجلة سركيس .

محمد رشاد القاضي وحفني ناصف : أني أكثر الناس احتراما وتقديراً لرشاد بك وحفني بك ، الأول قاض نزيه وحفني منصف غيور والثاني علامة لغوى مفضال وشاعر رقيق ولكن تحرير المؤيد ليس قضاء ولا رحلة ولا رسالة لغوية ولا قصيدة عزاء ؛ تحرير الجرائد يستلزم معركة اللغات والهمة والشقاء .

مدير إدارة المؤيد يجب أن يكون مسيطرا على التحرير متى كان قادراً خبيرا يكون مسئولا عن رواج الجريدة ويعلم أن قلم التحرير إذا أهمل أو أساء أو بالمصلحة المالية .

لو كنت مديرا لإدارة جريدة لا أسمح لقلم تحريرها أن يجعل مقالتها الأولى في الصيام وواجباته أو أسقف الفيوم . . في نفس اليوم الذى تكون تلغرافات روتر قد حملت أنباء سقوط موناستير والاستيلاء على حصن كذا . « هذه خطرات صحفى حشرى » .

إطار لصورة العصر والمجتمع

من خلال الصحافة العربية فى مصر

من الاحتلال إلى أوائل الحرب العالمية الأولى (١٨٨٢ – ١٩١٤)

- ١ -

الأزهر

كان الأزهر قد أبرز فى خلال هذه المرحلة مجموعة من الأعلام ، بدأ ذلك بظهور : حسن العطار وتلامذته ، وفى مقدمتهم رفاعه رافع الطهطاوى ، ومحمد عياد الطنطاوى ، قصد أولهما إلى باريس وكان له دوره الضخم فى الترجمة والتأليف ، وقصد ثانيهما إلى روسيا وخدم اللغة العربية ، وأبرز الأزهر حسن الطويل أستاذ محمد عبده .

ثم كانت مرحلة اليقظة التى شارك فيها جمال الدين من خارج الأزهر ، ومحمد عبده الأزهرى الذى ظل بعيداً عن مناصب الأزهر ، مؤثرا فيه ، قاضيا ومفتيا ، وكان عرابى قائد الثورة على الاستعمار البريطانى من الأزهر . وقد نفى محمد عبده بعد الثورة فأصدر مع أستاذه الأفغانى « العروة الوثقى » فى باريس ثم عاد إلى مصر عام ١٨٨٦ فقاد الدعوة إلى تجديد الأزهر وكان هناك حزب يخاصم المفتى ويعارض دعوته وعلى رأسه يوسف الدجوى ومحمد بخيت .

ومن الأزهر خرج أعلام برزوا فى ميادين السياسة والصحافة: ابراهيم الهلباوى وسعد زغلول وعلى يوسف وعبد العزيز جاويش وعبد الله نديم والمنفلوطى وعبد الله فكرى وحمزة فتح الله وحفنى ناصف ، وكان الشيخ عبده قد شارك فى قانون تعديل أنظمة الأزهر عام ١٨٩٦ واشترك معه حسونه النواوى ، وسليم البشرى ، وعبد الكريم سلمان وسليمان العبد وهو القانون الذى قدم فى الأهمية مواد الأخلاق والحساب والجبر والتاريخ الاسلامى والهندسة وتقويم البلدان

وكانت ثورة الأزهر ١٩١١ بعد وفاة الشيخ عبده (١٩٠٥) من أبرز الثورات على تعديل أنظمة الأزهر . وكان أبرز مظاهر الحياة المتجددة فى الأزهر : « الرواق العباسى » حيث كان الشيخ محمد عبده يلقى دروس التفسير وهى دروس جددت

مفهوم القرآن مرتبطا بالحياة ، كان الشيخ يلقيها بعد المغرب ، ويقيم عليها بعض الحراس فلا يسمح بحضورها لأحد إلا بإذن منه ، وقد إختار لها صفوة من الشباب المتفتح ، حتى أن (رشيد رضا) الذى كان قد اقترحها على الشيخ المفتى ، عند ما حاول تقديم (عبد العزيز جاويش) ليحضر هذه الدروس ، طلب منه الشيخ محمد عبده أن يسأل (جاويش) عن الفترة التى قضاها فى الأزهر ، وهل كانت طويلة أو قصيرة ، فلما علم أنه أمضى فى الأزهر عامين أو ثلاث ، قبله فى الحلقة ، وفى الرواق العباسى فى الصباح كان يلقى الشيخ سيد المرصفى تفسير الحماسة ، أو تفسير المفصل للزمخشرى .

* * *

(٢) وقد رسم إبراهيم المويلحى صاحب جريدة مصباح الشرق[1] صوره مجلس من مجلس العلم فى الأزهر الشريف قال : قال صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر فى حديث له مع العلامة المحقق أمام اللغة والأدب الشيخ محمد محمود الشنقيطى أن يحيي ابن الامام مالك رضى الله عنه جاء إلى مصر ومات فيهـا ، فقال الشيخ الشنقيطى بل الذى جاء إلى مصر أخوة محمد فقال شيخ الجامع ويجوز أن يحيي جاء أيضا ومات فيها ، فأجابه الشيخ الشنقيطى أن باب الجواز واسع جدا يدخل منه مالك نفسه وغيره فى المجىء إلى مصر ولـكن لا نقبل إلا ما أثبته الثقاة ، وأن كثيرا من الأخبار ينقل غير صحيح ، وقص عليه قصة أبى حنيفة وقتادة التى ذكرها الزمخشرى فى الكشاف وسهوا عن الغلط الذى فيها . وهى أن قتادة دخل الـكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوا عما شئتم ، وكان أبو حنيفة رضى الله عنه حاضرا وهو غلام حدث ، فقال سلوه عن نملة سليمان ، أذكراً كانت أم أنثى ، فسألوه فأفحم ، فقال أبو حنيفة كانت أنثى ، فقيل له من أين عرفت فقال : من كتاب الله وهو قوله قالت نملة ، فلو كانت ذكرا لقال : قال نملة ، ذلك أن النملة مثل الحمامة والشاه . وأبو حنيفة رضى الله عنه أجل قدرا وأوسع علما من أن يفوته أن التاء فى قالت لا تدل على

---

(١) مصباح الشرق — ١٢ مايو ١٨٩٨ .

تأنيث علة لأن التاء فى علة للوحدة لا للتأنيث ، والقصة مكذوبة على الإمام الأعظم بدليل أن الاستدلال الذى يليق بالامام بأنها أنثى موجود فى قوله تعالى (فتبسم ضاحكا من قولها) فجادله بعض جلاس الشيخ جدالا قطعه انصاف العالم الموفق الشيخ محمد بخيت باستصواب ما قاله الشيخ الشنقيطى ، ثم سأل بعضهم عن حوت يونس أذكر هو أم أنثى، فاستدل الشيخ الشنقيطى على أنه ذكر بالضمير فى قوله (للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون) ثم قص الشيخ الشنقيطى قصة أخرى مكذوبة على الإمام الأعظم رضى الله عنه وهى مانقله الإمام الحافظ فى كتابه عقود الجمان فى مناقب أبى حنيفة النعمان الخ .

* * *

(٣) وفى مؤتمر اللغات الشرقية الذى عقد فى هيمبرج (ألمانيا) سبتمبر ١٩٠٢ ألقى « مصطفى بيرم » رسالة عن الدراسة فى الأزهر قال فيها :

أن الدين الاسلامى الحنيف لا يمنع من تعلم أى علم من العلوم المعروفة الآن بين الأزهريين بالعلوم الحديثة . كالرياضيات والطبيعيات والعقليات ، ومن كان فى شك مما نقول فما عليه إلا أن يلقى نظرة على تاريخ القرون الأولى من الاسلام ومحافظتها على الدين مشهورة ، فيرى أن جيدها كان مزدانا بكثير من فحول العلماء الذين نبغوا فى هذه العلوم وألفوا فيها المؤلفات المعظمة . كانت العلوم الفقهية من رياضية وغيرها تدرس فى الأزهر ولكن المشتغلين بها ندر من الطلبة، وأخذ القول بحرمة بعض العلوم العقلية يتسرب شيئا فشيئا إلى الأزهر كما تسرب إلى غيره من الجوامع الاسلامية حتى تركت هذه العلوم فى الأزهر شيئا فشيئاً .

ولكن بفضل الله وكرمه لم يطل الأمر كثيرا حتى قيض الله لنا من علمائنا الأعلام من تنبه لأسباب تأخرنا العلمى وأخذوا فى السعى لإعادة تدريس تلك العلوم النافعة القوية للملكة الذهنية؛ ولخشية المفاجأة بإعادة تدريسها للجامع بعد مارسخ فى أذهان الكثيرين أن ما بها يعدو على الدين ، رأى ولاة الأمور أن يمهدوا السبيل لإدخالها فى الجامع الأزهر يأخذ رأى أفاضل العلماء الأزهريين ، فكلفوا والدى المرحوم السيد محمد بيرم (من مدرسى جامع

الزيتونة ومدير الأوقاف التونسية وقاضى محكمة مصر) بهاته الهمة العلمية، وبعد أخذ وعطاء بينه وبين الشيخ محمد الانبابى شيخ الاسلام بمصر، والعلامة محمد البنا مفتى الديار المصرية فى ذلك العهد، استقر الرأى أن يكتب لهم استفتاء هذه صورته بعد الديباجة :

* * *

«ما قولكم رضى الله عنكم : هل يجوز تعلم المسلمين العلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر المعارف لاسيما ما يبنى عليه زيادة القوة فى الأمة بما تجارى به الأمم المعاصرة لها فى كل ما يشمله الأمر بالاستعداد ، بل هل تجب بعض تلك العلوم على طائفة من الأمة بمعنى أن يكون واجبا وجوباً على نحو التفصيل الذى ذكره فيها الامام حجة الاسلام الغزالى فى أحياء العلوم ونقله علماء الحنفية أيضاً وأقروه، وإذا كان الحكم فيها كذلك فهل تجوز قراءتها مثل ما تجوز قراءة العلوم الآلية من نحو وغيره الرائجة الآن بالجامع لأزهر وجامع الزيتونة والقروين وغيرها؟ أفيدو الجواب ولا زلتم مقصدا لأولى الألباب .

* * *

فأجابه الشيخ محمد الانبابى بالفتوى التالية بعد الديباجة :

يجوز تعلم العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجغرافية لأنه لا تعرض فيها لشيء من الأمور الدينية بل يجب منها ما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وجوبا كفائيا ، كما يجب علم الطب لذلك ، كما أشار الغزالى فى مواضع من الأحياء ، وإن مازاد على الواجب من تلك العلوم مما يحصل وزيادة التمكن فى القدر الواحد فتعلمه فضيلة، ولا يدخل فى علم الهيئة الباحث عن أشكال الأفلاك والكواكب وسيرها علم التنجيم المسمى بعلم أحكام النجوم وهو الباحث عن الاستدلال بالمشكلات الفلكية على الحوادث المستقبلة فانه حرام كما قال الغزالى وعلل ذلك بما محصله أنه يخشى من ممارسته نسبة التأثير للكواكب والتعرض للأخبار بالمغيبات مع كون الناظر قد يخطىء لخفاء بعض الشروط ، أو الأسباب عليه لدقتها . أما الطبيعيات وهى الباحثة عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية إستحالتها وتغييرها كما

فى الأحياء (باب العلم) فان كان ذلك البحث عن طريق أهل الشرع فلا منع منها ، كما أفاده العلامة شهاب الدين بن حجر ، بل لها حينئذ أهمية بحسب أهمية ثمرتها كالوقوف على خواص المعادن والنبات للتمكن من علم الطب ولمعرفة عمل الآلات النافعة فى مصالح البناء ، وإن كان على طريقة الفلاسفة فالاشتغال بها حرام لأنه يؤدى للوقوع فى العقائد المخالفة للشرع .

(وعرض لعلم تركيب الأجزاء المعبر عنه بالكيمياء فأجازها) وقال: فعلم أن العلوم الرياضية لا بأس من قراءتها كما تقرأ علوم الآلات .

وكذا الطبيعيات وعلم تركيب الأجزاء حيث كانت تقرأ على طريقة لا يفهم منها منابذة الشرع بحال كبقية العلوم العقلية مثل المنطق والكلام والجدل ، بل يجب كفاية من هذه الثلاثة ما يحتاج فى الحجاج عن العقائد الدينية والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

وكتب العلامة الشيخ محمد محمد البنا مفتى الديار المصرية فى ذلك العهد بالفتوى الرسمية الآتية رقم ١٧١ :

« إفادة حضرة الأستاذ شيخ الإسلام موافق لمذهبنا ولما استظهره من أن الخلاف الجارى فى علم المنطق يجرى فى علم الطبيعة أيضاً ، ولم يتقرر رسمياً إدخال هذه العلوم إلا فى ٢٠ محرم ١٣١٤ فأصبحت العلوم التى تدرس فى الجامع الأزهر الآن شاملة للعلوم الدينية وآلاتها ولبعض العلوم الدنيوية وغيرها من العلوم النافعة التى كانت غير متداولة فى الأزهر كتاريخ الإسلام وصناعة الإنشاء قولا وكتابة واللغة فناً وأدباً ومبادىء الهندسة وتقويم البلدان .

ولتنشيط الطلبة على الاجتهاد فى هاته العلوم المدخلة حديثاً أوجد أولو الحل والعقد وتخص فيهم العلامة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية حاليا مبلغاً ماليا قدره ستمائة جنيه سنوياً يعطى مكافأة للتابعين فى هاته العلوم .

(٤) حاول الخديو عباس حلمى الثانى فى مذكراته تصوير موقف الأزهر من وجهة نظره الخاصة قال : كان المشايخ من جانبهم يقومون لى بدور همزة الوصل بينى وبين الجنود ، ولعلهم لم يكونوا كالآخرين فى تنزههم عن الغرض ، فان الإيمان لا يكفى دائما لإطعام رجال الدين ومهما يكن إعجابهم بمسرات الفردوس فانهم لا يكرهون أن يتبعوا الطرق التى تقود إليها على خير ما يسمهم من رفاهية ورغد . إنى ما حصلت من الأزهر على شيء دون أن أكون قد اشتريت مساهمة العلماء من أعضاء هيئة كبار العلماء المسئولة عن إدارته بمنحه مالية .

(٥) وقال حاولت تجديد الهواء فى ذلك البيت القديم » : الأزهر الذى لم يشأ أن يتطور مع الزمن فى الوقت المناسب والذى سيجد نفسه مضطرا ذات يوم إلى قبول نظم جديدة ثابتة من خارج هيئة كبار العلماء يوم تولد الثورة داخل هذه المؤسسة التى جحدت التطور » .

ولا ريب أن ما ذكره عباس حلمى كان حملة حاقد ، فقد كان الأزهر دائماً مصدر الثورات الوطنية والمقاومة للظلم والاستبداد ، وكان ملاذ الحرية والمقاومة ، ولقد كان عباس حلمى من كبار المداورين المناورين وكانت موافقة مع الشيخ محمد عبده تدل كلها على رغبته فى تأكيد سلطانه ونفوذه .

* * *

أشارت الصحف إلى (جراية الأزهر) .

فى ١٩٠٩ أشار أحمد فتحى زغلول وكيل وزارة الحقانية فى تقريره إليها فقال : أنه يرد على الأزهر يوميا ٢٤٤٩٦ رغيفا منها ٤٠٣٣ رغيفا من ديوان الأوقاف ، ٥٢٨٩ من وقف عباس باشا الأول ، و ١٥٠٠ من وقف أحمد راغب و ٤٥٣٦ من وقف أوتوزيير ، و ٢٤٩٠ من وقف زينب هانم كريمة محمد على باشا و ٥٢٨ من وقف راتب باشا و ٤٦٤ من وقف سلطان باشا ، و ٤١٤ من وقف الحاج عبده ، و ٥٥٥ من وقف جيلة هانم اسماعيل ، و ٦٠٠ من وقف عمر لطفى باشا و ٣٤٥ من وقف الحاجة رشيدة ، وقدرت اللجنة ثمن

الأرغفة بمبلغ ١٥٦٠ جنيه في السنة يدفع منهـا ديوان الأوقاف ٢٦٠٠ جنيهاً .

وقد أشار مصطفى بيرم في رسالته عن الجامع الأزهر التي قدمها إلى مؤتمر المستشرقين بمدينة هامبورج ١٩٠٢ إلى ذلك فقال : المستحقون من الطلبة للجراية محصور عددهم فلا يأخذ الطلبة كلهم جرايات بل الجراية لا تصرف إلا للعدد المعين في وقفية الواقف وما زاد على ذلك العدد يبقى منتظراً حتى يخلو محل ، وعندئذ تعطى له الجراية ، وأقل مرتب يأخذه الطالب نصف رغيف من الخبز وأكثره ستة أرغفة في اليوم أما العلماء فلا ينقص نصيب أحدهم عن عشرة أرغفة في اليوم .

× وأشارت الصحف إلى أن جراية الأزهر عام ١٩٢٨ (٥٢ ألف رغيف في اليوم) يبلغ ثمنها ٢٢ ألف جنيه في السنة ، وأن أول عمل للشيخ محمد مصطفى المراغي بعد تولى منصب شيخ الأزهر أن تنازل عن الجراية المقررة له وأمر بتوزيعها على فريق من الطلبة ، وبدأ عهده بأبطالها . وقال الصحف : أن خبز الأزهر من أردأ ما يخبز في القاهرة وكثير من المجاورين يبيعونه بأنفسهم أو بواسطة النقباء بثمن بخس .

* * *

(٦) أشارت الصحف عام ١٩١٠ إلى علامة من رجال الأزهر استطاع أن يحرز درجة عالية في الطب هو «الشيخ حامدوالى» أستاذ العلوم العربية بمدرسة اللغات الشرقية في برلين ، وقد أمضى امتحان الدكتوراه في علوم الطب بدرجة فائقة ، ونشرت الصحف الألمانية عنه فصولا مطوله حيث لم يسبقه طالب في كلية الطب بعاصمة ألمانيا .

وقالت جريدة العلم : أنه من متخرجي الأزهر ومدرسة دار العلوم : أحرز الدكتوراه في العلوم الطبية ، وهذه أول مرة أعطت جامعة برلين أعلى درجة شرف تمنحها الكليات لأزهري في العلوم الطبيعية وفن الطب منذ العصور المتوسطة .

أما الرسالة التي تقدم بها فتشمل على دراسة من كتاب تاريخ الأطباء لابن أبي أصيبعة

الطبيب العربي المشهور ، وتاريخ أربعمائة طبيب عاشوا فى عصور مختلفة وظهروا فى أمم متعددة مع بيان مؤلفات كل منهم وبيانات ذات شأن من تاريخ الطب اليونانى .

وقد ولد حامد والى فى ٢٢ ديسمبر ١٨٧١ فى بلدة بيت أبو على (شرقية) ووالده الشيخ حسن والى كان مدرسا بالأزهر والمدرسة الخديوية ، وقد تعلم الدكتور الأزهرى فى الأزهر ١٨٨٤ وفى عام ١٨٨٨ دخل دار العلوم ثم عمل مدرسا فى المدارس الأميرية وفى ١٨٩١ أرسلته الحكومة المصرية مدرسا للغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية ببرلين

(٧) أولت الصحف إهتماما بالشيخ محمد بخيت (توفى فى ١٨ أكتوبر ١٩٣٥) .

فقالت عنه الأهرام : أنه كان من أشد المعارضين لحركة الإصلاح التى قام بها الشيخ محمد عبده ، وقد دفعه إلى تلك المعارضة شهوة المنافسة وتحريض أولى السلطان ، وكان فى نفسه طموح إلى مساماة الإمام فى منصبه ونفوذه وشهرته ، وهو من أعلم أهل جيله بدقائق الفقه الحنفى وأبسطهم لسانا فى وجوه الخلاف بين الشافعى وأصحاب أبى حنيفة .

ولد ١٨٥٦ — واشتغل بالتدريس فى الأزهر والقضاء وفى ١٩١٤ عين مفتيا للديار المصرية وأحيل إلى المعاش ١٩٢١ .

* * *

(٨) نعت المنار (م ٢٠ — ١٩١٧) أحد أعلام الأزهر وصديقا من أصدقاء الشيخ محمد عبده « عبد الكريم سلمان » فأشارت إلى صلة الصداقة بينه وبين المفتى ، وأنهما كانا يسكنان فى حجرة واحدة ، وقال رشيد أنه كان أذكى من محمد عبده ، وقد عملا معا فى الوقائع المصرية ، ثم خلف عبده بعد اعتزاله العمل ، وأنه ساعده فى إصلاح الأزهر وألف كتابا فى ذلك . وله مقالات متفرقة فى الصحف كالوقائع ومجلة الآداب والمؤيد والمقطم ، يقل فيها ما هو موقع منه أو معزو إليه .

(٩) وفيما يتصل بصلة الشيخ محمد عبده بالجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » قالت الصحف[1] .

---

(١) الثقافة (٣٠ يوليو ١٩٤٥) .

أنه عين محرراً ثالثا فى الجريدة الرسمية وأن رياض باشا رئيس الوزراء إذ ذاك هو الذى إختاره ، وكلفه بتقديم تقرير ضاف لترقية تحرير الوقائع المصرية ، عين بعدها رئيسا لقلم تحرير الجريدة الرسمية وسمى المحرر الأول ، وعمل معه : سعد زغلول وعبد الكريم سلمان وسعد وفا وابراهيم الهلباوى وكانوا جميعا من تلاميذ جمال الدين الأفغانى وقد بدأت الجريدة فى إنتقاد « ما تراه منتقداً فى الأعمال والمكتوبات الرسمية » وأعطى لرئيس التحرير الحق فى أن تخصص قسما من الجريدة غير رسمى ينشر فيه لنفسه وزملائه ما يرى فى نشره وأذاعته وسيلة إلى الاصلاح المنشود .

وقد كتب محمد عبده فى شؤون الاصلاح كثيرا ، ومن ذلك كتابته فى دعوة الفلاحين إلى عدم النفور من الأعمال التى يكلفون بها ، وكتب عن الثقافة والتعليم مقالات طويلة .

- ٢ -

المـــرأة

أولت الصحافة فى هذه الفترة اهتماما كبيرا للمرأة العربية: تعليمها وتحريرها وسفورها، وكان رفاعه رافع الطهطاوى هو أول من دعا إلى تعليم المرأة[1] فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر فى كتابه المرشد الأمين للبنات والبنين ، وقد حرصت الصحف والمجلات على تناول هذا الموضوع من بعد حتى صدر كتـاب تحرير المرأة لقاسم أمين عام ١٨٩٩ فأثار ضجة كبرى ، بل ان الجبرتى قد أولى اهتمامه بالمرأة ، فقد أشار توفيق حبيب فى هامش الأهرام إلى ذلك حين قال : إن الجبرتى أورد فى كتابه تراجم كثيرة من سير النساء المعروفات من حريم بعض الولاة والأمراء والسناجق والعلماء وصور «السيدة المصونة والجوهرة المكنونة» ، وأنها كانت من خيرة أهل زمانها ، ولم تخرج إلا من بيت أبيها إلى بيت زوجها ، ثم من بيت زوجها فى نعشها إلى قبرها .

* * *

ويمكن القول بأن عالما بارزا من علماء الأزهر قد سبق أيضا قاسم أمين فى الدعوة إلى « حقوق النساء » فى رسالته التى تقدم بها إلى مؤتمر المستشرقين فى استوكهلم عام ١٨٨٩ ، ذلك هو الشيخ حمزه فتح الله بعنوان « باكورة الـكلام على حقوق النساء فى الإسلام » والشيخ حمزه إذ ذاك هو المفتش الأول للعلوم بنظارة المعارف والمدرس بمدرسة العلوم الخديوية قال : أشار على من إشارته أمر أن أكتب شيئا فى شأن النساء فى الإسلام مما يختص بالعناية بهن وما توجبه الشريعة المطهره من حقوقهن ، وفقا لما يتوهمه بعض

---

(١) راجع كتابنا (الفـكر العربى المعاصر) و (الورق فى فجر اليقظة) .

الأجانب من أن النساء فى شريعة الإسلام كالبهائم أو الغنم السوائم ليس لهن رعاية ولا بهن حفاية وكانت تلك الإشارة قبيل الرحيل بزمن قليل فكتبت ما يسره الله تعالى .

وقد أورد فى رسالته بعض من نبغ منهن فى العلوم ، وأحرزن قصب السبق فى المنطوق والمفهوم وأخذ عنها جهابذة الرجال من العلماء الأعلام ، وقال « إن طلب العلم مشترك الوجوب بين الرجال والنساء ، وبناء على هذا الأصل الدينى ، فقد طالما برع منهن كرائم آربين فى العلوم على ذوى العمائم ، وتواريخ الأمة عابقة بعبيرهن ذكراً، زاهية بأخبارهن زهراً ، بل قد خصهن بعض أئمتنا بالتأليف وبعضهم خصص به المحدثات منهن ، وبعض كذلك لكن بوجه مخصوص التزمه كصاحب مسند النساء وهو مجلد ضخم التزم فيه مؤلفه ذكر الأحاديث التى روتها امرأة عن امرأة ، من غير أن يكون فى سندها رجل إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما تواليفهن فى الأدب والسفر والإنشاء وسرعة البديهة ، فهو بلا ارتياب عديد التراب أو قطر الغمام أو زهر الكمائم .

وقال : إن ممن أخذ عنهن الرجال الأعلام كريمة بنت محمد بن حاتم المرزوية ، وزينب بنت أبى القاسم ، وشهدة الكاتبة ، وزينب بنت عبد الله بن عبد الحليم » وقد لقى بحث الشيخ حمزه فتح الله اهتماما كبيرا حتى أن أحمد مدحت رئيس الوفد العثمانى فى المؤتمر قال : إن العالم الشيخ حمزه بسبب مؤلفه المختص بشئون النساء المسلمات وواجباتهن وما لهن من الحقوق قد أحرز المجد وحظى بمزيد الشرف بحل هذا اللغز وكشف ذلك المعمى والشور على تلك الضالة التى لم تزل منشورة لأوربا ولم يسبق لها حل معضلها إلى الآن وكلهم يعلم أن أوربا لم تتوجة أفكارها لدرس ما يختص بالأمور الشرقية إلا منذ عهد قريب وإلى ذلك العهد لم تكن أوربا تحمل للشرق إلا صورة مجهولة أو شىء غير ذى روح ولهذا لم توجه عنايتها نحوه ولا أجهدت نفسها فى معرفة حقيقة .

وجملة القول أن المرأة المسلمة على ما ذكروا، قاصرة للرجل إلى شهواته لقضاء أوطار زوجها.

أو سيدها ولم يعلموا أن المرأة المسلمة لو كانت فى حقيقة الأمر كما قالوا لم يكن الشرق البرىء هو مطلع شمسها ومدرج عشها جديرا بأن توجه إليه عنايتهم ولا أهلا لطموح أنظارهم إليه ، وهل من المحتمل أن ينتج عن تربية امرأة بهذه المناسبة محررة مما يظنون من كل فضيلة سوى ذلك الغرض الشهوانى ، بنون صالحون الخطط السنية والمناصب العلية أو قواد ماهرون أو علماء نبغاء أو شعراء بلغاء أو جهابذة فضلاء .

وقد بلغ من عناية العرب بهن أن شعراءهم يرون أن مدائحهم لا تحوز القبول ولا تحظى بالصلات ، ولا يصاخ لها بالأسماع إلا إذا صدرت بالنسيب واستهلت بالغزل وافتتحت بأنواع التشبيب . فيكون ذكر محاسنهن فى الأماديح داعية إلى سماع القصد بتمامه كما رفع الإسلام الوأد وأشار إلى حديث الرسول : حبب إلىّ من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة .

وقال أن مانصت إليه الشريعة من ان إغتربوا ولا تضووا وحض الناشئة على ترجيح ذات الدين على ذات المال والحسب ، وعلى أن لا يكون الزوج من القرابة لئلا يخلق الولد ضاوياً أى نحيفاً وعلى الرجال أن يراعين خصال الزوجات على حسن الخلق معهن ، وأن يلطفا يتلطفوا فى تأديب أولادهم ابنه بالوعظ والتحذير .

وقال : إن التربية فى الإسلام ليست قادرة على اصلاح الأجسام وتثقيف العقول بالعلوم والمعارف بل التربية فى شريعتنا أوسع نطاقا ، والإسلام يعمد إلى انتقاء العقائل واصطفاء الكرائم .

× وفى عام ١٨٩٤ وضع مرقص فهمى المحامى كتابا فى قالب رواية بعنوان (المرأة فى الشرق) تحدث فيه عن تعليم المرأة ورفع الحجاب والاختلاط وضرز الزواج بأكثر من واحدة وجعل حق الطلاق من حقوق الزوجين وأوجب طلبه من سلطة القضاء .

وفى عام ١٨٩٩ بدأ المؤيد ينشر فصولا من كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين، وصنع (الأهرام) مثل ذلك ، فقد كان قاسم أمين يلتقى بالصحفيين البارزين ويعرض عليهم خلاصات من آرائه يمهد بها لنشر كتابه .

×وفى يوم ١٥ مايو ١٨٩٩ كتب الشيخ على يوسف فى المؤيد يقول :

ألف العالم الفضال والكاتب المجيد صاحب العزة قاسم بك أمين كتابا جليلا فى أهم مواضيع الهيئة الاجتماعية بوجه عام ، باسم « تحرير المرأة » ، مثل فيه المرأة المسلمة أوضح تمثيل مبينا أن الحالة السيئة التى صارت من مميزاتها هى السبب الأول فى تأخر العالم الإسلامى الحاضر وسأل كل الذين يهمهم شأن مستقبل الإسلام أن يعملوا لتحسين حال المرأة وتحريرها من ربقة ما هى فيه جهد استطاعتهم .

قال المؤلف « قد طرقت بابا جديدا من أبواب الإصلاح فى أمتنا والتمست وجها جديدا من وجوهه فى قسم من أفراد الأمة له الأثر العظيم فى مجموعها وأتيت فى ذلك بما أظنه صوابا فإن أخطأت فإنى من حسن النية ما أرجو معه غفران سيئة خطأى وإن أصبت كما أظن وجب على أولئك المتعلمين أن يعملوا لنشر ما أودعته فى هذه الوريقات وتأييده بالقبول والعمل . . إننا نظن أن يكون ظهور هذا الكتاب مصدر تغيير عظيم فى أفكار أمة ينشأ عنه فيما بعد تغيير أعظم فى أخلاقها .

وفى ٢٠ مايو نشرت المؤيد تحت عنوان : ترقية شأن المرأة وتحريرها بحثا قالت أن مؤلف تحرير المرأة يبحث فى شؤون المرأة وما هو مركزها فى الجمعية البشرية بالنسبة للرجل ووظيفتها فى العائلة وما وجهت إليها الشريعة الغراء من تكاليف وأسندت إليها من وظائف .

ثم نشر فى ١٨٩٩/٥/٢٨ المقال الثالث تحت عنوان تربية المرأة وتحريرها .

×وسادت فترة صمت حتى جاءت افتتاحية المؤيد فى ١٩ أغسطس ١٨٩٩ تحت عنوان : تحرير المرأة والحجاب وكان كتاب قاسم قد صدر فعلا وأصبح فى أيدى القراء ، قالت : ما أكثر الذين تحرشوا للرد على حضرة الكاتب الفاضل قاسم أمين صاحب كتاب تحرير المرأة ، ولكن ما أقل المهذبين المتأدبين منهم .

وقد وردت علينا عشرات الرسائل فى الرد على مواضيع (تحرير المرأة) ولكن أكثرها كان شططا ولغطا أو مهاترة ، وهذراً فضربنا بها عرض الحائط وتركنا كاتبونا يرموننا بالتحيز لحضرة المؤلف ، أما الآن فقد وافقنا الذين يفقهون القول فيتبعون أحسنه ويساجلون مناظريهم على شروط آداب البحث ، وقد نشرناها مسرورين مؤملين أن تلك الفكرة الشريفة التى بعثت حضرة المؤلف على تأليف كتابه تأخذ عتابمة النمط خطها من التنقيح حتى تظهر فتظهر الحقيقة وتعنى بها الحقيقة التى تصونها الشريعة الإسلامية الغراء وتطلبها مصالح المسلمين مجردة عن لوث الأوهام .

×وفى ١٣ سبتمبر ١٨٩٩ تردد الكلام عن (الحجاب وتحرير المرأة) ونشرت المؤيد رسالة من (عبد القادر حمزة — دمنهور — أحد طلبة مدرسة الحقوق الخديوية) وهو عبد القادر حمزة صاحب جريدة البلاغ فيما بعد ونشرت فى ١٤ ، و ١٦ ، و ٢٤ ، ردود ونقد وفى يوم ٢٦ مقال فى فصل الخلاف فى تحرير المرأة لكاتب من طنطا ، وقد أشار إلى هذه المركة (توفيق حبيب) فقال : بدأ قاسم أمين التحرير بالعربية مستترا ، ونشرت فى المؤيد ١٨٩٦ ثم فى سنة ١٨٩٧ فصولا تحت عنوان « أسباب ونتائج » وأخرى تحت عنوان « أخلاق ومواعظ » وكانت هذه الرسائل جديدة فى الأسلوب وفى طريقة التفكير وفى وصف الشخصيات فأحدث ضجة فى الأوساط الأدبية والسياسية .

×ثم بدأ (محمد على كامل) والد الأستاذ محمود كامل المحامى والكاتب المعروف وصاحب مجلة الجامعة ، يجمع رسائل قاسم أمين ونشرها فى كتاب واحد صدره عقدمه ١٨٩٨

بوصف أنها لفاضل مصرى ، ولم يعرف الجمهور أنه لقاسم أمين إلا فى اليوم التالى لوفاته ، وفى مطبعة الترقى الصغيرة لصاحبها محمد على كامل بجوار محل سوسمان الساعاتى نشرت الطبعة الأولى من كتاب تحرير المرأة ١٨٩٩ ، ثم وسع محمد على كامل مطبعة الترقى وكانت فى مكان محلات أورزى باك (عمر أفندى) فى شارع عبد العزيز ، وكانت مطبعة الترقى سنة ١٩٠٠ أكبر وأكمل وأفخم مطبعة عصرية مديرها مصرى فى القطر المصرى وخرج بخسارة ألوف الجنيهات .

× فى هذه الفترة كانت هناك مجلات شهرية تصدر فى مصر باسم المرأة ، وتصدرها أسماء كاتبات شاميات ومصريات منها هند نوفل واسكندره أفرينو ولبيبة هاشم .

غير أن هذه المجلات النسائية كان يحررها فى الأغلب رجال كما ظهرت كاتبات أمثال زينب فواز العاملية (من الشام) وفى السنوات التالية ظهرت رحمة صروف التى كانت تكتب فى المقطم وتترجم مقالات من اللغة الإنجليزية (١٩٠٨) وساره المهيه التى كانت تكتب فى جريدة العلم (١٩١٠) متحدثة عن الحضارة والأخلاق وقد أصدرت من بعد مجلة نسائية .

وفى هذه الفترة ظهرت باحثة البادية (ملك حفنى ناصف) فكتبت فى الصحف وألقت محاضرات فى الجامعة ١٩١١ قالت فى إحدى خطبها : إن كان لفئةما أن تجتمع وتبحث فى شؤونها فلا أحق منا نساء مصر وفتياتها أن نكون تلك الفئة ، فإننا على درجة من التأخر تؤلم نفس المتفكر فيها وترجع خطوات واسعات عن سبيل التقدم ، وللتربية عندنا إحدى طريقتين: أما القسوة وأما التدليل وكلاهما مضر فالقسوة ترهق الطفل وتعلمه الذل ، والتدليل يطرح به فى مهواة الغرور » وقد جمعت باحثة البادية مقالاتها هذه فى كتابها (النسائيات) الذى طبع فى مطبعة الجريدة وقدم له (لطفى السيد) وكتب عنه عبد العزيز جاويش فى جريدة العلم مثنياً ، وكتب عبد الكريم سلمان فى تقريظ هذا الكتاب يقول : يمكننى أن أذكر

شيئا سمعته من أن رجلا لقيته فى حياتى وكانت سنة إذ ذاك تتجاوز مائة عام وستى سبعة عشر على التقريب . قال ذهبت إلى الأسواق ورجعت حائرا فى أمرى ، رأيت امرأة فى السوق وما عهدتها قبل هذا النهار إلا قعيدة البيت ، فما بين المرأة التى حدث عنها محدثى هذا وزمانها لا يتجاوز المائة والعشرين سنة ، وقد كان مقرها كسر بيتها تخرج منه إلى قبرها وأين المرأة فى هذا الزمان ، فقد نراها على وشك الاسفار حاملة قطرها ذاهبة إلى مجمع فيه كثير من النساء يعددن بالمئات وفيهن كثير من المتعلمات فتقعد ينتهين على منبر الخطابة (يقصد ملك حفنى ناصف) فتبارى بلا مبالاة على خطتك هذه وأحمى أذنيك من لؤم اللاعبات ، وقال : لم تنس ما جرى يوم سافرت بنت المرحوم مهدى (أبو ياقة) لطلب العلم فى الخارج ورأينا بناتنا ناظرات مدارس ثانوية ومفتشات .

× وظهرت فى هذه الفترة عزيزة على فوزى (العلم ١٩١١) فهاجمت الاستعمار البريطانى فى محوه التربية الإسلامية من منبر المدرسة المصرية كما ظهرت للاقاسم الشاهخية (العلم ١٩١١) .

ولها بحث عن المرأة فى جريدة العلم (١١ يوليو ١٩١١) تقول: ظهر لقادتنا العاملين أن من أهم البواعث على انحطاط الشعب جهل المرأة . ولعمرى أنهم أصابوا كبد الحقيقة ولكن أين الدواء لهذا الداء، قد يقال أن المدارس الأهلية آخذة فى (إعداد شعب راق) من نساء المستقبل ولكن الظواهر تدل على خلاف ذلك، لأن البرامج التى أعدت لتعلم البنات تكاد تكون واحدة وواضعها واحد ونحن نعلم ما هى عليه من النقص المعيب . لا يخفى أن المرأة نسخة من الرجل ، وعندما أشرقت شمس الإسلام رفعت المرأة المسلمة من الوهد إلى النجد لأن الله منحها من الحقوق وخولها من المراكز ما كانت تهتم به أو يخطر على بال .

ظهرت هذه الحقوق (الجديدة) لنا معشر النساء المسلمات منذ ألف وثمانمائة وعشرين سنة فقام رجالنا بما يجب عليهم إزائنا . ولم ير الرجال بدا من تعليم النساء حق العلم مع الاحتفاظ بالعرض والتفانى فى الغيرة على ناموس الشرق . فنبغت النساء نبوغا عظيما حتى صارت الرجال من الرحال تشد إلى بعضهن ليستقوا من نهر علومهن .

ولكن دالت الأيام وانعكست آية الإصلاح وحل سحاب الجهل محل ضياء العلم ورجعت المرأة المسلمة إلى حالتها ، وتنبه المسلمون فعلموا أن من أسباب ما أصابهم تفريطهم فى أمر النساء ، لأن فساد الرجال ما هو إلا نتيجة التربية الفاسدة التى تلقوها على أمهات جاهلات من الصغر . هب رجالنا للأخـــذ بيد المرأة حتى تنجب رجالا يكونون مثال الصلاح والإصلاح ليسترجعوا لأمتهم مجدها وهم قد رموها فى بؤرة ضلال . إننا فى حاجة إلى إنشاء مدارس للنساء على نسق يتفق عليه النيورون والمفكرون فيها وهناك يتحقق الأمل فى تخريج بنات يكن مثيلات عايه بنت المهدى وولادة بنت المستكفى وأمثالها سابقات الزمن السالف .

وفى ١٩١٢ بدأت (نبوية موسى) ناظرة مدرسة المعلمات بالمنصورة تلقى محاضرات فى الجامعة التى كلفتها تدريس تاريخ مصر : تقول فى إحدى هذه المحاضرات أن كلا الأمتين المصرية والعربية قد بلغ الاهتمام بشأن المرأة فيها شأوا بعيداً حتى ساوت الرجل أو كادت .

وتحدثت عن أهمية الدراسة التى تقوم بها ومدى الرسالة التى تحملها : « كأنى بسيدات القاهرة وقد بلغهن هذا الدرس فقلن مبتسمات، عبثا تتعب هذه الفتاة نفسها وتأتى من مدينة بعيدة لتسرد لنا حوادث تاريخية لا يكلفنا الإطلاع عليها أكثر من تصفح كتب التاريخ ، ومن هى ترى تلك السيدة التى تتكلف الذهاب إلى إدارة الجامعة لسماع هذا الدرس وهى تحسن القراءة وفى منزلها كثير من كتب التاريخ ، يقلن هذا وقد فاتهن أنى سأبذل الجهود فى جعل هذه الدروس أخلاقية نسائية ، فلا أترك فرصة تمر إلا انتهزتها فى إظهار مهانة النساء فى الماضى والحاضر ، راجية أن أشحذ بذلك هممنا نحن المصريات فنعرف ما وصل إليه فضليات النساء وكريماتهن فيقتدى بهن فى علو الهمة والشمم عسى أن تسترد شيئا من ماضى مجدنا وسالف عزنا؛ أريد أن تحيا النساء ولو اسما لا حقيقة فيقال أنهن قد إجتمعن اليوم فى دار الجامعة ليناقش بعضهن بعضا ، ولا يلبث هذا الاسم

ان يصير حقيقة وقد يكتسب الإنسان الطبع بمجرد التظاهر به فيمتاده ، أريد أن نحيا نحن النساء ولا أرى من عائق فى سبيلنا .

وقد أصبح من أنصار نهضتنا عقلاء الأمة المصرية كما مد إلينا عظماء الاحتلال يد المساعدة ولم يعد فى سبيلنا إلا الكسل والخمول ، أريد أن تحيا المصريات حياة حقيقية فيتلقين العلم ويسمين إليه سعيا متواصلا، وقد آليت على نفسى ألا أتأخر عن الحضور إلى الجامعة كل يوم جمعة حتى يصبح معلوما لدى السيدات ذلك اليوم » .

× وفى هذه المرحلة ظهرت عائشة التيمورية وقد أشار «حسن الشريف» فى مذكرات له نشرها فى إحدى المجلات قال : كنت أتحدث يوما إلى المرحوم حفنى ناصف وقد جاء ذكر عائشة التيمورية فقال لى رحمة الله :

هذه السيدة ستتقدم إلى الأجيال المقبلة بلقب شاعرة ، وسيضاف إسمها إلى قائمة أدباء القرن التاسع عشر ، نعم كانت تنظم الشعر إلى حد ما ، أما هذه القصائد التى تقرأها لها فى كتب الأدب فليس لها فيها سوى فضل إختيار الموضوع وبعض شطرات ، فقد كانت عائشة تنظم شعراً ركيكا وترسله إلىّ (أى إلى حفنى ناصف) لأنقحه وأصلح من شأنه فكنت أجهد نفسى فى التنقيح حتى أوثر أن أنظم القصيدة كلها من جديد وأعيدها فتنشرها باسمها .

وقال حسن الشريف معلقا : وأعتقد أن الرجل صادق ، فما كان حفنى ناصف فى حاجة إلى إدعاء شعر غيره ، وهو الغنى بأدبه وشعره وشهرته عن كل ادعاء .

× وفى هذه الفترة قدمت (خالدة أديب) الكاتبة التركية المسلمة المشهورة إلى مصر ، وصلت عام ١٩٠٩ من استانبول وانضمت إلى الحزب الوطنى فى مصر وألقت الخطب علنا ضد الإنجليز لأنهم كانوا يشجعون اليونان على احتلال أزمير وإنشاء ولاية أرمينية فى شرق الأناضول .

× وفى عام ١٩٠١ أصدر قاسم أمين كتابه الثانى (المرأة الجديدة) رداً على المقود

التي وجهت إليه كتابة (تحرير المرأة) والمعروف أن كتابه الأول الذي أحدث ضجة قد اشترك في كتابته الشيخ محمد عبده بل كتب بعض فصوله وانهما كانا يراجعانها معاً ولكتاب تحرير المرأة قصة تتصل بعلاقة سعد زغلول ومحمد عبده وقاسم أمين بصالون نازلى فاضل (١) .
وقد صدرت في مجال الرد على تحرير المرأة كتب ومقالات وصحف ومن أهمها كتاب: لفريد وجدى وآخر لطلعت حرب ، وقد أيد المؤلفين دعوة قاسم أمين في تربية المرأة وتعليمها واختلفا معه بالنسبة للسفور .

وكان قاسم أمين قد أيد في رده على دوق داركور حجاب المرأة المسلمة وقال أنه ضرورى للمرأة . وأنه خير ما تصان به الآداب العامة ، وقد نقل طلعت حرب هذا النص إلى العربية في معرض الرد عليه بحسبانه رأيا ارتآه أولا ثم تحول عنه في كتابه تحرير المرأة وقال فريد وجدى في كتابه (المرأة المسلمة) : علينا أن نعمل كل ما يمكننا لتقرب المرأة من كمالها وندخل إلى حدود وظيفتها وأن نعتبر ان كل ما يبعدها عن هذه الوظيفة داء اجتماعى يجب التألب على ملاشاته أو بذل الجهد في حصره في محلة ، وأن كل إمرأة مهما قيل أنها مكتشفة لنجم أو باحثة في المكروبات هى ناقصة وعاصية للطبيعة وخارجة عن حدود وظيفتها .

وقال : إن للمرأة كمالا خاصا بها لا يتأتى لها الحصول عليه البته إلا إذا صارت زوجة وأما تلد وتربى وتدبر البيت ، وأن كل شىء يبعدها عن وظيفتها ينقص من كمالها ويؤثر عليها تأثيرا سيئا . وقال : أنا لا أنكر أن الحجاب شراً ، ولكنى أعتقد أنه مانع من شر أكبر فهو بهذا الاعتبار لا يعفع من التهذيب ، وقد غير فريد وجدى رأيه هذا في الحجاب كما غيره بعد ذلك في أشياء كثيرة من شؤون المرأة .

---

(١) للتوسع في هذا المعنى يراجع كتاب : « الشرق في فجر اليقظة » لكاتب السطور .

ومما يتصل بالمرأة والصحافة نذكر مجلة (مرآة الحسناء) التى أصدرها سليم سركيس باسم «مريم مزهر» حتى يتمكن بها من إدخال آرائه إلى الشام والدولة العثمانية وكانت كتاباته وصحفه ممنوعة عنها ، أصدرها فى أول نوفمبر سنة ١٨٩٦ ثم كشف النقاب عنها فى مارس سنة ١٩٠٧ وقال : أردت أن تدخل بريد المماليك العثمانية ، ولا أعرف لمريم مزهر مسمى حقيق ، ولم يكن هذه أول مرة استعملت اسمها ونشرت به ، وكنت كلما سالت عن مكانها عمدت إلى الحيلة فإذا كان السائل من دمشق قلت له أنها من مصر وإن كان من بيروت قلت له إنما هى من حلب . وفى ذات يوم فوجىء سليم سركيس بخطاب عن قريب حقيق لمن تسمى مريم مزهر وقد ظهر فجأة ، هنالك خشى سركيس أن يحضر لمحاسبته على إيرادات المجلة ، قال سركيس : لقد هدم الخطاب المشروع الذى كنت قضيت وقتاً فى إنشائه .

الرحلة

حفلت الصحف فى هذه المرحلة بكتابات متصلة عن الرحلة والسفر وزيارة الممالك والأقطار وكان فى مقدمة هؤلاء الرحالة: أحمد زكى الملقب من بعد بشيخ العروبة، فقد زار (الأندلس) بعد إشتراكه فى مؤتمر المستشرقين ١٨٩٣ وكتب رسالة فى الأهرام.

(غرناطة فى ٢٣ يناير ١٨٩٣)

قال : لم أصل إلى تخوم أسبانيا إلا بعد أن أمضيت فى القطار مدة أربع وعشرين ساعة لم تكتحل فيها عينى بإثمد الكرى حتى أجهدنى السير وأضنانى السرى ، ولكن تجددت قواى حينما شممت عبير الأندلس ، واستنشقت نفحاته وتمتعت بالنظر إلى صافى سمائه وقد ترصعت بالدرارى . وحينئذ شعطت مع تيار الأفكار ولكنى مالبثت أن إنقبض صدرى وعلتنى الكآبة وتولانى الانزعاج إذ أحاطت بى جيوش من اللوعة والأسف والحسرة واللهف لأننى تفكرت ماناله الاسلام من العز والاقتدار فى هذه الديار أيام كانت تخفق فوق الأندلس أعلامه وتجول فيه أقوامه ناشرة ألوية الفخار والحضارة ، رافعة رايات المجد والكرامة ، أيام كانت خلافة المغرب تفوق مناظرتها فى المشرق بما احتاطت به من أسباب البذخ والعظمة والعرفان حتى كانت ملوك أوربا تتزلف إلى الخلفاء وتلتمس رعايتهم وحمايتهم ، أيام نبغ العلماء والمخترعون والمكتشفون الذين أفادوا العالم بأجمعه ورفعوا كلمة الاسلام وجاءوا بأقوم برهان على إن الدين الحنيف يساعد بكلياته وجزئياته على البحث فى أسرار الطبيعة وأنه يحض على اقتناء ثمرات المعارف بجميع أنواعها ومطالبها .

وقد كنت وأنا فى باريس درست نحو اللغة الأسبانية للاستعانة به على مخاطبة القوم او مبادلة الأفكار معهم مباشرة ، فلما حضرت (ايرون) وتكلمت مع أصحاب الفندق

تحقق لي أن درس النحو شيء ومعرفة اللسان شيء آخر ، وتذكرت أنى أكون أول من زار جميع الأندلس من المسلمين والمصريين خصوصا من أبناء هذا الجيل وكتبت ما آراه » .

* * *

وتوالت رسائل أحمد زكي من مدن الأندلس فكتب من «قرطبة» : رأيت فيها المسجد الجامع الذي لا نظير له في العالم الاسلامي وقد بقيت معالمه الرئيسية على ماهي عليه والقسم بالله أنني أكثرت من البكاء المر حينما درت في صحونه وبين عمدانه ووقفت في محرابه وتأملت مافيه من غرائب الاتفاق التي لا تخطر على بال مع الفخامة والضخامة ، وكل مارأيته في هذا الجامع الذي يحتوي على أثنى عشر ألف عمد من مختلف الصوان وكلها منقوشة : التاج والقاعدة بكيفية تخالف بعضها ، أما المحراب فهو مصنوع من أحجار دقيقة مختلفة الألوان متركبة مع بعضها على نظام الفسيفساء فتحدث منها أشكال متناهية في الجمال ، وآيات قرآنية وأحاديث نبوية وإذا نظر الانسان من ذات اليمين رأى الوانا وأضواء وأشكالا وتراكيب تخالف كل ما يراه لو وقف من جهة الشمال ، وكذلك الأمر فيما لو وقف في الوسط أو تقدم أو تأخر .

* * *

(٢) وحفلت جريدة «المؤيد» برسائل الزعيم محمد فريد — وهو كاتب ومؤرخ — من رحلاته إلى الأندلس والمغرب عام ١٩٠١ يقول .

قرطبة : وصلتها صبيحة ٢٣ أغسطس ١٩٠١ فلم يرقني منظرها لأنني وجدت الشوارع الكبرى الموصلة من المحطة لداخل المدينة كلها متربة وغير نظيفة لا بلاط بها ولا حصباء . أغلب بيوتها قديمة إسلامية ، لكل منها فناء تحيط به أعمدة الرخام وفي وسطه فساقى الماء والأشجار وفي شبابيكها قضبان الحديد فهي تشبه من عدة وجوه ، البيوت القديمة بمصر ، قصدت إلى الجامع الأموي فوجدت ما يدهش اللب ويخلع القلب حزنا ، رأيت مسجدا جامعا تطاولت إليه أيدى التعصب المسيحي (الغربي) فعلقت الأجراس في مناراته ووضعت التماثيل والصلبان في مدخله . لكن هذه الاضافات الحديثة لم تشوه من منظره بل هو لايزال ناطقا بأنه أثر إسلامي (وإذا وقف) الإنسان عند مدخل هذا الحرم المقدس لا يملك نفسه لاأقول من البكاء حتى لا أكون مبالغا ، بل من الشعور بانقباض النفس وضيق

فى الصدر لما يرى هـذا المسجد الجامع خاويا من المسلمين ، خاليا من الموحدين ، خصوصا حينما يرن فى آذانه صوت الأرغن وترتيل المرتلين وصوت القسوس والرهبان بدل نداء المؤذن وتـكبير المصلين .

* * *

ويقول : بعد أن متعت الطرف بآثار الإسلام والمسلمين وتحسرت على هاتيك الدول التى زالت وعفت آثارها وردت غرناطة وحمراها وقرطبه وجامعها واشبيلية وقصرها ، أردت أن أمر بمدينة «طنجة» أضخم ثغور الدولة المراكشية لأتحقق من الفرق الـكائن بين مسلمى الدول الغابرة ، ومسلمى هذه الدولة التى حافظت على إستقلالها للآن ، رغما من اكتناف الفرنساويين لها من الغرب والجنوب . وأقول بكل أسف أن من يريد أن يرى بعينه كيف تموت الأمم ولا تبدى أى حركة لحفظ كيانها فليتوجه إلى مراكش ، خصوصا بعد أن يزور أسبانيا .

* * *

من الجزائر : (٣ أكتوبر ١٩٠١) . كنت أظن أن ما تنشره الجرائد عن أحوال المسلمين فى الجزائر وغيرها من البلاد الاسلامية تحت سلطان الدول المسيحية (الغربية) مبالغ فيه أو أملته كراهية الفاتح الأجنبي حتى قادنى حب الإستطلاع إلى القطر الجزائرى فرأيت بعينى وتحققت بالخبر ماسمعه بالخبر ، وتأكدت أن مسلمى الجزائر فى تعاسة ليست بعدها تعاسة ، فلا ضمانة للحرية الشخصية ولا للملـكية العقارية بل ولا الحقوق الشخصية ، أراضى تسلب وتنزع ملـكيتها لتوزع على المهاجرين من الفرنساويين بلا ثمن ، وأوقاف خيرية تصادر مقابل ترتيب شىء زهيد للقيام بحاجيات ما بقى من الجوامع والزوايا بعد هدم ماهدم منها ، وابرياء تزج فى السجون بعد أن تحكم المحاكم الفرنساويه ببراءتهم .

ويعامل المسلمون فى الجزائر بقوانين مخصوصة فى غاية الشدة والصرامة : فهم محرومون من حرية الـكتابة وحرية الإجتماع وحرية السفر وحرية مطالعة الـكتب والجرائد ، نعم يصعب على الذى يعرف حب الفرنساويين للحرية والمساواة أن يصدق ذلك ولـكن من يتـكاف

مشقة زيارة بلاد الجزائر يتحقق أن ما هو جائز فى بلاد فرنسا غير مباح للمسلمين فى المستعمرات فلا يجوز لهم أن يؤلفوا أى جمعية ولو لفتح المدارس ونشر التعليم المجرد ، وهذا الاذن لا يمنح مطلقا كما أنهم لا يجوز لهم تأسيس مطبعة أو جريدة ، ولا يوجد فى جميع اقليم الجزائر غير (جريدة المبشر) وهى جريدة رسمية تكتب فى فضل فرنسا على العرب والحض على القبائل بالولاء ، ولم أجد فى جميع مدينة الجزائر نسخة من اللواء ولا من المؤيد مع أن المشتركين فيها كثيرون ، ولا تصل هذه الجرائد إلا لإدارة المبشر مبادلة وهناك تحفظ فى حرز مكين حتى لا تخرج بعض إعدادها من الإدارة فتصل أخبار الاسلام والمسلمين إلى إخوانهم الجزائريين .وقد منعت الجرائد التونسية التى كانت تنشر أخبار العساكر الإسلامية على الأوردام أيام حرب اليونان مع الدولة العلية ، ولما أرسلت إلى الجرائد المصرية أثناء إقامتى بمدينة الجزائر حجزتها إدارة البوسطة وأرسلت إلى جميع الجوابات فقصدت إلى المسيو ميرانت رئيس تحرير جريدة المبشر وطلبت منه بتوصيل جرائدى إلى أوربا بإرسالها بعنوانى إلى باريس فأرسلها إلى بطريقة استثنائية .

* * *

ومن الغريب فى بلاد الجزائر أنه لا يجوز للعربى أن يسافر خارج المركز الذى يقيم فى دائرته إلا بإذن من البوليس . ولقد مضى على فتح فرنسا للاقليم الجزائرى سبعون عاما وجيشها للآن لم ينقص عن خمسين ألف محارب يكلفها ٥٧ مليونا من الفرنكات سنويا ، وما ذلك إلا لتخوفها من الأهالى وعدم اطمئنانها إلى جانبهم ولكن لا يمكن استمالتهم بهذا الضيق وتلك المعاملة المخالفة لقوانين العدالة .

* * *

ويقول : بعد أقمت بوهران يوما وبعض يوم سافرت إلى تلمسان ، أغلب الأراضى مزروعة كروم ، وأغلب أسماء المحطات أفرنجية محضة ، وقد زرت القاضى شعيب بن عبد الله ، وهو يجيد الكلام بالفرنسية ، وله إلمام تام بكل ما يختص بأحوال بلاده وله مواقف فى نازلة

الديانة الإسلامية قدمه إلى مؤتمر المستعمرات فى باريس ١٩٠٠ حيث كان المسلم الوحيد به.

وقال محمد فريد : من أراد الوقوف على درجـــة إمتهان الفرنساوى للعربى وإذلاله وتحقيره علنا ، فليطلع على جرائدهم وبالأخص جريدة المسيو كاربيتر الذى هو أشهر الفرنساويين عداوة للحرب إذ لا يخلو عدد من مقاله فى هذا الموضوع يتألم لما فضلاء التونسيين .

* * *

(٣) زار (أمين الرافعى) فرنسا والمغرب ١٩١١ . وقابل الطلبة المصريين فى أوربا (٢٠ أغسطس ١٩١١) يقول :

يذهب الطالب إلى أوربا فيخدع بالفاتن من مدنيتها وسرعان ما يقع فى شركه فتراه ينفض يده من العلوم ويقبل بكل جوارحه على الملاهى» .

وبعد أن صور هذه الظاهرة قال : وصفوة القول أنه لا يجوز إرسال أحد إلى أوربا للتعليم إلا بعد التحقق من إستقامة أخلاقه وقوة إرادته التى تمكنه التغلب على عوامل الفساد الفاشية هناك ، أما من ليس لهم وازع من دين أو عقل فــكل خطوة يخطونها فى أوربا لا تقربهم من العلم وإنما تقربهم من الهاوية التى ابتلعت منهم الـكثيرون .

* * *

ومن باريس كتب يقول :

ذهبت إلى باريس للمرة الثانية ومكثت بها ستة أيام زرت فيها بعض الآثار والمشاريع ، وأحث المصريين الذين يكثرون من زيارة تلك المدن على مشاهدة ما تحتونه من الأشياء النافعة ، ففى ذلك عبرة لنا إذا أنعمنا النظر فيما نحن فيه الآن ، وما سيكون غدا ، ذلك خير من قصد الشهوات وركوب اللذات والانـكباب على الملاهى شأن كثير من المصريين الذين يزورون باريس لا لشىء غير ارتـكاب المنـكرات ، وليـكن لنا أسوة حسنة فى الوفد الحبشى الذى زار باريس ، فانهم عرضوا عليهم مشاهدة الملاهى فرفضوا وآثروا رؤية الأشياء النافعة . وفى مقالات متعددة تحت «عنوان مذكرات سائح» لأمين الرافعى نشرها فى جريدة

العلم ١٩١١ كتب عن جولاته المتعددة وزيارته لمنزل فكتور هيجو ، وغيرها من المواقع التاريخية كما كتب عن زيارته لمدينة بنزرت فى تونس .

* * *

أما رحلة شوقى إلى الأندلس فقد كانت عام ١٩١٥ ، ولم تكن فى حقيقتها رحلة بل كانت إقامة مغترب فرض عليه النفى خارج وطنه بأمر السلطات الحاكمة فى مصر لأنه هاجم سلطة النفوذ البريطانى فى تعيين السلطان حسين كامل . وقد شرع شوقى بمجرد وصوله إلى برشلونه ، فى تعلم اللغة الأسبانية ، ثم زار الأندلس بعد عقد الهدنة ، ولما عقدت الهدنة ١٩١٨ لم يسمح له بالعودة إلى أواخر ١٩١٩ وقال حسين شوقى فى كتابه « أبى شوقى » أن أشبيلية هى التى أوحت إلى شوقى رواية أميرة الأندلس .

الصحافة

واجهت الصحافة فى خلال الفترة إهتماما كبيراً من المتمدين البريطانيين ونورد هنا نموذجين : أحدهما للورد كرومر سنة ١٩٠٣ والآخر للسير ألدن عورست سنة ١٩٠٩ .

(١) يقول كرومر فى تقريره : كان فى بدء الاحتلال الإنجليزى ما يسمونه بمسألة الصحافة فإن كثيرين من ذوى الآراء الحقيقية بالاعتبار من الأوربيين والوطنين سواء كانوا موفقين أو غير موفقين رأوا أن إعطاء الحرية التامة للجرائد فى مصر موجب للضرر .

وقد ظهر لنا أن منح الحرية التامة للصحافة قد لا يخلو من الضرر ، على أن هناك إعتراضين على تقييد حرية الصحافة (الأول) هو أن وجود حامية انجليزية فى القطر يضمن أن الكتابات المهيجة لا تفضى إلى الإخلال بالأمن إخلالا عظيما و (الثانى) أنه من العبث سن قانون خصوصى للجرائد الوطنية ما لم يتمشى ذلك القانون على الجرائد الأوربية أيضاً ، لأن كل صاحب جريدة وطنية تخشى طائلة القانون ينقل حقوقه وامتيازه إلى رجل أوربى فعلا أو اسما ، أما أنا فكنت مخالفا لتقييد حرية الصحافة منذ أول الأمر ، ولكنى لم أعول كثيرا على الاعتبارات فإنى رأيت أولا أن الحجج التى تقوم على تقييد حرية الصحافة لا تعادل الحجج التى تقوم على إطلاق حريتها وثانيا أن كبار رجال الحكومة كانوا يقومون على احتمال انتقاد الجرائد لهم بل على قبل أن يؤثر الإصلاح ، تأثيره المطلوب .

وقد أيدت الحوادث هذا الرأى فمرت سنون كثيرة ، والجرائد المصرية تامة الحرية

ولكن الحكومة اضطرت إلى إقامة بعض القضايا على بعض الجرائد لطعنها على الملوك الأجانب والخديوى وأعضاء العائلة الخديوية . وكان الرأى العام مؤيداً للحكومة فى تلك القضايا القليلة ولم تكن إقامه القضايا سياسية ، ومع أن القانون يخول الحكومة الحق فى أن تطالب من كل صاحب جريدة أن يحصل على رخصة قبل إصدار جريدته إلا أنها لم تعمل بهذا الحق مدة طويلة . وبالإجمال أن النتيجة جاءت على ما يرام ، على أن الجرائد المصرية من أجنبية ووطنية كثيراً ما تنشر أخباراً غير صحيحة . وكثيراً ما تنتقد إنتقاداً قانونيا مفيدا ولكنها تقتحم فيه أحيانا آراء على غاية من الجهل والطيش بلغة شديدة اللهجة وتنشر أحيانا مطاعن شخصية لا تنشرها الجرائد التى هى أرقى منها .

ولا أظن أنه يمكن ذكر حادثة واحدة فى العشرين سنة الحاضرة تدل على أن حرية الجرائد التامة أضرت بالبلاد ضرراً عظيما أو أخرت سير الاصلاح الحقيقى يوماً واحداً وزد على ذلك أن الجرائد الوطنية الساقطة التى تكتب لفئة من الأهالى قليلة العلم كثيرة التصديق وتحاول إضرام نار البغض الجنسى لا تؤثر أقوالها كثيرا . إذ لا تسنح لها فرصة تبنى عليها أقوالها وأنه ليسهل القضاء على الجرائد المصرية من باب رسمى أو على قسم منها على الأقل وإذا فرضنا أن ذلك القضاء فى محله ، فان للمسألة وجها آخر وهو أنه فضلا عما لحرية الجرائد من الفائدة القطعية فلا ريب أن الجرائد تمنع بعض الضرر فان خوف التشهير على صفحاتها يمنع كثيراً من الشرور ويقلل العيوب التى تصور نظام الحكومة المصرية .

وفى السنين الأخيرة اتجهت آراء الطبقة العليا من الوطنيين إلى أنه يجب أن يكبح جماح الجرائد فى كلامها على الأفراد وقد بحثت هذا الموضوع فوجدت أن القانون الحالى المتعلق بالقذف واف بالمراد من حيث مراميه ، على أن يظهر عين الانجليزى أن الأحكام التى تصدر هنا فى دعاوى القذف وما يحكم به من العطل والضرر أخف مما يلزم ولكى يستصوب ادخال بعض التغيير فى القانون المتعلق بالغصب ، فان الغصب جرم شائع فى هذه البلاد وهو يزداد يوما فيوما فيجب معاملة الغصابين بالشدة أو القسوة .

(٢) يقول الدون غورست : إزداد قسم من الجرائد العربية فى مصر قدحا وكلاما قارصا ازدياداً عظيما فى السنوات الأخيرة وجعل ينشر الأراجيف والأخبار الـكاذبة وينشيء المقالات المضللة . وترى الشبان المصريين الذين لا يزالون يتلقون العلوم فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية يتهافتون على مطالعة تلك المقالات وأمثالها حتى لقد أفسدت ضمائر الأحداث المصريين الذين إنما تعلق بهم الآمال فى بلوغ مصر الحـكم الذاتى بكثرة ما تلقيه على مسامعهم من أقوال الحماقة والجهال ، يوما فيوما .

وحقيقة الحال أن الجرائد المصرية التى أصحابها ومديروها من رعايا الحـكومة المحلية قد سن لها بعض المواد فى قانون المطبوعات حيث عرفت الجرائم التى تحاكم الصحف عليها ونص على عقوباتها من غرامة وحبس وقانون المطبوعات الذى سن عام ١٨٨١ أما فيما يختص بقانون المطبوعات فقد تبين فعلا أن المواد الحالية فيه لا تمنع الشطط الذى هو موضوع الشـكوى فأفضل طريقة للتغلب على هذه الصعوبات إنقاذ قانون المطبوعات الحالى وهو يقضى بوجوب الحصول على رخصة إصدار الجريدة أما فيما يختص بمراقبة الجرائد فقد أشارت المادة ١٣ إلى أنه يسوغ محافظة على النظام العمومى أو الدين أو الآداب تعطيل أو قفل أى جرنال أو رسالة دورية بأمر من ناظر الداخلية بعد إنذارين وزد على ذلك بأن معظم الجرائد التى تصدر باللغات بالأوربية لا غبار عليها وإرتقاء قرائها العقلى ضمان كاف لعدم تجاوزها حدود الاعتدال .

أما فى فترة الحماية فقد كان فى التعليمات الموجهة إلى الصحف أنه لايجوز نشر أى فصل أو فقرة يراد بهما الإشارة تلميحا أو تصريحا إلى عدم اعتراف بعض الدول بالحالة السياسة الحاضرة فى القطر المصرى . وكانت التعليمات سرية ولا يجوز لأصحاب الصحف أن يعلنوها أو يذيعوها ·

ومن التعليمات السرية التى صدرت لأصحاب الصحف ٣١ أكتوبر ١٩١٧ أنه لا يجوز نشر شىء مافى الصحف ما لم يعرض على الرقيب وتصدر إجازته له ويستثنى الأحوال التى تكون المواد الأصلية للجريدة منها قد سبقت مراقبتها ، ومن الواجب أن تعرض العنوانات الكبيرة الآخذة بجانب الصحيفة وغيرها من العنوانات على المراقبة قبل نشرها مرفقة بنص التلغرافات المتعلقة بها وكذلك الإعلانات المتعلقة بغير ماسلف ذكره من الشؤون ، لا مانع من نشرها بلا مراقبة ، ولكن تلقى على مديرى الصحف مسئولية ما يمكن وقوعه بسببها من المخالفة ·

وتقدم صورتان من المواد إلى الرقيب للتوقيع عليها ، وتبقى أحد الصورتين عند الرقيب . لا يجوز ترك بياض فى صلب الفصول أو الفقرات التى يحذف الرقيب شيئا منها بل ينبغى ضم الأجزاء الباقية بعد الحذف بعضها إلى بعض بحيث لا يظهر البياض إلا فى آخر الفصل[١] أو الفقرة المحذوف منها والفصول التى تعدل الصحف عن نشرها بعد مراقبتها يجب حذف عناوينها وتحت نشر البلاغات الرسمية فى الصحف بنصها ·

لا يجوز نشر آية مادة بوصف كونها تلغرافية ولو كان إطلاق الوصف عليها بطريق الاستنتاج مالم تكن تلغرافية فعلا · من الممنوع نشر الأخبار الوهمية أو الباعثة على الانزعاج ومما ينبغى صرف الالتفات إليه بنوع خاص كل ما له علاقة بالخسائر الناجمة عن حرب

---

(١) البلاغ ١٢ نوفبر ١٩٢٣ ·

الغواصات أو الحالة فى روسيا ، أو بغلاء المعيشة فى بلاد الحلفاء ولا يجوز قطعا نشر المواد الآتية أو الإشارة إليها : تنقلات الجيوش + حركات السفن الحربية فى البحر المتوسط والأحمر والمحيط الهندى وقناة السويس + كل خبر من الأخبار التى تتولى السلطة العسكرية داخل الأراضى المصرية + كل خبر عن الجيوش المعسكرات .

أما الكلمات التى تدعو إلى تكدير صفاء الأمن والسلامة فى القطر يجب حذفها حتما كما يجب تحاشى كل كتابه من شأنها أن تثير الأحقاد الدينية أو الجنسية أو السياسية .

(صدر فى ٢٩ أكتوبر ١٩١٧) .

محاكمات الصحافة

محاكمة عبد العزيز جاويش

كانت سياسة اللورد كرومر فيما يتعلق بالصحافة الوطنية أن يطلق لها العنان ويسمح بظهور صحف أخرى تردد وجهة نظره وتدافع عنها وتنبرى للصحف الوطنية كما كانت تفعل المقطم والوطن ، وكان يطلق على هذا الإجراء كلمة رفع الغطاء عن البخار المتجمع ليذهب فى الهواء غير أن « غورست » الذى خلف كرومر غيّر هذه الخطة فقد تضام جانب القصر والاحتلال لمقاومة الحركة الوطنية التى كانت قد فتحت صفحة جديدة من المقاومة العنيفة للاحتلال بزعامة فريد وقلم جاويش ، وقد وقفت صحافة الحزب الوطنى حجر عثرة دون نجاح غورست حيث ركز اللواء على مقاومة الاحتلال فى ذاته لا فى سياسته ، ولم تقو الصحافة المعتدلة الداعية إلى التفاهم (المقطم — الأهرام — الجريدة) على مكافحة الصحافة المتطرفة ، ولما رأى الاحتلال أن الخواطر لم تهدأ ورأى صحف الحزب الوطنى بقلم جاويش النارى تواصل حملتها بدأ فى محاربة الصحافة الوطنية ، فاتجه إلى محاكمة جاويش وكان يستبعد أن تكون المحاكم مستقلة إستقلالا يحول دون تأثير الاحتلال عليها .

فما أن نشرت مقالة فظائع الإنجليز فى السودان حتى طلب ممثل الاحتلال رفع الدعوى العمومية على « جاويش » ، ولكن المحكمة برأته ، فكانت البراءة سببا فى تأكيد مركز الصحافة الوطنية ، وما أن نشر مقال تأبين « دنجرا » الشاب الهندى الذى قتل السير كرزون وبلى الحاكم البريطانى حتى وجه انذاراً إلى اللواء ، وكانت مقالة « ذكرى دنشواى » سببا فى رفع الدعوى على اللواء وتقديم جاويش إلى المحاكمة بتهمة إهانة بطرس غالى ناظر النظار وفتحى زغلول وكيل الحقانية ويرى عبد الرحمن الرافعى أن « الجلد »

الذى أظهره جاويش فى المحاكمة والسجن ، وثبات الصحافة الوطنية واستمرار الحملة على الاحتلال ، وخروج جاويش من السجن أشد عزما وقوة ، كل ذلك دفع الشعب إلى تقليده « وسام الشعب » وكان موقف اللواء فى كشف مؤامرة مد امتياز قناة السويس بالغ الأهمية ، فقد استمرت الحملة من أكتوبر سنة ١٩٠٩ إلى مارس ١٩١٠ ، حتى أسقطت المشروع وألقى « غورست » تهمة حادث مقتل بطرس غالى على صحف الحزب الوطنى فصدر قرار مجلس النظار بإيقاف العلم شهرين . . .

واتجه الرأى فى دوائر الاحتلال إلى إعادة قانون المطبوعات الصادر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ ، وكان القانون يفقد الصحفيين كل ضمان ويجعلهم تحت رحمة الإدارة مباشرة بحيث يمكن تعطيل أى جريدة بدون محاكمة . وتنص المادة ١٣ على أنه « يسوغ محافظة على النظام العمومى والآداب والدين تعطيل أو قفل أى جريدة أو رسالة دورية بأمر من ناظر الداخلية بعد انذارين ويسوغ إضافة غرامة من خمسة جنيهات إلى عشرين جنيها لكل إنذار يصدر ، وإذا استمر صدور الجريدة أو الرسالة بعد تعطيلها أو قفلها يعاقب كل من محررها وصاحب امتيازها بالغرامة ، وتغلق المطبعة التى طبعتها بأمر من ناظر الداخلية » . وبذلك ألغيت الضمانات التى كانت تتمتع بها الصحافة أمام المحاكم وأصبحت فى يد الحكومة ، وقد أشار غورست فى تقريره عن ١٩٠٩ إلى أن هذه هى الطريقة الوحيدة التى يستطاع بها مراقبة الصحافة ، وأن تطبيقة لا يفتح بابا لتهييج الآمال السياسية كما يكون فى محاكمة الصحف ، ولا يترك سبيلا للمظاهرات ، وأنه فعال فى منع وقوع الجريمة . وقد بدت البوادر لهذا الاتجاه كوسيلة لإيقاف حملة جاويش فى اللواء والعلم على الاحتلال . وتبين أن القانون أعيد لهدف واحد .

ولم يكتف بإعادة قانون المطبوعات بل اتجه الرأى إلى وضع نظام لمحاكمة الصحفيين يفقدهم الضمانات التى كان قانون العقوبات يخولها لهم ، وكانت محاكمة الصحفيين على درجتين

ابتدائية واستئنافية ، وقد ظهرت فائدة ذلك النظام فى محاكمة جاويش حيث حكمت محكمة أول درجة بتغريمه عن أى إحدى التهمتين ، وفى محكمة ثانى درجة رفعت الغرامة وحكم بتبرئته من التهمتين ، وكان من شأن هذا النظام إطالة مدة المحاكمة فيزداد اهتمام الجمهور بالحركة الوطنية ويتطلعون إلى أنبائها ، وكانت المرافعات التى تلقى فى المحكمة بمثابة خطب وطنية ، فظهر فى ١٦ يونية ١٩١٠ قانون إحالة جنح الصحافة إلى محكمة الجنايات للحكم فيها حكما انتهائيا .

ولا شك أن بعث قانون الصحافة القديم الذى صدر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ وإعادة العمل به ٢٥ مارس ١٩٠٩ كان عملا له أهمية ذات خطر ، وقد هاجمت اللواء الهدف من التقييد ، واتهمت الحكومة بأنها تخشى ثورة الناس لسوء تصرفها وأن الهدف من إعادة القانون هو أن الحكومة الموالية للاحتلال إنما ترغب فى إحداث مسائل جسام لا تجرؤ عليها والأقلام حرة ، وقد حاولت صحف المؤيد والجريدة أن تصم اللواء بأن خطتها المبنية على الجرأة والعنف هى السبب فى بعث القانون القديم . ولم يلبث « جاويش » أن واجه الموقف بكلمته الخالدة « أيها القلم » . .

« أيها القلم : لو كنت سيفاً لأغمدتك فى صدور من يحاربونك ، أو سهما لأنفذتك إلى أعماق قلوبهم ، ولو كنت جوادا لوجدت لك فى ميادين النزال مجالا . . للكر والفر ولكنك ذلك العدو الذى أيسر ما ينال منه عدوه أن يعالجه بالمبراه فيشقفه أو بالأصابع فيكسره أو يحطمه ؟

أيها القلم : استلانوا عريكتك ، واستهانوا بقوتك ، وأمنوا جانبك ، فمدوا إليك يدا مجرمة ، ما كان أولاها أن تقطع ، مدوا إليك أيديهم فأغاضوا من معينك ، وأسكنوا من صريرك ، وأوقفوا من حركتك ، وفلوا من حدتك .

كفروا بنعمتك التى طالما منحتهم ، وضلوا عن حكمتك التى كثيرا ما أفادتهم ،

كم بلغك الليالى بالأرق ، والأيام بالقلق ، وكم رمتك الدنيا فى سبيل هدايتهم بالمحن والفتن ، وأنت جميل الغرض ، نبيل القصد ، تسهر وهم نائمون ، وتجرى وهم قاعدون ، لم يزدهم نورك إلا ضلالا ، ولا علاجك إلا اعتلالا ، ولا هدايتك إلا خبالا ، ولا اسعافك إلا وبالا ، اقتربت منهم فأبعدوك ، وانطلقت ألسنتهم فأخرسوك . وحاولت سلامتهم فكسروك ، وصفوت لهم فكدروك ، وأحييتهم فأماتوك ، . . وأنشرتهم فقبروك .

أيها القلم : أسكون بعد حركة ، أصمت بعد إرشاد ، ألك كادوا أم لأنفسهم ؟ وعليك خرجوا أم على وطنهم وأمتهم ؟ وعنك انصرفوا أم عن رشدهم . . ؟

أيها القلم : أهذا آخر عهدك بالقراطيس ، أهذا آخر عهدك بأنامل الكاتبين ؟ أهذا آخر أيامك بالدفاع عن بلاد سقاك نيلها ، وغذاك طيب تربتها . . ؟

أيها القلم : تشيعك اليوم أفئدة أيقظتها ، وهمم أعليتها ووطنية أودعتها قلوب الطاهرين من الثابتين . فلتكن أيها القلم كما شاؤا لك ، أما نائما إلى حين ، أو ميتا أبد الآبدين . فقد تركت بعدك عيونا لا يأخذها النوم ، وقلوبا لا يملكها اليأس ، وأيديا لا تخاف السلاسل والأغلال ، وأرواحا تفدى الحرية والاستقلال .

وأنت يارب القلم : أصبر على ما سينزل بك وأنت رابط الجأش ، قوى الفؤاد ثابت العزم ، فلا تزعجك نيران الاستبداد ولا ترهبك حكومة الأفراد ، فكم ابتلى قبلك المصلحون ، وكم أعنت فى سبيل بلادهم العاملون ، ولا يصرفك عن تأييد مبادئك ، والدفاع عن عزيز وطنك ما يرجف به المرجفون ، فيد الله فوق أيديهم ، والله لا يهدى كيد الخائنين[1] . ١٠هـ .

٢ — وقد أشار أحمد شفيق باشا فى مذكراته عن هذه الخطوة فقال أن « جراهام »

---

(١) اللواء : ٢٦ مارس ١٩٠٩ .

نائب غورست قابل الخديو ، وتحدثا عن الصحف المصرية وأنها تمادت فى الطعن وأشار إلى ما نشرته اللواء من فصول مدحت فيها « دنجرا المندى » قاتل اللورد كرزون فى انجلترا واعتبرت عمله وطنيا خالدا وحضت على التشبه به فى وطنيته وأن « جاويشا » نشر مقالا شديد اللهجة طعن فيه فى حق بطرس غالى وفتحى زغلول مما أدى إلى أن لوح بطرس باشا بالاستقالة إذا لم ينذر اللواء وأشار شفيق باشا إلى أن جاويش أثار عاصفة من النقد على كلمة « روزفلت » وخطابه فى الجامعة .

وقد كان واضحا أن عودة قانون المطبوعات إنما قصد بها محاربة صحف الحزب الوطنى وقد أشار (جاويش) إلى أن الصحف الاحتلالية تخرج طائفة بسبب الصحف العربية والطعن فى كرامة أصحابها ومحرريها ، والتطرف فى نسبة كل ما أصاب ويصيب هذا البلد إلى سياستها وإغراقها فى إثارة نفوس الأمة ، ورد على ذلك بأن الجرائد العربية التى يعنونها لم تكن الكاذبة ولا الخاطئة ولا المتطرفة ولكنها تعودت الجهر بالرأى والصراحة بالنصح ، ولم يطمع أصحابها فى مال ولا جاه .

ولم يقف الأمر عند هذا بل أثير فى عام ١٩١٠ بأن هناك قوانين جديدة لتغيير الصحافة ، فتصدى لهم جاويش بقوله : « إن غاية ما تستطيع الحكومة أن تكم من الكلام ، وتمنع الأقلام عن الصرير ، والأشخاص عن الاجتماع ولكنها لا تستطيع أن تمنع القلوب عن التفكير ، والنفوس عن الانفعال . ولقد أشار « جاويش » إلى أن بعض الصحف (لا كل الصحف) هى التى يطبق عليها قانون المطبوعات ، وأومأ إلى أن القوانين المقيدة جميعها إنما تستهدف قص أجنحة الأقلام الوطنية وحدها ، وهذه عبارته « بينما إحدى الصحف (يقصد المقطم) لا تحاسب على ما تنشره فى العالم مما عسى يكدر السلام ، بينما نرى فى الكفة الأخرى صحفا ربما أوخذت حتى على غير المسطور ، وعوقبت حتى على وساوس الصدور[١] .

---

(١) ١٣ يونية ١٩١٠ (العلم) .

ولم يتردد فى أن يكشف الصحف التى اتهمت جاويشا بأنه السبب الأول بكتاباته فى هذه القيود فقال « ظهر قانون المطبوعات فوجدنا بعض الصحف تصبح هلعا فكتبنا نطمئنهم وأريناهم أنه لا خوف إلا على الذين وقفوا حياتهم على خدمة بلادهم وصحفهم على ارشاد أممهم ومحاسبة حكوماتهم . أما الذين اتخذوا صحفهم أشراكا لمنفعة أوشفعاء بين يدى سلطان أو أمير فهؤلاء فى سياج من مقاصدهم لا يهدمه قانون المطبوعات ، وقد عاش هؤلاء يسرحون ويمرحون بينما تأخذ الحكومة بتلابيب غيرهم فتحاسبهم على ما يعملون ومالا يعملون وتأخذهم بما يقصدون وما لا يقصدون » .

ولم يقف الأمر به عند مهاجمة الصحف العربية غير الوطنية ولكنه كان بالمرصاد دائما لكل الصحف الأوربية والأجنبية التى تصدر فى مصر ولم يدع كلمة لجريدة التيمس أو رأيا منحرفا إلا عارضها فيه ، ورد لها الصاع صاعين . . وهو يرى أن الصحافة الأوربية على العموم ناقصة العلم بما يسطر فى جرائدنا ، وإذا تصرفت بنقل بضعة أسطر من كتاباتنا فإن مترجميها يمسخون فى الغالب ما ينقلونه أو تكون الجمل متقطعة متناهية فى القصر وغير منتخبة بطريقة عادلة تمكن الفكر من التفهم لآرائنا ومبادئنا(١) .

وقد كان إيمان «جاويش» بمذهبه فى الكتابة القائم على مقاومة بريطانيا كدولة محتلة أساسا والكشف عن مؤامراتها ، وتوجيه الضربات إلى عملائها وأعوانها فى مصر ، واستحالة قبوله الأمر الواقع فى الإعتراف بوجود الانجليز ، ونقل المعركة إلى تصرفات بريطانيا فى مصر ، كل هذا عرّض « جاويش » لمتاعب لأحد لها ، تمثلت هذه المتاعب فى ثلاث دوائر : المراقبة الشديدة ، والمحاكمات ، والسجن .

فقد وضع تحت رقابة شديدة فى بيته ومكتبه وأسفاره وتنقلاته على نحو مثير ، بحيث كانوا يتعرضون له ويهددونه ، ثم وضعت كتاباته تحت مراجعة دقيقة فحوكم ثلاث مرات

---

(١) ٤ أغسطس ١٩١٠ (العلم) .

وسجن مرتين . وما كانت تحدث فى مصر حادثة من بعد إلا كان هو فى مقدمة من يحقق معهم أو يسجنون ، وفى يوم حادث مقتل بطرس غالى أجرت النيابة معه تحقيقا دقيقا ، ومن أجل مقالة عن دنجرا أنذرت اللواء ، ومن أجل مقالة عن حادث الكاملين فى السودان قدم للمحاكمة الأولى ، وقدم مرة ثانية عن مقالة « ذكرى دنشواى » وسجن ثلاث شهور ، وفى المرة الثالثة كانت محاكمته وسجنه من أجل مقدمة ديوان على الغاياتى «وطنيتى» .

وفى المواقف الثلاثة والمحاكمات الثلاث كان رائما ، نفس الطبيعة النفية بالشجاعة والمقدرة إلى حد العنف الذى يكتب به ، والجرأة التى يحملها على سن القلم ، كان يعرف تماما الجو حوله ، وكان مؤمنا بأنهم يريدون أن يتخلصوا منه بالسجن أو النفى أو أى وسيلة أخرى يقاوم الاستعمار بها ، الأحرار « أحرار القلم » ولكنه كان مؤمنا كبير الايمان بالله ، قادرا على أن يواجه المعارك ، وقد روى لى الدكتور محمد فهمى الفولى صهره وقد عاش معه هذه الفترة كيف كان يعرف بأنه مقدم للمحاكمة وأنهم يطلبونه غدا أو يفتشون منزله ، أو يدبرون المؤامرات ويرتبون له خطط الانتقام ليحكموا عقوبته ، فلم يكن يصرفه ذلك عن برنامجه الطبيعى ، ينام ملء عينيه ، ويؤدى واجباته كما هى ، ولا يغير من عاداته شيئا ، فاذا كان خارج المحكمة وعلم بالحكم ، أسرع من فوره فسلم نفسه لأقرب قسم بوليس ، لايتردد ، ولا ينتظر حتى يخطروه أو يرسلوا له من يبلغه الحكم . وكان أمره فى سجنه كأمره خارجه ، لا يضيق بشىء ، يقرأ فى كتابه أو يصلى أو يتأمل ، دون أن يفارق وجهه إبتسامة وهدوءه ، وهو أينما يحل تكون شخصيته موضع المهابة والتكريم . .

٢ — قضية الـكاملين

الزمان : عام ١٩٠٨

المـكان : القـــاهرة

أطلق على محاكمة الشيخ جاويش الأولى « قضية الـكاملين » وكان عنوان المقال (دنشواى أخرى فى السودان : ٧٠ مشنوقا و١٣ سجينا) كتب فى الموضوع مرتين يوم ٢٧ و ٢٨ مايو ١٩٠٨ ولم يكن قد مضى على توليه رئاسة تحرير اللواء خمسة وعشرون يوما . وكان (عبد القادر إمام) زعيم ناحية الـكاملين إحدى مناطق السودان قد أدعى النبوة فى هذه المنطقة وتبعه الـكثيرون . فاعترضت حكومة السودان وحاولت القضاء على نفوذه ، وسيرت إليه قوة يقودها المستر مونـكريف المفتش ، ودارت معركة بين قوات بريطانيا وقوات عبدالقادر أمام انتهت بمقتل مونـكريف ومن معه من الجند ، فلم تلبث حكومه السودان أن أسرعت بإرسال قوة كبيرة بقيادة ويكسون مدير النيل الأزرق وانتهت المعركة بهزيمة عبد القادر وقتل بعض الضباط من المصريين والانجليز .

ووصلت بعض المعلومات بوسيلة أو بأخرى من السودان إلى جريدة اللواء ، فـكتب جاويش منتقدا تصرف حكومة السودان معلنا أن تصرفها هو الذى أدى إلى استفحال الشر وإراقة الدماء ، وأن السياسة البريطانية إنما تهدف من أثارة هذه الفتن منع الاستقرار الذى من شأنه أن يدفع مصر إلى المطالبة بحقوقها فى السودان . وذهب جاويش إلى أن الانجليز هم الذين أوقدوا الفتنة ، ودفعوا عبد القادر إلى هذا السبيل الذى انتهجه ومنوة بمجد يسوقونه إليه وغايتهم أن يعبثوا بحالة الاستقرار التى أوشكت أن تسود السودان ، وليخلقوا لهذه الفتنة أسبابا يبررون بها استيلاءهم عليه ، والحيلولة بين المصريين وبينه . وأن الخبر الذى وصل إليه هو الحـكم بالشنق على ٧٠ رجلا من الأهالى ، أعدم منهم ٤٠ ، وحكم على ١٣ آخرين بالسجن . وكانت أخبار السودان تصل إلى مصر عن طريق بريطانيا فتذيعها ببلاغات من وزارة الحربية أو أخبار تسوقها (جريدة السودان) التى كان يتولاها أصحاب المقطم وهى جريدة

شبه رسميه ، أما جريدة اللواء فكانت ممنوعة من دخول السودان ولا سبيل لأن يراسلها أحد . وقال جاويش أن هذا الحكم مخالف لقواعد الانسانية ، ولم يكن ما نشره جاويش مبالغا فيه أو بعيدا عن الحقيقة المبثوثة فى الصحف الأخرى، فقد نشرت جريدة المقطم فى ٢٩ مايو أن المحكمة العليا انعقدت ، وأن الحكم لم يصل ، ويرجح أن يكون بالاعدام على ٧٠ شخصا ، وذكرت جريدة السودان أن عدد المحكوم عليهم أكثر من مائة . وأسرعت حكومة السودان فجمعت أعداد الجريدة وحرقتها أثناء محاكمة الشيخ جاويش وحالت دون حصول الدفاع على نسخة منها حتى لا يجد الدليل على صحة ما ذهب إليه . وقد بدأ واضحا من سرعة تقديم جاويش للمحاكمة ، وتحديد جلسة سريعة وعدم وجود أدلة أكيدة ، ومحاولة اخفاء المستندات التى تؤيد رأيه انما يراد ضربه بشدة منذ الشهر الأول لتوليه رئاسة تحرير اللواء بعدما بدأ من عنف مقالاته وجرأته ، حتى أن جريدة « الجريده » وهى المتدلة الرأى كشفت عن هذا الموقف حين ذكرت (٣١ يونية سنه ١٩٠٨) اهتمام الحكومة « اهتماما شديدا بتحقيق قضيتها على الشيخ جاويش وأنها أسرعت فى تحديد جلسة لها على خلاف العادة المألوفة فى قضايا النيابة وقالت : « أن ذلك يشعر بأن الحكومة لا تنظر لهذه القضية بنفس النظر الذى تنظر به جميع الدعاوى العمومية بل بنظر صاحب الحاجة ، ولكن لا خوف فان فى مصر قضاة » . وأضافت « أن النيابة لم تصل فى تحقيقها إلى دليل يثبت أن الكاتب كان يعلم كذب الخبر وقت نشره بل كل ما فى المقالة من المعانى والعبارات تدل على أن الكاتب كان يجهل جهلا تاما أن هذا الخبر كاذب» . وكذلك دافعت عنه « المؤيد » . وقال الشيخ جاويش الذى كانت سنه إذ ذاك (٣٦ سنة) عبارة واحدة حاسمة أمام القضاة « إنى رويت خبرا بغير سوء قصد » . .

وكانت النيابة العامة قد وجهت إليه تهمة « تكدير السلم العمومى » بسبب الهجمة الشديدة التى حرر بها المقال ، وأبرز المدافعون عنه « محمود فهمى حسين — أحمد لطفى »

أهم وجوه الضعف فى الاتهام . وهى أن النيابة عمدت إلى عدم استحضار أوراق قضايا السودان والصحف التى نشرت عدد الحاكمين ، وقالت أنها هى الركن الأول فى الجريمة . وإنه إذا كانت حكومة السودان صادقة فيما بلغته إلى نظارة الحربية، فلتبادر إلى إرسال محضر هذه القضية . . وأشاروا إلى أن تكدير السلم العمومى بالنسبة للسودان مستحيل لأن «اللواء» محظور عليه الدخول فى بلاد السودان ، فضلا عن أن جريدة المقطم لسان حال الاحتلال قالت بعد ما ذكرته اللواء أنه خبر محتمل الوقوع ، بل ربما كان عدد الذين حكم عليهم أكثر من أولئك الأشقياء ، إذ الجريمة ظاهرة ثابتة ، وقانون البلاد واضح جلى . ومعنى هذا أن ما نشره «اللواء» ليس موجها لتكدير السلم العمومى ، بل أن هناك ما يثبت أن ما قاله اللواء صحيح ، وأن عدد من حكم عليهم يفوق المائة كما قال حاكم السودان فى مخاطباته الرسمية . وقال أحمد لطفى : « إن القانون اشترط لتطبيق عقوبة الخبر الكاذب أن يترتب على النشر تكدير السلم العومى بالفعل ، وقد طالب المشرعون إلغاء هذه المادة محتجين بأن نشر الأخبار الكاذبة ، ليس من الأمور الجنائية التى يصح العقاب عليها ، ولكن سياسة الحكومة قضت ببقائها دون التعديل . وأشار أحمد لطفى إلى ما ذكره الاستاذ جاروا المشرع الفرنسى من أنه يكفى وجود هذا النص فى القانون لتتمكن حكومة لا تراعى الذمة أن تحاكم عند الاقتضاء خصومها فى السياسة وتقضى عليهم بالعقوبة وأن تمحو وتهدم حرية الصحافة . وأن « جاويش » دخل ميدان الصحافة تحت سيطرة هذا القانون بجنان ثابت ، وقلب ظاهر يلتهب حبا فى « خدمة الأمة وإرشاد الحكومة » . .

وما كاد يضع قدمه فى إدارة اللواء حتى حفت خدمته بالمكاره واعترضته الصعوبات ، ولكن الرجل الذى ملأ قلبه حب أمته لا يقف كفاحه عند حد بل يتلذذ بالمعارك ولا يحفل بالمكاره ويركب كل صعب وأشار الدفاع إلى أنه لم تمض بضعة أيام حتى وقعت تلك الحادثة الكبرى التى روعت القلوب ورملت النساء ، وبادر « جاويش » إلى ذكر ما وصل إلى علمه مطالبا ببيان أوفى ، وقال أن التفصيلات التى أبلغتنا إياها الحكومة رسميا لم تكن كافية

للوقوف على الحقيقة والبصيرى بين السطور أن الحادث على النحو الذى بدأ به لا بد أن يستفحل أمره ، وهى حالة مطلوب معها من أن تجلى الحقيقة بكل إيضاح ، وأن جاويشا أورد الخبر مورد الذى لم يتحقق تماما من صحته وعلق عليه تعليقا أغلظ فيه القول للحكومة ونعى عليها التسويف فى نشر أخبار الحادث ، وأسرعت الحكومة فبلغت الصحف أن الذين قدموا للمحاكمة ٢٢ برىء منهم ٣ وحكم على ١٢ بالإعدام والباقى حكم عليه بالسجن .
وأشار إلى أن جاويش إمتنع عن إبراز الخطاب المتضمن الرسالة السودانية ومركز واسم الوجيهين اللذين استشارهما فى نشر الرسالة ، وقد عد هذا دليلا على سوء القصد . وقال : إن الاتهام يحاول إغراء المتهم بارتكاب فعل مغاير لمبادىء الشرف . . والواجب الصحفى ، وأبدى دهشته من أن يطالب الصحفى بذكر أسماء الأشخاص الذين ائتمنوه ووثقوا به ، فأرسلو إليه أخبارا ، وأضاف بأن شراح القانون أباحوا للصحافى والسياسى الحق المطلق فى كتمان اسم الكاتب أو المرسل .

وقد صور القاضى « محمود رشاد » كيف كان حكمه ببراءة « جاويش » مصدرا للمتاعب فى حياته فقد جعلها من بين الأسباب التى حملت الإنجليز على الوقوف عقبة فى سبيل ترقيته ، بعد أن قضى سنوات طويلة رئيسا لمحكمة مصر ، فقد عين كثير من رجال المحاكم الكلية مستشارين دون أن يكون هو واحداً منهم .

وروى موقفه من قصة جاويش وكيف أنه لما رآه فى محكمة ثانى درجة قامت القيامة عليه وهاج الإنجليز هياجا شديدا ، واستدعاه المستر برايتون نائب المستشار القضائى وقال : سنرفع نقضا عن حكمك ، قال رشاد له : افعلوا ما شئتم ، ولم يكسب المستر برايتون القضية فى محكمة النقض إذ أيدت المحكمة حكمه ببراءة الشيخ .

وقال محمود رشاد : لقد وجه إلى المستشار القضائى سهام اللوم والتقريع ، وقال له برونيوت : أنت تقف لنا دائما فى الطريق ؟ ثم شطب أسمه بعد أن رشح رسميا لوظيفة مستشار فى الاستئناف .[1]

---

(١) محمود رشاد : ٧ مايو ١٩٢٤ جريدة المحروسة .

وقد أشارت الصحف إلى أن تبرئة جاويش كانت مثار إعجاب الجماهير التي استقبلته بالهتاف وحسن التكريم ، وبلغت الحماسة مبلغها . وتقدم إلى العربة التي كان يركبها نفر منهم أبوا إلا أن يحملوها على أعناقهم ، وقالت اللواء[1] أن الموكب سار مخترقاً الشوارع فلما وصل شارع المدابغ كان الزحام قد تضاعف بمن انضم إلى المظاهرة ، وكاد الطريق ينسد بالتيار الزاخر ، وحين وصلوا إلى قهوة جورج أمام جريدة الأهرام وكان البوليس يزاحم الناس ، ونتج عن ذلك أن تكسرت بعض المناضد . وعلقت الصحف على البراءة فقالت أنه يستنتج منها أن المتهم لم ينشر الخبر باعتباره صحيحاً وأن الخبر نفسه لم يثبت كذبه .

وتوالت برقيات التهنئة ونظم الشعراء عشرات القصائد وقال أحمد نسيم :

يا أعف الانام نفساً وذيلا　　وأجل العباد بين العباد

إن يوما خرجت فيه بريئا　　هو عيد من أشرف الأعياد

إن من يحمل السماكين متنا　　لكثير الأعداء والحساد

وقال إمام العبد فى قصيدة طويلة :

أنت علمتنا الحياة فسرنا　　يا فتى الدهر تحت ظل اللواء

وبين نشر المقال فى ٢٨ مايو ١٩٠٨ وحكم البراءة فى ٤ أغسطس ١٩٠٨ وبين استئناف الحكومة للقضية وعرضها أمام محكمة الاستئناف فى ٣٠ أغسطس ١٩٠٨ وتبرئته تبرئة تامة من تهمة نشر الخبر الكاذب ، وتهمة إهانة نظارة الحربية كان الشيخ جاويش يكتب ولا يكف عن مهاجمة بريطانيا ، و من أهم كتاباته مقاله « يد الانجليز فى مقدونيا » نشر فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٨ .

---

(١) ٢٩ يوليو ١٩٠٨ (الصحف)

غير أنه لم يلبث أن عاد إلى مهاجمة الانجليز بنفس القوة والعنف فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٨ دون أن يكون لما لقيه من متاعب أثرا فى تخفيف لهجته وهذه عبارته : « يقول الخبيرون بمجريات المواليد الطبيعية بأن الكائن الحى لا ينمو إلا من باطنه ، فالنبات مثلا لا ينمو بإضافة أفرع عليه من الخارج ، ولا يمد مورقا إذا ألصق به شىء من الأوراق الطبيعية أو الصناعية ، وكذلك الشأن فى باقى الأجزاء لا تكون فى النبات إلا إذا تولدت فى ذاته تولدا ، وبرزت منه بروز الإجزاء المكونة ، من لنا أن نكون مع الانجليز كالنبات بالإضافة إلى مواده الغذائية ، وهم يريدون أن يغتنوا بفقرنا ، ويقووا بضعفنا ، ويخلدوا بزوالنا ، تقتحمنا عيونهم ، وتمقتنا نفوسهم ، يريدون أن يأمروا فنمتثل ، ويكلفوا فنعمل ، ضيقوا رداء أفكارنا ، ومسرح أبصارنا ، حتى لا نكاد نجد مجالا لحركة ، وقيدوا أرادتنا ، وهواجس نفوسنا ، حتى خيل لكثير منا أى منهم رقباء حتى على خواطر النفوس ووساوس الصدور . : » .

ولم تلبث القضية أن حولت إلى « النقض والابرام » فأيدت حكم البراءة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٠٨ ، وما زال هو خلال ذلك يكتب دون توقف مهاجما الانجليز ناقدا كل تصرف غير وطنى .

٢ — ذكرى دنشواى

وقع حادث دنشواى ١٩٠٦ فى مصر واهتز له الرأى العام العالمى ، وكان للحركة الوطنية وصحفها وكتابات مصطفى كامل بالذات فى صحف أوربا ، أثر بعيد المدى فى زعزعة مركز بريطانيا ، مما حملها على سحب معتمدها « كرومر » من مصر بعد أن ظل ممثلا لها ربع قرن . وأصبح يوم ذكرى دنشواى من الأيام الخالدة التى يحتفل بها ويستعاد الحديث عنها ، ومناسبة وطنية لايقاظ الوعى والتنديد بالانجليز . وقد صادفت ذكرى دنشواى عام ١٩٠٨ وجـــود بطرس غالى رئيسا للنظـــار ، وكان إبان الحادث ناظراً للحقانية ورئيسا للمحكمة المخصوصة التى عقدت المشانق قبل نظر القضية وإصدار الأحكام . وكان فتحى زغلول عضو محكمة دنشواى إبان هذه الذكرى قد رقى وكيلا لنظارة الحقانية .

وكان لابد أن يتناول « عبد العزيز جاويش » هذه الذكرى بمقال ، غير أنه على طريقته فى العنف والشدة لم يتردد فى أن يوجه لبطرس غالى ولفتحى زغلول أقسى عبارات اللوم والتقريع والاتهام ، ولا شك كان تولى بطرس غالى لرئاسة النظار بعد اقصاء مصطفى فهمى قدواجه روحا من السخط من قبل الشعب واستقبل بحملة غاية فى العنف من الحزب الوطنى لارتباطه فى نظر الشعب بحادث دنشواى والمحكمة المخصوصة . كما تجدد التذكير بموقفه من توقيع معاهدة ١٨٩٩ من أجل تسليم السودان إلى الإنجليز . وفى هذا يقول جاويش :

« حاربت الجنود المصرية السودان وفتحته بسيوفها وما قدمته من أرواحها العزيزة ، فلما فتحت فى أوجههم أبوابه ، ادعى الإنجليز أنهم شركاء فيه بالنصف وعرضوا الأمر على الحكومة المصرية فهمت نفس عطوفة رئيس النظار بالبحث فى المسألة ثم رأى أنه ربما

أرهقه هذا الهم شيئا من النصب والتعب فلجأ إلى أقل الأمرين ضررا وأخفهما احتمالا ، وذلك عول على وضع اسمه الشريف فى عقد الاتفاق بين مصر والحكومة الانجليزية ، أو بين الحكومة الإنجليزية ونفسها ، ثم وضع اسمه الشريف على كل ميزانية سنوية قدر الإنجليز منها للسودان ما قدروا من أموال الحكومة المصرية المثقلة بالديون » .

هذا موقف « جاويش » فى مايو ١٩٠٨ قبل أن تحل ذكرى دنشواى ، فلما حل موعد الذكرى استقبلها « جاويش » بشىء من الحفاوة ، وجعلها فرصته للتنديد بأعوان الاحتلال ، ولم يرهبه أن يكون أحدهم فى مركز رئيس الحكومة أو « ناظر النظار » كما كانوا يسمونه إذ ذاك ، والآخر وكيلا لوزارة الحقانية . ولا يمكن فهم هذا الموقف على حقيقته إلا بإيراد سطور من هذا المقال التاريخى الذى أودع جاويشاً السجن ثلاثة شهور ، ووضع على رأسه أكاليل الغار بعد خروجه السجن ، ودفع الوطنيين إلى التجمع فى ساحة فندق شبرد ، أمام حديقة الأزبكية ليحملوه بعربته على أكتافهم بعد أن أهدوه « وسام الشعب » .

« سلام على أولئك الذين كانوا فى ديارهم آمنين مطمئنين فنزل بهم جيش الشؤم والعدوان فأزعج نفوسهم ، وأحرق حصادهم ، فلما هموا بصيانة أرزاقهم التى عملوا فى سبيلها بأجسامهم ودوابهم وأرضهم ، وقاموا عليها نحو حول يتعهدونها بالسقى والحفاوة ويترقبونها فى البكرة والعشى قيل أنهم مجرمون ، فسيقوا فى السلاسل والاغلال ، ثم صلبوا على مرأى ومسمع من زوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم وعيالهم وأصدقائهم وجيرانهم .

سلام على تلك الأرواح التى انتزعها بطرس باشا غالى رئيس المحكمة المخصوصة القضائية من مكامنها فى أجسامهم ، كما تنتزع السلوك الحرير من خلال الشوك ، قبضها بيده فقدمها قربانا إلى ذلك الجبار الظالم الغاصب القاهر ، القائم فى بلادنا بنفاقنا وضعة مقاصدنا »

المستبد بالأمر فينا بسبب تفرقنا وضعف عزائمنا ، المسيطر علينا بنفر منا يخشون الانجليز أكثر مما يخشون الله ويرغبون فى المال والرقى ولو شقيت فى سبيل ذلك بلادهم واستبيحت حرماتهم .

سلام على أولئك الذين وقف هلباوى بك فثار فيهم ثوران الجبارين ، ثم إنثنى على رقابهم فقصمها ، وعلى أجسامهم فمزقها ، وعلى دمائهم فأرسلها تجرى فى الأرض تلعن الظالمين وتتوعد الآثمين .

ثم قام هلباوى بك مقامه المشهود ، وطلب من قضاة تلك المحكمة الظالمة بذلك القلب المضطرب واللسان المتلجلج أن يحشر أهل دنشواى فيقدموا قرابين إلى هيكل الاحتلال ، الذى هو معبد الخائنين ، وقرة أعين المارقين ، فما لبث رئيس المحكمة المخصوصة وزميله قاضى دنشواى أحمد فتحى باشا زغلول أن استهوتهما الآمال ، واستفزتهما المناصب ، واسترعتهما عظمة الاحتلال فأنطقتهما بذلك الحكم الجائر ، لأرب فى الألقاب والمناصب وعوز النفس إلى الشعور بالواجب .

أوعز اللورد كرومر ما أوعز ، فمقت الوجوه ، ونسيت الذمم ، واعوزت القلوب الرحمة ، فضيعت الحقوق ، وأزهقت الأرواح ، وايمت النساء ، وتيتمت الأطفال ، فما جنى أولئك الذين خالفوا الله باطاعته وهزموا الحق بنصرته ، أولئك الذين طمسوا معالم العدل ، وأقاموا منار الجور ! ! لقد أصبحوا يشق وجودهم على الأرض ، ورؤيتهم على الابصار ، وصوتهم على المسامع ، وذكرهم على الألسن ، وذكراهم على الصدور .

أما أولئك الذين بكتهم الأرض ، والسماء ، ورثى لظلمهم العالم ، وانخلع لمصابهم قلب الانسان فى كل مكان ، فهم شهداء عند ربهم يرزقون ، وشهود ستنطق أيديهم وأرجلهم ورقابهم ودماؤهم بما ظلمهم به قضاة المحكمة المخصوصة ، وقصر فى الدفاع عن حياتهم المحامون يوم يؤتى بهؤلاء فلا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

فلتذكر الأمة هذا اليوم الذى أيقظها من سباتها ، وبصرها بعداتها ، وملأ — قلوبها بالعظة والعبرة ، ونفوسها بالحمية والغيرة ، هذا اليوم الذى كشف أسرار المنافقين ، وفضح كبير الخائنين ، وأظهر حقائق المارقين الذين أشباحهم مع الأمة ، وذممهم مع المحتلين . هذا اليوم الذى أرى المحتلين أنه ليس معهم من الأمة إلا نفر باعوا بلادهم وذممهم ، وخسروا دنياهم وآخرتهم ، وأنه لا يرضى الأمة إلا أن تخلص من احتلالهم ، وتسلم من عدوانهم واغتيالهم ، ألا فلتذكر الأمة الثامن والعشرين من شهر يونيو .

ولنذكر أن للاحتلال أعوانا من بيننا يجب محاربتهم بالبغض ، ومعاملتهم بالحذر وسوء الظن . اذكروا هذا اليوم ، واذكروا معه من أخذ بأيدى الأمة إلى النهوض ، اذكروا اسم « مصطفى كامل باشا » أمام الحركة الوطنية ، واستاذ الأمة المصرية ، واقتدوا به لعلكم ترشدون» .

* * *

ولم تمض أيام حتى قدم « جاويش » للنيابة العامة متهما بأنه — حسبما جاء فى قرار الاتهام « أهان بطرس غالى رئيس مجلس النظار ، وأحمد فتحى زغلول وكيل الحقانية ، وأنه ضمن مقالة قد طعن فى « عطوفة الباشا » بأن نسب إليه انتزاع أرواح بريئة بقضائه ليقدمها قربانا للورد كرومر . والطعن فى عطوفة الباشا وسعادة فتحى باشا بأن الذى انطقهما بهذا الحكم الجائر هو رغبتهما فى المناصب ، ورهبتهما من عظمة الاحتلال ، ونقص شعورهما بالواجب ، وغير ذلك من ألفاظ السباب ، والفحش ، كرميهم بخيانة بلادهم وبيعهم ذممهم » .

وكانت الحكومة قد أفادت من تجربة المحاكمة الأولى ، فوضعت القيود التى تكفل

أولا الحكم بالادانة ، وسرعة المحاكمة ، واعتبار الحكم نهائيا منذ النطق به ، كل هذه الإجراءات قد وضعت لها أنظمة بحيث أصبحت نافذة المفعول .

وأعلنت جريدة «المقطم» قبل صدور الحكم، بأن المحكمة لن تمكن المتهم من اثبات الوقائع التى ذكرها ، وجاء قرار المحكمة وفق ما أعلنت « المقطم » وطالب وكيل النيابة « عبد الحميد بدوى » بالعقوبة الشديدة لوقف مثل هذه الأقلام « الجامحة » وحتى تعود إلى النفوس طمأنينتها ، وذكروا أن مقال « جاويش » إهانة ولم يتضمن قذفا ، ودافع أحمد لطفى وإسماعيل شيمى المحاميان ببطلان الاتهام ، وأدلى رشدى باشا فى ٢٧ يوليو ١٩٠٩ قبل نظر القضية بيومين باعتباره ناظر الحقانية إلى إحدى الصحف الأجنبية بتصريح قال فيه أنه سيحكم على جاويش بكل تأكيد .

وعندما صدر الحكم استقبل أسوأ استقبال ، وانهالت البرقيات والاحتجاجات حتى فتحت جريدة « اللواء » بابا أطلقت عليه باب استياء الرأى العام ، استمر أياما طويلة وكانت عباراته مثلا عاليا للوفاء والعاطفة المتبادلة بين الكاتب وقرائه على هذا النحو :

ملأ الحكم قلوبنا حزنا ، وزاد نار الوطنية اشتعالا ، إن المجاهدين لخلاص أوطانهم من ربقة الذل والاستعباد لا يبالون بما يلاقون ، نزل الحكم علينا نزول الصاعقة ، ربات الحجال يهنئن الشيخ جاويش ، سجنك مبدأ حياة جديدة ، مكانك فى القلوب وذكرك على الألسنة ، لست فى السجن بل فى سويداء القلب ، لا يقعدنكم الحكم من الجهاد ، كلما زادوا فى اضطهادنا ثبتنا فى جهادنا ، زدت فى قلوبنا مقاما ياحامل لواء الحرية . . . الخ .

ولقد كان لهذه الكلمات أثرها من ناحيتين ، الأولى فى نفس «جاويش» الذى لم يتأثر بالحكم واستقبله راضيا باسما ، وعاد منه أشد صلابة .

أما بالنسبة للحكومة فقد اهتزت لهذه الحملة العنيفة ، فاضطرت أن تمنح «الجاويش» بعض الامتيازات ، فسمحت له بتناول الطعام من منزله ، وأن يقيم فى غرفة خاصة ، وأن يتريض فى فناء السجن مرتين فى اليوم ، كما أباحت زيارة أهله له .

* * *

كتب جاويش مقالة عن دنشواى يوم ٢٨ يونية ١٩٠٩ ، وصدر الحكم بسجنه يوم ٢٥ أغسطس ١٩٠٩ ونشرت « اللواء » يوم خروجه من السجن (٢٢ نوفمبر ١٩٠٩) أولى مقالاته « أين كنت ثلاثة الأشهر المنسلخة » كشف فيه عن موقفه من الحكم .

« كتبت ما كتبت بذكرى دنشواى فرأت الحكومة (والله أعلم بيد من أمرها) أن ما كتبته أستحق عليه العقوبة ، فكان مما كان مما لا حاجة لذكره ، فلما بلغنى الحكم وقد كنت فى منزلى تلقيته بما عهد فى نفسى من الجلد والصبر ، ثم خرجت مسرعا إلى ذلك المنزل « نزل المجاهدين والمخلصين . » وقال : لقد يظن بعض الناس أن قد نال أعدائى منى فجزعوا ، وانهزم أنصارى من حولى ففزعوا ، أن ذلك الحكم نعمة من الله أرسلها ليجمع أشتات القلوب ، ويوقظ بها نيام العيون وينبه بها الغافلين ، ولقد طالما نادينا بحاجة الحكومة إلى الاصلاح فقيل متهورون ، وكثيرا ما أسأنا الظن بكثير من تصرفاتها فقيل متهوسون ، نشرنا لهم ، قاومنا تصرفاتهم لخوربنا وطوردنا ، وأخذ با كظامنا إلى السجون ، فإن زعموا أنهم بذلك يشفون غليل صدورهم ، وينفثون على حفيظتهم ، فقد وهموا ، فبماذا ليت شعرى يشمتون ! أبما أكسبونا من رفعة الذكر ونباهة الشأن ! وبماذا يفتخرون ، أبمحاربتهم من أقاموهم فى مراكزهم وعقوقهم من أيدوهم فى مناصبهم أم بإساءتهم إلى من قسوا عليهم من رحمة ، وأغلظوا لهم من إخلاص ، حتى لا يجرؤ عدو على اتخاذهم مضغة فى فمه .

ثم علام يسخرون منا وقدجهدنا واستراحوا ، وجاهدنا وتخلفوا ، وتقدمنا وتقهقروا ، وتحررنا واسترقوا ، أغرام وهج الذهب فاتخذوه أطواقا لرقابهم واصفادا لأرجلهم ، وأغلالا لأيديهم ، وخلبت أبصارهم زخارف الدسوت ، فخطبوها بمروءتهم وشممهم ، وطلبوها بمالهم وذممهم ، ثم سمروا — ملابسهم فيها حتى لا يفارقوها مختارين ، ولا يحرموها مقهورين » .

ومضى جاويش يكشف عن أثر السجن فى نفسه : زعموا أن السجن يفل من قلمى ، ويضعف من حميتى ، ويخمد من نار غيرتى ، لقد وهموا ، فما كان أجدرهم أن يعلموا أن فى ضيق السجون أوسع مجال للأفكار ، وأن فى ظلمتها نورا للبصائر لا الأبصار ، لقد اتخذت السجن فى تلك الأشهر مدرسة زادتنى بصيرة بتصرفات الحكومة ، وعلما واسعا بأخلاق هذه الأمة » .

* * *

وكانت الحكومة قد اتخذت الحيطة حتى لا يستقبله أحد عند خروجه من السجن فأخرج مفجأة ، فى الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ، وقبل أن يشرق الصباح حيث الألوف تستعد لاستقباله فى موكب ضخم ، ثم حمل فى عربة تحت جنح الظلام إلى بيته ، فما أن طلع الفجر ، وتجمعت الجموع فى ساحة المحافظة فى انتظار خروجه حتى علمت أنه قد أفرج عنه منذ الليل ، هنالك قصدت إلى داره وقدمت تحيتها إلى صاحب « القلم المر » الذى لا يثنيه السجن عن كلمة الحق التى يعتقد .

وكان ذلك اليوم الذى نشر فى صباحه مقاله ، هو يوم تكريمه (٢٢ نوفمبر ١٩٠٩) الذى أقيم فى المساء فى فندق شبرد .

وفى خلال أيام السجن كانت قد اقترحت فكرة إهداء « وسام وطنى » من الشعب « لجاويش » واشتركت طوائف الشعب المختلفة من أقصى القطر تساهم فى عمل الوسام ، الذى صنع على نحو رائع ، فهو مؤلف من ثلاث قطع من الذهب ، الاولى منقوش عليها

رسم الاهرام وقد كتب تحت الرسم : « تذكار الشعب إلى عبد العزيز جاويش اعترافا بوطنيته الصادقة » والثانية رسم على نبات كان يتخذه المصريون الاقدمون رمزا للظفر . وقد كتب عليها الآية الكريمة « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » ، والثالثة هلال فى وسطه نجم . وقد نيطت هذه القطع جميعا بوشاح من الحرير الابيض والاحمر مرصعة كل منها بالحجارة الكريمة ترصيعا بديعا ، وقد صنعه « محمد على افندى » الجوهرى الشهير بالصاغة وأبى أن يأخذ لصنعه ثمنا ، وقدعلقه على صدره « أحمد لطفى » وكيل الحزب الوطنى . »

كما أهدى طبقا من فضة عليه محابر من خالص اللجين ومعها أدواتها وهى قلم مقشط وختامة من الفضة المموهة بالذهب . وأشارت الصحف إلى أن الطرقات الموصلة إلى الفندق كانت مزدحمة بعشرات الالوف من المتحمسين (جريدة الاجبشيان مورنينج نيوز) .

وقد وجه إليه زملاؤه كلمات التقدير ، ودارت الكلمات حول اعتبار السجن فى هذه الظروف مما يغبط عليه الإنسان ؛ وهو أقل ما يلاقى الحر فى طريقة من العقبات ، وأشار بعضهم إلى أن « جاويش » قد عرف جميع أطوار الطبقات العام والوسطى ، وما كان يعرف أخلاق الاشرار والمجرمين من المسجونين « فهو عالم من كبار علماء الاخلاق ، يرشد الامة عن خبرة ، ويخدمها بأضعاف ما خدمها قبل أن يكون فى سجنهم سجينا » .

* *

وكانت فرصة ليصور « جاويش » مشاعره فى هذه المرحلة من حياته ، منذ تألق فى صدر اللواء كاتبا جريئا يهز دوائر الاحتلال والحكومة . ويدخل السجن ويخرج منه . ويواجه جوا حادا من المقاومة والصراع ، وقد أعطى فى خطابه ملامح نفسية صريحة تكشف هذا الجانب من حياته ، فهو يتمثل بقول الشاعر :

بلادى وأن جارت على عزيزة   وأهلى وأن ضنوا على كـــرام

ويقول : « إذا رأيت من هذه الأمة التى أتشرف بالانتساب إليها هذه الحفاوة والاقبال والمظاهرة والتأييد ، فما ذلك لأننى أتيت فى عهدى بخدمتها شيئا من المعجزات . وخوارق العادات ، فإن أقصى ما أتيت فى قصير عهدى بالصحافة هو أننى كنت اكتب غير متهيب تلك المناصب ، ولا حاسب حسابا لأصحاب الأبهة والخيلة . ما داموا على الباطل ، يعرض لى الباطل فلا ألبث أن أضربه بسنان قلمى ضربة يخر بها صريعا مجندلا دون أن أبالى بأهله وأنصاره ، ولو أثقلتهم الأوسمة ، وحجبتهم عن الناس المناصب ، وكثيرا ما قيل أننى ما حوكمت إلا لأننى عدت إلى نفر من الكبراء فوخزتهم بأسنة قلمى حتى أنأيت نفوسهم عن الراحة وجنوبهم عن المضاجع . ومن الناس من كان يستهجن تلك الخطة ضنا بذلك النفر من أن ينال منه أو خوفا من أن يصيبه من ذلك ما نزل بى من عذاب السجون ، وما ظلموا إلا لأن الحق لا وزن لمن لا يطلبه . ولا نجاة لمن لا يعتصم به . »

وهاجم اتباع الاحتلال بعنف « إذا عز أهل الخاصة نفر من أهل الملق والدهان يخصوهم بالتجلة والاعظام ، ويؤمنون بانحرافهم عن الحق قائما هم عبدة الميول والأهواء . وإذا عز أولائك من يرتلون أيات مدحهم ، ويقطعون الأيام والليالى بتسبيحهم ، ويطوفون بقصورهم طواف الحجاج بالكعبة المكرمة ، فهل ند عن عقولهم المثقفة ، ونفوسهم المهذبة ، ودراستهم الواسعة أن كثيراً من الناس عبدوا صم الحجارة » .

* * *

وأعلن أنه ما كان يتقبل الوسام إلا لأنه يعتبره منهم « كرامة » وأنه لا يأبى الكرامة إلا لئيم ، إعترافا بعجزه وقصوره « فأين أنا ممن جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ؟ وبلغوا ما بلغوا من المجد والرفعة ؟ حتى إذ همت أممهم بمكافآتهم رأوا أنه « لا جزاء على فريضة ، ولا شكر على واجب » .

فهو قد تلقى الوسام لا لأنه « فتن بذهبه الوهاج ، وماسه الآخذ بالأبصار ، ولا لأنه أتى ما لم يأت الأوائل ، ولكن لأمر واحد ، ما هو هذا الأمر ؟ نظرت فأبصرت قيد قلوب الأمة فيه تنفض عن أنفسها غبار الموت ، وتنزع عنها أكفان الخوف والجبن ، مستقبلة حياة الحرية التي طالما تمتعت بها الأمم » .

وعاود إنذاره لمن أسماهم أدعياء الوطنية وطفيليها ، بأنه لن يتردد في مهاجمتهم « أنني لا يقعدني عن الصراحة وإعلان الحق وجل ، ولا يصرفني عنهما شيء من الأمل ، كما لا يقرب بي من الباطل رغب في مال أو منصب ، ولا ينسيني حدود الفروض الوطنية المقدسة الزلفى من وزير أو أمير » .

وعاهد مواطنيه على أنه لن يألو جهدا في سبيل الكفاح « ولو أسلم جسمه للبلاء وروحه للفناء . » ثم قال « فإن رأيتم مني نقضا لهذه البيعة أو انحرافا عن هذه الشرعة فأنتم في حل من دمي فأريقوه ومن جسدي فمزقوه . »

ثم أشار إلى ما قدمه له المواطنون خلال سجنه من مال وهدايا وكيف رفض ذلك ترفعا عن أن يجعل عمله الوطني موضع الجزاء المادي « لو كنت ممن يتقدمون عند المغنمة لما رددت تلك الأموال التي قدمها إلى أهل الحمية والمروءة وأنا سجين ، ولعل بعض الحضور يعرفون مقادير ما قدم إلى ، وأني كنت أردها ردا جميلا . فإذا تبجح أولئك السفهاء بأننا لا نكتب إلا لنشتهر ، ولا نخطب إلا لنحلى صدورنا بأمثال هذا الوشاح فليعلموا أنه سواء أعلى صدري وضع هذا الوشاح أم على نعش ، وسواء على سعدت في سبيل الحق أم شقيت ، وقتلت أم حييت ، وسواء على ظمئت أو رويت ، فأتربت ام اغتنيت ، وسواء على أني إلا كواخ سكنت أم في القصور ، وبجلد البعير ارتديت أم بجميل الحرير ، وشهى الصحاف تغديت أم بطعام الشعير ، ذلك عهد الله بيني وبينكم ما حييت ، لا أبتغى عندكم مالا ونشبا ، ولا أتقبل منكم إلا صفو قلوبكم وصالح دعائكم : أن الدنيا بعالها وجمالها وكبرائها ووزرائها ، لا تعدل عندي

أن أكون معاف فى بدنى ، معاف فى وطنيتى ، معاف فى إخلاصى لأمتى وخدمتى لدولتى» .

ودعا الذين كانو يبكونه أن تكون دموعهم فى قلوبهم لا فى مآقيهم «ما أجدر دموع الشجعان أن تكون على قلوبهم لا فى مآقيهم » .

وعنده أن هذا السجن البسيط ليس إلا أول مراحل الكفاح وليس أعلاها : « لست أول من أوذى من أهل هذا الجيل فى سبيل الحق والصراحة إلا أنه ما دام للحق أنصار يؤيدونه فسيرى الناس أن السجن (البسيط) هو أول المنازل ولا بد لهم بعد تكرار الحوادث ، أن يألفوا كل كارث مهما عظم وفظع » . ودعا ألا تكون الأحداث والكوارث مناحات أو مآتم ، ولكن « دروسا يمعن فيها الناظر فكره ، ويجهد فى إدراكها نظرة » .

واستشهد بقول الشاعر :

ومن ظن أن سيلاقى الحروب　　وإلا يصاب فقد ظن عجـزا

ووجد الشعراء مجالا لتحية جاويش مرة أخرى : فقال أحمد نسيم :

إذا أمرؤ منح الأوطـان مهجته　　رمى بها فى غمار الحتف والعطب

وقال على الغاياتى :

عادت إلى القلم المشهور شيرته　　ولاح بدر «اللوا» من بعدما احتجبا

٣ — قضية التلغراف

وقعت[١] قضية التلغرافات عام ١٨٩٦ حينما كان الجيش المصرى زاحفا مع الجيش البريطانى لاسترجاع السودان ، كان قائد الجيش فى السودان أرسل إلى السردار البريطانى تلغرافا بالأرقام بواسطة الشفرة ، وقد سلم التلغراف للانجليز ولم يبلغ لناظر الحربية ، ولما سألت (عابدين) عنه قيل لها أنه لم يصل ، وظهر المؤيد وفيه نص التلغراف حرفيا ، ومعناه : أن قدهبت عواصف شديدة إقتلعت خيام الجنود وألقتها إلى مسافات بعيدة وقتلت البعض منهم ، وكانت إحدى الجرائد المنافسة للمؤيد (يقصد المقطم) .لما رأت ما فعلته المؤيد شنت الغارة على السردارية (بقصد مقر السردار) وقالت أن للمؤيد جواسيس فى دور الحكومة ينقلون إليه الأخبار ، وقامت نظارة الحربية بتحقيق دقيق ، وكذلك النيابة ، وبعد التحقيق وجهت التهم إلى مصلحة التلغرافات واتهموا (توفيق كيرلس) بدعوى أنه هو الذى تسلم الإشارة منه إلى التلغراف والشاب لا يعرف رموز هذا التلغراف وقد أدانت المحاكمة الشاب وبرئت المؤيد ، وفى الاستئناف برئت التلغرافجى ، وظل على يوسف طوال حياته حتى توفى فى أكتوبر ١٩١٣ يدفع من ماله الخاص مرتبا لتوفيق كيرلس الذى فصلته مصلحة التلغرافات على أثر صدور الحكم بإدانته » .

وهناك إضافات إلى هذه الصورة التى رسمها هامش الأهرام هو أن المؤيد واصلت نشر التلغراف ٢٦ يوليو ، ٢٨ يوليو ، ٣٠ يوليو وأن توفيق كيرلس قد قبض عليه وهو يبلغ إحدى هذه التلغرافات وسألت النيابة الشيخ على يوسف عن مصدر التلغرافات فأجاب أنه لا يستطيع أن يبوح به لأن هذا سر الصحفى ، وسأل عن معرفة كيرلس فأجاب أنه يعرفه معرفة سطحية . ولم تصل النيابة منه أو من الآخر إلى دليل قضائى على اشتراك المؤيد .

---

(١) هامش الإهرام : الصحاف العجوز (توفيق حبيب) ١٩٣٨/١٢/٨ .

وقال إبراهيم الهلباوى أن القضية هزت الرأى العام وكشفت حقائق كان يجهلها ، وكان محمد فريد رئيس نيابة الاستئناف حاضرا الجلسة ، وكان عبد الخالق ثروت ممثل النيابة فلما صدر الحكم ببراء الشيخ على يوسف لم يتمالك محمد فريد نفسه من إظهار سروره بهذا الحكم ، ولم يكتف بالتصفيق بين المصفقين ، ولكن التفت إلى ثروت وقال له :

قل لصاحبك (أى مستر سكوث المستشار القضائى) أن الحكم صدر بالبراءة فلما اتصل الخبر بمستر سكوث سأل عن ثروت باشا فلم يستطع الانكار فغضب المستشار القضائى على محمد فريد ونقله إلى بنى سويف فرفض فريد تنفيذ الحكم واستقال (١) .

٢ - ومما يتصل بالقضاء والصحافة أن مقالا لإبراهيم الهلباوى نشره عام ١٨٨٠ كان سببا بعد ذلك فى تعيينه محرراً فى الوقائع المصرية . قال الهلباوى مصوراً الحادث : « أنه كان لرياض باشا ناظر النظار ستون فدانا فى جزيرة على النيل على مقربة من قريتنا استأجرها منه أحمد فايد قبل قانون التصفية ، فنشرت مقالا فى جريدة التجارة بالإسكندرية لصاحبها سليم نقاش فى أغسطس ١٨٨٠ أنتقد فيه هذا التصرف فقبض على وأرسلت إلى القاهرة للتحقيق معى وجابهنى رياض باشا وسألنى عن الدليل الذى أملكه ، وقال له رياض : هل أنت من تلاميذه جمال الدين . أرسلوه إلى السجن ، وبعد سبعة أيام استدعانى رياض وعينى محرراً فى الوقائع مع عبد الكريم سليمان وسعد زغلول والسيد وفا زغلول بمرتب قدره خمسة جنيهات فأرسلت إلى رياض أشتكى من أن المبلغ قليل .

قال لى رياض : قلت أنا أتقاضى خمسة جنيهات ، وأن سعد وأبو الوفا يأخذان ثمانية جنيهات قال : أليساهما علماء الأزهر ، قلت : ليسا من علماء الأزهر أصلا وسعد تلميذى ، فقال : سأتحدث فى ذلك إلى الشيخ عبده ورفعوا مرتبى إلى ثمانية جنيهات .

---

(١) مجلة الشباب م ١٩٣٦ .

٤ — محاكمة أصحاب المقطم

من المحاكمات التي كان لها دوى محاكمة المقطم عام ١٩٠٧ وهو نصير الانجليز ولسانهم المتحدث باسمهم وقدم للمحاكمة : شاهين مكاريوس وفارس نمر ويعقوب صروف وشاهين الخازن وجندى ابراهيم وطنيوس عبده فى ٧ أغسطس ١٩٠٧ وصدر الحكم فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ ، وكانوا قد اتهموا مأمور كرموز بالرشوة فى صحيفة المقطم والشرق والوطن فى وقت واحد ، ولم يستندوا فى هذا إلى دليل أو شبه دليل ، فقد ظهرت يوم ١١ مايو ١٩٠٧ ثلاث مقالات إضافية فى الصحف الثلاث بمعنى واحد وأسلوب واحد هاجمت مأمور المطارين ونددت بتصرفاته وتضمنت وعيداً ، وأسفر التحقيق عن كذب الاتهام فحفظ لعدم الصحة ، وفى ١٧ مايو نشرت جريدة المقطم والشرق والوطن كلاما تتهم فيه حسن لطفى مأمور كرموز بأنه يقتضى رشوة من أصحاب القهاوى وعينت مقدار الرشوة ، وأبلغت النيابة التى تولت التحقيق وثبتت براءته ، ذلك أن دائرة قسم كرموز ليس فيها قهاوى ، وتحول التحقيق مع هذه الصحف بتهمة القذف ، ودعت النيابة المتهمين فقرروا أن المعلومات التى وصلتهم من (يوسف نصر) وأنكر يوسف ما نسب إليه وقرر أن أصحاب المقطم استدعوه وطلبوا إليه أن يحمل المسئولية عنهم وأحيلت القضية إلى محكمة الأزبكية التى حكمت على كل منهم بغرامة خمسين جنيها ، وحبس شاهين الخازن واسكندر صالح وبراءة طانيوس عبده ، ولم يكد يصدر الحكم حتى ندد به أصحاب المقطم فى صحيفتهم وأعلنوا أنهم ضحية لحملة مدبرة تريد القضاء عليهم وعاونتهم الصحف الأجنبية(١) .

---

(١) مجلة الشباب سنة ١٩٣٦ .

٥ — قصيدة قدوم

ومن القضايا التي هزت الرأى العام قضية «قصيدة قدوم» التى كتبها مصطفى لطفى المنفلوطى واتهم السيد توفيق البكرى بالاشتراك فى نظمها. ذلك أنه فى يوم ٤ نوفمبر عام ١٨٩٧ ظهرت «الصاعقة» وعلى صدرها قصيدة لاذعة «تهنئة مرفوعة لسمو خديو مصر لمناسبة عودته من ثغر الاسكندرية» جاء فيها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد وملك وإن طال المدى سيبيد
تذكرنا رؤياك أيام أنزلت علينا خطوب من جدودك سوه
رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا مصوب سهم بالبلاء سديد
فلما توليتم طغيتم وهكذا . إذا أصبح . . وهو عميد
فكم سفكت منا دماء بريئة وكم ضمت تلك الدماء لحود
وكم ضم بطن البحر أشلاء جمة تمزق أحشاء لها وكبود
وكم صار شمل للعباد مشتتا وخرب قصر فى البلاد مشيد
وسيق عظيم القوم منا مكبلا له تحت أثقال القيود وئيد
فما قام منكم بالعدالة طارف ولا سار منكم بالسداد تليد
كأنى بقصر الملك أصبح بائدا من الظلم والظلم المبين مبيد
ويندب فى أطلاله اليوم ناعبا له عند ترديد الرثاء نشيد
أعباس ترجو أن تكون خليفة كما ود آباء ورام جدود
فياليت دنيانا تزول وليتنا نكون ببطن الأرض حين تسود

وضجت الأوساط والمحافل السياسية ، وذاعت القصيدة وذكرتها صحف لندن ، وقام القصر وقعد ، فأمر ناظر الحقانية باعتقال صاحب الجريدة أحمد فؤاد ، الذى اعترف

فى التحقيق بأنه ناظم القصيدة وأنه كان ينوى طبعها ثانية وثالثة ورابعة حتى يعم نشرها . وأنه يأسف لتأخره فى طبعها فلم تنشر إلا فى اليوم الذى عاد فيه الخديو . وحارت النيابة العامة وكان على رأسها الأستاذ يوسف سليمان الذى صار فيما بعد رئيسا للوزارة ، ثم اعتقل صاحب المطبعة ، فاعترف بأنه أحمد فؤاد هو الذى جاءه بالقصيدة ، وكان برفقته الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى الذى تولى بنفسه تصحيح التجارب ، فقبضت النيابة على الأخير أيضا .

وذاعت القصيدة فى كل مكان ، وكان الطلبة ينسخونها ويبيعونها ، ولكن النسخ ما كان ليشفى غلة طلابها ، مما حمل الصحفى سليم سركيس على إستنباط حيلة صحفية لنشر القصيدة ، فكلف الشيخ عثمان الموصلى بأن يشطرها بمدح الخديو ، فيحقق رغبات طلابها ، ويكون بمأمن من الانتقام . وشطر الموصلى القصيدة ونشرها سركيس فى مجلته « إعجابا بذكاء الشطر واعلانا لمدائح الخديو » وقد جاء فيها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد (على فاجر هجو الملوك يريد)

(لاضرابه بيت من اللؤم عامر) وملك وإن طال المدى سيبيد

وأحيل المتهمون الثلاثة إلى القضاء ، بتهمة العيب فى الذات الخديوية ، وكانت أول قضية « عيب » تشهدها المحاكم المصرية ، فسجل أحمد فؤاد فى أثناء المحاكمة أجرأ وقفة وقفها صحفى فى ذلك العصر ، إذ قال :

— ليس فى هذه القصيدة قصد سيء ، ويدل على ذلك أنها خالية من كل سبب وطعن تحاول النيابة الصاقه بنا ، ولكنها تتضمن موضوعات طالما رددتها الصحف من قبل . فهل قولى أن الرعية لم تسر بقدوم الخديو جناية عظمى ، كلا . . إن محبة الرعية للملكها أمر اختيارى . وما من ملك إلا وله من ينقد أعماله ولا يسر بقدومه . والملك ليس بوسعه أن يرغم الناس على حبه لأنه ملك ، فهو ملك الأجسام لا ملك القلوب .

واستشهد أحمد فؤاد بأمثلة من الديمقراطية فى الغرب ، وتساهلها حيال حرية الفكر ، فقال :

— أن ملك سيام لما زار روما سأل ملك ايطاليا : ألا تعاقب الذين تراهم من رعيتك لا يحترمونك ؟ فأجاب : كلا . . لا أستطيع ذلك ، وكل ما أفعله هو أن أستميلهم بأعمالى الطيبة ، وأن ملكة انجلترا وهى أعظم جداً من الخديو سلطانا وملكا ، لم يرفع أحد الناس قيمته لها فى أثناء سير موكبها ، فأهانه أحد الإشراف ، وأقام عليه دعوى ، وفى المحاكمة قال المتهم : أنا لا أحب الملكة ، ولا أريد أن أحترمها ، فتركته المحكمة وشأنه .

وبعد فماذا فعلنا نحن ، هل عملنا عشر معشار ما أتاه سكان أرلندا الذين ساروا بالنعش والرايات السود فى عيد ميلاد فكتوريا . ثم أنى لست بأول من قال بظلم العائلة الخديوية ، فإن أشهر صحف مصر نشرت مرة أن الخديو سعيد أراد يوما أن يجرب مدفعا جديدا ، فقال له أحد رجال الحاشية : هل يأمر مولانا بأن نتمهل ريثما عر الناس ؟ فأجابهم : إضرب النار . . نحن لم نستلم الناس بالعدد .

وحاصر الخديو اسماعيل إحدى قرى الصعيد وضربها بالمدافع لغضبه على رجل واحد وعلى هذا أقول أن القصيدة التى أحاكم بسببها خالية من أى مطعن يعاقب عليه القانون .

ولكن المحكمة حكمت على أحمد فؤاد بالسجن عشرين شهرا ، وعلى المنفلوطى بستة أشهر .

(١) من جريدة الأخبار ، وقد تناولنا هذه القصة بالتفصيل فى كتابنا الشرق فى فجر اليقظة .

٦ — الهجوم على أسرة محمد على

ولقد استطاعت الصحف في هذه الفترة أن تحمل على أسرة محمد على وأبرز ما عرف في هذه المرحلة مقالاته : مقال الشيخ محمد عبده فى الوقائع المصرية بمناسبة مرور مائة سنة على مولد « محمد على » ومقال أحمد فؤاد فى جريدة القطر المصرى فى ٨ يناير ١٩٠٨ وهذا أهم ما جاء به .

(جريدة القطر المصرى — أحمد فؤاد — ٨ يناير ١٩٠٨)

لا شك ولا ريب أن سبب شقاء المصريين وتأخرهم وعدم تقدمهم هم عائلة محمد على سواء كان ذلك أدبيا أم ماديا . أما من الجهة الأدبية فمشهور بأن مصر من اليوم الذى رمتهم إليها مقدونيا إلى الآن مائة عام كانت كافية لأن تبلغ خلالها ما بلغته فرنسا من الإقدام والرقى والاستعداد لحكم نفسها بنفسها . لكن سوء قصدهم حال بين المصريين وبين التقدم لأنهم يعلمون أن مصر متى بلغت رشدها لا تقبل ذل حكم الأجنبى ولا ترضى بأن تسلم زمام أمورها ومصالحها للغرباء لأن صلاحها فى فسادها وتقدمهم فى تأخرها .

وقد اشهرت عائلة محمد على على العلم والفضل حربا عوانا . أما المدارس التى زعم المنافقون أن محمد على أسسها لخير مصر فقد كان غرضه بها الحصول على عدد من الضباط ليستخدمهم فى مقاصده لما كان عازما على الخروج على الدولة صاحبة النعمة عليه وقد يتم أولاد المصريين ورمل نساءهم فى حروبه التى لم تنل مصر من ورآءها خيرا غير إدعاء حفيده اليوم أن الإمتيازات التى حصلت عليها بدمائها له لا لها . وقد اقتفى أثر محمد على فى قبح فعله وسوء سيرته أولاده وأحفاده من بعده فأزهقوا روح العلم وضنوا على المصريين ولم يجودوا عليهم إلا بالقدر اليسير لطائفة مخصوصة من مماليككم اصطفوهم دون غيرهم فقربوا منهم كل متشرد لا يعرف أحد مسقط رأسه ولا ملقط جسمه وسلموه الوظائف واستعانوا بهم على بقاء المصرى فى حالة الجهل حتى لا يطمح ببصره إلى الاستقلال وسلبوا الضياع وأنفقوا ما تغله على شهواتهم لتبقى مصر إلى الأبد وقفا محبوسا على كل ولد تلده نساؤهم .

ليس الغريب هذا . إنما الأدهش والأغرب أن طائفة من عباد السلطة المطلقة يكذبون على التاريخ ويدعون من وقاحتهم أن العائلة المحمدية العلوية خدمت مصر . ويستدلون على ذلك بوجود بعض مدارس أنشأوها ليضللوا الناس فى أوربا كى يكون بأيديهم الحجج الدامغة على خدمة العلم . وما أنشأوها إلا خداعا وغشا حتى لا يتسنى لأحد أن يذكر قبح أثرهم وسوء تاريخهم فى مصر . ولأن عائلة محمد على هى التى بتبذيرها وغيره سلمت مصر إلى الإنجليز ولأنهم يبغضون المصرى ويكرهونه أشد البغض ومن العار أن يسلم عنقه لعدوه . .

ثم باى حق مشروع تأخذ عائلة محمد على من الخزينة المصرية ثلاثمائة وخمسين ألف ليرة سنويا وأى شر دفعوه عنها أم أى خير جلبوه لها حتى يكال لهم المال جزافا .

المجتمع

من خلال الصحافة فى هذه الفترة تستطيع جذاذات مختلفة أن تتجمع فترسم صورة لحياة المجتمع فى مجالات كثيرة وأول مظاهر الحياة الاجتماعية فى هذه الفترة ندوات جماعة الحفاظ والرواة ، يقول توفيق حبيب :

عرفنا وأدركنا من هذه الجماعة أحمد مفتاح وأحمد سمير والسيد وفا وعبد الكريم سلمان وعبد الله نديم وحفنى ناصف ومحمد حافظ صبرى ، أولئك الذين كانوا يحفظون القرآن والأحاديث الصحيحة ويروون أشعار الجاهليين والمخضرمين ومن تبعهم من شعراء العصر العباسى وما بعده ، كان لا يقل ما يحفظه الواحد منهم عن عشرة آلاف بيت من الشعر وحدث ولا حرج عما كانت تعيه صدورهم من الروايات والحكايات والقصص كاذبة وصادقة عن القدماء والمحدثين يروونها ممسكة الواحدة برقبة الأخرى ، ولا يكاد أحدهم ينتهى حتى ينطلق الآخر فيروى ما يحفظ مازجا الرواية البارعة والقفشة القارحة .

* * *

ويتحدث محمد هاشم عن المغنيين والمنشدين فيقول :

رحم الله عبد الحولى وعثمان الشنتورى والفيلاوى وتلاميذهم ومدارسهم أولئك المصاميح الذين كانوا ينشرون على الناس رسالة الفن الجميل ، وقد رزقوا الحظوة فى قصور الملوك ودور الأمراء مالا مطمع وراءه لأحد ، وكانوا يهبون فنهم للشعب ويوقعون على مضارب أمانيه ، ورحم الله شوقى إذ يقول فى رثاء عبده الحولى :

يامغنيـــا بصورته فى الزوايا ومغنيـــا عاله فى المكاره

ولقد حدثني الثقة أن عبده غني ليلة لحنه في مذهب (أنا من هجرك أحكي خصرك) فرسم الناس في مجالسهم كما تأخذهم على غرة آلة التصوير فكانوا الغالبية بين واقف يهم بالجلوس سمع أول اللحن فتجمد في مكانه لا قائما ولا قاعدا وواضع يده على جنبه يمسكه، ترك يده مكانها ومتنادر برصل النكتة يغص بها .

وكانت أحياء القاهرة القديمة دائما مائجة بالطبقات المختلفة من عشاق الفن ولكل واحد من رجاله شيع يتعصبون له ويقدمونه ويروون غناءه وكثير منا من لا يزال يذكر مذاهب الغناء القديمة في خفة ظلها وسهولة تناولها وجمال تلحينها وقوة مطابقتها لتذوق المصري الظريف ويذكر شهيرات المغنيات كألمظ والوردانية وغيرهما إلى المرحومة أمينة المراقيةوقد كن على جانب من الفطنة وظرف البادرة حتى عد لبعضهم أوابد من قوة ما عرفت أندية الأدب والسمر للبابلي وحافظ رحمه الله عليهما ولقد حفلت بيوت الأغنياء ومجالس الخواص والقهوات البلدية بهذه الأدوار والموشحات حتى كادت تعيد إلى الأذهاذ كرى المدرسة القديمة في بغداد أيام إبراهيم الموصلي وأبنه اسحق وهو العصر الذهبي للدولة العربية » .

* * *

٢ — أما « المسرح » ، فقد كانت الروايات أجنبية ثم تعرب ، كيف كانت تعرب ، هذه مثلا رواية هرناني لفيكتور هيجو كيف تحولت إلى رواية « حمدان » يقول الصحفي العجوز : قرأها نجيب الحداد وأراد نقلها إلى العربية فأخذ منها هيكلها واهم وقائعها وأبدل أشخاصها الأسبانيين بأشخاص من رجال تاريخ العرب في الأندلس وأطلق عليها اسم « حمدان » وهو بطل الرواية الذي يمثل دور هرناني ومثلت حمدان لأول مرة على مسرح اسكندر فرج في شارع عبد العزيز يوم ١٨ مايو ١٨٩٧ مثل الشيخ سلامة حجازي دور حمدان ، السيدة لبيبه مالي في دور شمس وأحمد أبو العدل دور نصر الدولة ابن حمدان ، وحسين حسني في دور ملك الأندلس عبد الرحمن ووردة ميلان دور العجوز .

وكان في الرواية قصائد غنائية ينشدها الشيخ سلامة حجازي ومقطوعات شعرية

يرددها أفراد من الجوقة فى إفتتاح بعض الفصول وختام الرواية · وفى رواية هرناتى يقسم الدوق روى غوميه على صورة أبنائه وأجداده بأن يجيز هرنانى ولا يسلمه إلى دون قارلو ولما كانت التصاوير والرسوم غير معروفة عن العرب ولا يصح القسم عليها ، أبدلها نجيب حداد بالاعلام وأجرى على لسان الأمير قسما بليغا تضمن أسانيد تاريخية فأخذ تقول :

هذا سلاح الأمير ناصر أول أجدادى الرجل العظيم الباسل الذى ولى قيادة الحرب ثلاث مرات ، هذا سلاح الأمير كذا . . . الخ ومن أهم التغييرات التى أدخلها نجيب الحداد على رواية هرناتى أنه لم يدع حمدان ينتحر بشرب السم كما فعل فكتور هيجو بهرناتى ، بل أبقى على حياته باتفاق الأميرة شمس والملك عبد الرحمن على انقاذه وتخليصه من قسمه الذى وعد به الأمير نصر الدولة .

* * *

٣ — و « الأعياد » يصورها صاحب الهامش كما كانت فى هذه الفترة : ذهبت أيام الساحات والميادين تملأ أنحاء العاصمة ونصبت فيها مراجيح الوزة والوالى وعتلىء بالصبيان والصبايا ، وتموج بالعشرات والمئات من أعيان الأقاليم الذين يأتون لحضور التشريفات والتبرك بزيارة أهل البيت ، كانوا يأتوننا وراء كل واحد الخدم والحشم والبنون والبنات ، وكل واحد منهم يكون بجماعة تزحم رصيفا برمته وتملأ الجيوب بما ينثره من المال باليمين والشمال ، أين الأفران البلدية تتصادم منها الصوانى بما تحمل من طلائع الشريك الذى يخرج من النيران ويوزع فى المقابر على المقرئين والفقراء والمعوزين : (رحمة ونور) .

أين العيال من صغار أبناء البلد يرفلون فى الأصفر والبرتقالى والفيروزى من ملابس زاهية وفى أيديهم أطباق وصوانى (على نور) يتصايحون ويعادون وأولاد البلد المتر عِلاّون الدنيا بهجة وحبوراً بلاساتهم العنابى وقفاطينهم المكوية المسكندره ، وقد جلسوا وأمامهم صحب الورد والشموع الموقدة وفى أياديهم جوزة الحى يتصاعد دخانها · والفتيات والفتيان يركبون عربات الكاروا راقصين مطبلين وراكبين الحمير .

٤ — أما المحاكم الأهلية فقد كان لها أهميتها . كانت المحاكم الأهليه وسيلة لخدمة اللغة العربية وترقية الانشاء الديوانى وتحرير المذكرات والخطابة على منبر القضاء بفضل من انضم إلى القضاء والمحاماة والتدريس فى مدرسة الحقوق ومن خريجى الأزهر ودار العلوم .

فمن كبار الأزهريين محمد عبده وسعد والهلباوى ومحمد أبوشادى ومن دار العلوم حسن جلال المصرى ، أبو النعمان عمران ، عبد الفتاح بيرم ، عماد اسماعيل ، حفنى ناصف ، محمود أبوالنصر ، أحمد أبو الفتح ، محمد فريد ، وكان رجال القضاء الأهلى والمحاماة الفضل الأول فى كل الحركات والتطورات الفكرية والسياسية : محمد عبده : الإصلاح الدينى . قاسم أمين : تحرير المرأة . سعد زغلول : الحركة الوطنية وكان لعبد العزيز فهمى وعبد الحميد بدوى وعبد الحميد مصطفى ، القدح المعلى فى الرد على برونيت وتحرير المباحث القانونية .

وكان للصحافة ورجالها نصيب من خدمة رجال القضاء فمن رجال القضاء عشرات كتبوا الفصول الرنانة منذ أربعين سنة مستترين وجوبا وأصدروا أحكاما نزيهة عادلة لرفع منار التفكير الحر .

* * *

وروى حافظ ابراهيم كيف سجن الهلباوى المحامى عام ١٨٨٥ قال :

كانت دار عبد السلام المويلحى فى تلك السنين منتدى الأدب فى مصر يؤمها عندئذ الأدباء والكتاب والشعراء ويتخذونها مقرا لهم يحيون فيها كثيرا من ساعات النهار والليل ، وممن يتردد عليها ابراهيم الهلباوى وفى يومه مادخل على الحاضرين الحاج حسنين وهو رجل مقاول كان يقوم بأعمال بناء وترميمات خاصة لعبد السلام المويلحى وأخبره أنه متهم فى قضية بسبب أنه تعدى على مهندس كان يلفت نظره إلى عدم شغل الطريق بالأتربة والأحجار ، وكانت أول قضية يترافع فيها شيخ المحامين وجاءت الجلسة وانتظر عبد السلام المويلحى ومن معه ، الشيخ الهلباوى ليعرفوا ماذا تم فى القضية ، وإذا بالذى حضر هو الحاج حسين المقاول .

قال: إن الملباوى بدأ مرافعته وكان القاضى محمود سالم فتدرج إلى ضرب الأمثلة فقال: وأن حضرة القاضى المحترم الجالس الآن فى مجلس القضاء وهو على ما هو عليه من نفوذ وسلطة لو أنه كام فى طريقة شخصا ما بأمر أو نهى لاعتبر دخيلا متطفلا، ولتمدى عليه الناس بأ كبر من السب — لماذا — لأنه غير معروف، ولأن القاضى لا يلبس طرطورا حتى يعرف به. واستمر فى ذلك، غير أن القاضى لم يحتمل أن يكون موضع التمثيل على هذه الصورة الساخرة، واعتبر ذلك تمديا على هيئة المحكمة وحكم على ابراهيم الملباوى بالسجن ٢٤ ساعة وذهب المويلحى إلى منزل محمود سالم القاضى بحلوان يرجوه أن يفرج عن الملباوى فقبل بعد أن أبان لهم طول لسانه واحتياجه إلى اللياقة فى التعبير.

* * *

أما حافظ ابراهيم[١] فقد كان يسكن طوال سنى الحرب إلى سنة ١٩٢٠ فى منزل فى الجيزة فى الطريق المؤدى إلى محطة السكة الحديد وكان أخوانه أمثال البشرى وفؤاد كامل كانوا يزورونه فى تلك الدار قائلين: نحن طالمين هذا اليوم حافظ إبراهيم؛ قياسا على طالمين حلوان، أو الهرم أو القرافة، ثم انتقل بعد ذلك إلى حلوان ثم إلى الجيزة ثم إلى المعادى والزمالك والزيتون. كانت تساكنه أمينه هانم زوجة خاله التى ربته والتى توفيت قبله بعام وكانت شهرتها مستفيضة فى الطبيخ لورق العنب الذى كان يقول أن الحلة الواحدة فيه تتكاف جنيها مصريا كامل لأنها تعمل على مرقة ديك رومى، وكذلك عرفت ببراعة صناعة الأرز بالهمة، والبصارة.

يقول المحرر: كنت فى زيارة للمرحوم فى ليلة من ليالى الصيف ١٩٢٩ وكان يشعر بالمرض، قال: الليلة آكل لقمة خفيفة لأنى تعبان: صحن بصارة، نخذ أرنب جبلى، ماذا

---

(١) مجلة الجامعة سنة ١٩٣٣ م.

تعمل مادمنا اتهدمنا، الأكل الخفيف قبل النوم أحسن، وكان خادمه رجلا أسوانيا اسمه حسن ظل فى خدمته أكثر من اثنين وعشرين عاما وكان له فى بعض الأوقات خادمة تسمى فاطمة: خفيفة الروح، وكان حافظ يحب ألفاظها وتعبيراتها ويطرب لأغانيها العامية وكان أثاث بيته بسيطا غاية البساطة، طقم عادى فى غرفة الاستقبال وفى غرفة النوم سرير وكنبه، ولم يكن فى منزل حافظ بك كتاب واحد ولا ورقة ولا قلم ولا دواه، وكان ينظم شعره ويحفظه ولا يدونه إلا عند النشر فى الصحيفة. وكانت عنايته منصرفة إلى الطعام، كان يقضى وقته أما جالسا فى فراندة منزله أو مستلقيا على الكنبة ومسندا رأسه على عدة مخدات والسيجارة الهافانا فى فمه، ويحتفظ فى منزله بالسيجار الهافانا كانا والكرونا وزجاجة كولونيا. وكان يحب العنب والتفاح والموز، ويترنم بأفضال الفول المدمس ولطالما تمشى بالفول المدمس فى الأوبرا فى ليالى كثيرة، وإذا اعتز بضيوف أحضر لهم طير السمان .. أنه يعتز بهم لأنه يطعمهم سمان مش سم واحد، وروى أنه تزوج منذ ثلاثين عاما فتاة مصرية فى حى السيدة زينب كان أبوها من تجار الحى، آية فى الجمال طلقها بعد العشرين يوما من زواجها، وعلل حافظ ذلك أنه قضى عمره قبل الزواج بين خلان وندمان من مجلس أنس إلى مجلس سمر، فلم يستطع أن يتزوج الحياة الزوجية، وبدأ الملل فى اليوم الثالث وأخذ يتواصى بالصبر، فى اليوم العشرين بلغ الملل منتهاه، فانطلق إلى أبيها يسلمه مؤخر الصداق ويتنازل عن ملكية الجهاز..

إشتغل حافظ بالمحاماة الأهلية وتمرن فى مكتب سعد زغلول، وكان أبو شادى فى نفس المكتب وكلفه أبو شادى بالحضور فى قضية أمام محكمة ابتدائية لطلب التأجيل فذهب حافظ وهو معتز بقوته فى اللغة وفصاحته، وكان رئيس الجلسة قاضيا تركيا لا يفهم العربية، فلما جاء دور القضية وقف حافظ بصوته الجهورى:

أنا حاضر مع المتهم؛ محمد حافظ إبراهيم عن محمد أبو شادى عن الأستاذ سعد زغلول

وأطلب ..،وهنا قاطعه الرئيس انه تأجيلات ، ايه تأجيلات ،ايه حافظ إبراهيم عن أبو شادى عن زغلول ، المحاكم مش لعبات ، حكمت المحكمة بتأييد الحكم المستأنف وشطب اسم المحامى من جدول المحامين . كان حافظ وفيا لأصدقائه سعدزغلول محمد عبده ، محمد محمود ، الشيخ المراغى ، محمود عبد الرازق ، قضى مع سعد العهد الآخر فى بساتين بركات . كان سميره ونجى خلوته ، كان سعد يقضى وقته يتسلى بلعب الورق مع أصدقائه فى مسجد وصيف وبساتين بركات، وكان اللعب يجمع سعد وحافظ . . وكان الدكتور محجوب يهتم باستغلال طيبته فى اللعب باستمرار ، شكا سعد مرة أنه لا ينام فى الليل وزادت شكواه من الأرق وقت النوم فقال له حافظ على الفور : مستعجل على النوم ليه، ياما راح تشبع نوم طول بالك ، فسرت هذه الإجابة من سعد ، ومرة فى مسجد وصيف وبساتين بركات كان حافظ جالسامع سعد وفتحت مناقشة عن أنواع الأطعمة وجرى الحديث طويلا، وفى أثناءه ذكر سعد أنه أكل مرة منذ أمد طويل فى بيت عبد الله أباظة طاجن من نوع خاص وأنه كان شهيا ولا يزال يذكره، فاقترح حافظ بسرعة على أباظة أن يحضر لهم بضعة طواجن من هذا النوع لكى توضع على المائدة يوم الجمعة ، وقبل أباظة بك وهو متهلل هذا الاقتراح وانصرف الجميع .

٧ — ومما يتصل بصورة المجتمع ، هذا الخبر : كان الدكتور شبلى شميل قد قام بفتح عيادته فى طنطا قبل أن يتخذ مدينة القاهرة مركزا له ، لم يكد يستقر فيها ويزاول صناعته حتى قام بعضهم فى وجهه وحرضوا الزبائن والنساء فى مقدمتهم على مقاطعته وعدم إدخاله بيوتهم أو زيارتهم فى عيادته، ولعل ذلك يرجع إلى كتاباته عن الفلسفة المادية ، فانتقل إلى العاصمة وكانقد حضر مع أصحاب المقتطف من بيروت عام ١٨٨٥وكان يكتبفى المقتطف ، ثم أصدر مجلة الشفاء . وقد أصدرت إدارة المطبوعات إنذاراً لجريدة الشفاء .

كانت الحمير دولة

وكانت للحمير دولة : أشــــارت الأهرام فى ١٨٨٩/٧/٢٩ إلى صدور لائحة الحمارة وعلق توفيق حبيب فى هامشه عام ١٩٣٩ على هذا الخبر فقال : فى هاتيك الأيام كان للحمير دولة وللحمارة صوله ، وكانت هناك حمير الأجرة والحمير الملاكى . وقل أن كان يخلو بيت من بيوت أهل الطبقة الوسطى والعليا من حواصل للحمير وخادم أو خدم لتنظيفها وتركيب العدة عليها . وكان عبد الحميد صادق باشا رئيس محكمة الاستئناف الأهلية يأتى إلى عمله وهو راكب حماراً . وكان الأعيان يتباهون بتزيين حمرهم ، فالبرادع من الحرير ، والرشمة والترويسة من الفضة، وأحيانا من الذهب ورحم الله عهد زيارات المحمدى وتسابق الوطنيين إلى حضرته وهم على حمرهم يسابقون بها الترام وينـكتون على ركابه، وحدث ولا حرج عن مواقف الحمير وشيوخ الحمارة ومعلميها المشهورين، وأذكر منهم المعلم على يطيخة شيخ شويقة السباعين ، وكان تحت يده نحو خمسين حماراً وله صله بالأعيان وأرباب الأعمال ، يوصونه على الركايب الخاصة لأنفسهم ولحريمهم . وفى الخطط التوفيقية للمرحوم على باشا مبارك بيان بعدد الحمير والحمارين ومن يتبعهم وما تأخذه الحـكومة من الفردة (الضريبة) عليهم ، وقد قضى الدهر الخؤون على دنيا الحمار أصبحت سير الحمير المشهورة فى خبر كان،وخلا بروجرام السنة التوجيهية من تواريخ حمار بلعام وحمار القديس بطرس إلى حمارة منيتى وحمارة الدرينى .

وارتاح جوالمدينة من صياح الحماره: عينك شمالك،وشك ظهرك ، وكان للحرب العظمى (١٩١٤) عملها فى القضاء على البقية الباقية من حمير القاهرة إذ ساقطتها السلطة العسكرية للعمل فى الدردنيل كما أخذت القرود إلى فلسطين وحل الشوفيرات محل الحمارة وأصبحت لهم مثل حمارة زمان لائحة وامتحانات ورخص، وكانت هناك أيضا صحيفة اسمها (الحمارة) أصدرها محمد توفيق الذى اتخذ نهج عبد الله نديم فى المحادثات واستخدم الاقتباسات وتحدى السجع بلا تـكلف وكان له أسلوب خاص فى قلب القصائد القديمة والنسج على منوالها . وقد أربى قراء الحمارة على عشرة آلاف قارىء ، كما بلغت مجلة الأرغول هذا الرقم أيضا وكان يصدرها الشيخ محمد النجار[1] .

---

(١) مجلة المستقبل ١٩١٤ .

قصة الترام : (قالت الأهرام في ١/١/١٨٨٩)

«اللجنة المناط بها مدخطوط الترمواى اجتمعت ورأت أن تمد خطا يبتدىء من شارع مصر العتيقة ميدان قصر النيل إلى شارع الترعة الاسماعيلية حتى كوبرى الليمون وهناك يمر فى شارع الفجالة وينتهى إلى العباسية ثم يمر خط آخر يبتدىء من كوبرى أبى العلا ماراً بشارع بولاق ويمد فرعان من كوبرى الليمون إحدهما إلى شارع شبرا والآخر إلى السبتية ومنه إلى بولاق ، ثم فرع آخر يبتدىء من قصر النيل ماراً بشارع الجيزة حتى الأهرام وفرع يصل إلى محطة بولاق الدكرور» .

وعلق توفيق حبيب على ذلك فقال : وقد جعل ميدان العتبة الخضراء مركزا للخطوط العامة، ولما تأت سنة ١٨٩٥ حتى سير الخط الأول من كوبرى أبو العلا إلى القلعة مجتازا شارع بولاق (فؤاد الأول) وكانت الترعة الاسماعيلية تمتد من عند دار الآثار المصرية مجتازة شارع الملكة نازلى عند الاسعاف فكوبرى الليمون ممتدة إلى غمرة، حيث يتلاقى بالخليج المصرى إلى النيل . وكان خط المطرية يبتدىء من ميدان قصر النيل (ميدان الاسماعيلية الآن) مسايرا الترعة الاسماعيلية حتى كوبرى الليمون وكان حى التوفيقية فضاء شرع فى تقسيمه وكان المتر فيه بعشرين قرشا . وكان للعربجية صولة ودولة ، فأفزعهم الترمواى وردد صوتهم محمود خاطر بك . وكان عام ١٨٩٥ شابا تخرج من الخديوية فنشر قصيدة مهيبة بلسان الخيل لعله لا يبخل باعادتها اليوم ، وأخذ سليم سركيس ينشر وريقة بعنوان (الكهربائية) مكبرا فيها حوادث الترمواى ومن تدوسه أو تصدمه من حيوانات باطشة وبكاء ، ويقول العامة « الكهربائية سيرها عجيب لما تبرطع على القضيب » وطالب أعيان شبرا من الحكومة منع تسيير الترام فى شارع شبرا حتى لا تدوس أولادهم وهم ذاهبون إلى المدارس وأن يسير الترام فى الضواحى فقط » .

طرائف الصحافة

١ — الامضاءات المستعارة

من أبرز الجوانب الجديدة بالكشف عنها موضوع الامضاءات المستعارة ، وقد حصلنا على بعض التوقيعات التى كانت تستعمل فى هذه الفترة : اسماعيل أباظه يكتب فى الأهرام بتوقيع (علم) . محمود فخرى يكتب فى اللواء بامضاء (محمود القاصد) ، أنطون الجميل يكتب فى مجلة الزهور بتوقيع : فؤاد ، سعاد ، ربيعة . ح . ى ، اسماعيل صدقى كان يكتب بتوقيع (مستفهم) ، داود بركات كان يكتب فى الأهرام ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ بتوقيع (هى . بن . بى) وقد ترك حافظ عوض صاحب جريدة كوكب الشرق فصلا طريفا عن الامضاءات المستعارة قال : كنت أعمل محرراً فى جريدة محرراً ومترجما حين أرسلت روسيا بأسطولها الضخم إلى مياه الصين فلم تكد تصل إلى ميناء بورت أرثر حتى أدركه الأسطول البريطانى (وزنقة زنقة الكلاب فى الطاحون) ثم ظل يضربه حتى سحقه سحقا ، وكتبت فى ذلك الحادث مقالا ناريا جعلت عنوانه (كش . . مات) ولعل الذى أوحى إلى بهذا العنوان أنى كنت من المغرمين بلعبة الشطرنج ، بل كنت أبرع اللاعبين المصريين ، وأشفقت أن أوقع المقال باسمى، فوقعته باسم مستعار هو(شطرنج) وذهب القراء إلى أن كاتب المقال هو ابراهيم المويلحى ، ولم يتعرف الزملاء والأدباء إلى كاتبه إلا بعد أن أفضى إليهم بذلك صديقى محمد مسعود ، والمرة الثانية التى كتبت فيها بتوقيع مستعار ، كانت حين أعلن قاسم أمين رأيه فى تحرير المرأة وكان رأيا جديداً قامت عليه مناقشة الكتاب ، وأحجم أصدقاء قاسم أمين والمعجبون برأيه عن مناصرته ومنازله خصومه الأقوياء ، ولم أستطع يومئذ أن أقف مكتوف اليدين بينما رأيى يتفق مع قاسم واعتقد أن السفور إذا لم يتغلب بحكم الرغبة فيه فأنه سيتغلب

«من غير شك تبعا لسنة التطور ، ولـكنى كنت أشفق من معارضة التيار الجارف من سخط العلماء والعامة واستنكارهم للرأى الجديد . ووفقت بعد تفكير فى الأمر إلى الطريقة التى أستطيع أن أدافع بها عن الرأى الذى أراه ، فنشرت فى المؤيد مقالات متتابعة تحت عنوان «وهل كان الحق مع الأغلبية دائما » وذكرت فيه كثيرا من العنت الذى لقيه الرسل والأنبياء بامضاء (متشكك) وكان لى ما أردت، إذ بهت الذين كانوا يعارضون الشعور ويحاربونه وراحوا يتخبطون فى ردودهم على هذه المقالات، ومما يذكر أن الأستاذ الهلباوى ناله كثير من الأذى بسبب هذه المقالات، إذ حسب كثير ممن قرأوها أنه هو كاتبها .

وحين بدأت ثورة الرجعيين على حركة التعليم فى الهند وزعمهم أن تعليم المسلمين الهنود اللغة الانجليزية لا يتفق مع تعاليم الاسلام أنشأت مقالا مطولا فى الرد على هؤلاء الرجعيين وذيلته بامضاء مستعار هو (خان بها دور) ونشر المقال فى صدر المؤيد حيث شغل أربعة أعمدة وتلقاه القراء بشىء من الأعجاب والاقتناع بالحجج التى تضمنها وذهب أكثرهم إلى أن كاتبه لابد أن يكون أحد أمراء الهنود المسلمين وكنت إذ ذاك أتعاون مع محمد فريد فى إصدار مجلة (الموسوعات) فكشفت له سر هذا الامضاء، وحدث إن اختلفنا إلى منزل على بهجت مدير الآثار العربية فتلقينا هناك المرحوم محمود سامى البارودى ، على يوسف ، عبد العزيز الثعالبى ، فسأل البارودى صاحب المؤيد من يكون(خان بهادور) صاحب الافتتاحية فلم يشأ الشيخ أن يفشى سر المهنة ، ولـكن المرحوم محمد فريد بك سارع إلى أخبار البارودى بما يعرف من حقيقة هذا الأمر فقام هذا — وكان قد كف بصره — وأخذ يغمرنى بقبلاته ويهنئنى على ما صادف فى هذا المقال من توفيق .

توقيع محمدين يلفت نظر سعد زغلول :

ولعل أحب الأسماء المستعارة التي ذيلت بها مقالاتي هو اسم « محمدين » الذي بدأت إستعماله في الكلمات القصيرة ذات الأسلوب الانتقادي اللاذع الذي كنت أكتبها في جريدة النظام . وما أزال أذكر إلى اليوم أولى هذه الكلمات وقد جعلت عنوانها (سيف المعز وذهبه) أشرت فيها إلى الانعامات والمكافآت التي كانت الوزارة القائمة حينئذ تكيلها لأنصارها من النفعيين والوصوليين ، كانت موضع إعجاب سعد زغلول ، حتى أطلع عليها في مساء اليوم فأرسل إلى سيد على صاحب جريدة النظام يسأله عن كاتبها ، فلما أخبره ، استدعاني إلى بيت الأمة وهنأني على التوفيق .

المقدمات والتقاريظ

أثارت الصحف موضوع كتابه مقدمات الكتب والتقاريظ بمناسبة مصادرة « ديوان وطنيتى » للشيخ على الناياتى عام ١٩١٠ فقد قدم المؤلف إلى المحاكمة كما قدم محمد فريد وعبد العزيز جاويش بوصفهما قدما للكتاب بمقدمتين فيها تقريظ للكتاب ، هنالك ثارت فى الصحف معركة حول مسئولية أصحاب المقدمات عن ما يرد فى الكتب .

وكانت النيابة قد سالت الشيخ جاويش عن مقدمه ديوان وطنيتى فأجاب بأنه كتب المقدمة قبل أن يطبع الديوان .

س : كيف تضع اسمك على شيء لم تتحقق إذا كانت فيه مسئولية أم لا .

ج : إن هذا أمر عادى بين الصحفيين والكتاب وغيرهم ، وهذا الشيخ على يوسف يضع اسمه فى أسفل جريدة العلم (التى هى جريدة الحزب الوطنى) دون أن يطلع على شيء فيها ، مع أنها معرضة لأن يأتى فيها شيء من المسئوليات أكثر مما يصيب مثل هذا الكتاب ، وإنى لواثق من أنه لم يطلع حتى على نفس الأعداد التى نشر فيها إعلان كتاب « وطنيتى » .

س : ألم تطلع على القصيدة التى نظمها الناياتى فى ناظر الحقانية بخصوص تصريح بالحكم عليه .

ج : اطلعت على تلغراف فريد بك وسافرت وقتئذ إلى الاسكندرية حيث كان أهلى مرضى .

س : ألم تعلم أن قصيدة الورد كان يقصد بلفظ الورد : إبراهيم الوردانى (وكان إبراهيم الوردانى قد إغتال بطرس غالى ناظر النظار) .

ج : يسأل الناظم عن ذلك ، أما أنا فلم أبحث فيها ولم أر فيها غير ماتؤديه عبارتها .

وقال الشيخ جاويش : هل من المعقول أن أعلم بأن شعر الغاياتى يقع تحت طائلة القانون واضع اسمى عليه .

س : قلت فى كلمتك : أن اشعار الغاياتى تنهض الهمم ، فهل كنت تعتقد عندما كتبت هذا التقريظ أن هذه الأشعار حقيقة تنهض الهمم .

ج : إنما هى كلمة كتبتها من قبيل المجاملة ولا يخفى على الخبيرين بأساليب اللغة العربية أن كل ما يكتب فى المدح والرثاء والذم ليس حقيقة وأغلبه مبالغ فيه .

س : هل قلت أن شعر الغاياتى شعر عادى أى يؤثر التأثير المطلوب منه .

ج : إنما هناك فرقا بين الشعر العادى والشعر السهل ، فالشعر العادى الذى ليس فى طبقة من البلاغة بحيث تدفع الكتاب والرواة والحفاظ إلى العناية به والاهتمام بأمره ، أما السهولة ولا سيما الممتنعة ، فإن هذه طريقة لا يبلغها من الشعراء والكتاب إلا القليل .

س : ألا تعرف أن الغاياتى يقصد « إنهاض الهمم » .

ج : يسأل الغاياتى نفسه فى هذا الأمر ، أما قولى الذى جاء فى المقدمة فهو من قبيل المبالغة أو المجاملة أو التوسط ، ومثلى فى هذا مثل إسماعيل صبرى فى تقريظ ديوان نسيم .

لك فى الشعر يانسيم معان باهرات تحار فيهـا العقول
كل بيت يطل منه على أفهـام أهل النهى محيا جميـل

فلا أظن اسماعيل صبرى إلا معتقدا أنه مبالغ فى هذا القول ، ومثل آخر هو أن الشيخ على يوسف عندما قرظ جريدة البلاغ المصرى لم يطلع على كل ما فيها مع أنها صحيفة أو وريقة واحدة ، وبعد أن كتب التقريظ لفته أحد الكتاب إلى جملة كتبها إسماعيل شيمى، أخذ منها أنه يقول بصلب المسيح ، فإذا كان الشيخ على يوسف لم يضطر إلى قراءة

صحيفة واحدة لتقريظها ، فهل من المعقول المحكم بأنه على كل من يكتب كلمة عن كتابه أن يقرأه ويستوعبه ، أضف إلى هذا أن حافظ إبراهيم وشوقى وهما من أكبر الشعراء اليوم لم يستطيعا إنهاض الهمم بشعرهما خصوصا قصيدة شوقى عن الدستور العثمانى ونشرتها المؤيد وفيها :

والشعب إن رام الحياة كبيرة   خاض الغمار وما إلى آمالى

فإن كان شوقى ومنزلته من الأمة العربية معروفة ككل أحد يدفع بهذا البيت الدموى وأمثاله إلى خوض غمرات الدماء فى سبيل تحقيق آمالهم فكيف لى أعتقد أن الغاياتى بشعره الذى قلما عرفه إلا نفر قليل يستطيع فعل ما ترمى إليه النيابة .

* * *

وكتب رئيس تحرير الايجبت « رعون كولر » أن الشيخ جاويش يقول أمام النيابة عن إيضاح ما جاء فى قصيدة جديدة من نظم أحمد رفعت المحرر بالعلم (يونية ١٩١٠) وهذه القصيدة عنوانها قصيدة الورد ، وفيها يزعم الناظم أنه يودع الربيع وينتظر ظهور ورد الربيع الجديد ، ولكنه بما أنه يوجد تقارب لفظى بين لفظ الورد والوردانى فقد عنيت بهذه القصيدة بعض الجرائد العربية وعلى الأخص الأهرام والأخبار .

وقال : أن النيابة أدخلت هذه القصيدة مجرى التحقيق لأنها وجدتها واقعة تحت المسئولية بما احتوته من المعنى المزدوج ، لأن الناظم وضعها فى صيغة مبهمة بطريقة تجيز لقارئها إذا أنشدها أن يروقها إعلانا لمجد الوردانى ، وأثارت هذه القصيدة المناقشة بين جريدة العلم وبين الصحف الأخرى ، وقالت جريدة الأجبشيان جازيت : إن الدلائل تدل على أن النيابة لا تعمل بمفردها فى تحقيق قضية الغاياتى بل ثمت يد انجليزى من وراء ستار لإدارة التحقيق .

* * *

ولم تتوقف « جريدة » العلم من بعد عن نشر فصول إضافية عن المقدمات والتقاريظ . ومما جاء قول (سهيل) المجاملة فى المقدمات والتقاريظ مغالاة نوابغنا الرسميين وغيرهم فى امتداح

مؤلفات الذين يتسولون الثناء وغش الناس به وعدم اطلاع ساداتنا المقرظين التى يشهدون زوراً بكمالها وعبقرية أصحابها وذلك ثقة برجاحة عقل المؤلف أو رغبة فى الخلاص من لجاجة أو قصد الإحسان إليه أو لضيق الوقت ، ولا يمر يوم إلا يطلعنا الكثيرون على المؤلفات المشحونة بالتقاريظ من كبار العلماء ورجال الدين بالرغم مما احتوت عليه من الآراء المناقضة للدين وأحكامه ، هذا (خواطر فى الإسلام) لمؤلفه عطا حسنى ، قرظه الشيخ سليم البشرى والشيخ حسونة النواوى وفيه أخطاء لم ينظر إليها الشيخ سليم والشيخ حسونه .

* * *

وكتب آخر يقول : يخيل إلى من لا يعرف شيئا من أمر التقريظ عندنا أن النابغة العلم منا لا يكاد يطلب منه طالب أن يضع تقريظ الكتاب ، أو المقدمة حتى يتناوله من يد المؤلف قبل أن يقدم للطبع ثم ينقطع لمراجعته بابا بابا يتدارك ما يلم به من المآخذ ويرجع بما اشتبه عليه منها على مراجع العلم ، ولا يزال حتى يقتله بحثا وتحريرا ، ثم يقول فيه كلمة مراعيا مطابقتها للواقع ، ويإذن للمؤلف بعدئذ أن يخرجه للناس كتابا سويا على ألا يفارقه ساعة قبل أن يطبع ، وما هذا من الواقع فى شيء فإن أغلب المقرظين عندنا لا يتمكنون من الاطلاع على التآليف التى يطلب منهم أن يقرظوها .

ومما يتصل بهذا أن الشيخ محمد عبده كتب مقدمة لرواية « البؤساء » التى ترجمها حافظ إبراهيم وقد نقده العلامة مصطفى الغلاييني وقال أن الشيخ محمد عبده يقرأ الترجمة .

المواقف الحرجة

يصور « حسن الشريف » أحرج موقف مر به فى صلته بالصحافة : يقول فى أوائل ١٩٣١ شرع البنك الأهلى فى إصدار طبعة من أوراق البنكنوت ذات شكل جديد بدلا من الطبعة القديمة التى كانت تحمل صورة الفلاح المصرى ذى اللحية البيضاء . ومن عادة البنك أن يرسل عند إصدار طبعات جديدة كميات منها إلى وزارة المالية لتوزعها على الوزارات حيث تعرض على صراف الخزائن فيطلعون عليها ويعرفون شكلها وخصائصها وأسرار علاماتها حتى يكونوا على علم بها فلا تختلط عليهم الأوراق الصحيحة والأوراق الزائفة وكنت إذ ذاك مدير إدارة مكتب وزير الحربية والبحرية ، وفيما أنا منهمك فى فض المكاتبات السرية إذ بى أجد كتابا من وزارة المالية ارفقت به ثلاث ورقات بنكنوت من فئة المئة لم أر مثلها من قبل ، وقد كتب على جوانبها ووسطها بحروف منحرفة : كلمة « لاغى » بالعربية والانجليزية والفرنسية وليس عليها إمضاء البنك .

وقابلت فى عصر اليوم صديقى إميل زيدان أحد أصحاب دار الهلال فلما أريته الورقة أعجب بها وطلب فى أن أسمح له بنشر صورتها الفوتغرافية فى مجلة المصور فأعطيته الورقة فصورها وأعادها لى شاكرا ، وقد ظننت أنى بذلك قد أسديت خدمة إلى صديقى تسره كثيرا ولا تكلفنى شيئا ولم يمض يومان حتى ظهرت صورة الجنيه الجديد فى المصور . وفى نفس اليوم استدعانى الوزير : محمد توفيق رفعت وزير الحربية وقال : لقد وقع حادث خطير ؛ كان محافظ البنك يتحدث معى فى شأنه الآن ، ذلك أن بعض المجلات قد حصلت بطريقة لا أعرفها على ورقة البنكنوت المزمع إصدارها قريبا . ونشرت صورتها وقد انزعج البنك الأهلى من هذا النشر ، أيما إزعاج لأنه يعتقد أنه

فيه معاونة للمزيفين على تزييف أوراق شبيهة بها بحيث تصدر الأوراق الزائفة والأوراق الصحيحة فى وقت واحد ، فلا يستطيع الجمهور أن يفرق بينها ، ولقد عزم البنك على إعدام هذه الطبعة التى بلغت نفقات رسمها وتلوينها وحفرها وطبعها وورقها مبلغاً كبيرا من المال . كان الوزير يتكلم وكانت إمارات الرعب قد بدأت تدب إلى مفاصلى ، وقد غطى وجهى عرق بارد واصفرار خفيف فقلت : وماذا علينا من ذلك ، قال : إن محافظ البنك قابل صدقى باشا رئيس الوزراء ، واتضح أن الورقة المنشورة فى المجلات تحمل رقم إحدى الورقات الثلاث التى أرسلت إلى وزارتنا : وزارة الحربية ، ومطلوب إجراء تحقيق سرى سريع ، لتقديم الموظف إلى النيابة العمومية ، وعند هذه النقطة من كلام الوزير خيل إلى أن صوابى قد تعطل أو أن عقلى قد أصيب بشلل مفاجىء . فقلت فى نفسى : لقد وقعت ، وقال الوزير : عليك أن تقوم بالتحقيق بطريقة سرية وتصل إلى نتيجة . وكان فى استطاعتى أن أكتم الحقيقة وألقى المسئولية على موظفى الخزائن وكان فى استطاعتى أن أقوم بتحقيق شكلى لا يسفر عن نتيجة . ومن المحال أن تحوم الشبهات حولى وأنا أعلم أن صاحب الهلال لا يستطيع إذا سئل أن يفشى سر المهنة . ولكن ضميرى لم يسول لى اتهام غيرى ولا التنصل بالكذب ، ورأيت أن المروءة والصدق يقتضيانى أن أجهر بالحقيقة . قلت للوزير : لا ضرورة للتحقيق فأنا أعرف الفاعل ، وانفرجت أسارير الرجل وقال : حسن جدا ؟ من هو ، قلت أنا ، ولو أن قنبلة انفجرت بين قدمى رفعت باشا لما أزعجه انفجارها أكثر من وقوع هذه الكلمة على أذنيه وقد نظر إلى كالمشدوه محملقا وصاح : أنت .

قلت نعم أنا ، وشرحت له ماحدث ، فاعتمد رأسه برهة بين يديه وهو يقول أنت ، أنت مجنون . وأحسست أن ألما نفسيا عميقا قد استولى على الرجل ، فأنا مدير مكتبه وزوج ابنته ، وقال إلى أكتب لى تقريرا . . وخرجت من مكتب الوزير وأنا اترنح فى مشيتى وجلست فى مكتبى أفكر وأبحث عن مخرج وركبت السيارة إلى البنك

الأهلى ودفعت بطاقتى إلى حاجب محافظ البنك . فلما دخلت عليه قلت : أنا الموظف الذى أعطى صورة الجنيه الجديد للصحف . ودافعت عن نفسى وقلت : أنه ليس بينى وبين المزيفين صلة واشتملنى الرجل بنظرة فاحصة ، وأخذ يدق بلور مكتبه بقلمه دقات خفيفة وقال لى أن المزيفين سيقلدونها ولابد من إعدام هذه الطبعة . قلت : أن المزيف لا يكتفى برسم الورقة وخطوطها بل لابد له من رؤية الألوان المختلفة التى تقطعها والصورة الفوتغرافية سوداء ، فضلا عن أن الورقه لا تحمل إمضاء محافظ البنك ، وإمضاء المحافظ الجديد لا تزال مجهولة فى مصر فكيف يثبتها المزيفون .قال : هذا كلام معقول . قلت : إذا كان كلامى هذا معقولا فلا محل إذن لتلك الأهمية للمسألة التافهة . قال : تستطيع أن تريح بالك من هذه المسألة وأنا مسرور من ذكائك .

الصحافة بين ١٨٩٨ — ١٩١٤

(١) من مذكرات أحمد حافظ عوض .

كنت قد وضعت رواية باسم « اليتيم » فلما أطلع عليها الشيخ على يوسف صاحب المؤيد أمر بطبعها فطبعتها فعلا والتحقت بتحرير المؤيد ١٨٩٨ واشتغلت بوظيفة مترجم بمرتب قدره أربعة جنيهات فى الشهر ، وهذه كانت بداية عهدى بالاشتغال بالصحافة . وكان اشتغالى بالصحافة على أثر ماجرى بينى وبين الإنجليز فى وزارة المعارف واضطهادهم لى بسبب علاقتى بمصطفى كامل ، عرض على صاحب المؤيد أن اشتغل عنده مترجما عن اللغة الانجليزية ، ومحرراً مقابل أجر ضئيل . كان المؤيد يطبع فى أربع صفحات ولا يتجاوز الأخبار فى عمودين ، وبه مقالة أو اثنتان فى الصحيفة الأولى وشىء عن الصحافة الخارجية والباقى إعلانات .

كان صاحب المؤيد نحيل الجسم ضئيلا ، دائب الحركة ، وكنت وأنا ومحمد مسعود نشتغل فى ترجمة أخبار الصحف الأجنبية وتحرير بعض المقالات ، وكان محمد بك فريد صديق للمرحوم مصطفى كامل عام ١٨٩٨ بعد أن اشتهر بانتصاره لصاحب المؤيد فى قضية التلغرافات المشهورة وكان قد استقال من وظيفته فى النيابة وانخرط فى سلك المحاماة واتخذ له مكتبا فى شارع عابدين بملك راتب باشا أمام العمارة التى كانت تشغلها الدائرة السنية ، واشترك معى فى العمل على ما أذكر المرحوم حسن عبد الرازق الذى قتل فى حادث النزاع الحزبى أمام دار حزب الأحرار الدستورين واشترك معنا بعد ذلك محمود أبو النصر ، وفريد بك ابن أحمد باشا مدير الدائرة السنية .

فلما أظهر ما أظهره من العواطف الوطنية فى قصة التلغرافات وعرف أمره وكان يميل كثيرا عن الاشتغال بالسياسة كما كان يحب الكتابة فى المسائل الأدبية والعلمية

والتاريخ لنوع خاص ـ إذ أن له فى التاريخ مؤلفات قيمة مشهورة منها تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ العائلة الخديوية ـ لذلك فكر محمد فريد فى أن يصدر مجلة عربية أدبية علمية يشترك فى تحريرها كثيرون من كتاب اللغة العربية .

وكان إسمى قد ظهر فى المؤيد على مقالات وبحوث كبيرة مما أوجد فكرة حسنة عن شخص الصحفى عند الكثيرين من ذوى الفضل والمكانة فى ذلك الميدان من أمثال المرحوم الشيخ محمد عبده والسيد توفيق البكرى ومحمد فريد .

فلما فكر محمد فريد فى إصدار المجلة خيل إليه أننى أصلح لأن أتولى إدارتها على أن تكون ملكا له ويكون الانفاق عليها من ماله الخاص ، فاستدعانى إليه فى مكتبه وتحدث معى فى هذاالشأن فقبلت مع أننى كنت إلى ذلك الوقت أحرر فى جريدة المؤيد .

وكان ظهور العدد الأول (١٥ نوفمبر ١٨٩٨) وقدفكر فريد وأرد أن تجارى المقتطف والهلال اللتين كان يصدرانهما اخواننا من الأدباء السوريين . وحرر فيها كثير من رجالات مصر البارزين : الشيخ محمد عبده ، ومحمود أبوالنصر (وكان فى ذلك الحين مقيما فى باريس يدرس اللغة العربية فى مدرسة تعليم اللغات الشرقية) واشترك مع محمد فريد فى مكتبه فى المحاماه وتولى تحرير الموسوعات وإصدارها بعد أن تخليت عنها كما كتب بها على بهجت (مدير دار الآثار العربية) صهر أحمد فهمى العمروسى المفتش بالمعارف :

وقد كان لهذا الرجل فضل على ، ولأنه من أهل العلم والفضل وله فى الموسوعات بحوث كثيرة ، وقد وضع فيما بعد كتبا عديدة أهمها (كتاب الفسطاط) الذى يعد حجة فى التاريخ الإسلامى .

وقد نشر فى العدد الأول موضوعا تاريخيا طريفا عن « زواج الجنرال منو » أحد قواد نابليون فى الحملة الفرنسية بالقناة المصرية زينت الرشيدية فى رشيد واعتناقه الاسلام وتسمية نفسه « عبد الله منو » .

وقد نشر صورة العقد الذى عثر عليه على بهجت فى محكمة رشيد الشرعية . وكان يعقوب أرتين وكيل وزارة المعارف الأرمنى (من بيت أرتين ومنها تكران باشا) هو الذى مهد السبيل لعلى بهجت للعمل مديرا لدار الآثار العربية التى شيدت بجوار دار الكتب .

* * *

لما جاءت الحرب واعتقلات فى الاسكندرية ، حدث أن ألقيت قنبلة على السلطان حسين فى أثناء ذهابه إلى رأس التين فداخله إضطراب كبير وتوجهت التهمة إلى كثير من الناس وكان من لحقهم رشاش من هذه التهمة كاتب هذه السطور لأنه كان من رجال الخديو السابق فصدرت الأوامر بتفتيش المنزل الذى كنت أسكن فيه بالاسكندرية .

* * *

كانت أول مرة وقع فيها نظرى على المرحوم الشيخ محمد عبده وكنت قد تركت مدرسة المعلمين العليا واندمجت فى تلك تحرير المؤيدعام ١٨٩٨ وحدث حادث إطلاق الأمير سيف الدين الرصاص على أحمد فؤاد الذى أصبح بعد ذلك سلطانا فملكا، وبدىء فى محاكمة سيف الدين وكان الشيخ عبده إذ ذاك قاضيا فى محكمة الجنايات مع أحمد فتحى زغلول شقيق سعد . وكلفنى الشيخ على يوسف أن أحضر القضية وألخص المرافعات وانعقدت المحكمة فى سراى صارت بعد إدارة لجريدة الأخبار وكان محمد عبده هو وحده القاضى الذى يلبس عمامة وذلك قبل أن يتولى الإفتاء .

بعد ذلك بنحو عام نقل الإمام إلى وظيفة الإفتاء وكان يلقى دروس التفسير فى الرواق العباسى وأنا لا أزال محرراً فى المؤيد أكتب المقالات بإمضائى ، وصادف أن كنت أقيم فى منزل صغير فى جهة عابدين .

كان من آداب الشيخ عبده ومكارم أخلاقه أن يعطف على صديقه الشيخ محمد عبدالهادى زيد

(وابن عم والدتى) وكان زميله فى الأزهر ، قال زيد للشيخ أن ابن أخى حافظ عوض الذى تحرر فى المؤيد قال له الإمام : أحضره لأراه .

عدت إلى المنزل فوجدت الشيخ عبد الهادى ينتظرنى لنذهب إلى الشيخ الإمام كضربة لازب فذهبت معه إلى عين شمس وكان بدء معرفتنا وبدء عطف الشيخ الإمام علىّ طيلة حياته حتى كنت معدودا عند الناس من أتباعه ، وكان ذلك سببا فى إيصال عيش كثيرين من ذوى قرباى ومن أهل بلدتى ، ومن هنا تبدأ ذكرياتى الحقيقية عن علاقة الشيخ عبده والمستر بلنت المعروف الذى كان يقيم فى حديقة كبيرة بعزبة النخل على مقربة من منزل الشيخ محمد عبده (وقد اختصه مستر بلنت بجزء كبير من كتابه التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى) رسم فيه صور قديمة للشيخ الإمام أثناء شبابه .

وكانت تلك العلامات من الوسائل التى يمكن بها الشيخ الإمام خدمة بلاده . وكان الإمام يتعلم الفرنسية التى كان يتكلم بها مع بلنت وبالعربية أيضا لما كان يزوره كثير من الإنجليز والارلنديين ، وكان هذا داعيا للشيخ عبده حين عرف أنى أجيد الانجليزية وإنى أحسن الترجمة بها حديثا وكتابة ، إختصنى بأن أكون رسوله ووسيطه بين الانجليز والارلنديين .

وقد عثرت فى الأوراق التى بقيت عندى على خطاب المرحوم الإمام يطلب فيه إلى مقابلة المستر ديلون من زعماء الحزب الارلندى المشهورين .

ولدنا العزيز

كتب إلى المستر بلنت يقدم إلى صديقه المستر ديلون من رؤساء الحزب الإيرلندى ورغب إلى فى أن أعرفه ووعدته بأن أراه يوم الثلاثاء الآتى الساعة أربعة بعد الظهر فأرجو أن تذهب إليه فى اللوكاندة التى يقيم بها وتصحبه إلى الأزهر وأكون شاكراً .

محمد عبده

الأحد ٢٢ مارس ١٩٠٣

« العلاقة بين الإمام والخديوى » ١١ أغطس ١٩٣٢

وقد بان عندى أن أصل الشيخ محمد عبده من أصول تركمانية أو كردية ، وكان ذلك ظاهرا فى ملامح وجهه وفى تصوراته ونفسيته لأنه كان على أنه من الفلاحين وكان طالبا فى الأزهر وناشئا فى بيت لا تربى خلق الشجاعة والإقدام ، كان على عكس ذلك من الشدة والصلابة والعناد فيما يتصوره تصويره ويعتقده ، قال لى مرة ونحن نتحدث عن الصحافة وعن جريدة المؤيد « أنا أحب أقول لك كلمة بصفة خاصة لأنك من الشبان الذين أحببتهم ولأنك ترتبط معنا بعلاقة قرابة ولا أحب أن تنقل هذا الكلام عنى ؛ أننى لا أستطيع أن أتحمل من الذين أصولهم من أواسط آسيا كالأتراك والحكام والمماليك ومن تناسل منهم ما يعاملون به المسلمين أو المصريين بصفة خاصة من الاحتقار ، وأنا أحب الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ولكنى لا أحب منه ما أراه من التذلل والخضوع لما يصدر عن السراى أو عن عباس (بهذا اللفظ كان يتكلم دائما عن الخديو فى ذلك الوقت) .

ولم يكن حين قال لى هذه الكلمة قد وصل إلى دور الخلاف الذى وصل إلى حد العناد والكراهية والمقاومة الشديدة بينه وبين الخديو لأن ذلك كان أول توليه وظيفة الإفتاء .

وكان الخديو يلجأ إليه ويستعين به فى حل بعض المشاكل ولكن الدسائس اشتدت بين الطرفين ، حتى وصل الحال بينهما إلى الكراهية الشديدة والحقد ، والرغبة من جانب الخديو بنوع خاص إلى القضاء على الشيخ الإمام واخراجه من الافتاء والأزهر ، فلم يكن فى وسع الشيخ الإمام احتفاظا بما يعمل له لخدمة الأزهر والاصلاح ووطنه إلا أنه يعتمد على من يكون فى امكانه صد اعتداء الخديو عليه ، ومن كان فى مصر يستطيع ذلك غير اللورد كرومر . لهذا توطدت بين اللورد كرومر وبين الشيخ الإمام دعائم مودة وتقدير متبادل بين الطرفين ، وكان الشيخ فى كثير من الأحيان لا يسلم للورد كرومر

عما كان يرمى إليه فى أمر من الأمور إلا بعد أن يقتنع الإمام بأن المصلحة فى ذلك ، أو أن هناك عوائق سياسية لا تستطيع دفعها .

وأنا أعتقد شخصيا أنه قد كان للشيخ محمد عبده سلطة على كرومر آتية من طريق الثقة بما كان يعتقده كرومر فى الشيخ الإمام من الاخلاص والكفاءة والرجولة . وبنوع خاص بترفعه عن الغايات والأمور الصغيرة . قلت أن الخديو كان فى أول أمره ميالا إلى الشيخ الإمام ، وهو الذى ساعد على إصدار العفو عنه بعد الثورة العرابية حتى يستطيع أن يحضر إلى مصر ، وكذلك فعل عباس فى أمر عودة عبدالله نديم . وكانت المرحوم الإمام لباقة ظريفة وابتسامة أظرف ، ووجه صبوح وروحانية مؤثرة على كل من اختلط أو اتصل به ، ولولا الخلاف الذى وجد بين الخديو والامام ، ما وجد ذلك الفريق الذى تألف من حزب الأمة ، ولا كانت الجريدة التى يحررها (أحمد لطفى السيد) ولا كان عزل الخديو . .

والذى يدلنا على أن الخديو عباس كان شديد الميل أولا إلى الشيخ محمد عبده وأنه كان يركن إليه ، أنه طلب إليه أن يكتب كتابا عن تاريخ الثورة العرابية التى اشترك فيها المرحوم الإمام اشتراكا فعليا حتى لا تضيع حقائقها التاريخية .

ويقول السيد رشيد رضا أنه من سوء حظ مصر والمصريين بل الشرق أن الإمام لم يتم تأليف هذا الكتاب ، فقد صار تأليف الكتاب للأمير مشكلا لأن الأستاذ الأمام كان يلقى تبعة الثورة على الخديو توفيق مباشرة وجعل لما كان من إسراف الخديو إسماعيل وسوء إدارته للبلاد أسبابا ممهدة لها .

ولم يكن الإمام ممن يقبلون الرضوخ لسيطرة الرأى أبدا وكان همه ومجهوداته متوجهة إلى بث روح الاستقلال النفسى عند المصريين فكان يحتقر طلاب الوظائف وطلاب الرتب والنياشين .

وقد اشتهر محمد عبده مع علمه ، بأنه كان يحب الفكهة ويقرب إليه رجال الفكاهة حتى كان يرسل كثيرا إلى المرحوم الشيخ البابلى ويجمع بينه وبين المرحوم حافظ إبراهيم الشاعر حيث يتألف من جماعتهم مجلس فكاهة يأنس إليه الشيخ ويستروح .

وكانت (إحدى الصحف) وقد نشر فيها مقال عن السياسة ، وأظن أنه كان هو الشيخ الشربتلى الذى كان يكتب فى عدة صحف ومنها الظاهر التى اشتهرت بحمله عنيفة ضد الشيخ محمد عبده أيام فتوى للوقوذة . وقرأ الإمام المقال وما فيه من خلط ، وكان الشيخ يضرب به المثل بين الصحفيين بخلطه فإذا عابوا مقالة ما ، قالوا هذه مقاله شربتلية ، وقرأ الإمام المقال وقال ، ومعه عبد الكريم سلمان وحفنى ناصف وقاسم أمين : أنا أدفع جنيها لمن يقول لى مما فى هذا المقال من أغراض ومقاصد .

وكان الشيخ على يوسف ينصح لى كثيرا بأن احتاط ولا أكثر من الاتصال بالشيخ محمد عبده وكنت أفضل أن أقطع علاقاتى مع جريدة المؤيد ، حتى لا تتأثر علاقاتى بالشيخ الإمام ، ولكن الشيخ رحمه الله كان يحب أن تزداد صلتى بالصحافة ، وتجاربى فيها ، ولم يكن هناك وسيلة للاشتغال بجريدة أخرى .

على يوسف فى مذكرات الخديو عباس

كنت أريد أن يكون لى صحيفة قادرة على أن تثير الشعب وتقوده شيئا فشيئا إلى إدراك أكثر وضوحا للغرض والواجبات الوطنية فدعوت كاتبا من كتاب اللغة العربية، كنت قد سمعت عن صفاته ومزاياه هو الشيخ على يوسف، وكان قد تردد على مدرسة المعلمين وخارجا من الجامعة الأزهرية ، وكان قد لفت إليه الأنظار إن لم يكن باتساع أفقه الفكرى ، فبحماسته فى المناقشة وبموهبة مجادل حقيقة ، ومقدرته المشهورة على هضمه الماثل ، وخاصة إذا ذكرنا أنه لم يكن يتكلم لغة غير العربية ولم يدرس إلا فى المساجد .

كان الشيخ على يوسف وهو من أهل الصعيد يعرف عقلية مواطنيه ومطامحهم ،

وكان رغم أنه تربى فى بيئة دينية يعرف كيف يفرق بين واجبات الفرد نحو بلاده والاحترام الواجب للدين وكانت سياسته تستند أحيانا على نفوذ الخليفة ولكنها لم تكن على الخصوص تركية أو إسلامية .

هذه ألوان قد زادت من تأثير الشيخ على يوسف على الشعب وكان الشيخ على يتخذ أحيانا مظهر مدافع عن الإسلام أكثر من محركا للشعور الوطنى ، وكان الغرض من هذا التكتيك هو أن يجمع كل القوى المشتتة حول فكرة واحدة عامة وقوية .

كان الشيخ على فى بداية نشاطه يتخذ على الأخص ستاراً للكثير من الشخصيات البارزة التى كانت تحمل إلى الجريدة ثمرة ملاحظاتها وخلاصة تجاربها فى حياة كرست للادارة أو لسير العدالة ، كان أكبر رجال البلاد اقتداراً وأعلاهم تجبراً يساهمون فى عمله ، وكان معروفا أن القصر يؤيد ذلك ، فكان قارىء لسان حال التحرير يقطف من أعمدته زهرة الفكر المصرى وسرعان ما غدا المؤيد بفضل هذه الوسائل إحدى الصحف العربية الرئيسية يقرأه الناس من طنجه إلى الهند ومن تركيا إلى زنجبار .

وقد كان المؤيد فى الواقع يحفل بالمقالات العظيمة بأسلوبها البارع وأفكارها العميقة ، وكان الشيخ بأسلوبه اللاذع وبلاغته التى لا تقدر ، قد غدا أستاذاً بفضل إيصاله اليومى بالشخصيات البارزة فى كل علم وفن .

كان على يوسف بارعا فى إستخدام الرباط الطبيعى القوى الذى يربط المصريين منذ عهد بعيد ، وفى تأسيس وطنيته على أساس من تلك العاطفة القوية الجذور . ولم يكن تعليمه الدينى يؤثر إلا قليلا فى نزعاته التحررية .

الحق أن على يوسف لم يكن يوما ما رجل تركيا ، وإذا كان فى بعض الأحيان قد أيد الخليفة ، فإنه ما كان يعنى سلطان القسطنطينية وإنما زعيم الإسلام ، كان مصريا قبل كل شيء ، ولقد نجح أياما كان شخصه أو كانت أراؤه فى أن يستميل الرأى العام ويجمعه ويعلمه التفكير ، وكانت مقالات المؤيد تقرأ وتشرح فى أبعد القرى النائية ، وكان المتعلمون أنصار الجريدة وكانوا يعملون على رواجها وكان انتشار المؤيد ونفوذه يتزايد بفضل عطاق الذى لا ينقطع عن الشيخ .

النقد الاجتماعى

إبراهيم المويلحى ومصباح الشرق ١٨٩٨

كان إبراهيم المويلحى يمثل أرقى نماذج الأسلوب المصرى فى أواخر القرن التاسع عشر وهذه باقة من كتاباته تمثل إبرائه فى الصحافة ونقد المجتمع .

(١) يسافر أصحاب السعادة مصطفى فهمى باشا إلى إيشى وأحمد مظلوم باشا إلى فيشى وإبراهيم فؤاد باشا إلى كارلسباد وبطرس غالى باشا إلى مريمبات ، ولا يسافر سعادة محمد عبانى باشا إلى كريرا بل يكتفى بالاعتكاف فى حمامات سان استيفانو للتجرد والراحة والخلوه من عناء الاشغال فى الحكومة ، وانتظارنا العظام العذر البين فى مهاجرة الديار المصرية فى هذا الأوان ، أوان الحر وشدة القيظ وخلو الحكومة مما يشغل الخاطر ويهم الناظر ، فإن الحملة السودانية وما يتبعها من فتح الخرطوم واسترداد السودان كلها أصبحت فى عهده سعادة كتشنر باشا ، وعمل الخزان والنظر فى تدارك أخطاره فى كفالة المستر ولسون ، وبيع الدائرة السنية وسكة الحديد السودانية وما وراء ذلك من العواقب المجهولة فى وصاية المستر ألون بالمر . (١٦ يونية ١٨٩٨)

(٢) ما الجرائد شهد الله — إلا وسيلة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذريعة إلى إقامة الحق ، ومحق الباطل ، فهى عصا عامر ذى الحلم ، ودرة عمر الفاروق (وهى الصائح المحكى للتنمية والاتعاظ) باللوم والعتاب ، وما شرفت أمة ولا صلحت جمية ولا انتظمت حكومة إلا بهذا الانتقاد .

ولعلمنا أن الانتقاد المطلق العام لا يؤثر فى النفوس ولا ينبه الأذهان عمدنا إلى التعيين والتخصيص . والتشخيص ، فإن الانتقاد وتوضيح الحقيقة فى هيئة معينة وصوره معينة وذات مقصودة أبلغ فى النفس وأدعى إلى اجتناب ما ينقد فى ذلك التوضيح ، من أجل

النقد فتحنا حديث (عيسى بن هشام) وجربنا عليه متخصصين فى موضع التعميم ومعممين فى موضع التخصيص .

(٣) أما استئصال المال فمناجله كثيرة ويكفى له (الأزبكية) برقصها وقمارها وخمرها وخمارها وغنائها ومغانيها وبنائها ومبانيها ، قال لى أحد الأدباء أن فى مصر خمسة ملايين من الأفدنة يأكلها فدان واحد ، هو محلات الخمر والميسر وغيرها فى الأزبكية .

(٤) أيها القارىء : احقن ماء وجوهنا من تلك السماجة ، سماجة إعادة الجريدة مراراً لمن يرفضها ويردها وطهر صناعة التحرير من إدارتهـا فقد انحط قدرها فى أعين العقلاء ؛ القراء سماعون للكذب وأصحاب الصحف أكالون للسحت ، وقد دخل فى زمرة المحررين أميون لا يعرفون الكتابة ، وأصبحت الصحف المنتشرة فى مصر — إلا ذات الشأن منها — كالجراد المنتشر .

وفى هذا الزمان — زمان الفضائل — يأتى صاحب الجريدة إلى أمير فى بيته ، وهو لم يره طول حياته فيقول له قد جاءتنى رسالة كلها مطاعن فيكم وجعل لى مبلغ وافر من إدراجها فى جريدتى ؛ ثم يبتسم ويقول : من رجل لا أسمية وفاء يشرف القول ، ولكن عمن يتظاهر لكم بالصداقة ، فيأخذ الأمير حينئذ فى التفتيش من هذا الصديق فى ذكراته حتى يكاد يحتقن فمه ، ويشرع فى مجاملة صاحبنا ليكشف له ذلك الاسم ، ولا يقوم حتى يأخذ منه جائزة ثم يترك الرجل يشك فى جميع أصدقائه .

(٥) الطغراء السلطانية (٢١ يوليو ١٨٩٨) .

سيكون ورق النقود الذى يضعه البنك المصرى فى المعاملات ، مكتوب باللغة الانجليزية واللغة العربية ، ولا يعلم أحد أن كانوا عولوا على وضع (الطغراء السلطانية) فى أعلاه أم لا ، فإن تلك الأوراق سكة للتعامل بها بين الناس مثل النقود ، والفرامانات السلطانية تشترط أن السكة (أى العملة) تضرب فى مصر باسم السلطان مزينة بالطغراء

السلطانية فإن لم يفعل البنك الوطنى مقتضى نص الفرامانات فى المعاملة بتلك الأوراق إشكال .

(٦) عيد جلوس السلطان أول سبتمبر ١٨٩٨

يوم البشرى بحلول العام الثالث والعشرين لجلوس سيدنا ومولانا الخليفة الأعظم أمير المؤمنين وحامى شريعة سيد المرسلين على عرش الخلافة الإسلامية وتخت السلطنة العثمانية ، فأخذت كل بلد زينتها وأعلنت الأمة الإسلامية سرورها وبهجتها وتجلت ليلة الاحتفال بهذا العيد السعيد فى أبهى مطارف الجمال وأزهى مظاهر الأبهة والجلال ، وكانت مصر من أعظم الممالك الشاهانية قياما بهذا الواجب فالتأمت لجنة من سراتها ووجوهها وأعيانها ، وأقامت زينة باهرة فى حديقة الأزبكية جمعت من معدات المسرة والابتهاج ما تنشرح له الصدور وتبتهج به النفوس .

(٧) البنك الوطنى عام (١٨٩٩) .

لا نتكلم فى هذا البنك بأكثر من قولنا أنه مشروع قديم فإن جماعة سعوا فى إنشائه أيام الثورة العرابية ونعلم أنهم تكلموا مع أحد المشهورين من أعضاء مجلس النواب فى ذلك الوقت أن يحصلوا مبلغ خمسة عشر ألف جنيه من أسهم الشركة حتى لا يعارض فى إنشاء البنك المذكور فتوقف فى هذا ولم ينجح المشروع .

الاصطلاحات الصحفية

لمعرفة كتابات هذه الفترة لابد من مراجعه للاصطلاحات الصحفية والعبارات الشائعة الذائعة ، مثال ذلك (السرى الأمثل) يوصف بها الرجل الثرى . وكلمة « الأصولى » فلان يوصف بها رجل القانون وكلمة (عطوفتلو أفندى حضرتلرى) يلقب بها الوزير و (سيدنا فهرست الكمال) يوصف بها جمال الدين الأفغانى .

ومن المعاوين الذائعة (نفثه مصدور) وهى عبارة عن كلمة عتاب أو نقد ، ومن الكلمات الكثيرة الاستعمال (برح الخفاء) أى انكشف المستور أما (المسكوف) فهى تعنى بلاد الروس ودار الخلافة العلية : هى عاصمة الدولة العثمانية وكلمة (لاحق لسايق) التى تعنى بها الآن (بقية ما نشر) . وفى النهاية يكتب (سابق للاحق) إذا كانت هناك بقية .

وكانت أغلب العناوين مسجوعة فإذا كانت القصة عن فتاة خرجت عن طاعة والديها وتزوجت دون رغبتها كان العنوان (النار خير من هذا العار) وإذا كان الخبر عن تفوق مدرسة ما قيل (التبريز بين التلاميذ) .

وقد كانت بعض أسماء الكتاب تختلف عما عرفت به من بعدمثلا: خليل المطران ، (خليل مطران) ، باحثة فى البادية (باحثة البادية) أعنى : ملك حفنى ناصف ، وكان الأستاذ مصطفى صادق الرافعى يوقع مصطفى الرافعى (الطرابلسى)وكذلك كان:أمين الرافعى (الفاروق) وأنطون جميل هو (أنطون الجميل) أما جورج زيدان فقد عرفت (جرجى زيدان) .

وكانت نماذج (عقد القرآن) على هذا النحو « عقد قران الشاب النجيب فلان على سليلة الشرف وربة العفاف فلانة كريمة فلان من أعيان بلدة كذا وقد وزعت المرطبات وشنف الأسماع أبو خليل الحبانى وخرج الجميع يلهجون بالثناء » .

أما فى باب الوفيات فهناك نماذج مختلفة :

× قصفت يد المنون غصنا رطيبا هو الشيخ فلان عن ٧٨ سنة قضاها فى البر والإحسان ، بعد داء أعيا نطس الأطباء فلم يمهله ، وكان المشهد رهيبا مشى فيه ملاحظ البوليس وشيخ البلد .

× رجل مات والرجال قليل .

اليوم تبكى مصر وعلماء مصر وأطباء مصر الخ . . .

× انطفأت اليوم فى القاهرة شعلة ذكاء ، وغاب من عالم الأدب والنبل نجم تلألأ فيه ٦٥ عاما فاكفهر وجهه تغير السياسة وتعاريفها الغادرة : محمود سامى البارودى الشاعر المطبوع الذى يستمد من بحره الطافى كل ناثر وشاعر (الأهرام — ١٩٠٤) .

× رجل مات والرجال قليل ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

أكبر مصاب مصر فى هذا الزمان وهى فقيرة من الرجال العظام ، أن تفقد من أبنائها مثل من فقدت اليوم ، وقلما تلد مثله فى كل عصر ، عصاميا نشأ بصفاته العالية ودل على نفسه بفضله الباهر كما تدل الشمس على وجودها بضوئها العميم .

مات المرحوم « حسن عاصم » مات هذا الرجل الذى كان نبراس الأفكار فى حوالك الحوادث ، وهدى العقول فى معضلات الأمور ، مثال العقل مجسما ، والحزم مصمما ، والرأى محكما ، إذا فقد الناس صوابهم فى ملم كبير .

مات هذا الرجل الكبير فبكته العيون والقلوب ، بل فرقت عليه الأفئدة المحبوب ، فهرع الناس زمراً وأفواجا من الطبقات المختلفة إلى منزله بعابدين ، وكلهم كاسف حزين . (المؤيد — ١٩٠٧/١١/١٠)

× تالله لو أعطيت بلاغة سحبان وائل ، فما أنا بكاتب أكثر مما كتب ، ولو سبقت ابن هانىء فى الشعر فما أنا قائل أحسن مما قيل ، ولو أعارتنى الخنساء حزنها على صخر من جديد ، فما أنا ببالغ حزن الأمة على الفقيد ، فعليك يامصطفى كامل ألف رحمة وعلى روحك الشريفة ألف ألف سلام ، لقد كنت فينا ذلك الصائح المحكى وغيرك الصدى ، فأصبحنا لا نسمع غير البكاء والنحيب ، لقد كنت ذلك الدرع الذى ندرء به عن أنفسنا سهام العدو ، فامسينا بعدك عزلاً لا نملك غير الوجيب (مجلة الأستاذ — ١٩٠٨)

× ما غربت شمس حتى غربت على أثرها شمس علم وفضل ، وما خيم الظلام على عالم الطبيعة حتى خيمت ظلمة الوحشة على عالم المروءة والنبل .

× وكتب أحمد تيمور فى مجموعة قصاصاته نعيا للشيخ البجيرمى . قال :

فى يوم الجمعة ١٦ ربيع الأول ١٣٢٩ فى العصر توفى إلى رحمة الله العالم الكبير الشيخ محمد موسى البجيرمى ، شيخ الشافعية بالأزهر ، وكان يستعد لصلاة الجمعة فأحس بضعف قوته ، فلم تمض ساعات قليلة حتى أسلم الروح ، وكان فى نحو الستين من العمر ، وشيعت جنازته يوم السبت من داره بالعطوف ، ومشى خلق كبير من العلماء منهم شيخ الأزهر سليم البشرى وشيخه السابق الشيخ حسونة النواوى ، والمفتى الشيخ بكرى الصدفى ووكيل الأزهر السيد محمد شاكر وغيرهم . وكان رحمه الله متواضعا ضحوكا حسن المعاشرة تغمده الله برحمته .

طرائف الصحافة

من خلال مراجعات واسعة لتطور الصحافة فى مرحلة ما قبل الحرب العالميه الأولى نجد لمحات سريعة طريفة تشكل صورة الصحافة والمجتمع .

المؤيد : دام المؤيد من سنة ١٨٨٩ إلى نهاية سنه ١٩١٥ وقد تركه الشيخ على يوسف ١٩١٢ وتوفى سنة ١٩١٣ ورأس تحريره : الدكتور سيد كامل وحافظ عوض ومحمد أبو شادى وحامد ابراهيم ، وقد أصبح المؤيد لسان الخديو منذ ١٨٩٩ .

وقد وصف الشيخ على يوسف من بعض الذين عرفوه بهذه العبارات : « لقد لبس الشيخ لكل زمن لبوسه واتخذ حيال كل ذى سلطة من الوسائل والحالات ما يؤدى لنجاح خططه بحكمة وحصافة » وعند ما توفى على يوسف كتب عباس العقاد فى مجلة عكاظ ينعى الشيخ فقال : ليس الشيخ على يوسف صحفيا كبيرا ، كلا ولا هو بالرجل الكبير ، وإن كنا لا ننسى أنه ولد خاملا فمات شهيدا، ونشأ نشأته الأولى متغربا ثم قضى نحبه مسموع الكلمة وجيها ، والشيخ على قد أفاد بعض الناس ، ولكن فائدة لا صلة لها بحب الخير ، فلم يفجع الموت فيه صديقا مخلصا ، ولا ينكر على الشيخ ذكاءه ولكننا لا نستطيع أن ندعوه نموا فى القلب أو سموفى الذهن ، وانما هو عندى أشبه بالحذق فى حرفة من حرف الكسب ، ولو كان الرجل سامى القلب واسع الذهن لكان تقديره للعظمة اسمى وأكبر من تلك الغاية التى نصبها غرضا له فى حياته . كان الشيخ يقرض الشعر ليمدح به السراة والأغنياء كما كانت وظيفة الشعر فى تلك الأيام ، فلما حصل من الكتابة على ما يغنيه عن طرق هذه الأبواب ، رأى أنه لم تعد به حاجة إلى الشعر فتركه ومضى فى الكتابة .

وقد عنف بعضهم عليه لانقلابه على رياض باشا ، ونحن لا يهمنا نكرانه جميل هذا الانسان إذ ذاك بل قد نرى له بعض العذر ، فلقد ساعدوه وهو فقير خامل فلما أصبح من اهل الرتب والوجاهة أبوا أن يعرفوا فيه إلا ذلك المجاور القديم .

وانى ليشق على أن لا أجد لى عذراً عن نقيصه غير هذه وأن لا يكون فى نفسى ميل إلى احترامه ، ولست أعلم لماذا يمحو الموت السيئات ويكبر الحسنات ، ولماذا نبقى الحكم للتاريخ البعيد ونحن أقدر على أن نرى الحقيقة عن كثب ولو تغاضينا عن النقائص والمصائب لبطلت حكمة الذكر .

وقد عرض العقاد لهذا الأمر من بعد فى مذكراته فقال :

قلت فى تأبين على يوسف (فى مجلة عكاظ) أن الرجل كان نفاعاضراراً لكنه كان ينفع ويعمر لتمكين نفوذه واستصلاح الأعوان فى مشكلاته وقضاياه ، فمن وصلت إليه يد من أياديه لم يكافئه عليها بالمحبة وخلوص النية ولكنه يحس أنه مدين مطالب بدين يوفيه فى يوم من الأيام فلا جرم يشيعونه غير محزونين ويمضون فى جنازته متحدثين متشاغلين ، لأنهم فى حالة نفسية أشبه بحالة المدين الذى أعفاه موت الدائن من الوفاء له بما عليه .

× لما مر الملك جورج الخامس بالقطر المصرى فى يناير ١٩١٢ قدم له (محمد محمود) طاقة من الزهر وناب لطفى السيد عن الصحافة المصرية فى استقباله .

× ترجم أمين الريحانى قصيدة حافظ ابراهيم عن دنشواى التى استهلها لقوله : « أيها القائمون بالأمر فينا » إلى الانجليزية على هذا النحو :

You who are holdeng now the seins of power.

× نشرت جريدة الظاهر فى (٨ أكتوبر ١٩٠٦) رأيا لقاسم أمين عارض فيه رأيه فى تحرير المرأة قال :

لقد دهشت كثيرا مما كتبه مسيو تبيرلوتى فى شأن حرية النساء الأتراك لأنهن على

بما أرى هنا وفى الاستانة العلية متمتعات بحرية تامة ولا يحجبهن ما يحب نساءنا من ظلم المقاصير واستحكام الأبواب والنوافذ وتجمع الأستار والخوف .

هذا ولقد كنت أود المصريين قبل الآن إلى افتقاء أثر الترك بل الأفرنج فى تحرير نسائهم وغاليت فى هذا المنى حتى دعوتهم إلى تمزيق ذلك الحجاب وإلى إشراك النساء فى كل أعمالهم ومآدبهم وولائمهم ولكنى أدركت الآن خطر هذه الدعوة بما اختبرته من أخلاق الناس . فلقد تتبعت خطوات النساء فى كثير من أحياء العاصمة والاسكندرية فرأيت من فساد أخلاق الرجال بكل أسف ما حمدت الله على أن خذل من دعوتى واستنفر الناس إلى معارضتى .

أنه قد تصح الدعوة فى الاستانة ولكن لا تجوز الدعوة من هذا القبيل فى مصر [١] .

× نشرت الصحف هذا الخبر : فى عهد وزارة مصطفى فهمى أطول وزارة احتلال فى تاريخ مصر (١٨٩٥ — ١٩٠٨) ظهر كتاب « رجوع الشيخ » مطبوعا فى المطبعة الأميرية فذهل الناس ، وتساءلوا كيف تبيح حكومة الاحتلال طبع كتاب أباحى كهذا ويباع علنا بالمكاتب . استدعى مصطفى فهمى مدير المطبعة الأميرية وكان ايطاليا فقرر إحالة موظفى المطبعة المسئولين لمحاكمتهم .

قال رئيس المطبعة : إنه رجل أجنبي لايفهم من العربية حرفا واحداً ، وأن جميع المطبوعات العربية منوط بوكيل المطبعة حسن بك أمر الاشراف عليها ، وقرر أن الشيخ عبد المطلب رئيس قلم التصحيح فى المطبعة هو المسئول ، فقد جاءه أحد الكتبة، فسأله عما إذا كان يرضى بطبع هذا المخطوط فأفتى له بجواز طبعه بحجة أن الاسلام يبيح لكل من الزوجين أن يحيط ببعض هذه الأمور علما ، وإن كان رئيس المصححين من رجال الأزهر فقد صدق على ماقاله وأمر بأجازة طبع الكتاب .

× لما أصدر مصطفى كامل جريدتيه الأفرنكيتين بعد إصدار اللواء ، قال أحدهم : لقد كفل اللورد كرومر طعامه فى الصباح ، يفطر بالاجبسين استندر ، وفى الظهر يتغدى باللواء ، وفى المساء يتعشى بالاستندار .

---

(١) تردد أن هذا الرأى كان مدخولا عليه .

× كتب سلامه موسى فى مجلته «المستقبل» ١٩١٤ عن طه حسين بمناسبة حصوله على الدكتوراه « نصارحه بأن شهادته منظور فيها ضمنه ونكبته فى نظره أكثر مما نظرت فيها كفاءته ».

كما كتب عن العقاد سنة ١٩١٤ يقول « العقاد لا يتقحم كناسات الأدب الأوربى ويترجمها لنا بوساطاتها كما يفعل السباعى أو لطفى جمعة ولا رصاف ألفاظ كالرافعى والمنفلوطى، أبى النفس صلب العريكة فى كل ما يمس شرفه الشخصى .

× فى سنة ١٩١٥ طرأ تغيير على الصفحة الأولى من مجلة المقتطف حيث كتب ما يأتى:

« المقتطف : مجلة عربية علمية يحررها الدكتور يعقوب صروف » وعلقت الصحف : كان يجب أحداث هذا التغيير منذ عشرين عاما ، لأن الدكتور فارس نمر قد انصرف إلى خدمة المقطم منذ ذلك الحين .

× كتب احمد فؤاد صاحب الصاعقة عام ١٩١٢ .

أنا الآن أحاكم على انتقادى سعد باشا زغلول ، وأتوقع الحكم على وكفى فارغ وكيسى أفرغ منه ، وليس عندى مدخر لمثل هذا الموقف ، فذهبت إلى إدارة المؤيد لأقترض من سعادة الشيخ جنيها (يقصد الشيخ على يوسف) والشيخ له سوابق فى ذلك فهو يقرضنى ما أطلبه منه وينسى وأنسى معه ، فلما قابلته لم أجد معه إلا ٤٠ قرشا فأخذتها وخرجت العنه!

× اشترى مستر ويلكوكس المهندس الانجليزى مجلة « الأزهر » فى فبراير ١٨٩٣ وشاركه فيها الشيخ أحمد الأزهر ، وبدأ يكتب فيها مدافعا عن اللغة العامية .

× قال توفيق دياب : كان المقطم هو الجريدة التى يشترك فيها أو يشتريها العمد والأعيان وكل راغب فى التمسح بجاه الانجليز منذ أوائل الاحتلال إلى ثورة ١٩١٩ ، وكان العمدة الذى يقرأ ويكتب يجلس كل مساء فى حلقة من أسرته واخوانه فى الدوار بعد العشاء ثم يتلو مقالات المقطم .

وفيات الأعيان

كيف كانت الصحف تتناول رثاء الشخصيات البارزة فى هذه المرحلة .

× تقول جريدة المؤيد فى وفاة رياض باشا ناظر النظار وكان الرجل من أخلص أصدقاء صاحب المؤيد . (١٨ يونية ١٩١١) .

مات الرجل الذى كان أعظم الرجال همة ، وأعلاهم نفسا ، وأصدقهم وطنية . مات رياض باشا الرجل الذى خدم الأمة المصرية فى سرائها وضرائها فكان مثال الحزم ، مثال الاستقامة ، مثال الشجاعة الأدبية فى كل أدوار حياته .

ولما توفى مصطفى فهمى — رئيس الوزراء الذى تولى أطول وزارة فى عهد الاحتلال قامت جريدة المقطم (لسان الإنجليز) برثائه فقالت : (١٥ سبتمبر ١٩١٤) . الوزير الخطير المرحوم مصطفى فهمى ، على أثر ما اعترى عطوفته من الضعف التوالى بعد الشلل الأخير ، وقد وصفه اللورد كرومر فى خطبته الوداعية فقال وهو أدرى رجال السياسة (٤) باقدار الرجال : ماذا أقول عن صديقى العزيز على السامى المقام فى عينى عطفوفة مصطفى باشا فهمى ، فقد قضينا السنين الطوال بالهمة والصدق والإخلاص ، فى أيام تفاقمت فيها الخطوب وكثرت المشاكل ، قضى من خدم وطنه بالعقل الراجح والإخلاص التام ولكن زمانه كان زمان إطلاق العنان للألسنة والأقلام فأساء قصيرو النظر الظن فيه وانتقد أعماله الذين يطلبون ما لا يستطاع وغمطوا فضله وحسبوا حسناته سيئات . . » .

والمقطم يقصد الاشارة إلى رجال الحزب الوطنى الذين كتبوا فى نقد مصطفى فهمى أطناناً من الورق . .

* * *

× وعندما غرق لورد كتشنر فاتح السودان ومندوب بريطانيا فى مصر أفردت له جريدة الأهرام صفحة كاملة يوم ٨ يونيو ١٩١٦ وقالت : الطود العظيم يختلف وصف مناظره باختلاف وجهة الناظر إليه ، والرجل العظيم كالطود العظيم له من السجايا والمزايا والأفعال العظيمة والأخلاق الكريمة والآثار النافعة ما يخط قلمه البليغ المقالات العديدة فى وصفه ولا يستوفى مع ذلك غير القليل فى شرحه وقد نعى إلينا البرق أمس رجلا عظيما ولا كالرجال وبطلا مقداما تعنو لهيبته الأبطال وطوداً منيفا تخر لسطوته الجبال .. الخ .

× ولما توفى السلطان عبد الحميد فى ١١ فبراير ١٩١٨ وكان قد عزل فى عام ١٩٠٩ قالت الأهرام : توفى وهو سجين فى (بورصة) بعد أن جاوز السبعين ، وبعد سجن جاوز العشر ، إنه لم يكن رجلا سلطانا فقط ، بل كان كل السلطة التركية ، كما كان مالها ماله وأرضها أرضه وشعبها عبيده ، فلا تقال فى أطراف اليمن كلمة بغير إذنه ، ولا تجول بصدر البدوى بصحراء ليبيا خاطرة ، ولا ترتسم على خاطره ، ولا يسير السائر فى جبال الأناضول تحت حنح الليل الدامس إلا ومرمى عيونه فى مناقل خطوه ، مطلق الإرادة ، مطلق اليد ، نافذ الأمر ، لا إرادة إلا ما أمر ، وتنفذ أوامره فلا يسأل عما يفعل ، لا قانون ولا نظام ولا قيد ولا شرط ، لما بغى ، وإن كان بغيا وظالما حتى إذا ما ظلم قالوا فى ذلك الظلم إنه عدل ، وإذا ما عدل قالوا فى العدل إنه فوق العدل ، ضاقت عبارات اللغات عن تقديسه وتمجيده فأخذوا لوصفه من صفات خالقه ، فهو سلطان البرين وخاقان البحرين وظل الله فى الأرض : بادشاه وشاهنشاه ، مجتمع الفضائل والكمالات . جعل صحف السلطة كلها تراتيل وأناشيد تسبح بحمده ، جعل نصف الناس عيونا على النصف الآخر ، أنزل الملك من نفسه منزلة المزرعة من صاحبها » .

أما المقطم وكانت أكثر عداء للسلطان عبد الحميد فقد قالت (١٢ فبراير ١٩١٨) .

استهل حكم عبد الحميد بالآمال وختم بالآمال ، فكان نصيب السلطة خيبة الرجاء في الحالين ، ففي سنة ١٨٧٩ كان العثمانيون يعتقدون أن عبد الحميد يتم عمل أخيه مراد ، وكان مدحت وأنصاره يملئون النفس باكمال صرح الدستور فهدم عبد الحميد مابنوا وشتت شملهم ، فقتل منهم من قتل ومات بعضهم منفيا في الطائف ، ومهما قيل من سوء سياسة عبد الحميد الداخلية التي أورثت السلطنة العثمانية الضعف والفاقة ، وحطت قدرها ومنزلتها بين الدول فلا خلاف في أن سياسته الخارجية وقت السلطنة شر المطامع الأجنبية ، وحذق السلطان سياسة التفريق بين الحكومات الأجنبية كما برع بالتفريق بين طوائف رعيته وشعوبها :

نقد الصحافة والمجتمع

عقدت مجلة المحيط سنة ١٩٠٦ فصلا تحت عنوان «الكثير المبتذل فى الصحافة المصرية» جمعت فيه العبارات التى طال ترديدها على ألسنة الكتاب حتى أصبحت مبتذلة ولخصتها فيما يلى :

عادت المياه إلى مجاريها ـ استأثرت رحمه الله بالبكى عليه ـ براءة الذئب من دم ابن يعقوب — على أثر داء لم تنجح فيه حيل الأطباء — لحاجة فى نفس يعقوب — مات مبكيا عليه من الجميع ـ ناهيك عن ـ أنسنا بلقاء الوجيه الأمثل ـ فأكل المدعورن هنيئا وشربوا مريئا — وكانت السهام النارية تشق كبد الفضاء — سبقنا فذكرنا — كنا أول من أذاع هذا الخبر ـ لم يخطىء ظننا فيما قلناه .

ثم قالت المحيط :

إن كثرة ما يكره فى الصحف المصرية أن تضرب على نغمة واحدة فى وصف الأفراح والحفلات وذكر الوفيات ، أن تنشر من أخبار التوديع والاستقبال مالا يهم غير المودعين والمستقبلين ، أن تعقب الوصف فى بعض الأفراح بذكر أصناف الطعام وآكليها وأنواع الهدايا وأسماء مهديها ، أن لا تدقق فى تقريظ الكتب المهداة إليها وتطيل فى مدح كل منها على السواء ، وأن تذكر من أخبار التنقلات والترقيات بين الموظفين ما لا يهم واحداً من القراء ، أن تسرف فى ذكر الألقاب ، أن تكيل المدح والذم جزافا ، أن تنشر كل إعلان وغير إعلان يجيئها مادام ماجوراً بغض النظر عن صحته ونتائجه ، وأن تضلل بالقراء فى ذكر شركات معينة إستأجرتها لترويج أسهمها الكاسدة ، أن تكرر التهنئة للذين أنعم عليهم بالرتب والنياشين عدة مرات ، أن تخلط الخصوصيات بالعموميات ، أن تذكر الأخبار المتعلقة بتمزيق ثوب العفاف بكيفية لا تصلح للمائلات ، وأن تنشر

من أخبار الانتحار ووصف كيفية الإقدام عليه ما يمكن أن يكون قدوة لذوى الاستعداد له ، وأن يتحزب كل منها لعنصر معلوم فتدارى عيوبه وتساعد على التمادى فيه ، إن تعظم أصحابها مع أنها عمومية للشعب ، وأن تنشر كل ما يجىء به (وكالات أنباء) روتر وهافاس وأن يكن فيه مالا يهم واحداً من الناس ، وأن تسرع إحداها إلى تكذيب الأخرى فى خبر من الأخبار لا لشىء إلا لأنها سبقتها إلى نشره ، أن لا تسرع إلى تغيير حروف الطبع فى مطبعتها متى تلفت . وتعذر على القراء قراءتها ، أن تعلم القراء مالا يعلمون من ألفاظ الشتائم والسباب وشوارد التنكيت ، أن تبتذل إدارتها فى إرسال نسخها إلى من لا يطلبها .

وإن تجارى مشتركا وجيها فى نشر كل ما يرغب لا لشىء إلا لأنه مشترك وجيه ، أن لا تسرع إدارتها إلى حجبها عمن يرفضها أن تعرض عن الخوض فى مسألة عامة مفيدة لأن إحداها سبقتها إليها ، أن يتخذها بعض أصحابها ومكاتبيها سلاحا لقضاء أغراضهم الخصوصية الدنيئة . أن يحسبها ذووها آلة كافية لتخويلهم الحق فى تعدى حدود الآداب العمومية .

نقد المجتمع

أحصت مجلة المحيط عام ١٩٠٥ وجوه النقد للمجتمع فى مائة مسألة : (بلغة ذلك العصر) .

الماشات . ضرائب النخيل . الامتيازات الأجنبية . نقص السلك الزراعية . قلة الفضة فى فصل الشتاء (النقد) الفداء بالمال فى القرعة العسكرية ، عدم وجود ملجأ منتظم للقطاء ، عدم وجود محاكم شرعية للمسيحين ، ضرب العملة المصرية فى غير مصر ، بقاء تسجيل العقود فى المحاكم اختياريا ، عدم تعميم الكبارى بدلا من المعديات ، عدم ردم البرك والمستنقعات ، حصر الوسائل الصحية فى المدن دون الأرياف ، عدم وجود أماكن المجزومين ، قلة ما ينفق على التعليم ، الاهتمام برصف الإحياء الأوربية فى العاصمة وإنارتها دون الاحياء الوطنية ، المضاربات .

تزايد الجرائم والجنايات ، تكاثر عدد الشحاذين ، قلة ملاجئ الفقراء والمدمنين ، عدم وجود نقابة للصحفيين ، ضعف مرتبات الموظفين الأصاغر (أى صغار الموظفين) في الحكومة ، عدم مراقبة الفنادق والمطاعم والحمامات ، تسهيل إخراج الحاجات الضرورية إلى خارج القطر ، قلة رواتب حفظة الأمن ، عدم استقلال قاضى التحقيق بإزاء النيابة العمومية ، عدد بيع الأراضي الأميرية مجزأة للأهالى وبيعها جملة للشركات الأجنبية ، حلول الموظفين الأجانب محل الوطنيين في الوظائف التي يستطيعونها ، جعل كل الضرائب على الفلاحين دون أهل المدن ، أماته الصنائع الوطنية ، عدم وجود نظارة للزراعة في مصر ، عدم ضرب رسوم على الخمور مع ضررها ، احتكار الملح ورفع ثمنه مع ضرورته ، تنازع الإدارة والقضاء ، تقاعد أرباب الماشات ، حرية المقامرين ، الحشيش ، الغلاء ، نظام المقاولات ، المزاحمة في المزايدات ، قلة مساعدة الكتاتيب ، عدم وجود كليات أهلية ، قلة المدارس الصناعية في البلاد ، استعمال الحرية الشخصية في غير موضعها ، ضيق سكة حديد قنا وأسوان ، عدم تعميم المجالس البلدية المختلطة في البلاد ، عدم وجود مصاح خاصية للمصابين بالسل ، المعادى ، ضريبه النخل ، تباغض العناصر الوطنية ، إنفة الإنجليز مع المصريين ، احتقار الأجانب للوطنين ، اختيار العمد بدون شهادات مدرسية ، عدم وجود مدارس وملاجئ للعميان ، عدم تأبيد الملاك الصغار من الوطنين ، عدم وجود محل خصوصي لقيد المواليد والوفيات ، عجز مصر عن إنقاص الضرائب إلى أقل من ٤ ملايين جنيه بدون مصادقة الدول .

صحافة ما بين الحربين

تطور الصحافة فى الأسلوب والمضمون بين ١٩١٩ إلى ١٩٣٩

ترتبط صحافة مابين الحربين بثورة ١٩١٩ ونتائجها السياسية والاجتماعية ، كانت أبرز مظاهر الصحفية السابقة مقاومة النفوذ الاستعمارى البريطانى فى جبهات مختلفة ، بعضها تؤيدالقصر ، وبعضها تمالىء الاستعمار ، وبعضها تخاصم القصر والاستعمار ، وتبلورت هذه الحركة الصحفية التى قادها الأهرام والمقطم من ناحية واللواء والمؤيد والجريدة من ناحية أخرى إلى ظهور ثلاث مراكز القوى :

(١) الأولى : تدعو إلى محاسنة الاستعمار مادام لا سبيل إلى اخراجه وكسب كل مايمكن كسبه منه ، وهذه كانت تحمل طابع « مصر للمصريين » وطابع « التعقيل » .

(٢) الثانية : تدعو إلى مقاومة الاســـتعمار مقاومة لا هوادة فيها وكشفه فى كل خطواته ومواقفه ، والحملة المنيفة عليه فى طابع حماسى عاطفى ثائر .

(٣) الموالون للقصر : فى ظل امتداد حكم عباس الثانى ، وفى تقلباته من تأييد الحركة الوطنية إلى التنكر لها ، ومن موالاة الدولة العثمانية إلى الخلاف معها ، وقد إمتد حكم عباس الثانى من ١٨٩٢ إلى أوائل الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ .

أما بالنظر إلى الصورة العامة للعالم العربى ودولة الخلافة ، فإن هذه المرحلة التى بدأت ١٨٨٢ بالاحتلال البريطانى لمصر ، كانت مجال صراع ضخم بين بريطانيا وفرنسا إنتهى عام ١٩٠٤ باتفاق ودى بينهما تطلق فيه بريطانيا لفرنسا يدها فى المغرب مقابل إطلاق فرنسا يد بريطانيا فى مصر ، وكان هذا ضربة للحركة الوطنية التى كانت تحاول أن تعتمد على فرنسا فى مقاومة بريطانيا ، ودلالة أكيدة على أن الاستعمار مهما إختلف فى تقسيم مناطق النفوذ فهو متفق

فى السيطرة على الأمة العربية والشرق الإسلامى ، وقد إمتد هذا الاتفاق الودى إلى نهاية الحرب العالمية الأولى حيث إقتسمت بريطانيا وفرنسا : العراق والشام بعد هزيمة الدول العثمانية فى الحرب ، وكانت الجزائر قد سقطت فى قبضة فرنسا ١٨٣٠ وعدن فى يد بريطانيا ١٨٣٢ وتونس فى يد فرنسا ١٨٨١ ثم سقطت ليبيا فى يد إيطاليا ١٩١١ والمغرب فى يد فرنسا ١٩١٢ .

وكانت هذه الأجزاء من العالم العربى داخلة فى نطاق الدول العثمانية ، وقد عاشت الصحف العربية فى هذه الفترة ثلاث قضايا كبرى :

(أولاها) دستور ١٩٠٨ الذى أصدرته الدول العثمانية وعلى أساسه فكت قيود الصحافة العربية فى الشام (بأجزائه) والعراق، وقد استقبل هذا الدستور فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى والأمة العربية باهتمام كبير ، وفى مصر أولته الصحف الوطنية اهتماما كبيرا ودعت إلى دستور مصرى . وأصدر فريد وجدى صحيفة يومية باسم «الدستور» لتكون نبراسا على هذه الدعوة ، والمعروف أن الأحداث فى الدولة العثمانية لم تلبث أن اضطربت وانتهت بإسقاط حكم السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ وقيام حكم الاتحاديين ، وقد أحس السوريون والعراقيون الذى كان بعض كتابهم يرون فى السلطان عبد الحميد حائلا دون الحرية — أحسو بالغبطة وهللوا للانقلاب ، وظنوا أن فجرا جديدا قد أشرق . غير أن حكام الاتحاديين لم يلبثوا أن واجهوا الأمة العربية بأقسى ألوان الاضطهاد ثم وقعت سورية فى خلال الحرب العالمية الأولى تحت نفوذ أحد قاداتهم أحمد جمال باشا الملقب بالسفاح فقاوم الحركة العربية أعنف مقاومة .

وفى معركة إيطاليا مع طرابلس قام للعالم الإسلامى والأمة العربية بمواجهة صريحة للنفوذ الغربى واستطاعت صحافة مصر أن تحمل لواء المعركة سياسيا وماليا ، فقد فتحت أبواب الاكتتاب حرضت عليه وأيدت المجاهدين ، ولم يتوقف شاعر من الشعراء أو كاتب من الكتاب عن النظم والكتابة فى مؤازرة المقاتلين ، وفى الكشف عن ظلم الاستعمار وحق الليبيين فى أرضهم .

وقد وجدت مؤازرة هذه الحركة من دعاة مصر للمصريين إعتراضا وخصومة ، باسم « الاقليمية الضيقة » ، وكان لطفى السيد هو قائد هذه الحملة إعتراضا على التضامن العربى الإسلامى مع جارة مصر .

(ثالثا) من أبرز أحداث هذه المرحلة قيام حركة الوحدة العربية والدعوة إلى اللامركزية ، بعد أن إنتهى حكم السلطان عبد الحميد الذى كان يحمل طابع الجامعة الإسلامية ، والواقع أن الحركة العربية فى مقاومة السيطرة العثمانية كانت قد بدأت قبل ذلك ، ولكنها لم تلبث أن ظهرت بعد عام ١٩٠٩ ، فقد بدأ الاتحاديون يدعون إلى الجامعة الطورانية وإلى تتريك العناصر الداخلة فى نطاق الدولة العثمانية ومن بينهم العرب ، وجرت محاولات للقضاء على اللغة العربية فى المدارس والمحاكم والدواوين . وأحس العرب بضرورة اتخاذ موقف حاسم ، وكانت « الشام » بأجزائها (سوريا ولبنان وفلسطين) موئل الحركة لارتباطها مع العراق بالدولة العثمانية . وقد اتخذ العرب خطوة حاسمة لعقد المؤتمر العربى الأول فى باريس سنة ١٩١٣ وفى هذا المؤتمر حدد العرب موقفهم من الدول العثمانية وأعلنوا عن وجود أمة عربية داخلة فى نطاق الدول العثمانية وطالبوا بنظام لامركزى يحقق لهم استقلالا داخليا مع حماية اللغة العربية ومقومات الأمة العربية من أن تنطوى فى حركة التتريك التى كان الاتحاديون يحملون لواء الدعوة إليها باسم الحركة الطورانية أو القومية التركية .

ثم وقع الصدع بين العرب والترك ، خلال الحرب العالمية الأولى ، وأوقع أحمد جمال باشا الملقب بالسفاح زعماء العرب بعد أن اتصل بهم ، وفى مقدمتهم من تصدروا المؤتمر العربى الأول وعلقهم على أعواد المشانق ، وكانت الدول العثمانية قد دخلت الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا وجرت بين بريطانيا والعرب بقيادة الشريف حسين والى مكة قدمت فيها تأكيدها لإقامة دولة عربية بعد انتهاء الحرب فى مقابل تأييد العرب لها ومؤازرتها ، وقد أوفى العرب العهد خلال الحرب وحاربوا تركيا فى الجزيرة العربية

وفلسطين وسوريا ولبنان ، غير أن بريطانيا وفرنسا كانتا قد تعاقدتا على إقتسام هذه الأجزاء العربية باتفاق وقع باسم « سايكس بيكو » .

وكان كتاب العرب وزعماؤهم قد انقسموا ، فآزر بعضهم هذا الاتجاه وحذر بعضهم الآخر من تآمر بريطانيا على العرب في سبيل تمزيق الوحدة العثمانية العربية ، وأسفرت الحرب العالمية عن سيطرة بريطانيا وفرنسا على الشام والعراق ، وأعلن في نهاية الحرب «وعد بلفور» بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وبذلك سقطت آخر وحدات العالم العربي تحت طائلة الاستعمار مع نهاية الحرب العالمية الأولى . أما مصر فقد أعلنت عليها بريطانيا الحماية بمجرد إعلان الحرب العالمية ، في نفس الوقت الذي أعلنت خلع الخديو عباس الثاني وتولية السلطان حسين ثم تولية السلطان فؤاد من بعده . ووقعت مصر في نفس لحظات إعلان الحرب العالمية سنة ١٩١٦ تحت الحماية فجندت كل مقدراتها في سبيل خدمة « الحلفاء » .

وقد كان الاحتلال الإيطالي ١٩١١ لليبيا والاحتلال الفرنسي للمغرب ١٩١٢ وصلابة المقاومة الليبية العربية إزاء الاحتلال الإيطالي العنيف لطرابلس ، كان ذلك من مقدمات الحرب العالمية ونذرها ، هذه النذر التي ظهرت في آفاق السياسة المصرية حيث بدأت بريطانيا تطارد رجال الحزب الوطني وتدبر المؤامرات لهم مما دعا كثير منهم إلى الهجرة ، وفي مقدمتهم عبدالعزيز جاويش ومحمد فريد،حتى لقد خلت البلاد قبيل الحرب العالمية الأولى من أصحاب الأقلام الوطنية الصادقة ، فيما عدا مجموعة أخذت تعمل مع أمين الرافعي في جريدة الشعب ، غير أنه لم تكد تظهر « نذر الحماية » حتى أغلق أمين الرافعي جريدته كي لا يضطر إلى نشر مراسيم الحماية بالقوة ، وتعرض من أجل ذلك وطائفة من الذين معه إلى الاعتقال خلال الحرب الأولى .

وبذا خلا الجو خلال الحرب ومن بعده لجماعة المعتدلين الذين كان يقودهم لطفي السيد

وجريدة الجريدة ويضمهم حزب الأمة ، ومن هنا بدأت الحركة الوطنية بعد الحرب فى هذا الجو فى جو الاعتدال والتفاهم والالتقاء مع بريطانيا فى منتصف الطريق ، وتكشف من خلال مقابلة المعتمد البريطانى للباشوات الثلاثة (عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى وسعد زغلول) طابع الحركة التى قادها سعد زغلول من بعد ، حين قامت منظمة باسم الوفد المسافر إلى أوربا للدفاع عن القضية المصرية فى المجال الدولى وأمام مؤتمر الصلح ثم أخذت تجمع التوكيلات لذلك، فقد كان أغلب البارزين فى هذه المنظمة من رجال حزب الأمة، غير أن تعنت بريطانيا حتى بالنسبة لهؤلاء الموالين لها ، واعتقال سعد زغلول ، قد أوقد شرارة الثورة المصرية ، التى كانت تعيش فى حضانة أفكار الحزب الوطنى ودعوته الحارة قبل الحرب إلى الجلاء والحرية . وقد كشفت ثورة ١٩١٩ عن أصالة هذه الأمة ، وأدهشت أوربا والعالم الغربى ، مما دعا بريطانيا إلى ادخال مصر فى بحر زاخر من التمويه باسم المفاوضات ، فأطلق سراح سعد زغلول وأرسل وصحبه إلى باريس ، حيث لم يكن باب مؤتمر الصلح مفتوحا أمامهم ولا أمام وفود العرب من الشام وتونس الذين اتخذوا نفس الطريق وعملوا منفصلين ، واضطر سعد زغلول إلى قبول المفاوضة مع بريطانيا ، وبدأت فى مصر حياة جديدة بعد الحرب العالمية قوامها تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى أعطى مصر الاستقلال مع تحفظات ، وبذلك بدأت مصر فى إنشاء الحياة الدستورية وإقرار الدستور ومن بعده الانتخابات التى جاءت بالأغلبية الساحقة للوفد الذى كان قد انقسم إلى وفد وأحرار دستوريين ، وبدأت حياة برلمانية سياسية وفق النظام الغربى. ومنذ اليوم الأول للحركة الوطنية بعد ثورة ١٩١٩ أخذت الصحافة طابعا جديدا ، فقد ظهرت صحافة تؤيد الوفد المصرى ، وتوازر زغلول باشا ، ثم نشأ حزب الأحرار الدستوريين ١٩٢٢ بعد أن إنفصل عن الوفد فأنشأ صحيفة «السياسة» ، هنالك بدأت صحف البلاغ وكوكب الشرق وهما والين للوفد والأخبار يحررها أمين الرافعى ، والسياسة لسان الأحرار مع صحيفتى الأهرام والمقطم وعدد من الصحف الأخرى من الدرجة الثانية تواجه

حياة صحفية سياسية جديدة إتصلت فيا بين الحربين وامتدت فى ظل تشكيلات سياسية تكونت خلالها أحزاب الاتحاد والشعب والسعديين ، ثم ظهرت فى الثلاثينات جماعات سياسية واجتماعية مختلفة باسم الأحزاب أو الهيئات كان فى مقدمتها مصر الفتاة والإخوان المسلمين وحزب الفلاح وغيرها .

ومع هذا فقد ظلت الأهرام والمقطم والبلاغ والسياسة وكوكب الشرق أبرز الصحف وأضيف إليها من بعد الجهاد والأساس، هذا بالنسبة للصحافة اليومية أما الصحافة الأسبوعية فقد ظهرت صحف متعددة كان أبرزها : الكشكول وروز اليوسف وآخر ساعة والسياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى والصرخة ومصر الفتاة . وكان أبرز كتاب هذه الفترة :

داود بركات ، خليل ثابت ، محمد حسين هيكل ، عبد القادر حمزة ، حافظ عوض ، عباس محمود العقاد ، أمين الرافعى ، إبراهيم عبد القادر المازنى ، طه حسين ، توفيق دياب محمد التابعى ، فكرى أباظة ، محمود عزمى ، وأحمد حسين ، انطون الجميل، وعبد الله حسين وأحمد نجيب . ولقد تطورت الصحافة فى هذه المرحلة ، تطوراً بعيد المدى ، وبلغت ذروة الفن ، والأناقة فى الطباعة، بما استحدثت من آلات وبما تقدمت تقدما بالغ المدى من حيث الإخراج والتصوير، ومع السبق فى مجال الخبر والترجمة، كما تطور أسلوبها الكتابى إلى نحو دقيق أنيق ، سهل ميسور ، مع مرونة فى الأداء ، وقد بلغ ذلك غايته فى المجلات الأسبوعية من حيث المناورة والعبارة الملفوفة والرمز والإيحاء ، كما تقدم الكاريكاتير وصحافة النقد السياسى الساخر الذى أصبح «فنا» له صحافته الواسعة الانتشار المديدة الاتجاهات .

وكان قوام الصحافة الأساسى هو «الحزب» الذى تتبعه ،أو الحكومة القائمة فى مجال الحكم ، وظلت الصحافة بحاجة إلى معونة الحزب والحكومة خلال هذه الفترة ، ومن هنا كانت تبعيتها الفكرية والسياسية لنفوذ أصحاب البيوت التجارية والأحزاب وكبار الاقتصاديين والسياسيين .

الصحافة خلال الحرب الأولى

ما كادت تندلع الحرب العالمية الأولى حتى أعلنت بريطانيا أن حمايتها لمصر ضرورة حربية . قالت إنها ستحتفظ بالبلاد فى يدها وديعة تردها إلى أهلها وفرضت على مصر موقف الحياد ، وقد بادر لطفى السيد بمغادرة القاهرة وأقفل الجريدة وسافر إلى قريته وانسحب من المعركة . وصدرت الأوامر العسكرية إلى مختلف المديريات بجمع شباب مصر العامل وسوقه إلى « السلطة » العسكرية بأنعامه ومواشيه ، وزج بهم فى خط النار ومنحت الحكومة المصرية انجلترا ثلاثة ملايين جنيهات ذهبا وكونت فرقا من الجيش المصرى تحت الراية البريطانية ، وصدت الجنود المصريين غارة الأتراك على قناة السويس وزحفت بهم خلف أعدائها فى صحراء سينا . وقد أخفيت كل هذه العمليات والتحركات عن الصحف فلم يكن مسموحاً خلال سنوات الحرب إلا بأخبار إنتصارات بريطانيا وحلفائها ، وكانت الرقابة المفروضة غاية فى العنف .

كيف كانت صورة هذه الرقابة : عندما[1] شبت الحرب العالمية فى أغسطس ١٩١٤ كان عدد الصحف المصرية اليومية لا يكاد يتجاوز أصابع اليد الواحدة وكان حجمها أقل من حجمها الآن من جميع الوجوه ، وكانت أكثر مادتها مقالات طويلة مما قد يمل قراء العصر قراءته ، غير أن الحرب لم تكد تقع حتى دب النشاط فى الصحف المصرية لذلك القيد ، وأوفدت بعض مندوبيها إلى ميادين القتال المختلفة ، كما نشطت شركات الأنباء البرقية فى إذاعة كل صغيرة وكبيرة من تلك الحرب ولم يكن الرأى العام فى مصر قبيل الحرب الكبرى يميل إلى تأييد قضية الحلفاء (الإنجليز ومن معهم) وكان الإنجليز يعرفون ذلك بلا ريب ، أضف إلى ذلك أن الروابط السياسية التى تربط مصر بتركيا لم تكن قد فصمت بعد . لذلك رأى الإنجليز أن يمهدوا

---

(١) من فصل مطول عن الرقابة نشرته المصور سنة ١٩٣٥ .

الرقابة الفعلية على الصحف المصرية تفادياً من الصدمة التى تحدث من جراء فرض تلك الرقابة دفعة واحدة . وقد رأوا أن يكون ذلك التمهيد فى شكل كلمات أو مقالات تنشر فى الصحف يشار فيها إلى الأخبار الكاذبة والأضرار التى تنجم عن إذاعتها وانتشارها بين الجماهير .

وكانت أول كلمة موعز بها لتحقيق ذلك الغرض مقالة صغيرة نشرت فى إحدى الصحف فى ٢٢ أكتوبر ١٩١٤ بعنوان « الأخبار الملفقة : أين مصادرها » ضرب كاتبها على نغمة التنفير من تلك الأخبار حتى انتهى إلى الغاية المنشودة وهى « كل المراد هو منع الأنباء الكاذبة والأخبار الملفقة التى يصغى إليها الجمهور أكثر من إصغائه إلى الأخبار الصحيحة ، والناس مولعون دائما أبدا فى كل زمان ومكان بمعرفة المكتوم واكتشاف المجهول . وفى ٣١ أكتوبر ١٩١٤ نشرت جريدة الإجبشين جازيت الإنجليزية مقالا عنوانه (حول مراقبة المطبوعات) نوهت فيه بانتشار الأخبار الكاذبة وطالبت بفرض الرقابة على الصحف لمنع نشر الأخباء الملفقة التى يخشى منها على اضطراب الأمن والنظام .

وفى أول نوفمبر ١٩١٤ صدر الأمر بفرض الرقابة على الصحف وعرض (بروفاتها) قبل الطبع على المراقبين . والظاهر أن الضغط على بعض الصحف المصرية كان شديدا فراحت تحبذ هذه الرقابة الشاذة التى لم تستطع الحكومة البريطانية فرضها على صحافتها فى بلادها ، وساعدها على فرضها فى بلادنا ضمفنا . فقد نشرت جريدة الأهرام (٢/١١/١٩١٤) خبراً يقول : صدر أمر قائد جيش الاحتلال بمراقبة الصحف المصرية وما يكتب عن الحرب قبل طبعه ، ولم تكن هذه المراقبة موجودة حتى الآن ، لكن نوقن أن إيجادها لا يراد منه غير منع ما يضر ويضلل الرأى العام مع احترام الحقائق والحرية المعتدلة . والأهرام التى ورثت منهج الاعتدال عن مؤسسيها وورث صاحبها خطة الدفاع عن مصلحة مصر الحقيقية من أبيه وعمه لا تدخر ولا يدخر صاحبها وسعاً فى مواصلة السير فى تلك الطريق القديمة التى

انتهجت لها من يوم نشأتها فكانت أقوم السبل الموصلة إلى الخير والمبعدة عن الصبر . »
هذا ولم يعلن الحكم العرفي إلا في ٢ نوفمبر في اليوم التالي لتقرير الرقابة على الصحف .
وبدىء فعلا في تنفيذ الرقابة على الصحف قبل طبعها ، وكان على كل جريدة أن ترسل بروفتين من كل ما تزمع نشره إلى المراقب المختص فيراجعه ويقر منه ما يشاء ويحذف ما يشاء ثم يوقع على إحدى البروفتين ويحتفظ بالأخرى للمراجعة بعد صدور الجريدة .

وبدأت الصحف تظهر في صورة لم يكن الجمهور يألفها من قبل فكانت المقالات تتخللها مساحات بيضاء من أثر قلم الرقيب ، وأول بياض ظهر في جريدة الأهرام كان في العدد ١٩١٤/١١/٣ وكان من الأشياء التي تكتمها السلطة العسكرية إنباء إعتقال طائفة من المصريين والأتراك الذين اشتهروا بالعداء لانجلترا وإعلان ذلك والدعوة إليه فكانت الصحف تحتال لنشر تلك الأخبار بحيل لطيفة .

ولعل أظرف حوادث الرقابة أن جريدة (الجريدة) صدرت في ١٩١٤/١١/٨ ومقالها الافتتاحي محذوف برمته ، وكان الرقيب قد ضرب بقلمه الأحمر على جسم المقال دون عنوانه وإمضاء كاتبه ، وكان ذلك المقال في عمودين كاملين فظهرت الجريدة في ذلك اليوم وليس فيها من المقال الافتتاحي إلا عنوانه « موقفنا الجديد » وتحته رقم واحد دلالة على أن المقال مسلسل ، وأن هذا أول فصل فيه ، ثم ظهر في ذيل العمودين الأبيضين توقيع كاتبه وهو الأستاذ عبد الحميد حمدى . ولم يكد يظهر هذا العدد حتى بادرت السلطة بإرسال إنذار إلى مدير الجريدة وقد أمرت بتعطيل الجريدة يوماً وهذ نص الإنذار :

« بأمر جناب اللفتننت جنرال ج . غ . مكسويل قائد جيوش جلالة ملك بريطانيا العظمى بالقطر المصرى أبلغكم أنه طلب منكم حذف الفصل الافتتاحي من عدد جريدتكم بتاريخ ٨ نوفمبر الجارى ، استبقيتم هذا العنوان وإمضاء الكاتب له ، فقد تقرر توقيع الجزاء

على جريدتكم بتعطيلها عن الصدور يوماً واحداً إنذاراً لكم لعدم العودة إلى ذلك في المستقبل . وينشر هذا في صدر العدد الآتي وبناء عليه لا يصدر عدد يوم السبت المقبل من جريدتكم » .

وتصور جريدة « الإجبشيان ميل » جريدة الأهرام أيام الحرب الأولى وبعدها . فتقول : منذ ظهور الأهرام وهي فرنسية تركية . ويشاع أنها تكافأ على خدماتها مكافئات راجحة لا تهبها كرما منها وتفضلا ، ويعلم الجمهور أن سياسة فرنسا أن تسخر الصحف وحينما إشتعل وطيس الحرب اتخذت الأهرام سياسة معتدلة ، انفجرت الصحيفة في هذه الظروف عبر سياسة أخرى فأثبتت بخط عريض كلمة « جريدة مصرية للمصريين » وربما جملت افتتاحياتها بأقلام قرائها ، حتى يظن بالطبع أن الحزب الوطني اشتراها أو أجرها ، وفي هذا الوقت ارتفعت سوقها فصارت توزع ٢٢ ألف عدد . وهي لا تفتأ تثبت في أعمدتها الاحتجاجات المطولة ضد الاحتلال .

الصحافة فى ثورة ١٩١٩

ما كادت الحرب أن تنتهى ، وما كادت ثورة ١٩١٩ أن تبدأ ، حتى صورتها الصحف بأنها حركة اضراب بعض تلامذة المدارس ، ونصحت للطلبة بالعودة إلى مدارسهم . ولم تنشر أخبار ثورة ١٩١٩ إلا بعد سنوات طويلة من وقوعها ، وقد كان مقر الثورة الأول هو الأزهر الشريف ، وقد قام على رأسه رجال مجاهدون حملوا لواء تنظيم تحركات الثورة فى مقدمتهم : مصطفى القاياتى وابراهيم أبو العيون ومحمد عبد الله دراز . وأعلنت بعض أجزاء القطر المصرى الاستقلال ، فنى المنيا أعلن الشيخ أحمد حتاتة قيام الجمهورية ، وفى زفتى أعلنها يوسف الجندى . وشارك الفن فى المعركة وبرز اسم سيد درويش وبديع خيرى ويونس القاضى ، وكان محمود الميهى ينظم القطع الصغيرة التى يرددها المتظاهرون ومنها فى مقاطعة لجنة ملنر قوله :

لجنـــة التـــاميز أنا   قد أنبـــا الوفد عنـــا
فاسألوا سعداً يجبكم   لا جواب اليوم منــــا

وكان زكى مبارك فى مقدمة خطباء الثورة ، وكان يخطب بالفرنسية للوفود الأجنبية التى تقدم إلى الأزهر ومن شعره فى المعركة :

لعمر الليالى الدهم وهى شواهد   ببأس الذى أودى بعاجئن من عز
لئن لم يبد طوعا عن النيل غاصب   نرى لبثه فينا أمر من الكفر
لاستمطرن الشعب سخطا ونقمة   على ما جنت يمناه فى مصر من نكر

ومما يذكر فى هذا الصدد أن رجلا من دمنهور اسمه « حسين ثابت » أرسل برقية لجريدة الأهرام على أثر مجىء لجنة ملنر إلى مصر وطالب بمقاطعتها ، وكانت هذه البرقية

بمثابة الشرارة التى اشتعلت ، وتحدد موقف مصر منذ تلك اللحظة من هذه الناحية .

وقد إستطاع بعض الذين عاشوا ثورة ١٩١٩ أن يقدموا عن طريق الصحف صوراً من مذكراتهم ، وهذه إحدى تلك الصور : بقلم واحد من أبرز المشاركين فيها ، المرحوم الشيخ محمود أبو العيون :

كانت سنة ١٩١٩ نقطة تحول خطرة فى تاريخ مصر الحديث . فى ٩ مارس ١٩١٩ قامت مظاهرة طلبة المدارس العالية التى مهدت لانفجار الثورة . . . حتى إذا وصلت إلى باب الخلق أطلقت القوات الانجليزية الرصاص على المتظاهرين النار من كل شارع ، وقد أثر فى نفسى هذا الاعتداء الوحشي الغاشم على أبناء وطنى فقصدت فى صباح اليوم التالى إلى الجامع الأزهر واعتليت المنبر وخطبت فى الطلبة أحضهم على الثورة .

وما أن انتهيت من إلقاء خطبتى حتى خرجت الجماهير من الأزهر فى مظاهرة كبرى تهتف للاستقلال ، وما كادت تصل إلى المشهد الحسينى حتى أمطرها الجنود برصاص بنادقهم فكان أول شهيد طالب صغير اسمه مصطفى ماهر وأتبعه كثيرون وأذكر أن امرأة كانت تطل من نافذة مسكنها تشهد تلك المصارع الدموية فصوب نحوها أحد الجنود الانجليز رصاصه أصابتها فى صدرها . وأذكر أن الجنود الانجليز حاصروا مسجد الحسين أثناء صلاة الجمعة فى ذلك اليوم ، وكلما خرج واحد من المصلين أطلقوا الرصاص عليه فكان يوما مشهودا . لهذا جئت بعطواه وحفرت تاريخه : الجمعة (١٤ مارس ١٩١٩) على الباب الأخضر المشهد الحسينى تخليدا لذكراه .

وفى اليوم التالى ١٥ مارس ١٩١٩ عمت الثورة جميع أنحاء البلاد وفتح الأزهر أبوابه للوافدين من رجال الثورة يخبطون فى الجموع الحاشدة . وأذكر أن أول مظاهرات ليلية فى الدنيا هى التى خرجت من الأزهر فى ذلك الحين . ومن التدابير التى لجأت إليها أنى أنشأت جمعيات سياسية ثورية فى كل أنحاء القاهرة وكنت فى كل مساء أجمع برؤساء

هذه الجمعيات وأذيع عليهم التعليمات والأنباء وأغذيتهم بالمسائل التي يجب أن يتناولوها في خطبهم، وفي أوائل مايو سنة ١٩١٩ اعتقل زميلي مصطفى القاياتي وعندئذ توقعت القبض علي وأخذت أفكر فيمن يخلفني في تنظيم حركة الخطابة في الأزهر . ووقع اختياري على زميلي الشيخ محمد عبد اللطيف دراز وأعلنت وقتها « جنون الثورة » وقلت أن الثورة مجنونة وخطباؤها يجب أن يكونوا مجانين . فلما قبض علي في ١٢ مايو ١٩١٩ خلفني في الحركة الشيخ دراز وقال في أول خطبة ألقاها بعد اعتقالي : الحمد الذي جعلني أجن خلف لأجن سلف، واستمر يدير حركة الخطابة حتى اعتقل بعدى بقليل تخلفه غيره وغيره من إخواننا .»

وإذا ضاقت السلطات الانجليزية ذرعا بالأزهر وأحاطته بقوات عديدة مسلحة ، لتمنع الناس من دخوله ، ولكننا لم يعجزنا ذلك بل احتلنا عليهم ورحنا نرشد الأهالي والطلبة إلى طريق آخر يسلكونه عن طريق زاوية العميان وبذلك يجتمعون في الأزهر ليتلقوا من خطبائه الوحي والإلهام واحتلنا حتى لقننا الجنود الانجليز عبارة « زاوية العميان » فكانوا إذا شاهدوا أحدا من الأهالي طردوه وأبعدوه عن الباب الرئيسي للأزهر . ويقولهم : « جون زاوية العميان » فينحرف إلى طريق زاوية العميان ويدخل الأزهر في هدوء وسكون . وفي ١٧ مارس قامت أول مظاهرة جامعة لسائر طوائف الشعب ، وقد خرجت كما هي العادة من الأزهر ، وسارت متجهة نحو الغورية ، المغربلين ، عابدين ، ولما اعترض الجنود المسلحون طريقها صمما على إختراق نطاقاتهم مهما حدث »

وفي ١٧ ابريل خرجت من الأزهر مظاهرات اشتركت فيها جميع طوائف البلد من موظفين وعمال وطلبة وقسس ورهبان وتجار ومحامين وأطباء ، حتى النساء البلديات سرن في المظاهرة وهن يركبن العربات الكارو ، ويتعرضن لرصاص واعتداءات الانجليز ، وكنت في هذه المظاهرة أحمل وزميلي مصطفى القاياتي « العلم المصرى » وأيدينا في أيدى إخواننا القسس الذين كانوا يتقدمون المظاهرة معنا كدليل على اتحاد الهلال مع الصليب .

ورسم « حسن الشنتناوى » صورة ثورة ١٩١٩ كما شاهدها[1] .

فقال : الذين يريدون أن يرسموا صورة شهر مارس الخالد من ١٩١٩ يجب أن يعتدوا باحساسهم إلى شهر الثورة وهناك يدخلون معاهد العلم قبيل اشتعالها فيسمعون أساتذتها يتكلمون هنيهة فى فنونه وهنيهة يتلون فيها على مسامع تلاميذهم مبادىء ولسون ويتواعدون جميعا على يوم النصر والخلاص ، فلسرى فى حجرة الدرس موجه محققة من حشرجة القلوب . وللقلوب يأس إذا انقشع ذاب أمامه الجديد .

واقبل يوم ٩ مارس والناس حلقات على جنبات الطريق ، إعتقلوا سعداً وانتصف النهار فاذا الناس لا ينصرفون إلى بيوتهم وإنما تتنوع الأخبار فتحدث يحكى عن ثورة فى الصعيد وآخر يتكلم عن الطلبة وإستعدادهم ، ثم أقبلت الساعة الرابعة بعد الظهر واتسعت الحلقات، وإذا كل حركة حادث ، وكانت الثورة قد بدأت تصبح حقيقة ملموسة فى خيال الناس وفى لحظة انتقاها القدر ، أقبل طالب من مدرسة الاعدادية وجذب (سنجة) ترام غمرة فى وسط ميدان باب الخلق ، حادث بسيط ، ولكنه كان كافيا لأن يخرج الناس جميعا من الترام ويقفوا حول هذا الرسول المجهول ، وزاد عدد الطلبة واختلطت الصيحات : أين سعد، الثورة أيها المصريون ، وفى دقائق معدودات كان جمع محتشد فى باب الخلق ورجال البوليس يبتسمون ويبتعدون ، ثم سار الحشد فى طريق « تحت الربع » وهناك أصبح مجرى متدفقا من الأنفس ، وتوالت الصيحات « الاجتماع فى مسجد المؤيد » فى المؤيد ، ونهض على المنبر خطباء يقذفون النار وكانت الساعة حوالى الخامسة ، وأقبل الانجليز بخيلهم ورجالهم ، ولكن الثورة كانت قد بدأت ، والنار لا تخيفها ولكن تنعشها ، وسارت الموجة حتى الأزهر ، وفوق هذا المنبر الخشبي الذى يراه الداخل من الباب ويا ليته يحفظ إن كان لا يزال موجوداً ، أعلنت الثورة ، وبعد برهة سمعنا طلقات نارية ، ولكن سمعنا فى الوقت نفسه نداء كالرعد « فلتحى الحرية » . . فليحى الاستقلال .

---

(١) الأهرام ١٨/٣/١٩٣٣ .

وفى منتصف الساعة السابعة أشعلت مصابيح الطرقات ، وبعد دقائق كسرت ثم هشمت ، وهنا أقبل الفرسان الانجليز ، والبلد كله ظلام ، وكنت تسمع طلق النار يأتى من هنا وهناك ، على أبواب الأزقة والحارات ، وفى منتصف الساعة الثامنة كانت الثورة فى كل مكان وبات الناس أما سائرا فى الطرقات ، وأما مستيقظا يتسقط أخبار الثورة .

ثم أقبل الفجر وقال قائل فى الأزهر عقب الصلاة : « إلى قشلاق الانجليز » إحذروا من المرور على كوبرى قصر النيل لئلا تحاصروا فى الجزيرة ، موعدنا عند باب سميراميس وأذعن الناس لصوت لا يعرفون مصدره ، إيمان الثورة ووحيها ، وفى الساعة الثامنة كان حوالى عشرة آلاف عن باب سميراميس وما بدأوا يسيرون بهذه المظاهرة الكبرى حتى كان عددهم قد أربى على الخمسة عشر ألفا ، وقبل أن يلحقوا بميدان الاسماعيلية لحق بهم من شارع « الشيخ المبيط » بجوار سراى كمال الدين ضابط من كبار ضباط الجيش البريطانى ، قيل حينئذ أنه أحد قواده ، واختلط بالمتظاهرين الذين تواصوا بمسالمته ، وعدم التعرض له : فقال : ماذا تريدون . ولأى شىء هذه المظاهرة فليقابل منكم فريق أن نتفاهم معه قالوا : كلا . كلا : تفاهموا مع زعمائنا . سنسير فى مظاهرتنا حيث نشاء وعاد الرجل سالما أمينا ، ولكن على وجهه علامات الجد وسارت الثورة إلى ميدان الاسماعيلية ثم شارع سليمان باشا والأجانب يلوحون ويهتفون وبعضهم ينثر الزهور . وبعد ذلك تعاقبت الأيام والأعوام .

وقد أشار : (م . ت . خ) عام ١٩٣٢ كيف حالت الرقابة عام ١٩١٩ دون تسجيل أحداث الثورة فقال : ما كدت اتصفح جرائد الأهرام والأفكار والمقطم فى شهر مارس ١٩١٩ حتى عاودتنى ذكرى مؤلمة قاسية هى (البلاغ ٢٤ مارس ١٩٣٢) ذكرى الرقابة على الصحافة فى ذلك الوقت وكيف حاربت هذه الرقابة تسجيل الحقائق وتبين الوقائع وإعطاء كل ذى حق حقه ، والواقع أن الحركة المصرية عام ١٩١٩ كانت أكبر ظاهرة ملموسة لحقيقة القوة القومية التى تكمن فى روح الشعب . فلا عجب أن يلجأ المستعمرون إلى

قطع الصلة الصحفية بين الشعب وحقيقة الحوادث ليحتفظوا هذه الحوادث فى ظلام دامس .

أنك لتمر حين تتصفح الصحف فى مارس ١٩١٩ بذكرى ثانية تهتز لها النفس روعة ورهبة لم تصفها الصحف حينذاك إلا بأن تقول عنها (أنها حوادث يؤسف لها وما هى إلا ذكرى الشهداء الذين نثرنا عليهم بالأمس الورود والزهور) . والواقع أن ثلاثة من أبرز كتابها استطاعوا أن يحتفظوا بيوميات كاملة لثورة ١٩١٩ وقد نشروا هذه اليوميات فى صحيفة البلاغ وغيرها من الصحف ، هم : أمين الرافعى وعبد الوهاب النجار ومحمد الخضرى .

ومما يذكر أن جريدة سلطات الاحتلال لم تسمح باصدار صحف وطنية جديدة إلا فى أواخر عام ١٩١٩ . حين صدرت الأفكار (أبو العينين بدر) فى ٩ أغسطس ١٩١٩ . كما صدرت جريدة النظام (سيد على) فى ٢٩ نوفمبر ١٩١٩ .

رئيس التحرير

كانت شخصية رئيس التحرير أبرز شخصية فى الصحيفة ، حتى كان يمكن أن تذكر كل صحيفة برئيس تحريرها : الأهرام : داود بركات ، السياسة : هيكل ، المصور : فكرى أباظة ، آخر ساعة : التابعى وهكذا . وفى هذه الفترة أصبح لرئيس التحرير من السلطان مايفوق سلطان الوزراء وقد بلغ ذلك النفوذ حداً ، جعل مثل الدكتور هيكل وهو رئيس تحرير السياسة قد منع « محمد محمود » رئيس حزب الأحرار الذى يصدر السياسة من نشر بيان له فى السياسة واضطره إلى نشره فى جريدة الأهرام ، وفكرى أباظة هو أقدر من يحدثنا عن منصب رئيس التحرير يقول : رؤساء التحرير فى نظرنا مساكين ، أغلبيتهم الساحقة ضئيلة ، عليلة ، سقيمة ، ولعل لطول السهر وكد القريحة وكثرة العمل دخل فى الموضوع ورئاسة التحرير فى مصر وظيفة من أدق الوظائف ، ومركز رئيس التحرير مركز من أحرج المراكز ، دعك من الوجهة السياسية والمسئولية الجنائية فشرحها يطول ، وإنما تعال بنا نقتحم باب غرفة رئيس التحرير وهو يكتب على ورقة يحرر مقالته الافتتاحية ، ها قد مد يده مصافحا وهو يبتسم بعد أن ألقى قلمه على القرطاس ، أؤكد لك أنها ابتسامة متكلفة متصنعة ، وأؤكد لك أنه فى حاجة إلى العزلة والانفراد لأن رئيس المطبعة يطلب الافتتاحية بإلحاح ، ها قد دق الجرس لطلب القهوة عملا بواجب الضيافة ونحن لا نحس ولا نشعر أو أننا لا نود أن نحس ونشعر ، ها قد أخذنا نتحادث وهو طائر الذهن يجيب إجابات مضطربة غير مستقيمة ، ها قد انتهز فرصة سكوت قصيرة فتناول القلم خلسة وحرر سطراً أو سطرين ، ولكن إرتفع من أحدنا صوت عال أجش يوجه إليه سؤالا ، فألقى القلم مرة أخرى والتفت للسائل ، وجبن الخجل والوداعة يعقل لسانه ويعطل واجبه ، ونحن على هذا كله لا نحس ولا نشعر : والغريب أن رؤساء التحرير جميعهم يقعون فى هذا الخطأ ويتنابهم هذا الضعف ، فلاهم لديهم الشجاعة الواجبة لاستئذان الزائرين ، لإتمام

عملهم ، ولا يخصصون وقتا مناسبا — وفى جهة منعزلة — يتممون فيه ما يجب عليهم أن يتموه فى ميعاده ، فإذا ظهر المقال مضطربا مفككا مرتبكا ، فالمسئولية عليهم أولا ، وعلى ضيوفهم الظرفاء ثانيا ، والجمهور هو الذى يعانى على كل حال . وقد شاهدت الوفود المتلاحقة المتتابعة التى تفد على رئيس التحرير ، هاقد دخل وقد ضخم من طلبه المالية وبيدهم عرائض وتقارير فطلبوا إلى رئيس التحرير بلهجة الآمر الناهى أن ينشر عرائضهم ، ها قد تناول رئيس التحرير منهم الأوراق بيد مرتجفة فهاله إسهابها وتطويلها فالتمس الاختصار ، ولقد ارتفعت عبارات السخط والاحتجاج مقترنة بالإشارات الحارة ، والحركات العصبية ، فاضطر أن يضع الورقة أمامه بعناية وأن يقول لهم بكل تواضع ومسكنة : حاضر . وها قد دخل شاب يتراشق ، ولكنه ليس بالرشيق ، ويتظارف ولكنه ليس بالظريف ، فسأل بباقة وزلاقة عن السبب فى عدم نشر مقاله الذى أرسله أمس ، فيجيب رئيس التحرير إجابة مؤدبة متواضعة ، أنه سيراجعه ، ولكنه لا يقتنع بهذا الجواب فيطلب بإلحاح أن يراجع أمامه وفى مواجهته ، لأنه تأخر بلا مبرر وبلا موجب ، والمصلحة العامة ، وحرية الرأى ، وأهمية الموضوع ، تستلزم سرعة النشر ، فيحتال عليه رئيس التحرير بكل الأساليب ليصرفه فيأبى إلا إذا وعد وعداً أكيداً ، فإذا وعد وعداً غير أكيد ودع مصافحا وعلى فمه ابتسامة صفراء مصحوبة بهذه الكلمات — حسنا سأمر على حضرتك بعد الظهر . وها وقد انفتح باب الغرفة من تلقاء نفسه لرجل من ذوى الحيثيات والمقامات ولكنه يحمل مقالا سخيفا ، فيقوم له رئيس التحرير ومن بجوار رئيس التحرير يؤدون واجب التبجيل والتعظيم ، فيجلس منتفخا ، ثم يلقى بالرسالة إلى رئيس التحرير طالبا تلاوتها فإذا تلاها فى سره أمره بالتلاوة العلنية ، فإذا أخذ يتلوها علانية أخذ هو فى نفسه يظهر الاستحسان ، ويطلب الإعادة ! فإذا أتم رئيس التحرير التلاوة على مضض سأله : مارأيك ، فأجاب : عال ، فقال : إذن دق الجرس ! فيدق الجرس ، فإذا حضر الخادم أخذ الرسالة من رئيس التحرير . وقال له خذها ، فإذا سأل الخادم إلى أين قال : إلى المطبعة . إذا لاحظ القارىء فى الجريدة التى يقرأها ضعفا أو اضطرابا أو سقما فليعلم أن ذلك راجع إلى سببين : ضعف رئيس التحرير + (تلامة) المراسلين والكاتبين والزائرين .

حياة رئيس التحرير

ويصور انطون الجميل رئيس تحرير الأهرام كيف يمضى رئيس التحرير يومه : يقول :

« نهض رئيس التحرير من نومه بعد سهر طويل يتناول النسخة من صحيفته فيقع نظره فى الحال — وعينه مدربة على ذلك — على عنوان ناقص فى الصفحة وعلى غلطة مطبعية فى الصفحة الثانية ، وعلى إهمال فى ترتيب الصفحة الثالثة ، وعلى رقم مقدم أو مؤخر فى الصفحة الرابعة مما لا يخفى على نظر ابن المهنة وإن غاب على القارىء العادى فيجد رئيس التحرير فى كل ذلك أو فى بعض ذلك أولى مضايقات يومه . ولا يكاد يزول عن نفسه أثر هذه المضايقة الأولى ، حتى يقرع التليفون مرة ومرتين وثلاثا ، هذا كاتب لم تنشر مقالته فيسأل عنها عاتبا ، وهذا بيت مالى يحاول أن يتحرى عن مصدر خبر له أثره فى دوائر المال والاقتصاد . ويخرج رئيس التحرير من منزله ويترك مركبته ليسير بضع دقائق على الأقدام من قبل الرياضة ، فيقابله أول عابر سبيل ويقبل عليها مسلما ، ويأبى إلا أن يرافقه فى سيره متحدثا إليه عن منزلته فى قلوب قرائه وأثر مقالاته فى دوائر السياسة والأدب فيشكره رئيس التحرير ، ولا يمضى عابر السبيل فى سبيله بل يتطرق إلى السياسة والتعليق على الأزمة الوزارية إلى آخر أنباء الحرب . ولا يكاد يتخلص رئيس التحرير من هذا الفضول حتى يقبل عليه آخر فيحدثه عن مقال طريف يفكر فى تدبيجه ويريد أن يختص به جريدة الأستاذ . وينتهى المطاف إلى مكتبة فى دار صحيفته فيرى أمامه أكداسا من الرسائل البريدية والبرقية ، وقبل أن تمتد يده إلى واحدة منها يكون الحاجب قد ألقى إليه ببضع بطاقات زيارة ينتظر أصحابها قدومه ، هذا يريد تجديد اشتراكه ، وهذا يطلب تغيير عنوانه وثالث يشكو من عدم وصول الجريدة فى ميعادها ، ورابع يرغب فى نشر إعلان وخامس يطلب نشر خبر .

وعبثا تحاول أن تقنع الزائر أن فى دار الجريدة عشرات من الموظفين أقدر على خدمته

وقضاء حاجته من رئيس التحرير ، ولكن الزائر لا يرضى إلا أن يقابل رئيس التحرير لأمر خاص — والإعلان مع أنه أبعد الأشياء عن عمل رئيس التحرير لأنه عمل تجارى بحت ، ومع ذلك فلابد من حشر رئيس التحرير فى شؤون الإعلانات ، هذا يريد تخفيض الأجرة مع أن للاعلان رسوما مقررة ، وهذا يريد نشر اعلانه فى مكان بارز ، مع أن لكل صفحة فى الجريدة رسما خاصا ، والإعلانات فى الصحف حقل واسع للدروس السيكولوجية ، فهى تارة مظهر بخل ممقوت وتارة مظهر سخاء مستنكر ، يحتفل الرجل بزواج كريمته أو بمأتم والديه ، فينفق فى هذا السبيل مئات الألوف من الجنيهات من غير حساب ، ويأبى إلا أن يعرف عشرات الألوف من القراء عقد قران سليلة المجد والشرف وربة الصون والعفاف أو وفاة السيدة الجليلة التى قضت حياتها فى أعمال البر والتقوى ، فإذا طلب منه قسم الاعلانات مائة أو مائتين من القروش إستنكر المبلغ وهرول إلى رئيس التحرير يوسطه بما له من مكانة فى الجريدة ليخفض ريالا أو ريالين ، ورئيس التحرير يؤثر غالبا أن يدفع الفرق من جيبه . وفى أثناء هذه المضايقات وهذه المخالفات يستمر التليفون يمثل الدور الذى بدأه فى الصباح ، استيضاح عن حادث ، التحقق من إشاعة ، الاستفهام عما يجرى فى مجلس النواب أو مجلس الوزراء . ولعل من أشد مضايقات رئيس التحرير ما يجيئه عن طريق الكتاب المتطوعين ، وهم لاشك مشكورون على غيرتهم على الأدب بحمل ثمرات قرائحهم إلى دور الصحف ، ولكن للصحف اليومية أحكاما ليست للمجلات التى هى المجال الطبيعى لمثل هذه المقالات . فالنبأ التلغرافى والخبر المحلى مقدمان فى الصحف اليومية على ما سواها ، ولكن بعض هؤلاء الكتاب يريدوننا على مثل ذلك ، يلقى الواحد محاضرة ثم يرسلها إلى الصحف طالبا نشرها ، وهى أحيانا من النوع الذى يكتفى أن يتمكب به العشرات من السامعين فلا يصح أن يتكبب به الألوف من القراء .

وعلى ذكر ذلك أذكر أننا فى سنة ١٩٣٢ وكانت قضية القنابل فى أشد أدوارها ، حتى أن المحكمة كانت تنعقد فى الغالب جلستين فى اليوم فتستغرق تفاصيلها أنهرا من صحفنا

وحوالى الساعة العاشرة فى إحدى الليالى ، حمل إلى الحاجب بطاقة ثقلت باسم صاحبها وما تلاه من الألقاب العالية الضخمة ، فاضطرت إلى مقابلته على مضض ، ودخل وبعد عتاب ومجاملات ، قدم إلى مقالا كثير الصفحات فألقيت نظرة على العنوان لأتبين الموضوع فألفيته مما لا تذهب جدته ولا تضيع بهجته بل هو من قبل سد الفراغ بمثـــله فوضعته جانبا : قال صاحبنا : أرجو أن تقرأ مقالتى هذه . قلت : أنا مشغول الآن جداً ، سأطالعها غدا ، قال : ولـكن يهمنى أن تنشر صباح غد . قلت : لا سبيل إلى ذلك : الساعة الآن العاشرة ولا نستطيع جمع مقالات والجريدة مزدحمة ، وقضية القنابل مستغرقة جانبا كبيرا ، فلما رأى تصميمى على الرفض وقف كاسف البال وهم بالانصراف ثم عاد فقال : ألا يمكنك يا أستاذ أن تؤخر قضية القنابل وتنشر مقالتى هذه . وكدت أصعق لأن موضوع مقالته التى لا تحتمل التأجيل هو « صيد الحوت فى الأقيانوس » والـكتاب المتطوعون مصدر مضايقة أخرى ، ذلك أنهم يتلفتون إلى موضوع تطرقه الجريدة فيتهافتون على الـكتابة فيه ، كأن هناك مباراة عامة .

صورة وصفية لرؤساء التحرير (بقلم فكرى أباظة)

داود بركات : قيل عنه أنه شيخ الصحافة ، لم « انقب » عن سنه ولم أهتم بالبحث عن تاريخه . وإنما لا أدرى أين تسكن تلك القوة السارية فى أسلوبه ، له ثورة أو ثورتان فى العام يبلغ فيهما القمة ، مقالاته حديث الناس وفى الأزمات يندلع قلمه كالنار فتجد فى « المحليات » نصف نهر يملوها (عنوان) يندر بالخطر . لا أظنه يتمشى مع عواطفه ووجدانه فى آرائه ، لعله يحكم (العقل) ويراعى (الظروف) أكثر من تحكيم القلب . ولعله معذور فبين يديه عمل كبير ، وفوق عاتقه مسئولية عظمى ميزته على زملائه أن محصوله التاريخى هائل ، فهو ممتاز فى المناسبات وكنز معلوماته لا يفنى .

خليل ثابت : بطل الشرق والشرقيات ، مغرم بدراسة تطورات الشرق ومسائل الشرق وهى فضيلة بلا جدال ، أحسن من يجيد الوقوف على الحياد ، مع الأزمات ، تحرير وترتيب محلياته ترتيب وتحرير شعبى سهل مقبول ، ولذلك يقرأ الناس جريدته بسهولة . ولئن أخذت عليه كثرة الأخبار التافهه كحوادث النشل وحوادث الترام وتنقلات ملاحظى البوليس — ووكلاء البوستة ، ونظار المحطات ، ودرجه تلك الأخبار العادية فى صدر المحليات بعض الأحيان — لئن أخذت عليه هذا فلعل جريدته فى حاجة إلى معاونة هؤلاء ، ولعله أدرك سر ميل الشعب إلى الحوادث والمفاجآت . معلوماته المحلية غزيرة ، ولكنه يجمل به ألا يتكلم فى الافتتاحيات عن حلوان — والتراب فى العاصمة ، وآلة الرش الجديدة فالافتتاحيات روعة وجلال .

أمين الرافعى : هو بلا منازع قد إحتكر خاصيتين : (الأولى) جنون العقيدة . (الثانية) استحضار النصوص . أما جنون العقيدة فقد أحاطه بسياج متين من الإجلال خالد ، أما استحضار النصوص فلا أظن أنه يوجد فى مصر كاتب يجاريه فى هذا ، وويل لسكل سياسى يلقى الكلام على عواهنه ، فعند أمين الرافعى أقواله السابقة وتصريحاته السابقة ، كأنه كان يدرك فى الماضى أن المتكلم سيناقض نفسه وينسخ نظرياته ، آخذ

عليه التكرار فى نفس الموضوع ، ودفاعه عن هذا أن فيه ترسيخا للفكرة ، وقد يكون وجيها أو لا يكون .

عبد القادر حمزة : يمتاز بملكة التحليل ، يحلل الموقف أو موضوع اليوم بمهارة عظمى ، وإن وجبت المغالطة — وعند الصحفيين هى كثيرة الوجوب — فقد لا تستطيع اكتشافها . إيجازه يتفق وميل القارىء ، والمودة فى الكتابة اليوم هى الإيجاز المفيد .

ولعل تفوقه فى التحليل وتسلسل التدليل يرجع إلى دراسته القانونية ومرانه الجدلى .

حسين هيكل : لا يعرفه العامة إلا منذ تولى تحرير السياسة ، أما الخاصة فقد قرأت له كثيرا فى الجريدة وغيرها ، ميزته أنه (Brillent)مشرق فى تفكيره ودقيق جداً فى تحديد موضوعه ، وأظهر ما يروعك فى أسلوبه أنه يحيطه بسور من الجلال ، ولعله وهو يكتب يتذكر من يكتب بلسانهم من الوزراء وجبابرة العقول . فياض من ناحية الأدب ، ويدهشنى أنه يكتب فى الأدب كل هذه المجلدات .

حافظ عوض : journaleiste (صحفى ممتاز) عمق الكلمة فى محاولات واضحة فى تحسين جريدته ، لعله أقدر من يدرك سر فنه ، مطلع على الأدب الإنجليزى وقوى فى مادته ، ورجال العهد السابق لا يحتاجون إلى تعريف .

× وهذه صورة أخرى لرؤساء التحرير : بقلم كاتب مجهول .

أنطون الجميل : يجلس إلى مكتبه فى الأهرام إلى ما بين الثانية صباحا ، يكتب أحيانا ويراجع أحيانا ثم إذا به يتنقل بين مكاتب التحرير وبدروم المطبعة ليشرف فى توضيب الصحائف بين عمال المطبعة وصفا فى الحروب ، فإذا أحس بالجوع عند منتصف الليل إنسل إلى بار اللواء وهو على قيد خطوات من مكتبه فتناول عشاءه وعاد إلى ما كان عليه من عمل متواصل فلا يبرح مكانه إلا إذا عرف أن ماكينة الطباعة قد بدأت تدور .

خليل ثابت : يذهب إلى فراشه فى الساعة التاسعة تماماً فإذا جاءت الساعة السادسة صباحا رأيته قد نزل إلى مكتبه بالبيجاما أو الروب دى شامبر ففتحه وجلس وحيداً فريداً يطالع جرائد الصباح فإذا جاءت الساعة الثامنة سلم لعامل المطبعة « افتتاحية المقطم » التى يضمنها عادة أربعة مواضيع مختلفة . يكتب بسرعة غريبة وخطه ردىء لا يقرأه إلا الاخصائيون من

عمال الصف الذى مضى على اشتغالهم بالمقطم عشرات السنين ، ويصعد إلى مسكنه بعد ذلك ليتناول طعام الإفطار وليرتدى ملابسه ، حتى إذا جاءت الساعة التاسعة ألفيته رابضاً على مكتبه ليشرف على كل صغيرة وكبيرة مما ينشر فى المقطم حتى الإعلانات ومن عادته أن يراجع بروفة مقاله بعد تصحيحها .

الدكتور هيكل : سريع فى الكتابة إلى حد بعيد حتى ليشغل السيجارة أحيانا قبل أن يمسك بالقلم فلا ينتهى من تدخينها إلا وقد انتهى من كتابة المقال . خطه لهذا السبب لا يقرأ إلا إذا اجتمع لفك رموزه عدد من الزملاء . لا يعنى بالأسلوب بل يسرف فى استعمال حروف الجر بلا حساب لكنه يعتنى بالفكرة ويناقش فى منطق سليم وتخريج حكيم .

عبد القادر حمزة : إذا أراد أن يكتب شرب فنجانا من القهوة وسيجارة ثم يشرع القلم كأنما أرهف سيفا . يكره أن يدخل عليه أحد أثناء الكتابة حتى لا ينقطع تيار أفكاره المزدحمة ، وهو يحب أن يراجع ما يكتب وينشر قبل أن يتسلمه عامل المطبعة . ينال من خصمه بهدوئه ورزانته أكثر مما ينال منه غيره بحدته واندفاعه .

التابعى : نشيط جداً ولكنه مزاج ، يستطيع أن يحرر مجلته الكبيرة من ألفها إلى يائها فى جلسة واحدة إذا أراد يحث المدوء لتضايقه أحيانا دقات ساعته الأنيقة .

توفيق دياب : خطيب بطبعه حتى فى مقالاته يؤثر أن يملى ، وقد يكتب بيده شيئا ، يذرع الغرفة جيئة وذهابا ويشير بيديه أحيانا ويدق على المنضدة بيمينه أحيانا ، يحتد ثم يهدأ ، يرفع صوته ثم يخفضه ، فكأنما لا يملى على كاتب ، بل يتحدث إلى جماعة ويخطب فى جمهور ، يعنى باللفظ المختار ، ويعمد إلى الكلام المتبق للتأثير على قرائه . فلما يبدأ كتابة مقالة قبل منتصف الليل وكثيرا ما يملى وحوله نفر من خاصة أصدقائه كان يتصدرهم فيما مضى أمير الشعراء شوقى أو وحيد الأيوبى .

عباس العقاد : يوثر الهدوء إذا بدأ يكتب ويكتب فى الصباح الباكر ويعنى بالأسلوب بقدر ما يعنى بالفكرة ، لم يتولى رئاسة التحرير يوما من الأيام ، ولكنه عمل فى كثير من صحف : المنبر . البلاغ . الجهاد . روز اليوسف . الضياء .

من تجارب الصحفيين

لم يكن رؤساء التحرير وحدهم هم الشخصيات البارزة فى الصحافة اليومية والأسبوعية خلال فترة ما بين الحربين بل كانت هناك شخصيات مؤثرة ، لها صوت مدوى ، وتجربة ضخمة وقد سجل كثير من هؤلاء الكتاب الصحفيين تجربتهم الصحفية والظروف التى عاشوها ، وهى فى مجموعها تعطى صورة الصحافة من الداخل :

(١) تجربة عباس العقاد

ليس فى وسع الكاتب السياسى مهما يكن شأنه ، ومهما يكن الشعب الذى يكتب له والموضوع الذى يكتب فيه ، ليس فى وسعه أن يؤدى اليمين القانونية التى يؤديها الشهود فى المحاكم قبل الافضاء إلى القضاة عما يعملون .

فهو قد يقول الحق ولكنه لا يقوله كله فى وقت واحد ، لأنه مرهون بأوقاته التى ينكشف فيها على حسب المناسبات والأحوال . فهو إذن قد يقول الحق ولكنه لا يقوله كله كما يفرض عليه يمين المحكمة . وتفسير ذلك أنه لا يقف فى كتابه موقف الشاهد أمام القضاة ، بل يقف أحيانا موقف المعلم أمام التلميذ أو موقف الطبيب أمام المريض أو موقف الواعظ المصلح أمام أتباعه المريدين .

وإذا وجب على الشاهد أن يقول كل شىء أمام القاضى الذى يحكم فى القضية حكمه الفصل فليس من الواجب على الواعظ ولا على الطبيب ولا على المعلم أن يقول كل ما فى نفسه للتلاميذ والمرضى والموعوظين وقد يكون فى الأمر سر يتعلق بأناس آخرين ولا يملك الكاتب أن يجهر به علانية فى جميع الأوقات لأن كتمان ذلك السر أمانة يحاسبه عليها ضميره ويحاسبه عليها أولئك الناس الذين أئتمنوه عليها .

وإذا كان الكاتب يكتب للغافلين والجهلاء فليس أصعب عليه من الصدق وليس أيسر

الهدية من الكذب والتمويه ، والكذب فى بعض الأحيان عجز وليس بقدره ، فاذا لم يملك الكاتب قدرة الصدق كذب وهو عاجز مضطر إلى مخالفة الحقيقة ، ولكنه إذا قدر على الصدق لم يكذب ولم يخالف ما فى ضميره ، فربما كان الصدق أبرع من فن الكذب فى أكثر الأحوال (وعندنا) أن الكتاب يخالفون غيرهم فى أمرين ظاهرين : وهى أنهم من جهة خاضعون لرقابة الجماهير ، ومن جهة أخرى خاضعون للمغريات والمؤثرات التى تسلطها الجماهير عليهم وهم يشعرون أو لا يشعرون . فخضوعهم لرقابة الجماهير يجعلهم أكثر من سائر الناس حذراً من الكذب والتمويه . وخضوعهم للمغريات من قبل الجماهير يجعلهم على نقيض ذلك أكثر من سائر الناس رغبة فى مرضاة الجماهير أو رغبة فى إخفاء الحقيقة واصطناع الأباطيل ، وأن الكاتب ينبغى أن يخلص فى كل سطر وفى كل كلمة وفى كل حرف يخطه بيمينه ، سواء قال الحق كله أو صرح ببعض الحق أو ترك بعضه مكتوما إلى حين ، وخلاصة هذا كله أن الكاتب كالطبيب والواعظ والمحامى فى موقفه من الصدق والصراحة فلا الأطباء ولا الوعاظ ولا المحامون يقولون كل ما يعلمون ، ولا الكتاب يطالبون بذلك فى شرعه الأخلاق أو فى واجب الصناعة ، ولكنهم جميعا يطالبون بواجب الاخلاص الذى لا يسقطه عنهم عذر من الأعذار .

(٢) تجربة التابعى

هذه صورة للتابعى ولمجلة آخر ساعة كتبها أحد الصحفيين فى مذكراته .

الذين اشتركوا فى تحرير العدد الأول من آخر ساعة (١٩٣٤) هم : أحمد الصاوى محمد ، أمينة السعيد ، سعيد عبده ، زينب صدقى ، السندباد البحرى ، صاروخان ، قاسم فرحات ، كريم ثابت ، محمد التابعى ، محمد حسنى عبد الحميد ، محمد عبد الوهاب .

وتدخل غرفة الأستاذ التابعى فتجده جالسا إلى مكتبه وقد وضع على ذراعيه أكمامه

السوداء وراح يدخن سيجارة أو يشرب فنجانا من القهوة ، والتابعى رجل ديمقراطى لا يحب التحكم أو أملاء الرأى ، ومن هنا إذا أراد وضع فكرة صورة نادى «صاروخان» ونادى جميع المحررين يطلب منهم أن يفكروا فى صورة كاريكاتور . وعلى يمين الأستاذ يوجد غرفة صاروخان . . تدخل حجرته فتجده قد خلع جاكتته وأسند يده إلى رأسه الأصلع وقد أمسك ريشته القاسية يسود بها وجوده الناس ويعبث بالاناقة والجمال، ويجيد زميلنا كامل الشناوى المحرر بالأهرام تقليد صوتى الأستاذين العقاد وتوفيق دياب إجادة تفوق الوصف . وحدث مرة عند ما كان الأستاذ العقاد يعمل فى إحدى الصحف اليومية أن تظاهر الشناوى بأنه الأستاذ العقاد ودق التليفون لسكرتير تحرير تلك الجريدة وصب عليه دشا بارداً من الشتيمة والسباب ، وتضايق سكرتير التحرير وكاد يستقيل لولا أن الشناوى دخل عليه وأخبره أنه هو الذى كان يتحدث باسم العقاد وبصوته ، فشيع سكرتير التحرير صديقنا الشناوى إلى الباب بما يستحق من التحية والاحترام والشلاليب .

وبعد دقائق دق جرس التليفون فى حجرة سكرتير التحرير وقال المتكلم إنه الأستاذ العقاد وثار سكرتير التحرير وقال على اعتقاد أنه الشناوى يعيد الكرة مرة ثانية : « بلاش أمور عيال » أقفل السكة واتركنى أشتغل وما كاد ينتهى من هذه الجملة حتى رأى الشناوى واقفا أمامه وسمع الأستاذ العقاد الأصلى يثور فى التليفون .

ومن المقالب والفصول الباردة فى (آخر ساعة) أن حدث منذ أيام أن زار الدكتور غلوش رئيس أركان جمعية منع المسكرات زميلا من الزملاء أشتهر بيننا بأنه أشد الناس إيمانا بمزايا المسكرات وأكثرهم تطبيقا لهذا الاعتقاد . وظننت أن الدكتور غلوش زار الزميل لهديه إلى الماء القراح والصراط المستقيم . ولكن ما كان أشد دهشتنا عند ما رأينا الزميل يتظاهر بالتقى والورع أمام رئيس جمعية منع المسكرات ويهاجم المشروبات من

الوسكى إلى الفازوزة ، ويتساءل بدهشة عن مصير السكارى يوم القيامة إذا ساروا على الصراط المستقيم الذى هو أحد من السيف وأرفع من الشعرة وليس له درابزين .

ولم نحتمل نحن الأصدقاء نفاق الزميل فاتفقنا فيما بيننا على مقلب نظيف نرد به الزميل إلى الصراط المستقيم ، اتفقنا على أن يدخل أحد سعاة المجلة وفى يده زجاجة ويسكى ويقول للزميل أمام الأستاذ غلوس : حضرتك ح تأخذ زجاجة الويسكى معاك ، وإلا أبعتها البيت مثل كل يوم .

وقام الساعى بالمهمة خير قيام وأغمى على الزميل ، وحل الأستاذ غلوس مبادئه المعروفة وغادر الزميل بعد أن نظر إليه بكل هزؤ وزراية واستخفاف .

قال صحفى كبير : إن التهويش والصحافة كلمتان مترادفتان بمعنى واحد ، ومن التهويش الذى يلجأ إليه الصحافى : المصادر العلمية ، ودوائر الحل والربط ، ومن بيدهم مقاليد الأمور وولاة الأمور . يسمع الواحد منهم خبرا من ساعى أحد الوزراء أو من موظف درجة ثامنة حرف جيم فى مكتب مساعد وكيل إحدى الإدارات فتأبى عليه كرامة المهنة أن يقر ويعترف بالواقع ويقول : بلغنا من أحد صغار موظفى قسم الروزنامه بوزارة المالية بدلا من أن يقول هذا بالخط العريض أنه سمع الخبر من ولاة الأمور ، وتقرأ فى الصحف اليومية برقيات تقول أنها لمراسلها الخاص فإذا وقعت حادثة فى حارة غير مطروقة بزقاق غير معروف بقرية مجهولة فى جريدة مدغشقر نشرت الصحف فى اليوم التالى برقيات مطولة لمراسل الجريدة فى هذا الزقاق . . ويتساءل القراء : هل لهذه الصحف — وخصوصا غير المقروءة منها — هل لها مراسلون فى كل مكان .

(٣) من تجربة فكرى أباظه

فى سنة ١٩١١ كان فى المدرسة السعيدية تلميذان صغيران يتناوبان ويتبادلان الرسائل التى تمس السياسة العامة ، أثناء إلقاء الدروس فى الفصول ، هذان التلميذان (النجيبان) كانا : محمد التابعى وفكرى أباظه وإن كان أولهما سيثور ثورة حامية ضد هذه الذكرى الأليمة التى تسجل سنه بوجه التقريب . عرف التلميذان بتملقهما السليق العزيزى للصحافة منذ ذلك الحين ، أولهما يعالج الصحافة فى بعض المجلات ، والثانى يعالجها فى المؤيد تحت اسمين مستعارين . . فرقت بينهما السنون والسجون إلى أن التقيا مرة أخرى بعد جيل كامل صحيفتين ناضجتين . فسلك كل منهما طريقه حتى اليوم .

كانت أمنيتى بعد ثورة ١٩١٩ أن ينشر توقيعى تحت مقال لى بالأهرام . كان أقطاب السياسة فى مصر يملون على أفكارهم ونحن نعمل معا فى الحركة الوطنية . تجرأت فى ٥ ديسمبر ١٩١٩ بنشر مقالى الأول الذى هز الخواطر فى جريدة الأهرام « خيال وصياد » .

رداً على جريدة الشمس التى أشارت إلى شكوى المصريين من احتكار الانجليز بالوظائف الكبرى ، فلجأت إلى دوسيهات بعض رجال كبار موظفى مصلحة الرى وإلى إحصاء عن عدد كبار الموظفين الإنجليز فوجدت النسبة فادحة فى المرتبات والوظائف .

وفى مقال تال : ١٣ يناير ١٩٢٠ (نطاط ورقاص) .

بشرت الشهادة الوحيدة التى وجدتها فى ملف أحد كبار الرؤساء فى وزارة الاشغال . . وأنه يجيد ركوب الخيل والنط والرقص ، وكان مساعد مدير أعمال وزارة الأشغال ورئيساً على مصريين حازوا الشهادة العليا فى الهندسة وقد أحدثت المقالة دويا فعلقت عليها جريدة التيمس .

وأبرق إلى تقلا باشا (صاحب الأهرام) طالبا الحضور لمقابلته فحضرت من الزقازيق

وعرض على أن أحترف الصحافة فاعتذرت بشدة فى ذلك الحين مؤثراً الهواية على الاحتراف .

وشبت نار الثورة ١٩١٩ فحررت كثيراً من المنشورات للطلبة الأناشيد التى طبعت منها الألاف ووزعت . وخطب ضد مشروع ملنر و والمنشورات السرية والمظاهرات » كعت فكرى أباظه ضد مشروع ملنر فى الأهرام ٢٠ سبتمبر ١٩٢٠ .

ثم حيل بينى وبين الكتابة فى السياسة ، ولما كنت هاويا للصحافة قمت لأشملن نفسى عفاوشة الجنس اللطيف مؤقتا بدل الإنجليز ، وقد بدأت ثورة نسوية تحمل لواءها اثنتان : واحدة توقع مقالاتها باسم الخنساء وكانت قوية الأسلوب واقعية التعبير ، فلطمتنى أكثر من لطمة ، وهكذا اكتشفت أن الخنساء هى «محمد لطفى جمعه» .

أما الثانية فكانت فتاة مثقفة غاية التثقيف ، هى «منيرة ثابت» وكانت تطالب إذ ذاك — بأن يكون للنساء حق التصويت بمناسبة وضع الدستور .

لم تغرنى العروض الشهية لكى أحترف ، فظللت هاويا ، فلما عرض على أن أجمع مقالاتى فى مجموعة واحدة لم أجد فى جيبى رأس مال الطبع والنشر ، فاعتمدت على الناشر مصطفى محمد بشارع محمد على ، ثم عرض على جبرائيل تقلا أن أحتل زاوية فى جريدته الكبرى شرط على نفسه ألا يتدخل فى موضوعها ولا أهدافها ولا مبادئها ، ولكنى كنت فى مستهل شبابى المندفع فظننت أن الاحتراف قيد وذل وغل .

خيال وصياح

أول مقال كتبه فكرى فى أهرام ٥ ديسمبر ١٩١٩[1] .

نشرت التيمس مقالا رقيقا عطفت فيه على المصريين ونددت بإسراف الحكومة فى توظيف الشبان الإنجليز وطلبت فى النهاية العدول عن هذه السياسة الأشعبية المؤدية إلى السخط والاستثناء . خيل لى أن التيمس تفرض ضمنا أن عدد الانجليز فى الوظائف الكبيرة ضئيل أو على الأقل لا يذكر بجانب المصريين فبحثت وبحثت حتى وصلت إلى نتيجة وقفت أمامها مذهولا متحيرا — فى مكتبات الوزارة كتيب صغير — غير الكتيب الأصفر ، حصرت فى أسماء الموظفين المصريين والأجانب . حدقت فى كتيب منها وأخذت أجمع وأطرح وأضرب وأقسم وكانت النتيجة ٧٤٥ انجيز ٩٩ أجانب ، ١٥٠ مصريون أى أن عدد الانجليز ثلاث أضعاف المصريين . وقد وفد علينا فى هذين اليومين جيش جرار من شبان انجليز زاحفا حتى فى أصغر وظائف مصرنا العزيزة ، وسارت حكومتنا مع الوافدين على النصف الثانى من المبدأ المشهور (أحرار فى بلادنا — كرماء لضيوفنا) فألحقتهم بالوظائف الفنية وغير الفنية ، وترتب على ذلك خروج عدد من الموظفين المصريين فالتجأوا للمحاكم طالبين العدل وكان دفاع الحكومة ولا يزال ملخصا فى كلمتين : رفتناه للاستغناء ، ولو انصفت لقالت : رفتناه للاستبدال ، وقال فكرى أباظة فى ذكرياته : كتبت عن رجل كبير قلت : إنه يزحف نحو المجد ونحو القمة بسرعة ، فطلبنى بالتليفون وكلمنى ثائرا غاضبا من كلمة « يزحف » قائلا : أترانى طفلا صغيرا وهل هذا يليق ، قلت له بكل هدوء : سل أحد اللغويين عن معنى « يزحف » فى هذه

---

(١) احترف الصحافة حين تولى رئاسة تحرير المصور سنة ١٩٢٦ .

العبارة وكلني من فضلك بعد خمس دقائق ، وبعد خمس دقائق كلني قائلا : شكراً يافكري بيقولوا أن زحف (دى كوبسة) .

(٤) من تجارب إبراهيم عبد القادر المازنى :

كنت أعمل فى جريدة الأخبار مع أمين الرافعى : وكان عبد القادر حمزة كلما رأى سياسة جريدته « الأهالى » متفقة مع سياستنا المستقلة فى الأخبار يدعونى إلى الكتابة فى جريدته فأفعل ولكن بتوقيع مستعار باسم استقر عليه الرأى «مطلع» ، وكان رأيى أن الحال لا يدعو لظهور الأحزاب وتعددها فقاومت حركة تأليف حزب جديد فى ست مقالات نشرتها جريدة البلاغ بتوقيع «مطلع». وكان الأستاذ العقاد يكتب فى البلاغ ويحمل من ناحيته على الحزب الذى دار تأليفه ولكن باسمه الصريح ، ولم يكن يلح فى هذه الحملة، وإنما كان كل منا يكتب فى هذا كلما دعت مناسبة . ومضت الأيام وقام الحزب وإذا ببعض الحمقى يغتالون المرحومين حسن باشا عبد الرازق وإسماعيل بك زهدى على باب حزب الأحرار الدستوريين . وقد تبين من بعد أنهم مجانين لا علاقة لهم بصحافة ولا أحزاب ولكن ثروت باشا أراد أن يمد« البلاغ » وصاحبه ومن يكتبون فيه مسئولين أدبيا عن الجريمة ، وكان هذا خطأ مبينا ، فأما صاحب البلاغ فمعروف، وإما العقاد فيكتب باسمه الصريح وإما «مطلع» فلم يعدم ثروت باشا من يدله على أنه المازنى ، ودعانى أمين الرافعى وقال :

اسمع ، أخبر صاحبك أنكما ستنفيان من مصر ويعنى بصاحبي الأستاذ العقاد ولا أحتاج أن أقول أنى لم أقصر فى ابلاغه ولا فى الاستعداد للنفى وتدبير الأمر مع أمين الرافعى على ما يكون وأنا منفى ، ولا سيما بعد أن رأيت النيابة تستدعى عبد القادر حمزة للتحقيق معه ولكننا لم ننف، لأن وزارة ثروت إستقالت وجاء وزارة نسيم فصرفت النظر عن هذا .

× فر الشيخ جاويش من تركيا ودخل مصر فى غفلة من الحكومة ودعانى أمين الرافعى ذات صباح ، ودفع إلى كتابا وقال : إقرأ ، فإذا هو من الشيخ جاويش يعلن فيه أنه دخل مصر ويسوغ اضطراره إلى التنكر والدخول خلسة ، فأشرت عليه بنشره ففعل ، فقامت الدنيا وقعدت واضطربت الحكومة وانطلق البوليس السرى فى كل مكان يتجسس ويتحرى ، وصار الناس يغدون علينا : يسألوننا أين هو ؟ وكان الدستور قد صدر وهو يحرم نفى المصرى ، فأشرت عليه بمقابلة يحيى إبراهيم رئيس الوزراء ، وقلت أنه قاض قبل أن يكون رجل سياسة ، فصدق ظنى ولم يخب فى هذا الرجل . قال : هل للشيخ جاويش أن يظهر وهو آمن . قال : « نعم بلا مراء » فصدرت الأخبار فيها دعوة له أن يظهر .

× × كانت الصحافة قبل ربع قرن — يقصد قبل ثورة ١٩١٩ — وإلى عهد غير بعيد « صحافة رأى » لهذا كانت المقالة من أهم ما فى الجريدة . وهى التى كان عليها المعول . كانت الصحف لا تنشر من برقيات روتر وهافاس إلا بضعة سطور كانت الصحف تشترى لقراءة مقال واحد : اللواء ، مصطفى كامل ، المؤيد ، على يوسف ، أو المنفلوطى . الجريدة : لطفى السيد . إن المقالة كانت هى الجريدة . ثم فتحت الصحف صدورها للكتاب والأدباء ينشرون فيها شعرهم ونثرهم وأسبق الصحف إلى ذلك جريدة الدستور لفريد وجدى . أما أهم تطور صحفى فلم يحدث إلا فى عنفوان الثورة المصرية ١٩١٩ لأن الصحف احتاجت إلى الاطلاع على ما يكتب عن مصر فى الخارج والوقوف على ما يجرى فى مؤتمر فرساى فبدأت الصحف تتخذ المراسلين المصريين فى باريس ولندن . ومن أهم آثار الحركة الوطنية أن احتاجت الصحف إلى معرفة حملات الصحف الأجنبية عنها فدفعها هذا إلى العناية بالشئون الخارجية .

× × فى ١٩٠٩ نشر عبد الرحمن شكرى الجزء الأول من ديوانه فحمل عليه

محمد الرصفى حملة عنيفة فى مقال نشرته جريدة مصر الفتاة (أبو بكر لطفى المنفلوطى) وكان المازنى فى ذلك الوقت طالبا بمدرسة المعلمين العليا ومن المعجبين بشعر شكرى، فكتب مقالا فى الرد على الرصفى نشر فى جريدة مصر الفتاة ، كان أول مقال للمازنى ثم نشر ١٤ مقالا متتاليا فى جريدة الدستور عن ديوان شكرى فى مصر الفتاة (٤ مايو ١٩٠٩) وهذا نموذج منه :

أيها الكتاب ولا أقول الأدباء فليس كل كاتب بأديب ولا كل ناقد بناقد ، خليق بكم أن تتأدبوا فى مخاطبة الشعراء فإن أوجع ما يعانيه الشاعر أن يقوم من لم يستجد من الشعر غير ما نظمه ابن الفارض ولم يعن إلا بما قال البهاء زهير من الكلام الموزون المقفى الذى ملؤه الوهن والغميزة ،فيقول له تعال أعلمك كيف تقول الشعر . أيها الشيخ أنا نعرف اليد التى حركت قلمك فكتبت ما كتبت ، أما ذلك السباب الذى رميت به الشاعر فليس منك وإنما هو منسوب إليك ، ولو كان هذا الكلام من قتلى النفاق لارتباك من دهاء أستاذك ما يزيدك حيرة فى أمره .

• — من تجربة أحمد حسين

فتحت عينى فى نحر الثورة المصرية ، كنت طفــلا وقتذاك لم أتجاوز الثامنة من عمرى ، ولم أكن إلا طالبا بالمدارس الابتدائية فى السنة الأولى منها ، ولـكنى أذكر أننى إشتركت كـكل طفل فى ذلك الوقت فى الجهاد القوى فاندرجت فى سلك المظاهرات وارتفع صوتى بالهتافات الداوية « مصر والسودان لنا » ، إن الصورة التى أيقظت روحى بقوة كانت تغطى جدران معبد الـكرنك ووادى الملوك ، علمتنى كيف كانت لمصر حضارة منذ أربعة آلاف من السنين ، الله أكبر لقد ، رأيت مصر تعلم العالم وتضىء عليه بجامعة الأزهر المصرية ، وتحارب الجيوش الأوربية الجيوش فتقهرها وتأسر ملوكها وقارنت بين هذا المجد وما نعيش منه من ذل فعرفت السر ؛ السر هو : « أن الله لا يغير ما بقوم حتى

يغيروا ما بأنفسهم » ، لابد من العمل ، لابد من رفع الغشاوة التى تعمى أعين المصريين »
أصدرنا جريدة الصرخة منذ أربعة سنين ، كنا عوطين بالطلبة ، رأيت كل شيء مملوكا
للأجانب ، فدعوت الأمة إلى جمع قرش من كل مصرى لتأسيس مؤسسة قوية وقد
كان وجمعت القروش وشيد مصنع الطرابيش ، فكان هذا إيذانا بنصر الشباب
ويشيرا بعودة الروح

× قد تكون الاعلانات عن الخمور حقا، مورد كسب عظيم للجريدة ولصاحب الجريدة
ولكن الجرائد لها مهمة أخرى غير مهمة الكسب الشريف والغير شريف ، للصحف مهمة
أخرى أكثر قدسية من الكسب واكتناز الأموال ، أعنى بها قيادة الرأى العام وتوجيهه
نحو الأصلح والأمثل ،فالصحف ليست إلا معبر الرأى العام ، مصابيح الاصلاح، كفاح فى سبيل
الحق ، ولكنها لا يمكن مطلقا أن يكون سبيلا للكسب ولا شيء غير الكسب ، وهى
لو تنكبت الطريق لأحرى بها أن تكون بما تفعله أداة هدم لا أداة بناء ، ليس يؤلمنا أكثر مما
يؤلمنا من رؤية الصحافة الرشيدة تمد يدها إلى هذه المنكرات فتعاونها وتلبسها ثوب البراءة
وتهيل عليها عبارات من التحبيذ والاطراء .

× إلى طلعت حرب : لقد أصبحت فريدا فى تاريخ مصر ، كوكبا دريا لامعا يضيء
سمائنا الملبدة بالغيوم والآلام ،أى شيء لم تفعله من أجل مصر ومجدها، أنت رجل التعليم ، رأيناك
فى العام الماضى على رأس مدرسة فى حلوان وسوف نراك على رأس مدارس أخرى كثيرة ،
وأنت بعد ذلك الرجل الذى أوجد لمصر بنكا التهم البنوك فى سنوات قلائل ، أنت الرجل
الذى رد على مصر كرامتها الاقتصادية وبعث الثقة فى أرجائها وأنقذ كل ثروتها ، وها هو
بنك مصر بعد أربعة عشر عاما فى مصر لا يسير إلا من مجد إلى مجد ، أى شيء لم يفعله هذا
البنك ، بل لم يفعله أنت من اجل مصر وعظمتها ، أو لم توجد مصانع القطن ، أو لم يصبح

مصنع المحلة بعد الزيادات الحديدة من أعظم مصانع العالم ، أو لم تشتر المصانع الانجليزية المغلقة لتديرها على ضفاف النيل ، أو لم تنشىء لنا الأساطيل تجوب الهواء والماء ، فرفعت العلم المصرى فى السماء ، وفى أنحاء العالمين، يجب أن يكون ورق النقد موقعا عليه من طلعت حرب لا من « كوك » .

× مصر هى مركز العالم : ومعلمه الانسانية وأم الحضارات وهى منبع الحكمة وموئل الأديان جميعا فنها خرجت الديانة الموسوية وبها احتمت المسيحية ، وهى التى رفعت لواء الاسلام عاليا ، وأنشأت جامعة الأزهر ، وهى التى حاربت أوربا الصليبية فهزمتها وأسرت ملوكها ، وهى التى انقذت المدينة والعالم من شر التتار المخربين ، وهى التى أفنت كل أعدائها وغزاتها ، وبقيت حية خالدة وهى التى رمت بالجيوش الانجليزية إلى البحر وهى التى قرعت جيوشها أبواب أوربا وأخاف أسطولها الأساطيل ، وهى التى تقدم الاسلام اليوم وستئول إليها زعامته .

× لا تتكلم إلا بالعربية ولا ترد على من لا يخاطبك بها ، تطهر — فقاطع الخمور ودور اللهو الحرام والشبهات الأخرى — لاتشترى إلا من مصرى ، ولا تشترى إلا ماصنع فى مصر — الاحتلال العلمى فى المدارس الأجنبية التى تغزونا ، فهل آن لنا أن نهجر هذه الدور ، المحاكم المختلطة : صفحة سوداء . حاجة مصر إلى بنك مركزى . جهاد الأمة فى سبيل الاستقلال الاقتصادى . والقضاء على الأمية . إعترفوا بعظمائكم وخلدوا ذكراهم . قاطعوا أغانى التخنث . شركة قناة السويس تؤلف دولة فى الدولة . لابد من إلغاء الامتيازات الأجنبية (١٩٢٣) .

٧ — من تجربة « محمود كامل »

للدكتور هيكل طريقة فى معاملة صغار الكتاب المبتدئين قد يعتبرونها فى بادىء الأمر عنيفة قاسية . كان كاتب هذه الكلمة يقوم بكتابة سلسلة مقالات فى السياسة عام ١٩٢٢ (فى عالم السينما) وحدث أن تأخر نشر بعض المقالات ، وكان للدكتور هيكل إذ ذاك والسياسة فى عظمتها وعزها سكرتير خاص هو الزميل طاهر حقى يستفسر من الراغبين فى مقابلة رئيس التحرير واعتقدت أنى لو مررت بالأستاذ حقى لما فزت بمقابلة الدكتور ، فانتهزت فرصة سانحة واقتحمت الغرفة وأبديت احتجاجى على تأخر نشر المقالة وكم كانت دهشتى عندما صاح فى وجهى — يعنى هى مقالات برناردشو ، انتظر حتى نجد لها مكانا . وحقدت على الدكتور هيكل مدة كنت اعتقد أثناءها أنه مثال الشراسة إلى أن نشرت فى السياسة بحثا عن الأدب الأغريقى ووجدنى يوما جالسا فى غرفة سكرتير التحرير الدكتور محمود عطا وكنت لا أزال طالبا فى مستهل دراستى العلمية ، فاقترب منى وأخبرنى فى صوت هامس أنه قرأ البحث وأعجب به ، وأنه يريد أن يفضى إلى بسر خطير من أسرار المهنة ، وهو أننى إذا أردت الترجمة فلا يجب أن أترجم وأقدم الأصول إلى المطبعة ، بل يجب أن ألقى ما أترجمه فى الدرج أياما عديدة عشرة أيام أو خمسة عشر يوما ، ثم أعود فانقحه وأصقله فى أسلوبى الخاص حتى لا استعبد لأسلوب من أترجم عنه ، وأخبرنى أنه فعل ذلك .

٨ — من تجربة توفيق حبيب

أن الصحافة المصرية نهضت بعد الحركة الوطنية بزعامة سعد باشا فزالت المقالات الطويلة ، حلت المقالات المختصرة المملوءة بالمعلومات ، ظهرت العناوين المبتكرة والصور ، ظهر التفنين فى تدوين الجنايات ووقائع البوليس والرسوم الكاريكاتورية فى المحاكمات وغيرها . وإمتازت الجرائد الهزلية بالتصوير الكاريكاتورى ، ولم يكن فى القديم شىء من الصحافة الأسبوعية الموجودة الآن ، بل كانت قديما مخصصة لنهش الأعراض ، مما يدل على انحطاط

الصحافة، أن ابراهيم العزبى أصدر جريدة أسماها الهلال العثمانى للطعن فى منافساته من النسوة الساقطات، وكانت أعظم جريدة أدبية أو هى الجريدة الأدبية الوحيدة هى «مصباح الشرق» .

أما أشهر الجرائد الأسبوعية فكانت : الأستاذ (نديم) حمارة منيتى (محمد توفيق) الخلاعة ، الشجاعة ، السبق (أحمد عباس ، حسين شفيق ، محمود جاد (وكان التفنن عماد الصحافة الفكاهية كقولهم . « غاب توفيق حبيب عن مطبعة الأخبار فاستبدل بما كينة قص » هذه الجرائد كان عمادها الطعن فى الأشخاص والجرأة فى النقد، حتى استهدف أصحابها للسجن سنوات طويلة ، وأكبر شاهد على ذلك المرحوم أحمد عباس ، فإنه نظراً لكثرة الأحكام التى صدرت ضده إنتحر بجوار جامع أبى العلا ببولاق ، وكان رحمه الله متأنقا فى ملابسه — وبين ١٩٠٠ — ١٩١٣ كان محلات اللهو والتسلية من ميدان الأوبرا إلى شارع كامل ، الرويعى ، باب الشعرية ، وكان شارع وجه البركة مركز هذه الحركة ، وكنت تظن أن به كل يوم مهرجانا، ولم تكن الحياة تدب فى هذا الشارع قبل الساعة التاسعة مساء ، ثم تستمر إلى الصباح، وكان أعظم البارات وأهمها (دراكانوس) من جهة ميدان كامل وباب اللوج عند ميدان الخازندار ، وأينما سرت لا تجد إلا الأعيان وكبار التجار وأعظم المزارعين وكبار الموظفين والأدباء . وكانت هناك قهوات للرقص البلدى المشهور ، وكان هناك جماعة من تجار الجواهر يؤجرون لأولئك النسوة حليا نفيسة من الذهب والالماس، وتجمع الراقصات « النقطة » فى طبق ويتقاسمنها مع أفراد جوقة التخت . أما المجالس الأدبية فكان أشهرها فى الفجالة قهوة (الكابيتال بار) وعميدها الشيخ ابراهيم اليازجى ، وكان يحيط به أتباعه وتلاميذه من محبى اللغة العربية ، ثم تليها قهوة الشانزليزيه بالفجالة أيضـــا وكانت لزبائنها الممتازين شرفه لا يسمح لغيرهم بالجلوس فيها ، وقهوة بريكلى أمام التياترو المصرى (تياترو اسكندر فرح) وكان يجلس فيها كتاب الروايات التمثيلية وفى مقدمتهم إلياس فياض

وفرج أنطون وجورج طنوس ، وقهوة الليمونادة بباب الخلق وعميده الشيخ مهدى أبو يافه ، والشيخ مفتاح الزجال والشيخ أحمد القوصى ، ويحيط بهم فريق من أبناء دار العلوم ، أما أهم القهوات ، فكان الاسبلندر بار وقهوات عمارة ماتاتيا وكان عمدها أمام العبد وأحمد فؤاد وحسين وصفى رضا وحافظ ابراهيم وأحمد زكى باشا .

٩ — من تجربة توفيق دياب

أحدث إليك عن الماضى — عن ذلك العهد الذى منى فيه دستور مصر بالتعطيل مرة ، ثم بالتبديل مرة أخرى ، فهجرت مكانى من إدارة الجامعة واتخذت مكانى بين أصحاب الصحف ، وكلما أصدرت جريدة حجبوها بعد فترة تطول أو تقصر بين أسبوع وعام ، حتى انتهى الطراد إلى جريدة « الجهاد » ، فعاشت وزخرت حياتها بألوان الكفاح سنوات ثمان ، ثم احتسبتها شهيدة كريمة ، قبل نشوب الحرب الأخيرة بزمن يسير .

ولو كان ما أكتب الآن قصيدة لقلت هذا بيت القصيد ، أعنى هذا لباب الموضوع .

ولباب الموضوع أن يدى ، لا يد عمرو ، التى وأدت ابنتى « جريدة الجهاد » . وأدتها بيدى ، كما كانت عرب الجاهلية تئد البنات مخافة العار . والفرق : هو أنى أتيت عملا لا يحرمه خلق ولا دين ، بل يوجبانه الوجوب كله .

تسألنى كيف كان ذلك ؟ وإليك الجواب بعد تمهيد :

توهجت فى صدرى شعلة من الحماسة للدستور سنة ١٩٢٨ ، فطار بى وهجها من نعومة الوظيفة إلى خشونة النضال ، ولقد أكبر الجمهور هذه التضحية الهينة ، لأنه قاسها بباعثها ولم يقسها بقيمتها ، كانت الحمية يوميذ ملتهبة فى صدور الناس ، فلم يكن عجباً أن تتصل حرارة القلم المؤمن بحرارة الرأى العام،وأن يترقب الشعب صحفه المعبرة عن لواعجه ، فيتخطفها فى شوق ولهف . وكلما ألغت السلطة صحيفة شفعناها بأخرى أرفع منها صوتاً وأبلغ أثراً ، ذلك وإقبال الجمهور يتضاعف على كل وليدة جديدة ، بعد

احتجاب أختها الشهيدة ، حتى بلغ ما أكلته تلك الحرب ثلاث عشرة جريدة ، فى أقل من ثلاث سنوات ، بيد عمرو وأدت كل تلك الصحف ، إلا صحيفة الجهاد ، وكانت كبرى جرائدى ، وأطولها عمراً ، وأوسعها انتشاراً فى مصر وسائر بلدان العرب وأدتها بيدى — نعم وأدتها بيدى فداء لضميرى ! حجبت جهادى بيدى ،وأنا أعلم علم اليقين أنى بذلك أحطم سيفاً طالما تهيبه أقوياء ، وطالما انتصر به حق وانهزم به باطل ، سيفاً يتيح لحامله كثيراً من المنافع ، لو استباح الإيغال فى سوق المنافع ، سيفاً يجذب بريقه من يعبدون الضعف إذا تسلح ، ويجحدون القوة إذا تجردت من السلاح ، سيفاً كم طلب نجدته زعماء ، وكم تمنى هدنته خصوم ، فلم يستجب رنينه قط ، ولا اهتز نصله إلا لصوت الضمير ولكن لماذا جردت نفسى من هذا السلاح ؟ لماذا حطمت سيفى بيدى ؟ لا لشيء سوى أنى حنبلى متزمت فى مواطن الشبهات والريب . علوت المنابر سنوات فى صدر الشباب وأواخره ، وفى أوائل الكهولة وإلى يومنا هذا ، ألقى المحاضرات فى الأخلاق ، وفى روائع المثل الأعلى والحياة السامية ، فكان محالا على مثلى وتلك منابرى وقباتى طيلة أيام العمر ، أن أكفر برسالة الأخلاق لأستبقى جريدة الجهاد .
لم يكن إلى بقائها من سبيل سوى التلوى والعوج ، سوى قبول المال ، والمال الكثير ، إن لم أقل الثراء العريض ، من جهات شتى تشترى التأييد بالمال الكثير ، فهذه شركة غنية قوية ذات نفوذ بينها وبين الحكومة خصومة ناشبة ، « والجهاد » تنصر الدولة ، لأنها تذود عن مصالح الجمهور فى هذا العراك ويرسل الشركة مندوبها بعقد يتحلب لقيمته الضخمة لباب الطامعين ، عقد إعلانات لمدى عام أسطره قليلة وفتراته متباعدة وأجرته باهظة ولن يكلف الجريدة إلا السكوت عن الحق ، رفض فى غضب واحتقار ، وهذا بلد يحارب بلدا فيجنح الجهاد إلى الناحية المظلومة ويزورنى مندوب الظالمين يعرض ألوفا من الجنيهات لا لشيء سوى أن أنشر برقيات المستطعفين فيأبى ابن حنبل

ويصر على الإباء ويأبى إحدى محاضراته على المندوب فى فضيلة الأخذ بيد الضعيف الوادع حين يعتدى عليه القوى القاهر ، فلا المندوب يقبل الفضيلة ، ولا ابن حنبل يقبل المال . وهكذا يرفض الجهاد بينه وبين ضميره مبلغاً طائلا قد تقبل مثله كبرى جرائد الغرب على أنه عمل صحفى مشروع ، وأنها برقيات تنشرها صحف الدنيا على الإطلاق . ذلك دون أن أعرف من رجال البلد الفقير المظلوم أحداً ، أو أعلن تضحية الجهاد لأحد . وتلك جهة أجنبية أخرى تريد إبداء عطفها على الجهاد ، فتحاول أن تبعث إليه بهدية مالية شهرية ، فى غير غرض ظاهر ولا عوض مفهوم . . أليست مجرد تعبير عن العطف والتقدير ؟ ويرفض ابن حنبل فى إباء وشمم ، لأن العطف المصحوب بالمال شراء للذمم من غير عقد . وصاحب الجهاد خلال ذلك مرهق بأقساط شهرية تجاوزت قدرته ، وكان يدفعها ثمناً لأحدث ماعرف الشرق من مطابع الجرائد اليومية وآلاتها . وإنما أقدم على شرائها خدمة للصحافة المصرية ، وحرصاً منه على أن يبلغ بها مبلغ الكمال . لقد خانه التقدير ، ولكن لم يخنه الضمير . لقد نزل عن تلك المطابع والآلات للدائنين . ونزل لبنك مصر الذى أعانه على شرائها ، عن أرض واسعة للبناء فى أحسن أحياء الجيزة — ولكنه لم ينزل قط ، ولن ينزل أبداً ، عن جوهر الأخلاق التى آمن بها وحاضر فيها طيلة أيام العمر . ولو شاء أن يضحى بذمته فى سبيل جريدته ، لكان اليوم فى عداد الأغنياء ، ولظل الجهاد فى عداد الأحياء ولكان غنى أشرف منه الكفاف وحياة أكرم منها الموت . عند الله ، وعند الناس ، نفسى — وبحسبي اليوم أن تكون الذكريات مصدر سعادتى ومدد ما بقى لى من أيام : « وأدت جريدتى »

١٠ — من تجارب لطفى جمعة

الصحافة المصرية مدينة فى تقدمها للسياسة الوطنية لأن اللغة لا تزدهر إلا إذا كان للكاتب هدف يرمى إليه وغاية يقصد إليها لأن ، الكتاب عندما اتجهوا إلى السياسة أخذوا

يعنون بالمعانى ويعولون فيما يكتبون على الأفكار بعد عهد التعويل على الألفاظ ، كان مصطفى كامل صحفياموهوبا ولما دعا بأسرار هذا الفن حتى لا يكاد يجاريه أحد فى عصره من مواطنيه وحتى تغلب فى الصناعة على شيخ المؤيد ودحره ورد مكايده فى نحره، فأسس اللواء جريدتين أخريين إحداهما بالفرنسية والثانية بالإنجليزية وكانت الثلاث تظهر كلها فى يوم واحد .

وقد كتب موريس كولزا محرر الجنرال وتجيب فى سنة ١٩٠٧ أن مصطفى كامل يرغم كرومر على الإفطار بجريدة أجبشيان استاندار ويعذبه باللواء العربى ويعشيه بالاستندار اجبشيان . وكانت الدوافع الشخصية ذات أثر قوى فى حياة الصحافة فى العقد الأول من هذا القرن ، فشغل شيخ المؤيد على حضانته وسمة حياته بقضية الزوجية فالهته عن حرفته وسياسته . كما اتجه المرحوم محمد أبو شادى بك بجريدة الظاهر نحو مشاركة الأستاذ الإمام محمد عبده حتى تطاول على شخصية بتهم كاذبه كافتعال الفتاوى المزعومة كالموقوذة وإباحة استعمال القبعة للمسلمين فى جنوب أفريقيا ، وقيل إذ ذاك أن أبو شادى مدفوع من الجالس على الأريكة الخديوية وطامع فى الألقاب كما انقطعت بعض الصحف للدفاع عن الاحتلال ومقاومة تيار الوطنية الجارف .

دخائل الصحافة

فى مرحلة ما بين الحربين

ما كادت الحرب العالمية الأولى أن تتوقف حتى بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ مصر ، كان أبرز معالمها « ثورة ١٩١٩ » وطلب الاستقلال ، وكانت الصحافة مرآة هذه الحركة : وهذه هى الصورة : صورة الاستقلال ١٩٢٣ والصحافة :

« كانت ثورة ١٩١٩ ذات أثر فى الصحافة ، وكانت الأغانى كان التمثيل من وقود الثورة ، كان الشعب يقابل هذه الأغانى بحماسة وإعجاب « مصر العزيزة للمصريين ، وحبها للوطنيين ». و « ياعم حمزة، إحنا التلامذة واخدين على العيش الحاف والنوم من غير لحاف » وكان محترفى الغناء والإنشاء يحورون أغانيهم القديمة ويبدلوها مسايرة لظروف الحركة الوطنية . وظهرت عشرات المقطوعات التى تدور حول الحرية والاستقلال وكذلك التمثيل . والروايات كلها كانت تدور حول حب الوطن والاستشهاد فى سبيله ولما اشتدت الرقابة على المسارح ولم يبق فى استطاعتنا ارضاء الجماهير، كانوا يقحمون الروايات الأخرى اقحاما وكان كثير من الممثلين يشيح بسمعه عن الملقن فى أثناء قيامه بدوره ثم يرتجل كلاما آخر ليس من صلب الرواية .

وكانت كتابات الصحف حارة : سنيوت حنا يواصل الكتابة الحماسية فى جريدة مصر ، سيد على فى جريدة النظام : حملات على الاستعمار ، محمود عزمى (المحروسة) : عبد الباقى سرور نعيم ، مصطفى لطفى المنفلوطى فى جريدة الأفكار وفى شتى الصحف رسائل من باريس — عبد الرحمن البيلى ، مجد الدين ناصف وكانا يحرآنها (البيلى وناصف) جريدة مصر توزع بمقالاتها الوطنية فى القاهرة وحدها ما يربو على عشرة آلاف نسخة من العدد الواحد ،

زعماء الشباب : عبد الرحمن الجديلي الطالب بمدرسة القضاء الشرعي ، زكى مبارك ينظم كثيرا من القصائد الحماسية ، منيرة المهدية تخلط أغانيها الهزلية بالأناشيد الوطنية .

ويقول فكرى أباظه أن لغة الصحافة كانت مهشمة مهدمة قلقة ، أما اليوم (١٩٢٤) فاللغة سليمة صحيحة راسخة ، وكان أسلوب الصحافة أمس أسلوبا وضيعا ركيكا يحتاج لعمليات ترميم وتعمير ، أما اليوم فالأسلوب منسجم واضح كله ذوق سليم لا ينفر منه الطبع ، وكانت موضوعات الصحافة أمس موضوعات سخيفة جوفاء ، أما اليوم فالموضوعات قيمة مفعمة بالآراء والابتكارات والاستنتاجات . اقرأ جرائد الأحزاب السياسية المتشادة واعمل احصائية اذكر فيها عدد الشتائم العتيقة والعصرية وعدد الأكاذيب العمومية وعدد المغالطات النقلية والاستنتاجية ، أنك إن فعلت وأقدمت على هذه الإحصائية الصحفية الأخلاقية إحتجت لمصلحة إحصاء تتم العمل فى عام مهما حشدت لها من جيوش العمال والدفاتر والأقلام والمحابر .

تقدمت الصحافة حقا فى فرع الروح ، وابتكرت فى عالم الهجاء فنونا لها قواعد وأصول ، وأية أخلاق مهما بلغت المتانة والرسوخ تستطيع أن تستمر فى متانتها ورسوخها وهى تتلقى فى كل صباح ومساء دروسا متجددة مستمرة ، متدفقة فى السب والطعن والتجريح والتشهير . سئمنا ، سئمنا وبدأنا نشعر بميل إلى الوقاحة تحت ضغط التقليد والعادة ، وتحت تأثير الدروس النهارية والليلية من كتابنا الأفاضل ومحررينا المعلمين ، تلك هى النواحى السوداء المحزنة القائمة من نواحى التقدم الصحفى اليوم » .

٢ — ولكن هل كانت الصحافة بعد ثورة ١٩١٩ صحافة وطنية مائة فى المائة، الواقع أن الدكتور هيكل لا يرى ذلك ويقول أنه كما جرف تيار الرأى العام الرجعية وجعل الحرية المطلقة لايفيد منها غير الاعتبار القومى ، كذلك جرف الصحافة ودفع

بها جميعا لمناصرة النهضة الإجتماعية ، وأنه ليأخذك العجب ، إذا حاولت أن تقارن بين صحافة ١٩١٩ إلى ١٩٢١ وبين هذه الصحافة نفسها فيما تلا ذلك من السنين . خضعت الصحافة إلى تيار الرأى العام يومئذ وجعلت تغذية وتقوية وتمهد له أسباب سلطانه وسيادته ، ولو أنهم — أى الزعماء — أولو النهضات الاجتماعية ماهى جديرة به لاستمرت مظاهر النشاط الإجتماعى ، ولكن هؤلاء الزعماء ألفوا أنفسهم بإزاء قوى سياسية إضطرتهم أن يحصروا نشاطهم فى الميدان السياسى وأن يتركوا الميدان الإجتماعى يغذى نفسه ، بل لقد حاولت القوى السياسية المختلفة أن تستغل النشاط الإجتماعى لفائدتها .

وكثيرا مافكرت أنا كصحفى فى هذا وفى الواجب الذى يجب على أن أقوم به ، ولكننا معشر الصحفيين نرى الجمهور منصرفا إلى الناحية السياسية إنصرافا يجعله يمر على ما سواها من غير أن يأبه له ، ثم أن السياسة دخلت فى مصر فى كل شىء واخضعت لسلطانها كل شىء ، وكل طائفة من الطوائف حتى من لاصلة لعملهم قط بالحياة السياسية .

٣ — ويفسر زكى عبد القادر إتجاه الصحافة فى فترة مابين الحربين حين يقول : كانت الصحافة حينئذ فيما عدا الأهرام والمقطم صحافة حزبية تقوم على الصراع الحزبى وتتغذى منه بتلقى إعانات من الأحزاب ولا تستطيع أن تعيش بغيرها وبتلقى إعانات من الحكومة إذا كانت من الحزب الذى ينتمى إليه وبتلقى صفعات منها إذا كانت معادية لها ، فهى من حيث الفن الصحفى لم تكن تعنى به ولا تلق بالها إليه . كانت النزعة الحزبية هى الغالبة ، كان من واجبها من حيث القيمة الصحفية أن تعنى بالأخبار والتحقيقات الصحفية وتحدد وجودها وتحقق تطورها .

ولكنها فى الواقع لم تكن تعنى بالأخبار العناية الواجبة ، كانت المقالات السياسية من أهم مادة تشمل عليها ، وكان الكتاب السياسيون هم أهم الشخصيات فى الجريدة .

ومن عداهم مساعدون تافهون ، يمكن الاستغناء عنهم، كانت الجريدة تباع حينا تباع بسبب كاتب سياسى معين أو كتاب سياسيين معينين ، فى البلاغ عبد القادر حمزة وعباس العقاد رفى كوكب الشرق أحمد حافظ عوض وفى الكشكول سليمان فوزى وفى السياسة هيكل وعزمى . . جريدتان فقط لم تكونا تعتمدان فى البيع على الأسماء أو على الحزبية هما الإهرام والمقطم . وكانت الصحافة الحزبية كل واحدة منها تنشر مقالين سياسيين أحدهما فى صدر الجريدةوالأخرى فىوسطها ، عدا أعمدةصغيرة أولمحات هناوهناك لا تخلو من الطابع السياسى ، وفيما عدا ذلك كانت الأخبار تأتى فى الصف الثانى أو الثالث ، كانت الجريدة لا يعنيها أن يفوتها خبر مادامت تحمل المقالات السياسية الحاسمة النارية المفعمة بالألفاظ الضخمة والعبارات الحماسية والشتائم المنتقاه . كتب العقاد يعارض هيكل ذات مرة فلم يعرض لمقاله ولكن عرض لشخصيته ولمح تلميحا بل صرح تصريحا بأن هيكل كتب ما كتب وهو غير واع ، كان فى غيبوبة اشتهرت عنه حينئذ .

٤ — من هنا ترى أن صحفيا لامعا كابراهيم المازنى يتمنى فيما لو بدأ حياته من جديد أن يكون بائع طعمية :

« نعم : أننى أختار أن أكون بائع طعمية . حقا لو بدأت حياتى من جديد لما احترفت حرفة الصحافةفى مصر ولفضلت عليها بيع الطعمية وفتحت دكانا كدكان (أبو ظريفة) أبيع فيه الطعمية والفول والمدمس ، وثق بأننى سأكون أحسن حالا مما أنا فيه الآن ، وربما فقت أبا ظريفة وأمثال أبى ظريفة من بائعى الطعمية والفول المدمس الذين تروج بضاعتهم فى مصر أكثر من رواج الأدب ولا يعانون عشر معشار ما يعانيه الأديب ، وأنا على اعتقاد بأنى سأنجح فى هذه المهنة التى أرى أصحابها أحسن نجاحا وأوفر حظاً من الأدب وسأستطيع أن أقدم لزبائنى طعمية جديدة وفولا نظيفا ، وسيصبح اسم المازنى علما على بائع طعمية وفول مدمس مشهور ، بدل أن يكون علما لاديب لايجنى من وراء أدبه

إلا الشقاء الدائم ولا يجد من الجزاء ما يتناسب مع المجهود ، مادام بائع الطعمية أروج حالا من الأديب فى مصر ، فلماذا لا أطلق الأدب ولا أتخذه حرفة للعيش ، ولماذا لا أفتح «أبو طريفة» . أجمل زبائنى من أصحاب المعدات بدلا من أن يكونوا من أرباب الأذهان وقد وجدت بالتجربة منذ عشرين سنة أن تغذيتى للاذهان لم تفد .

٥ — ومن أجل هذا نرى « مصطفى صادق الرافعى » يفضل الوظيفة على العمل فى الصحافة .

لماذا آثرت الوظيفة : إنما أثرت الوظيفة على الصحافة لأن الصحافة عندنا هى عمل اليوم والساعة ، والجمهور هو الذى يصرفها بحسب أهوائه ونزعاته ، فالصحافة مقيدة بأوهام أكثر مما هى مقيدة بحقيقة نفسها ، وذلك كله بعيد عن حقيقة الأدب بمعناه الصحيح ، فإنه ينظر إلى الوقت الدائم لا الوقت العابر ، ويراد به معنى الخلود لامعنى النسيان ، ولا يقتل النبوغ شىء كالعمل فى الصحافة العربية فإن أساس النبوغ العميق والتغلغل فى أسرار الإسناد أما الصحافة فلها أساس غير هذا . وعلى من يدخلها أن يكون تاجا من تيجانها لا خرزة من خرزاتها . ويكون أشبه بالمنارة القائمة تلقى أشعتها فى أعلى الجو على مدى بعيد من الآفاق .

٦ — ويروى حسن شفيق المصرى كيف كان الكاتب يستطيع أن يكتب أى شىء ليسد به فراغا حين يقول :

من ذلك حادثة حريق الآستانة وينسبونها إلى المرحوم الشيخ الشربتلى ، تفصيل الحادث أن الصحفى الذى أقدم على تلك الكذبة وجد نفسه فى حاجة قصوى إلى عمود يملؤه من جريدته، ولم يكن عنده أخبار ينشرها أو حادث يعلق عليه ففكر مليا ، ثم جعل يكتب يصف حريقا وهميا قال أنه شب فى الآستانة ، وانطلق بذكر التفاصيل وكيف اندلعت ألسنة النيران فالتهمت المنازل ، وجاء رئيس العمال وقال : الحريقة لم تستغرق أكثر

من ثلاثة أرباع العمود فكيف السبيل إلى ملئه إلى النهاية ، وكتب الصحفى بقية العمود لتكذيب الخبر الذى إستغرق ثلاثة أرباع العامود .

فى أثناء حرب البلقان كان « أبو المنيين بدر » يصدر فى مصر جريدة الأفكار التى كانت تزاحم المؤيد وكان يحرر فى الأفكار حسين شفيق المصرى . فجاءت جريدة « الأفكار » تنشر كل يوم طائفة من التلغرافات الخصوصية والرسائل البريدية تصف فيها تقدم الجيوش العثمانية إلى الأمام واكتساحها الأقطار وعدد القتلى والجرحى من البلقانيين بتوقيع مراسل الأفكار الخاص « اسلانكى زاده بك » وأقبل الجمهور على الجريدة إقبالا عظيما وصار الناس يتخاطفونها فى الشوارع إلى حد أن الشيخ على يوسف صاحب المؤيد تضايق وراح يدعى أن برقيات الأفكار مزودة لا أصل لها . ولكن هذا لم يمنع الجريدة من المضى فى نشر برقياتها . وبلغ فى النهاية عدد الذين قتلتهم برقيات الأفكار من البلقانيين ضعف سكان أوربا على الإطلاق .

٧ — ويتصل بهذا جانب الحياة الصحفية الخاصة مايجد بعض الصحفيين من قسوة فى الحياة: يقول توفيق حبيب: أنه حكم صارم قاسى، لا أدرى متى يتغير أو يتعدل ، هو الحكم على المشتغلين فى تحرير الصحف أن يعيشوا فقراء ويموتوا فقراء ، فقد يعيش بعضهم منها فترة من الزمن ، ولكن إذا أقعده المرض يوما فلابد أن يمد يده سائلا الدواء والقرش للعيش . . ، وهكذا كان الحال قديماً وهكذا الحال حديثا مع مادخل عالم الأدب والصحف من تطورات ، فمنذ خمسين سنة نعى بشاره تقلا كاتباً معاصراً هو « محمد أنسى » فقال : بمزيد الأسف أفيدكم أن المنية قد اغتالت فى الليل الفائت المرحوم أنسى مدير المكاتب الأهلية ، توفى على أثر داء الفالج فلم ينجح به دواء ، وقد خلف الأسى كل من عرفه وعلم سمو مكانته من التهذيب والعلم ، فقد رضع أفاويق العلم من المرحوم والده « عبد الله أبو السعود »

منذ الصغر فتمكن من العلوم واللغات ونشأ على مبادىء والده، فخدم الأدب خدمة شريفة ألف وطبع كتبا عديدة فى مطبعته وأنشأ أكثر من جريدة وسافر مراراً إلى أوربا . .

أما دفنه فجرى صباح اليوم كما يليق بمقامه إذا مشى وراء نعشه(١) عدد عديد من ذوات الحكومة والموظفين والأعيان وأمامه فريق من البوليس وكلهم يردد جمل الأسف على فقده ، وأننا فى هذا المقام نلفت أنظار الحكومة إلى رعاية عائلته وأطفاله فهى تعلم حق العلم أنه وأباه من قبله خدماها باخلاص واستقامة » وعلق الصحفى على المجوز على الخبر بعد خمسين عام فقال : ومضى خمسون سنة ونحن نرى الفيلم يتكرر ، مات الشيخ رشيد رضا صاحب المنار ، الرجل الذى ملأ الدنيا كتابة وأصدر نحو أربعين مجلدا من المنار ومجلدات فى شرح القرآن وطبع عشرات المجلدات من كتب قديمة وحده ، كان يطبع ويخزن فترك مخازن مشحونة بأكداس من هذه الكتب ، ولقد كنت أعتقد كما يعتقد غيرى أن الشيخ رشيد مات عن بضعة ألوف من الجنيهات مما جناه خلال رحلاته إلى الهند والسند واليمن والبحرين ، والتدخل بين الإقيال والمهارجة والسلاطين والأمراء واللعب على مسارح السياسة الشرقية ، والدعاية للحركة العربية واللامركزية والدستور العثمانى وغيرها ، فلما مات انكشف الغطاء ، إذ هب الزملاء والرصفاء العارفون حقيقة الرجل فأعلنوا خبيئته وبؤس عياله . قالوا : أن الرجل شيد بيتا لا ليسكنه ويدمم فيه بل ليأوى إليه ما كينات الطباعة وصناديق الحروف والدشت وغير الدشت من رمم تسمى كتبا ، هذا البيت على ما قاله عارفوا الشيخ مرهون على ألف جنيه يحل فى الشهر القادم قسط منها قــــدره ثلاثمائة جنيه . . الخ . .

---

(١) عن الهامش - ٢٠/٤/١٩٣٦ - الاهرام

٨ — ويصور سلامه موسى فى تشاؤم ما وصلت إليه الصحافة بين الحربين فيقول :
أما الصحفيون فهم كالجنود المرتزقة لا تحارب إلا مع القائد الذى يدفع لها الأجر الأكبر ثم هم لا يفيدهم شيء أن يعملوا بعد ذلك فى صفوف أعدائه يصوبون إليه السهام التى دافعوا بها . فالمقطم مثلا لا تستحى أن تعلن فى مكان بارز منها أنها صحيفة حكومية وأنها دائما مع الحكومة القائمة مهما كان لونها السياسى وهى حين تفعل ذلك تتغفل ذلك الشعب الذى يمد يد المعونه للمقطم ليصبح كل يوم أقوى على معاداته والكيد له . .

والأهرام هى الأخرى تقلب الوفد ظهر المجن كلما سقطت وزارته ثم يقصد إليها جمهور متحمس الهيئة وباقى الأستاذ العقاد خطبة فيكشف عن عورته لرجال الصحيفة الرقطاء استخفافا لهم وتحقيرا ، وحين تهب جريدة السياسة للدفاع عن زميلتها تروح الأهرام تتمسح بالقراء وتترضاهم .

وللأهرام آية أخرى تستحق من أجلها الإعراب لأنها ترتكب ضد وطنها ومقيت أرومتها الخيانة العظمى ، وذلك إنما ما فتئت توجه إلى استقلال سوريا سهامها المسمومة بل للأهرام آية أخرى فهى تنافق المسلمين فى رمضان حتى تخصص مكانا فى أظهر أعمدتها لنشر حديث متتابع عن الصوم والصلاة والزكاة ، حتى ليظن القارىء أن داود ركات وآل تقلا جميعا قد ارتضوا الإســـــلام دينا أو أنهم من خريجى قسم التخصص فى الأزهر الشريف .

أثر «الاحتلال» فى الأدب والصحافة

إستعرض الدكتور زكى مبارك أثر الاحتلال فى الأدب والصحافة فقال : كان احتلال الانجليز لمصر صدمة قوية أيقظت ما عفا من العقول والقلوب والأرواح ، وكان عسف المحتلين وتلونهم وعبثهم وإستهانتهم بكرامة الرجال ، كل أولئك مما أحفظ رجال القلم وآثار الضغينة والحقد فى أنفس الشعراء والكتاب والخطباء والمفكرين ، والأدب لا قوام له إلا النوازع القوية من حب وبغض ورجاء ويأس ، وعطف وحقد ، وقد ذاق المصريون فى عهد الاحتلال جميع الألوان النفسية ، أفتظن أن ذلك يقع دون أن يترك أثراً قويا فى أنفس الكتاب والشعراء ، العنصر الأول من حياة الأدب هو الحرارة والصدق ، كان أقوى ما بنى عليه الأدب المصرى فى عهد الاحتلال .

ونحن قد صحت لنا بفضل الاحتلال أيام فورة وغليان تركت لشعرائنا وكتابنا صفحات من الأدب سيكتب لها الخلود ، وفى هذا دليل أننا لم نستقبل ظلم انجلترا مستسلمين وإنما قارعناها بعزائمنا وعقائدنا ، وفرضنا عليها أن تنتظر بعد خمسين عاما ، فلا تجد لها فى مصر إلا ما دخلت به من أسنة وحراب ، وهذا كله بفضل ما فعلت أسنة الأقلام ، لأن الأيام لم تمكنا بعد من المعركة الفاصلة من أن نشرع فى وجهها رمحا ، وانما وقفنا نحاربها بأقلامنا وأفكارنا ثم أن هذه النهضة قد إقيمت فى وجهها ألوف الأسداد والحصون ، ووضعت فى طريقها ألوف العقبات والعراقيل ، ثم استطاعت مع ذلك أن تكتسح كل ما أعترض سبيلها أو وقف فى وجهها .
من أشتات المظالم يصوبها المحتلون وأشياعهم إلى حملة الأقلام وأرباب الفكر والبيان .

وجهدت انجلترا فى صبغ تعليمنا بالصبغة الرسمية لتقف آمال المتعلمين منا عند كتابة الدواوين ، فهل أفلحت . كيف ونحن الذين أنشأنا الجامعة المصرية بأموالنا وغذيناها بالنابهين من طلابنا وأساتذتنا . ونحن الذين رفعنا الصحافة العربية إلى مقام لا يفضلها

منه من الصحف الأوربية إلا القليل ، ونحن الذين أعزرنا القلم وسمونا بالبيان ولو شئنا لـكاثرنا الانجليز أنفسهم بكتابنا وشعرائنا ومفـكرينا .

كان المحتلون يتشاءمون دائما من الروح الأدبية وكانت الحـكومة تجاملهم، فلا تتوجه إلى كاتب أو شاعر بعطف أو تشجيع ، فهل قضى ذلك الاهمال على الأدب ، وهل منع مصر من أن يقوم بالدفاع عنها أدباء أوفياء يلقون الأذى فى سبيلها باسمين ، عجز المثلون عن قتل حرية الرأى والقول ، ولـكنهم نجحوا نجاحا مبينا فى أن يشغلونا بأنفسنا ، وأن يوجهوا جهود أدبائنا إلى أشغال الفتن الأهلية، فان نصف ما أنتجه شعراؤنا وكتابنا وخطباؤنا قد وقع فى هاوية النزاع والشقاق ولو ذهبنا نستقرى الجيد الممتع من أعمال الـكتاب والشعراء والخطباء لرأينا أظهر جوانبه ما أنشأه منشئوه فى إيقاد الأحقاد الحزبية والدعوة إلى تمزيق الوحدة وتفويق الصفوف ، وأنه لمن الحزن أن تقرر أن هناك آثار أدبية كثيرة كانت كلها تجريحا فى أعمال مصطفى كامل وسعد زغلول ، وتلك الآثار ستظل حية باقية لما فيها من الحرارة والقوة ، وهما أساس حياة الآداب ولـكنها ستظل كذلك شاهدا على أن المصريين أو فريقا منهم وقعوا فريسة لألاعيب المحتلين ، ولا يمكن أن ننسى أن الانجليز كانت لهم يد خفية ، فما ثار فى مصر من المناوشات الأدبية والدينية والاجتماعية ، وهذا كلام يبدو غريبا لأول وهلة ، ولـكن الذى يدقق النظر يراه عين الصواب ، فمن مصلحة الانجليز أن تحيا العصبيات فى مصر وأن تتعدد فيها المذاهب الاجتماعية والدينية ، ألم يعلنوا حرصهم فى كل مرة على حماية الأقليات .

أنهم ليودون أن تصبح الديار المصرية كالأقطار الشامية مسرحا لعشرات المذاهب والديانات ليتم لهم ما يبغون من إضرام الفتن بين رجال الدين ورؤساء الأحزاب ، وأن القراء ليذكرون الفتن التى قامت مرة قبل الحرب ، وكان فيها مؤتمر للمسلمين فى مصر الجديدة ومؤتمر للأقباط فى أسيوط ، وكانت تلك المؤتمرات بالفعل مظهراً من مظاهر الحياة الأدبية

أنشئت فيها خطب ورسائل وقصائد ستطيل ذكراها باقية فى تاريخ الآداب ، ولكنها ستظل كذلك شاهدا على أن الانجليز شغلوا المصريين بأنفسهم حينا من الزمان . أن انجلترا لا تلعب ولكن المصريين يلعبون فى بعض الأحيان ، والأدب مع الأسف بطبيعته كفن من الفنون قد يكون من أدوات اللعب عند الرجال . وهم حين يفعلون ذلك أطفال كبار ، لقـــد شغلنا الانجليز بأنفسنا مافى ذلك ريب واستطاعوا أن يوجهوا جانبا من أدبنا إلى أحياء الفتن الأهلية فلننظر إلى جانب هذا ما استطاعوا بقوتهم أن يصرفونا عنه من فنون الآداب .

لقد صرفنا المحتلون عن درس ما وقع لنا فى عهدهم من البلايا وحرموا الأدب المصرى من إستغلال تلك الموارد التى تبعث حرارتها روح الصدق فى الأدب (التل الكبير ـ دنشواى ـ حادث العزيزية) ومضت رقابتهم تتعقب كل ما يكتب فى بث الروح الوطنية وأصبح من المتعذر على الأدباء من الموظفين وهم جمهور كبير أن يكتبوا أو ينظموا فى الشؤون القومية .

ولو عن طريق درس الأخلاق وصار من الممكن فى عرف بعض الموظفين فى وزارة المعارف أن يؤلف كتابا فى التربية الوطنية ، حتى إذا جاء إلى العصر الحديث وأنظمته أشار بجميع الأسماء البارزة وترك سعد زغلول ، وينهانا الذوق عن تعيين من فعلوا ذلك ، وحسب القارىء أن تقسم له أن هذا وقع من موظفين أدباء كان ينتظر أن يترفعوا عن مثل هــذا الاسفاف، والموظفون من الأدباء يقدمون لنا أظهر الشواهد على أعمال المحتلين، لأن الموظفين عندنا هم العنوان الظاهر على طبقات المتعلمين وهم كذلك نموذج لمن استقرت حياتهم المعيشية وأصبحوا قادرين على خدمة وطنهم فى نزاهة وإخلاص ، افتراهم استطاعوا أن يحرروا أقلامهم لخدمة الوطن عن طريق الدراسات التاريخية والأدبية التى تغرس العزة القومية فى النفوس ، أم تراهم انصرفوا إلى شؤونهم الخاصة واكتفوا بالقيل والقال فى ابهاء القهوات لأن المحتلين راضوا الإدارة الحكومية على الذل والمسكنة وحببوا إليها القناعة

والخمول . لقد درج الناس فى مصر على هذه القاعدة المشئومة ، وهى أن لا صراحة ولا قدرة لموظف على كلمة الحق ، وقد عرف الانجليز كيف يروضون فريقا من الكتاب على الرضا بهذا الحظ المنحوس ، وفى مقدورنا أن نسمى عشرات من الأدباء اشترت ألسنتهم الحكومات المختلفة وقبرت مواهبهم فى مكاتبها واقنعتهم بأن المرتب الثابت أجدى عليهم من شرف العمل لتحرير البلاد .

وليت الأدباء من الموظفين توجهوا إلى الدراسات الانسانية حين عزت عليهم الدراسات القومية ، أنهم لو فعلوا لأصبحوا أساتذة لكبار من أمم الشرق ، ولكن الدولاب الانجليزى أراد أن يديرهم إدارة سوفية ، حيث يمسون ويصبحون ، ولاهم لهم إلا العلاوات والترقيات فضلا عما ابتلوا به من الشلل العقلى الذى صيرهم أداة صماء فى أيدى الرؤساء والوكلاء .

كان عهد الاحتلال خيرا للأدب من حيث الصورة ، لقد انطلقت السنة كثيرة وشحذت مواهب عديدة ولكنه كان شرا من حيث المعانى والأغراض فقد شغلنا الانجليز بأنفسنا وحولوا أدبنا إلى مناوشات حزبية وصرفونا عن الدراسات القومية والانسانية .

صناعة الأخبار

برزت في صحافة ما بين الحربين أهمية « الخبر » ، فقد أخذت الصحافة تعنى به وتوليه اهتماما كبيراً، وأصبح فى الدرجة الأولى من مواد الصحيفة، وقد صور أحد الصحفيين العاملين فى ميدان الأخبار أهمية هـــذا العمل فقال : تزداد مهمة المخبر الصحفى مشقة وتعقيدا فى ظروف تعتبر الوزارات أو ما كانوا يطلقون عليه « الانقلابات السياسية » وعندما تصبح الجريدة أو المجلة التى تعمل فيها معارضة لسياسة الوزارة القائمة فى الحـكم ، عند ذلك تتضاعف الصعوبات . ومن الرياء السياسى الأليم فى مصر أنه فى الوقت الذى يعانى فيه مخبرو الصحافة المعارضة للحكومة أشق المصاعب فى تسقط الأخبار والأنباء ، تفتح مكاتب كبار الموظفين على مصراعيها لمخبرى الصحف الموالية . ومن التجارب الأليمة التى وقعت لـكاتب هذه السطور أنه كان يعمل فى جريدة يومية تنطق بلسان هيئة سياسية كانت هى القابضة على زمام الحـكم حينذاك فـكان لا يجد أى صعوبة فى جمع الأخبار لجريدته كانت الأبواب المغلقة تفتح له ويتلقاه كبار موظفى الدولة بالترحيب والمجاملة .

وتغيرت الأحوال السياسية فجأة وأقصيت الهيئة السياسية التى تنطق هذه الجريدة بلسانها عن الحـكم وأعقبتها هيئة أخرى تضمر لها الحقد والعداء ، ففى ليلة وضحاها تنكر له أو تظاهر بالتنكر كبار الموظفين وصغارهم ممن كان يعتمد عليهم فى جمع الأخبار والأنباء ، واضحى الواحد منهم لا يتحدث إليه إلا وهو يتلفت يمنة ويسره ، خشية أن يراه أحد فيشى به إلى الوزير أو المدير، وتلقيت يوما رجاء من صديق حميم لى من الموظفين الذين كانوا من المصادر الهامة لأنبائى وأخبارى إلا أزوره فى مكتبه رحمه به لأنه صاحب عيلة (وعايز يربى أولاده) ورأيت أن الموظفون على دين وزرائهم ، وهم يتحاشون أن أتصل بهم خوفا من وزيرهم ، فلأتصل بالوزير ولأجرى معه حديثا أو حديثين ، ومتى رأى الموظفون أن وزيرهم يستقبلنى ويفضى إلى عما أسأله ، عنه فانهم ولا شك سيحذون حذوه ، وبعثت ببطاقتى إلى

معالى الوزير مع سكرتيره الخاص ، فلم يلبث أن دعانى إلى مكتبه ورحب بى وأكرم وفادتى وأدرت دفة الحديث بلباقة وكياسه حتى اطمأن الوزير إلى أن زيارتى إنما هى زيارة صحفية بريئة ، وأجابنى عن كل ماسألت ، واستأذنت فى نشر ما أفضى به إلى فى صيغة حديث فأذن لى فى ذلك ، ونشرت الحديث فى اليوم التالى كما هو بدون تغيير أو تبديل وبعد أيام أعدت الكرة مرة ثانية ، نجحت الفكرة وتفتحت لى الأبواب المغلقة ولم يعد الموظفون يخشون إستقبالى فى مكاتبهم والإفضاء إلى بما عندهم من أنباء .

(٢) المخبرون فى الصحف اليومية

ويتصل بهذا عمل الصحفيين وهذه صورة دقيقة عن هذا الموقف :

كان وضع المخبر الصحفى أقل شأنا من أى كاتب بالجريدة حتى ظهرت جريدة السياسة فى ٣١ أكتوبر ١٩٢٢ وكان القائم بأمرها الدكتور حافظ عفيفى فرتب لهذه الجريدة قلما خاصاً بالاخبار جعل رئاسته للمرحوم سامى قصيرى أقدم من اشتغل فى هذه المهنة ، وكان حتى تلك السنة مرتب الخبر الأول فى القطم (١٥ جنيه) فأعطته السياسة (٣٥ جنيه) وكان قسم أخبار السياسة مؤلف عام ١٩٢٧ من عزيز طلجة وزكى عبد القادر وعلى بلبع ومحمد فهمى يوسف ومحمد خالد حتى عام ١٩٣١ التحق على بلبع وزكى عبد القادر بالشعب . وعزيز طلجة ومحمد فهمى بالجهاد ومحمد خالد بالأهرام .

أما الأهرام فكانت مرتبات محرريها قبل ظهور السياسة قليلة : رئيس القسم نجيب هاشم . وله حوادث صحفية مع كبار رجال الدولة خلال ثلاثين ٣٠ عاما وكان مساعده صالح البهنساوى .

(٣) فى مايو ١٩١٩ أعلنت نقابة الصحافة وشكلت من :

جبرائيل تقلا (صاحب الأهرام) نقيبا : أمين الرافعى (الأخبار) الوكيل ، سيد على (الأفكار) سليمان فوزى : أمين الصندوق ، جندى إبراهيم (الوطن) سكرتيرا وعضوية

داود بركات (الأهرام) تادرس شنوده (مصر) حامد إبراهيم ، رشيد رضا (المنار) خليل ثابت (المقطم) أميل زيدان (الهلال) .

(٣) بطاقات الصحفيين .

وفى ١٩٢٩ أعدت وزاره الداخلية بطاقات للصحفيين لتسهل أعمالهم .

٤ — أخبار الأقاليم

أولت الصحف فى هذه المرحلة إهتماما لأخبار الأقاليم ، وهذا تقرير عن هذا القطاع: كيف تغذى صحفنا اليومية بأنباء الأقاليم والريف المصرى وهى غاصة كل يوم بهذه الأنباء ، وهل هى تعين مراسلين خصوصيين مأجورين لموافاتها بأخبار تلك القرى الصغيرة . أن لكل جريدة من الجرائد اليومية الكبرى وكيلا أو مراسلا فى الإسكندرية وهو يتقاضى أجراً على القيام بهذه المهمة ، أما مراسلو الأقاليم فالقاعدة المعمول بها أنهم لا يتقاضون من الصحف التى يراسلونها أجراً معينا ولكنهم يتقاضون الأجر محليا من البلاد التى يعملون بها . وتعينهم الصحف فى الحصول على هذا الأجر بنشر أنباء قد لا تهم الصحيفة ولا قرائها ولكنها تهم المراسل النشيط وتعود عليه ببعض الخير ، ولهؤلاء المراسلين أسلوب خاص فى كتابة الأخبار وهو الأسلوب المفيد الذى يعوضهم عن الأجر . فقد تسرق جاموسة أحد الزارعين ويبادر المراسل إلى إرسال الخبر إلى الصحيفة فى ديباجة رائعة عن إستتباب الأمن فى البلدة بفضل حضرة صاحب السعادة مديرنا الهمام الذى لا يفتأ ينصح العمد والمشايخ والمأمورين بوجوب الحرص على مصالح العباد وبعناية سعادة وكيل المديرية الذى اقتبس هذه المكارم من مديرنا الحازم .

وحضرة الحكمدار الذى اهتم بالحادث اهتماما خاصا وأصدر تعليماته الثاقبة إلى حضرة المأمور الذى لاتغفل عينه عن مراقبة إطراد تقدم الأمن والذى جمع الضباط ورسم لهم خطة العمل وطريقة القبض على الجانى الأثيم،فاستطاعوا بفضل هذه الخطة الرشيدة إلقاء القبض

على السارق إذ ضبطه أحد الجنود مختفيا فى إحدى المزارع ، كما ضبط خفير الناحية الجاموسة المسروقة ضالة فى إحدى الطرقات ، سلسلة طويلة يجب أن ينمق بها صدر كل حادث مهما كان تافها ، وعدالة فى توزيع الثناء على رجال الإدارة فى كل مناسبة .

(٥) مالا ينشر فى حينه .

هل كل ما يعرفه الصحفى ينشر أم « لا » .

هذا سؤال محير كان موضع البحث فى خلال هذه الفترة : أجاب عليه فكرى أباظه فقال : أدلى إلى أحد الوزراء بحديث خطر عن بعض الشؤون التى كانت تشغل الأذهان فى تلك الأيام وأرسلت الحديث المطبعة وأعد للنشر . ولكن حدث قبل الشروع فى طبع الجريدة بنحو ربع ساعة أن إتصل بى ذلك الوزير ، وقال : أرجوك لا تنشر الحديث . وكان الحديث قد أدرج فى صحيفة الاخبار والصحيفة معدة للطبع . وشعرت فعلا أنه متضايق فاتصلت بالجريدة وقلت عندكم حديث لوزير (كذا) إحذفوا عبارة أنه حديث مع فلان وقولوا أنه حديث مع بعض المشتغلين بهذه الشؤون .

(٦) أثر السوريين فى الصحافة

كان دور الصحافة السورية فى الحركة الوطنية هاما وخطيراً خلال هذه المرحلة فإلى أى حد كانت الصحف السورية الراسخة تخدم الحركة الوطنية وفى هذا كتب سلامه موسى فيقول :

ما زالت الصحف التجارية السورية التى تنزع نحو السياسة التجارية تتفوق على الصحف المصرية وتطردها أحيانا من الميدان ، ولكن ليس هذا لكفاية أصحابها وإنما لظروف سياسية تقتضى بهذا القضاء على بلادنا .

مجلة اللطائف المصورة نشأت حوالى سنة ١٩١٥ وهى المجلة الوحيدة المنتشرة فى مصر ، وكانت تستند إلى السلطة الإنجليزية والدليل على ذلك أن السلطة الإنجليزية

كانت تأخذ من إدارة تلك المجلة ألوفا من النسخ الملونة بصور إنتصارات الإنجليز في الحرب ، وترميها بواسطة الطيارات على خطوط الأعداء الأتراك في سينا وفلسطين .

× الرأى العام خاضع لآراء الكتاب السوريين في مصر سواء أكان ذلك في السياسة أم في الثقافة ، وعندما كانت تعطل في الصحف المصرية التي تدافع عن الحريات كانت تروج الصحف السورية التي رسخت وإنفسح أمامها الميدان .

× قال نيومان في كتابه من مصر في عهد الإحتلال :

إن الرأى المصرى تعبث به منذ نصف قرن جماعة من السوريين الذين يبيعون أعمدة جرائدهم لمن يدفع أغلى ثمن ، (وقد نشرت الأهرام فصول هذا الكتاب) وحذفت هذه العبارة . « أما السوريون فإنهم مشهورون بسيطرتهم على الصحافة المصرية التي اتخذوها وسيلة لتكديس مقادير هائلة من النقود ، فهم دائما يعملون على استغلال الخلافات بين الأحزاب ، ويبيعون أعمدة جرائدهم لن يدفع أغلى ثمن وليس هذا النوع الراقى من الصحافة ولكنها مع ذلك صحافة رابحة .

محاكات الصحف

لم تتوقف محاكات الصحفيين خلال فترة مابين الحربين . وهذه قصاصات من هذه المحاكات قالت :

١ — الطائف (١٠/١٠/١٩٢١) تحت عنوان :

الصحافة المصرية تتألم : « لقد عرف الخاص والعام الضربتين المؤلمتين اللتين أصابتا الصحافة العربية ونعنى بها تعطيل جريدة اللواء المصرى وإبعاد على بك كامل (شقيق مصطفى كامل) ثم سجن صاحب جريدة وادى النيل (محمد الكلزه) والكاتب حسن الشريف ، وإننا وإن كنا لا نريد تحليل هاتين الضربتين المؤلمتين نشير إلى ضعف جرائدنا العربية الأدبى الذى سببه عدم اتحاد أصحابها وعدم اهتمامهم بالدفاع عن مهنتهم .

(٢) الصحافة أمام القضاء ٣١/١٠/١٩٢٤ .

سليمان فوزى (صاحب الكشكول) ومحمد الههياوى .

(٣) الصحف فى ٧ أغسطس ١٩٢٥ .

أمام القضاء : عبد القادر حمزه (البلاغ) عباس العقاد (البلاغ) سيد على (جريدة النظام) محمود رمزى نظيم (النظام) .

(٤) قضية جريدة السياسة عام ١٩٢٤ .

قال توفيق دوس أن هذه القضية كانت تتعلق بمقالات عنيفة جدا كتبها طه حسين طعنا فى سياسة الوفد المصرى ، ولما لم يكن موقعا عليها باسمه فقد رفعت النيابة العامة الدعوى ضد حافظ عفيفى وهيكل ، وظللت أترافع فيها عشرة أيام كاملة وانتهت بغرامة

هيكل وتبرئة حافظ . ورفضنا رفضا فقضى ببراءة هيكل ، كانت أهمية القضية من الوجهة السياسية . كان محظورا على الأحرار عقد اجتماعات عامة لبناء سياستهم ، فلما رفعت الدعوى الجنائية كانت المرافعة عبارة عن بسط تلك السياسة بأوسع المعانى وكانت قاعة محكمة الجنايات هى (الصيوان) الذى تجمع فيه خـــلاصة المثقفين من المصريين لسماع تلك السياسة .

وكانت جريدة السياسة تنشر تلك المرافعة حتى وصل عدد ما يطبع منها إلى خمسين ألف نسخة فى الوقت الذى لم تصل إليه مقطوعية أكبر الجرائد إلى ٣٠ ألف .

(٥) محاكمة جريدة الصرخة .

قالت الأهرام فى ١٩٣٣/١٢/٤ نظرت أمس المعارضة المرفوعة من الأساتذة : أحمد حسين وسيد فتحى رضوان وحافظ محمود محررى الصرخة ، وقد تخلف الأستاذ أحمد حسين لمرضه فى السجن وحضر للدفاع عنهم : الأساتذة محمد على علوبة وعبد الرحمن الرافعى ، وفكرى أباظه ونميمه الأيوبى .

وجه القاضى التهمة إلى المتهمين أنهم حسنوا أمراً من الأمور التى تعد جنحة بحسب القانون بما نشروه يوم ١٣ نوفمبر الماضى ، قرر المتهمان بأنهما لا يريان فيما كتباه جريمة يعاقب عليها القانون ، ثم وقفت الأستاذه نميمه الأيوبى وترافعت وهى مرتدية روب المحاماه طالبة قبول المعارضة والإفراج عن المقبوض عليهم . وحكمت المحـكمة بالإفراج عن المتهمين بكفالة قدرها عشرة جنيهات .

وكان أحمد حسين (٢١ سنة) محام ومقيم بشارع عمر بن عبد العزيز نمرة ٧ بالمنيرة قسم السيدة ، وسيد فتحى رضوان (٢٢ سنة) محام ومقيم بشارع مصر القديمة نمرة ٨٢٠ وحافظ محمود (٢٦ سنة) سكة عبد الرحمن بك نمره ١٧ بالحلمية الجديدة قد نشروا

فى جريدة الصرخة مقالا عنوانه (ياشباب سنة ١٩٢٣ كن كشباب سنة ١٩١٩ ورسموا صورة تحت عنوان الشهيد المجهول ، وحض القتال شباب ١٩٢٣ على أن يتمثل بشباب سنة ١٩١٩ الذى قدم نفسه وقوداً للجهاد والوطن وأشعل ثورة جامحة ضد الإنجليز والأجانب لا تعرف هوادة ولا لينا ولا تعقلا .

(٩) سجناء الصحافة :

أحمد فؤاد صاحب الصاعقة : : الهجاء ، وتناول سعد زغلول بالقذف .

المقـــاد : حملات شديدة فى جريدة المؤيد الحديد .

توفيق دياب : (الجهاد) إنتقد موقف وزارة صدقى والبرلمان من خزان جبل الأولياء .

محمد التـــابعى : (آخر ساعة) حمل على وزير الحقانية واتهام البوليس بتعذيب الأهالى

حسين شفيق المصرى : إنتقد خروج حمد الباسل وزملائه على النحاس .

رياض شمس : مقالات عدت عيبا فى الملك .

محمد الشافعى البنا : (المصرى) ، أهانة النقراشى .

أحمد حسين ، فتحى رضوان ، أحمد عبد اللطيف الشيمى : جريدة الصرخة .

سليمان فورى : مجلة الـكشـكول .

عبد المنعم رخا ، عبد الحليم محمود : مجلة الصريع .

أحمد شـــفيق : مجلة المطرقة .

عبد السلام شهاب ، محمود رمزى نظيم : مجلة الحوادث .

محمد مصطفى حمام : الخ . . . الخ .

(١٠) الهجوم على الصحف وتحطيمها

سنت بعض الحكومات الحزبية وهي في الحكم، مهاجمة الصحف المعارضة لها، بدأ ذلك عام ١٩٢٤ على جريدة الأخبار التي يصدرها أمين الرافعي وتكرر ثلاث مرات، واقتحم المتظاهرون دارها عنوه، وقد صوره أمين الرافعي على هذا النحو :

٢٢ مارس ١٩٢٤ : جاءت بالأمس مظاهرة إلى إدارة الأخبار وكان بابها مقفلا فهجم عليه المظاهرون وحاولوا كسره واقتحامه ليجددوا المأساة التي وقعت منذ ثلاث سنوات عن قطع أسلاك التليفون . هبوا أن المظاهرين تمكنوا من كسر الباب والاعتداء علينا وقتلنا ، هبوا أنهم غمسوا أيديهم في دمائنا ، وذهبوا بقليل أو كثير من هذه الدماء إلى حضرة صاحب الدولة سعد باشا بدلا من ذهابهم إليه بهتافهم وحده . فهل كانت الدماء تقنع الأمة بأن الدستور أصبح قائما على المبادىء العصرية .

٢٤ مارس ١٩٢٤ : ذهب مدير الأخبار إلى النيابة الأهلية في الساعة الخامسة بعد ظهر أمس وقد كان يظن أنه سيسأل عن حادث الاعتداء الذي وقع على الأخبار فاذا به يحقق معه كتهم ويسأل عن المقال الذي نشره يوم السبت ٢٦ مارس ١٩٢٤ « هجوم جديد على الأخبار : قذف الطوب والأحجار وأعمال التكسير والتحطيم » : وقع الاعتداء على الأخبار يوم الجمعة الماضي فطلبنا من الحكومة أن تحقق هذا الحادث وتقوم بواجبها ولكن أصواتنا ذهبت إدراج الرياح ، وكان رد الحكومة علينا أنها أحالتنا إلى النيابة لتحقق معنا باعتبارنا متهمين لا شاكين ، ولم يمض على حادث الاعتداء الأول خمسة أيام حتى تجدد الهجوم على الأخبار بصورة شنيعة ، فقد جاءت مظاهرة يحمل أفرادها الطوب والحجارة وأرادت اقتحام الباب . فأخذوا يقذفون حجارتهم وطوبهم على الابواب والنوافذ فأصابت حجارتهم كثيراً من النوافذ ودخلت إلى الغرف ، ما يريدون ، أيريدون

أن نطلق عقولنا ولا نقول ما نعتقد ، أيريدون أن نسكت عن إنتقاد الأعمال التى توجب النقد .

(١١) كلمة عابرة أحدثت أزمة :

كتب حسن الشريف يصور أقسى تجربة صحفية مرت به فقال: كنت فى فبراير ١٩٢٠ رئيسا لتحرير جريدة مصر ، وكانت جريدة مصر إذ ذاك أجرأ الصحف وأشدها تطرفا . وكنت قد كتبت مقالا عنيفا عن الخطر الذى يحدق بمصر من تنفيذ مشروعات السودان شددت فيه النكير على وزارة يوسف وهبه (باشا) وعلى : محمد شفيق وزير الأشغال .

وقلت بالحرف : «أما أنت أيها الوزير فما هو إلا يوم واحد تقضيه فى منصبك بعد اليوم وتكون قد فقدت كل شىء » قصدت فقدان كل شىء من الكرامة أو الاعتبار لا كل شىء من العافية ولا من الحياة . وحدث فى اليوم الثانى لظهور المقال أن قنبلة ألقيت على وزير الأشغال قال الوزير: «ما هو إلا يوم واحد» ثم لا ينقضى اليوم الواحد إلا وتلقى على قنبلة، واتهمنى شفيق باشا بأننى السبب فى إلقاء القنبلة عليه وقال أنه يؤكد أن حياة الوزراء ستكون فى خطر وكتبت الصحف : القنابل ، حسن الشريف ، القنابل ، تنذر نا على صفحات الجرائد وتحدد وقت ارتكاب الجريمة» .

وقد أوقفت جريدة مصر وفرضت الرقابة على الصحف من جديد .

(١٣) صالون الأهرام :

فى خلال فترة ما بين الحربين ظهر صالون الأهرام ، عبارة عن غرفة رئيس التحرير الأستاذ أنطون الجميل . تضيق الغرفة أحيانا عن أن تسع كل أعضاء الشلة .

يترك كل فرد داخل الصالون حزبيته على الباب . وبجوارها لقبه ومركزه حيث تختلف شلة الأهرام عن الشلل أخرى ، أنطون الجميل . مستقل . جبرائيل تقلا معارض — عبد الهادى (سعدى) زهير صبرى وفدى اشتراكى ، عبد الستار الباسل وفدى محافظ ، وعبد الجليل أبو سمره (دستورى) حفنى محمود ، توفيق دياب ، وتجد فى شلة الأهرام كل صنف . فهى أحيانا تنعقد بشكل مؤتمر حربى ا يبحث الخطط العسكرية على الخرائط ؛ هنا يبرز الخبير الحربى عبد الرحمن عزام وعبد الستار الباسل الخبير فى طرق الصحراء . وقد انقطعت محاضرات الباسل بعد انتهاء حملة شمال أفريقيا . أو على هيئة مؤتمر اقتصادى يبحث المال والأسهم والسندات . فيتولى الحديث أحمد نجيب مندوب الحكومة فى بورصة الأوراق ، وسيد جلال بوصفة خبيراً فى شؤون التموين ، أو تنعقد على هيئة مجلس أدباء فيتصدرها توفيق دياب ، وتوفيق الحكم ، أحمد الصاوى محمد وكامل الشناوى ، وعند ما تنعقد شلة الأهرام بهيئة سوق عكاظ يتصدرها الشعراء ؛ خليل مطران وكامل الشناوى ومحمد الأسمر ، وقد كانت الحكومات تهتم كثيرا بما يجرى فى هذه الغرفة ، حدث أن ذهب حسين سرى منذ أسابيع إلى الأهرام ودخل غرفة أنطون الجميل فقال : هل هذه هى الغرفة التى تحسب الوزارات حسابها . هؤلاء عبد الحميد عبد الحق . عبد الحميد ابراهيم صالح . سليمان نجيب . فكرى أباظه . الألفى عطية ، لويس فانوس ، حسن الأعور ، محمد عبد الوهاب ، وإدجار جلاد ، وتوفيق صليب ، محمود عزمى ، محجوب ثابت ، على راتب ، مأمون عبد السلام فى غرفة الأهرام حيث تسمع كل الآراء وكل الملاحظات وحيث تتصاعد الضحكات العالية من الأصدقاء والخصوم على السواء .

الأخطاء المطبعية

من أهم القضايا الصحفية التي نوقشت في فترة ما بين الحربين «الأغلاط الفنية والمطبعية في الصحافة» وقد عرض لذلك الأستاذ محمد مسعود فقال :

١ — أخطاء الكتابة

أخطاء الصحف صنفان أحدهما مصدره المحررون والمترجمون من الكتاب ومرده غالباً إلى الجهل والسهو ، والثاني مصدره الطابعون أي منضدو الحروف ورؤساؤهم ومرده أولا إلى طبيعة الحروف العربية وكثرة عددها وتشابهها ، ثم إلى جهل الطابعين أصول صناعتهم وعجز منضدي الحروف منهم عن إدراك معنى ما ينضدون حروفهم ، لأن سوادهم تعلموا رسم الحروف في المطابع لا في المدارس فهم يجهلون بسائط العلوم العربية من نحو وصرف .

٢ — الأخطاء في الصحافة المصرية ليست تراثا ورثته عن صحافة الربع الأول من هذا القرن فيما قطعته من أشواط بخطواتها القافزة ، وإنما مصدره طغيان الجانب المادي منها على الجانب الأدبي وقصر العناية فيها على الوضع دون الموضوع ، كما أنها ليست نقيصة لاصقة بها دون غيرها من صفوف المطبوعات كالكتب التي يقسم الوقت عادة لإبرازها في ثوب قشيب . ومع ذلك لا يكاد يظهر كتاب في عالم المطبوعات حتى تكون لآلئ الأخطاء منثورة على صفحاته . كتب الأستاذ الشرقاوي « من علماء الأزهر » ينعى على الدكتور زكي مبارك وقوع أخطاء مطبعية في كتابة النثر الفني فقال : كنا نحسب أنه لا يوجد خطأ في كتاب يشرف على تصحيحه رجل عالم كالدكتور زكي مبارك ويتولى طبعه دار الكتب المصرية ، فرد الدكتور يقول : أن الغلط المطبعي في المطبوعات العربية قد عجز عنه الإساة ولا سيما إذا كان المؤلف

هو الصحيح، فانه يقرأ فى صحائف ذاكرته ، وهو يظن أنه يقرأ فى صحائف الكتاب » وهذا التعليل يدل على أن سواد أخطاء الموظفين ناشىء من تصحيحهم التجارب المطبوعه لمؤلفاتهم بأنفسهم ، لأنهم وهم بسبيل تصحيحها تسبق خواطرهم أنظارهم فتمر الاخطاء أمامهم مراً دون أن يفطنوا لها .

٣ — وجاء فى كتاب أعجام الأعلام الذى ألفه الاستاذ محمود مصطفى هذه العبارة «فات حرصنا أغلاط قليلة» ولعل ما أوردناه هو كل ما وقع فى الكتاب من أغلاط ثم أورد (خمسة أخطاء مطبعية فقط) وها أنذا قد بلغت من مطالعة الكتاب إلى صفحة ١٢٨ (الكتاب ٢٥٠ صفحة) فأحصيت سوى الأخطاء الخمسة المقدمة ستة عشر خطأ مطبعيا غليظاً .

وهذا الدليل المقنع على أن المؤلف لم ينفعه حرصه فى إخراج مؤلفه بريئا من عيوب الأخطاء وأن مساعدة الطابعين له على ذلك كانت مجرد حسن ظن لم يحققه الواقع ، لأنه إذا كان مجموع الاخطاء فى الصفحات (١٢٨) بلغ ٢١ خطأ ، فالمنظور مع مراعاة قاعدة النسبة والتناسب أن يرتفع فى كتاب يبلغ ٢٥٠ صفحة إلى ٣٨ غلطة وكسرا من غلطة واحدة .

٤ — كلما فتحت صحيفة من صحفنا المتبارية فى مضمار الإجاده والاتقان ، يكون الاخطاء بمختلف أنواعها أول مايلمس نظرى منها ، ولقد استفزنى ذلك منذ فترة من الزمن إلى التقاط دررها وأصدافها من بطون الصحف فاجتمع لى منها بضعة آلاف قيدت أوابدها فى كراسات كثيرة رجاء أن تتاح الفرصة لى لإبرازها فى كتاب يكون عدة الكاتبين فى توقيهم معاثر الأخطاء التى تملأ طريقهم كما تتسامح صحف كثيرة فى نشر عبارات الكاتبين يلحنون فيها ضعف التأليف وركاكة العبارة :

× الحنان الاموى : نسبة إلى الأم بيننا هو بالنسبة إلى أميه .

× أموميتها الحنونة: يريد بالأمومية الأمومة .

حكمت المحكمة على المتهم لعام واحد سجنا مع الاسعاف بقانون التأجيل (يريد وقف التنفيذ) .

ستلقى محاضرات عن الاسرائيليين فى عهد الفاطميين أى منذ قرن ونصف .

«والسحت سواء كان حلالا أو حراما» السحت فى اللغة هو كل مال لا يحل كسبه أو أكله فن أين يكون منه حلال أو حرام .

« أولا فأول » — أو أولا بأول (الصواب أول بأول) وجلس على يمينه أو يساره (الصواب جلس إلى) من أول وهلة ، لأول وهلة ، فى أول وهلة (الصواب أول وهلة) .

افتتح دولته معرض الكرترنيم : الصواب الأقحوان .

صورة بروفيل : الصواب : صورة من عارض (جانب الوجه) .

المدالية : الشارة هذا بالاضافة إلى الأعلام الجغرافية ، الاصلاحات العلمية ، الأماكن ، الاصلاحات الطبية ، الفكلية .

٥ — نشرت الجريدة هذا الخبر : دعا جلالة ملك إيطاليا إليه المسيو تيير وعهد إليه تأليف الوزارة فألقى بين يديه كلمة شكر قال فيها : أن آسف فلا آسف إلا على شيء واحد ، هو عجزى الآن عن كسر رقبتك بيدى كما يكسرون رقبة الديك الروى ، فلما قرأ الناس هذا الكلام البذىء ، أيقنوا أن المسيو تيير قد أصابه مس من الجنون وتوقعوا له ، سوء العاقبة ولكنهم لم يلبثوا أن تحقق لهم فساد حسابهم وخطأ ظنهم، لأنهم لما مضوا فى قراءة الصحيفة قرأوا فى النهر التالى من الصحفة ما يلى :أسفر التحقيق الدقيق الذى أجراه البوليس عن جناية شارع ... عن نتيجة باهرة فلما قبض على الجانى الأثيم الذى لم يتمالك بعد أن جرد من سلاحه وشدت يداه إلى عنقه أن صاح وكيل النيابة خائفا .

« أن الله وأبناء وطنى يشهدون بأنه لم يكن لى ثم من غاية غير الاخلاص فى خدمة مليكى ووطنى » إذ فهموا أن الطابعين الكرام قد أزعجوا الجملة الأخيرة الواردة على لسان

الوزير المؤرخ من حيزها فى العمود الأول حيث حل محلها قول المجرم القاتل الذى عز عليه أن يرى نفسه عاجزاً عن الفتك بوكيل النيابة فأعرب عن أسفه لأنه لم يكن ليستطيع كسر عنقه كما يكسر عنق الديك الرومى .

٢ — أخطاء التصحيح

عرض المصحح زكى المساح لأخطاء التصحيح فى الصحافة المصرية فقال : أن المصحح الصحفى بعد أن كان عمله مقصوراً على الخطأ المطبعى أصبح فى نظر المجتمع رجلا معروضا أنه متخصص فى علوم اللغة العربية متعمق فى آدابها » . ومن الأخطاء التى عرضت لى أقدم هذه النماذج .

١ — خطأ التعبير : قول خيرى سعيد (التوآءات نفوس الأطفال) وقد التوى عن الغرض الذى رمى إليه والتوى فيه أيضا نظرى وقلبى وشعورى ، وعلى ما أظن والله أعلم بغيبه واحكم أنه يريد أن يقول « أعوجاج نفوس الأطفال » .

٢ - الخطأ اللغوى والخطأ النحوى : يقول حبيب جامانى : عهد إلى هذا القائد الباسل بقيادة الجيش ، ويقول آخر: عهد إلى جلوريا سوانسون بتمثيل دور البطولة ، فكان هناك معاهدة بين الأستاذين على الخطأ والصواب، كما لا تخص « عهد إليه فى » ويقول بعض الأساتذة : هذا الشيء يوازى ثمنه ألف جنيه . والصواب : (يساوى ثمنه) ويقولون أيضا (لا يكلمه قط) وفاتهم أن «قط ظرف» زمان لاستغراق الماضى، وتختص بالنفى .

(٣) الخطأ المطبعى : من ذلك أن زعيما عاد من الاسكندرية وأخذ المحرر يصف الرحلة إلى أن قال (وما بلغ دولته بيت الأمة حتى علا التهليل) ولكن شاء الخطأ المطبعى أن تكون الجملة هكذا : ما بلغ بيت الأمة حتى علا الصهيل ، وكان أحد المثالين قد صنع تمثالا نصفيا لسعيد باشا وأراد أن يقدمه لدولته أمام الجماهير التى كانت تفد على بيت الأمة، فوصف أحد المحررين هذا الغرض فقال:(ولما عرضه أمام الجمهور)،فأبى الخطأ المطبعى إلا أن تكون الجملة (لما عضه أمام الجمهور) ، ودعا أحد أعيان الريف إلى مادبة وكان أكولا وأراد أحد المحررين أن يتهكم به أثناء وصف المادبة فقال : « ثم هيأ اللقمة وابتلعها » فجاءت

جلته هكذا « ثم هيأ العمة وابتلعها » . والظريف فى الموضوع أن هذا العين كان معما ، وكان أحد النقاد يصف إحدى روايات رعاة البقر فى أمريكا فأراد أن يقول « نخطف اللص العجلة وطار » فظهرت جملة « هكذا نخطف النجلة وطار » . وأراد محرر أن يصف تحفز أحد مصارعينا للوثوب بقوله : « ثم تحفز للوثوب » فكان رصفه هكذا « ثم تقمز للوثوب » أ . ه .

× من الأخطاء المطبعية : الآن هلموا إلى العمل واصغوا إلى صوت « الضمير » : فجاءت « الحير » وقولهم: الفرنسيون يضيقون الخناق على « البطل » المراكشي فجاءت: « البصل » وكان اسم جريدة البلاغ يرد أحيانا البلاغ أو البلاء .

أخطاء مطبعية « عندما يختل توضيب السطور » .

يحدث أحيانا أن يخطىء الوضب لزحمة العمل فى جمع سطور الأخبار . فيختلط بعضها فى بعض . . وينشأ عن هذا الاختلاط خلط عجيب ، يثير الضحك أو يستثير الاستغراب وهذه طائفة من هذه الأخبار المختلطة نشرتها مجلة « مسامرات الجيب » .

ثناء : كتبت جريدة يومية ذات مرة تثنى على « همة » أحد المشايخ الذين قاموا ببعض الأعمال التى تستحق الثناء فكتبت الخبر وعلقت عليه قائلة : « وأنها تثنى على همة فضيلته » ولكن حرف الهاء لأمر ما رفض أن يستقر مكانه ، ورأى حرف العين المكان شاغرا فملأه وخرجت الجريدة تثنى على « عمة » فضيلته .. وغضب الشيخ واعتذرت الجريدة فى اليوم الثانى .

جثة : ومن التعليقات المعروفة فى الجرائد اليومية عبارة : « وسنوافى القراء غدا بالتفاصيل » ، وحدث أن نشرت جريدة خبر جريمة قتل غامضة ، وبعد أن روت كل مالديها من معلومات كتبت العبارة التقليدية . . ولكن الحروف تضاربت . . فخرجت العبارة مخيفه مروعة ، فقد قالت الجريدة : « وسنوافى القراء غدا بجثة القتيل » !..

خبر زواج : ونشرت إحدى الجرائد خبرا عن حصان جمح فى شوارع القاهرة ونشرت بجانبه خبر زواج أحد اليونانيين ، وهنا حلا للسطور أن ترقص فاختلط الخبران ، وظهر خبر

الزواج كالآتى : « ثم زواج الخواجه كارلو كانا كسى فى الـكنيسة اليونانية ثم خرج جامحا واندفع إلى مقهى بلدى فحطمه وأصاب بضعة أشخاص باصابات قاتلة ، وعاد إلى المنزل بين تهانى المحبين والأصدقاء » . . أما الحصان سعيد الحظ فـكتب خبر هياجه بالطف صيغة عرفتها الصحافة : « بينما كان أحد الحوذية يقوم جواده فى شوارع القاهرة إذ انطلق فاستقل مع عروسه « عربة » طافت بهما شوارع القاهرة . . وقد استطاع البوليس تهدئته والقبض عليه » .

شطبه الرقيب : وفى عامود وفيات جريدة نشر أطرف نعى متواضع إذ جاء فيه : « توفى إلى رحمة الله وكان مثالا للرجولة الـكاملة والأخلاق الفاضلة تتغمده الله برحمته الواسعة » ويظهر أن الفقيد أبى اسمه الـكريم أن يحمل هذه الصفات ظلما وعدوانا فاختفى من السطور وأوحى إلى جامع الحروف بأن ينساه ، وعندما سئل سكرتير التحرير عن هذا الغلط اعتذر بأن الرقيب شطب اسم الفقيد .

رؤية رمضان : إعتادت الجرائد اليومية أن تنشر خبر رؤية رمضان بصيغة تقليدية وأرادت الحروف والسطور أن تترنح قليلا . فخرج خبر الرؤية فى جريدة يومية كبيرة ، وقد خلطا عجيبا . . قالت الجريدة : تحت عنوان رؤية رمضان : « احتفل فى المحـكمة الشرعية أمس برؤية الشيخ « . . . » وذلك فى الساعة السابعة والدقيقة الحادية عشرة بحضور الشيخ رمضان المبارك ومحافظ القاهرة وبعض هيئة كبار العلماء » .

عودة : ومن الأخبار التى رقصت فيها السطور رقصا صريحا خبر ثرى حرب عاد من أوربا ودفع مبلغا طيبا للجريدة ، لتنشر له خبر عودته فى الاجتماعيات ، ولـكن عمود الحوادث كان له بالمرصاد ، . وثارت الحروف وغضبت السطور من النعوت الـكاذبة ، التى ألصقها المحرر بثرى الحرب وتحركت من أماكنها واختلط الخبر بحادثة عامل سقط من عمارة يعمل فيها فـكتب فى الاجتماعيات هكذا :

« عاد إلى القاهرة الوجيه (٠٠٠) بمدرحله طويلة فى أوروبا ، حاملا الأسمنت ومواد البناء ، إذ سقط من أعلى العمارة وتوافد على مكتبه الـكثيرون مهنئين حضرته بعودته من أوروبا » . وكتبت الحادثة كالآتى :

« بينما كان العامل أحمد البرمونى يصعد العمارة التى يعمل فيها وكان فى استقباله لفيف كبير من العظماء والوجهاء ، وقد أصيب برضوض وحملته الاسعاف بين الموت والحياة ! » ا ه

ومن هذه النماذج :

كتب داود بركات — لذلك يجب ترقيه القضاء . فنشرتها الأهرام — لذلك يجب تعرية القضاء . وكتب أحدهم فيثنى على (عمه) العلامه الفضال لجاءت (عمه) وكتب أحدهم اسم ديوان شكرى لجاءت سكرى . ونشرت مصلحة السجون : مصلحة الصحون .

وعبارة « أقطاب » الوزارة : نشرت « أو شاب » الوزارة .

وصـــاحب العزه : نشرت صاحب العره .

ولجنـــة البطالة : نشرت لجنة البقالة .

واختلط عمود بآخر فظهر فى عمود واحد وفى موضع بارز هذا الـكلام (يجب أن نبحث عن هذا العامل والأمراض الاجتماعية ونصف لها العلاج ، ونساعد . . . الراقصات اللاتى يحضرن إلى هذه البلاد ثم يفسدن الوسط الاجتماعى .

ونشر أحدهم نميا وخشى المصحح أن يتجاوز السطور المقررة له ، فكتب أمام السطر الأخير فى الهامش عبارة « إن كان له مكان » ، فجاء النمى هكذا : توفى إلى رحمة الله (فلان) أسكنه الله فسيح جناته إن كان له مكان .

تطور الصحافة الأسبوعية

(١) صحافة النقد السياسى الساخر.

(٢) صحافة الأدب والثقافة .

- ١ -

صحافة النقد السياسى الساخر

صمدت الصحافة الهزلية للظلم والظالمين ، ولم تذر عظيما ولا كبيرا إلا سخرت منه وتألفت صحافة النقد السياسى الساخر بعد ثورة ١٩١٩ وكان أول من عنى بها حافظ عوض (خيال الظل) وسليمان فوزى (للكشكول) وكان (خيال الظل) مواليا لحزب الوفد و (الكشكول) معارضا له ونجح الكشكول نجاحاً باهراً واكتسح . هنالك تحولت مجلة (روز اليوسف) التى كان يحررها محمد التابعى : صحيفة لفن التمثيل أساساً ، تحولت إلى مجال النقد السياسى الساخر وبلغت غاية البراعة والذيوع ، ثم استقل التابعى بمجلة خاصة هى « آخر ساعة » وظلت الكشكول وروز اليوسف وآخر ساعة أبرز صحف الكاريكاتير فى هذه الفترة . وإن كانت قد ظهرت عشرات الصحف التى حاكت هذا اللون وأهمها الرغائب .

من أبرز فنون الصحافة الأسبوعية : صحافة النقد السياسى الساخر ، وكانوا يسمونها (الصحافة الهزلية) أو (صحافة الكاريكاتير) وكانت أبعد أثرا وأكثر رواجا من الصحافة الأدبية ، ظهرت هذه الصحافة قبيل الثورة العرابية : قوامها الصورة والكلمة الفكاهية القائمة على نقد الأوضاع الإجتماعية .وكان من أبرز العاملين فى ميدانها : يعقوب صنوع ، عبد الله نديم ، وظهرت صحف : حمارة منيتى ومصباح الشرق ، وخيال الظل والمسامير والشجاعة (١٩٠٧ — ١٩١٠) وكان الأسلوب الصحفى الهزلى ضمن وسائل الكفاح خلال ثورة ١٩١٩ ضد الحماية وفى سبيل المطالبة بالاستقلال والدستور والثورة ١٩١٩ أثر فى ظهور عدد من الصحف الهزلية ونفر من الكتاب السياسيين الظرفاء .

وفى العدد الأول من حمارة منيتى (الدرينى) جاءت الافتتاحية هكذا :

« الحمد لله الذى زين الدنيا بمصابيح والقلوب بالسرور والتفاريح ، وجعل الضحك عنوانا للانشراح ، وتمثالا للمسرة والنجاح » .

وفى فترة ما قبل الحرب ظهر الساميز (السيد عارف) أحمد عباس (جريدة السيف) حسين شفيق المصرى (جريدة الناس) يقول : أخذت على نفسى أن أكتب لقومى ، وأنا من قومى ، ولقومى ، يقلم فرس فى الجحيم أو النعيم ، فإن أصبت الحز فى ذلك الموقف فذا هو الإلهام من الوطن» .

وكان طابع هذه الصحافة ما يطلقون عليه « القفش » ومثال ذلك : قال أحدهم لفلان باشا ، نظن أنك الوطنى الوحيد قال : أنا وطنى حسب الظروف ، ومن ذلك : بلغنا أن المرحوم عشماوى عندما جاء عزرائيل يقطف روحه قال له : خلى عنك !

كما أصدر محمود بيرم التونسى مجلة الشباب وتناول حياة الطبقات الفقيرة وقد أبرزت الصحافة الساخرة بعد الحرب كتابا ظرفاء لمعت أسماؤهم فى مقدمتهم : محمد إبراهيم هلال ، عبد العزيز البشرى ، توفيق حبيب ، حسن شفيق المصرى .

* * *

وقد عرض سلامه موسى لهذا اللون من الصحافة فى بحث ضاف[١] :

مؤسس الصحافة الأسبوعية السياسية فى مصرهو الأستاذ محمد التابعى . ولكنه عندما شرع فيها لم يكن يقصد إليها بالذات فإنه بدا تحرير (مجلة روز اليوسف) بالكتابة عن الأدب والفنون والمسرح، فلم يجد إقبالا يذكر فجعل يتحول رويدا رويدا حتى زال الأدب والفنون وحتى المسرح . ثم تفرع من المسرح فروع كثيرة هى القيل والقال عن الأشخاص البارزين حتى دخل فى هؤلاء رجال السياسة ، ولذلك أقبل القراء على مجلة روز اليوسف فراجت وكثر المقلدون لها، ولكن بلا نجاح .

ثم استقل الأستاذ التابعى بمجلة آخرساعة فسار بها على الخطة التى رسمها وهى القيل والقال عن الأشخاص البارزين ، مع الإكثار من الصور الكاريكاتورية . ولكن هذه الصور هى من مخترعات الأستاذ سليمان فوزى فى الكشكول .

---

(١) المجلة الجديدة ...

إن كل ما تعتمد عليه المجلات الأسبوعية هو القيل والقال ، بصرف النظر عن صدق ما يقال وكذبه ، لأن كل ما يطلب هو البراعة فى إيراد الخبر . العناية بالأخبار المستغربة النادرة عن الجنسين . وقد تكون هذه الأخبار مؤلمة لمن تروى عنهم ولكن ليس هذا من شأن المجلة . وليس شك فى قدرة الأستاذ التابعى وفراسته الصحفية ، ولكن الإنسان عندما ينظر إلى وفرة المجلات الأسبوعية التى نشأت على غرار روز اليوسف وإلى الإسفاف فى تناول الأشخاص يتساءل : هل كان أثره مفيدا أم مضرا فى الصحافة، والذى لا شك فى أنه لو كانت الأمة أرقى قليلا من ناحية الثقافة لما استطاعت أن تقرأ المجلات الأسبوعية الحاضرة ، بل هذا هو الذى إعترف به الأستاذ التابعى فى آخر السنة الأولى من مجلة روز اليوسف » . وفى عام ١٩٣٠ نقد إبراهيم جلال (وهو نجل المرحوم محمد عثمان جلال) —أكبر دعاة العامية والمدرسة الساخرة — نقد الصحافة الساخرة . قال :

إن الصحف التى لها اتصال بالمسارح تنشر صوراً وأخباراً يندى لها وجه الفضيلة ، وتأباها أذواق العامة فضلا عن الطبقة المتعلمة ، فالمفروض فى الصحافة أنها مدرسة تهذب أخلاق الشعب ، وترفع مستوى آدابه ، والمفروض فى المحرر أنه معلم يرشد القراء إلى ما فيه نفعهم من علم وأدب ، لذلك يجب أن يكون كل عمل يأتيه المحرر يرمى إلى تهذيب المجموع حتى فى الكتابة الهزلية كالنكت والملح . وعندى أن الخلاف بين الصحف الحزبية يجب أن تكون خاليا من الهجو والإقذاع فيه ، وأن يكون كل من الطرفين يرمى إلى الإقنـــاع وإظهار الحق دون التعرض للأشخاص ، فالمغامز التى أقل ما فيها أنها تزيد شقة الخلاف بين المتخاصمين وتولد فى النفوس أحقاداً وحزازات ليست من مصلحة المجموع فى شىء » .

* * *

وكان أبرز صراع فى مجال الصحافة السياسية الساخرة بين مجلتى الكشكول وروز اليوسف . وننقل هنا نموذجين من كتابات الصحيفتين :

مقال روز اليوسف

إننا باسم كرامة الصحافة التى أذلها صاحب الكشكول وأسف بها إلى حيث يجعلها فوطة المطبخ القذرة يمسح فيها ما شاء وباسم ضحايا صاحب الكشكول الذين عاشوا وعاشت أعراضهم عشرة أعوام مادة لريشة الكشكول وقلمه ، يتبادل فيها بالطعن والتشهير ما كان يجب أن يكون منبهة أبطال ومفخرة بلاد وباسم ماضيه المنتن التقيح ، الذى اكتفى فيه بأن يكون خطة من مكارم الدنيا جلسة عليها مكتب إدارة مجلة (نوفمبر ١٩٢٩) .

مقال (الكشكول) : روزا وتابعها الشريف .

كان وليم يقلب صفحات الدليل المصرى فى قسم الصحافة ومضى يتمثر فى قراءة أسماء الصحف والمجلات ، حتى وقف من بينها على اسم مجلة (روزه اليوسف) فأخذته نوبة من الإعجاب : اسم كويس خالص ، يجب أن يكون لسان حال الوفد ، حتى نضيف إلى خشونة رجاله الصناديد ، لطاقة الجنس الناعم ، لتكن صاحبة المجلة امرأة ولتكن مجلتها تافهة ، ولتكن هى إمرأة وزعت من عمرها ستين عاما هبه للتمثيل ، حيث هرعت آلهة الفن وراء الستر السميك وتركت لأبطال الغرام والحب مجالا لأعداد العرض والانجاز،من عساه لا يرضى بتحرير مجلة تحمل هذا الاسم ويكون له جرأة على أن يسب ويشتم . ويسطو بالاقذاع على الأعراض والكرامات دون أن يستطيع واحد النيل من عرضه وكرامته ، لم يطل فى اختياره واحداً من الشباب المتزاحم ، ثم أدناه منه « خذ عندك .أمرأة وزيرسابق اسمه ولا بلاش اسمه ، تهرب مع خادمها،موظف كبير يقبل هدية من مرءسيته بألف جنيه، أخت وزير تضبط فى عوامه مع آخرين .

ما تنساشى،علامات التعجب، أكثر من علامات الاستفهام،أدى خمسين جنيه على الحساب.

× هبت النيابة من مرقدها ، تأخذ بخبق ولد ممرور ، لا تزال آثار الطين والوحل عالقة بركبتيه من جبوه على الأرض (٢٢ / ١١ / ١٩٢٦) .

الطائف = (تأديب صاحب الكشكول) :

ومما يتصل بهذه المعركة ما نشرته مجلة الطائف تحت هذا العنوان (٢٨ أغسطس ١٩٢٢) قالت : لم نستغرب مطلقاً حادث (الملقة) التي ذاقها صاحب الكشكول في محل الحلواني صولت في القاهرة منذ أسابيع وكانت حديث الآداب والسيدات في اجتماعاتهم ومسامراتهم في المحافل والبيوت ولقي الكاريكاتور الذي نشرناه في العدد الخاص عن الكشكول وعلقيه إرتياحا من جميع القراء بدليل كثرة ماسمعناه من الثناء .

فقد دأب الكشكول على نشر الصور والنبذ بقصد الطعن في أقدار الناس ولا سيما العظماء والمشاهير والحط من كرامتهم لغاية معروفة لا تخفى على أحد، فكان يعمل أسبوعا بعد أسبوع على اضحاك الناس من مشاهير الأمة بجعلهم موضوعا للهزء والسخرية وهدفا للتشنيع والتقبيح،فأخذ الناس يشعرون أن الصحافة المصرية مبتلية بآفة تعمل على هدم كرامة وشهرة رجالنا المعروفين وأفرادنا الذين يشار إليهم بالبنان ، ومما زاد الطين بلة خروج الكشكول بطمنة وقدحه على السيدات وهزئه على السيدات المصريات كتابه وتصويرا حتى طفح الكأس وصار من المنتظر أن يحل بصاحبيه ما حل به، والمرء لا يتعلم إلا على حسابه ، والغريب أن صاحب الكشكول جمع بين سفه الكتابة والقول وجرأة الاعتداء على الناس ، بالضرب فقد اتصل نبأ من تفاصيل حادث الملقة أنه كان البادىء بالإعتداء على محمد بكرى المهندس في مصلحة المساحة على أثر مناقشة حاده دارت على سفالة مقصد من الحط من قدر سيدات الوفد بنشره صورهن بأسلوب تنفر منه العقول السليمة فما كان من فوزى إلا أن صفع بكرى على حين غرة على صدغه الأيمن ثم على صدغه الأيسر ، فأمسك بكرى بتلابيب صاحب الكشكول وقبض عليه بيد من حديد ، ودفعه أمامه إلى أن ألصقه بحائط المكان وهناك أخذ يكيل له اللكمات بغير عد أو حساب وكانت ضرباته مؤلمة أفقدت صاحبنا شجاعته الأولى فأخذ يصيح ويستغيث . ولكن بكرى لم يترك فوزى إلا بعد أن أشبعه وزوده بما ظنه كافيا في المستقبل» .

وهكذا ظلت معركة الصراع بين صحافة الوفد وصحافة خصومه قائمة ومستمرة ؛ ووصلت إلى مجال القضايا ، والاتهام بين كتاب المجلتين : الكشكول وروز اليوسف وهو إتهام فى مجال (الشرف) كما تقول الصحف (١٩٢٩/١١/٢٢) .

ولا يمنع هذا من أن يصف أحد تلاميذ الأستاذ التابعى بعد ذلك بأكثر من عشرين عاما فيقول : مدرسة التابعى الصحفية لها أثرها فى تاريخ الصحافة ، لقد حرر أسلوب الصحافة الساخرة من الأسجاع والمترادفات ، فهو الذى أدخل اللغة الكاريكاتورية فى الصحافة ، بضعة خطوط سريعة تعبر كأنها لوحة فنية رائعة ، كلمة واحدة تلتصق بشخصية السياسى وتحوله من رجل وقور إلى مسخرة ، لقد كانت لغة الصحافة قبل ذلك أشبه بفساتين السيدات فى الماضى مليئة بالذيول فجعل لغة الصحافة بسيطة .

(الصاوى فى مجلة روز اليوسف)

وهذا نموذج من كتابات مجلة روز اليوسف عن « الرصفاء » كما كانوا يسمونهم فى هذه الفترة : دأب الصاوى فى التظاهر بمناصرة النهضة النسوية ومشايعتها وذلك بدفع بعض دينه للسيدة هدى شعراوى التى ساعدته على الظهور ، وعاونته فى الحياة التعليمية وجعلت منه شيئا ، وهذا لون من البر نشهد للصاوى فيه بالوفاء ، ولكن الأهم فى الأمر أن الصاوى قد ظن - طوال هذه السنين أن مناصرة المرأة ونهضتها لا تخرج عن معنى الكتابة فى الغرام والتلاعب بألفاظ الحب والصبابة ونجوى القلوب وخفق الأفئدة وما إلى هذا الكلام العجيب ، وهذا ما يدعونا إلى أن نلاحظ أن الصاوى ككاتب لا يمكن أن يؤثر أو يبقى لكتابته أثر ، ذلك لأنه يتملق نزوات الجماهير فى كتابته ، ثم هو رجل يجيد الإعلان عن نفسه كثيرا ، وبشتى الطرق . وعلى العموم نحن نهنىء الأستاذ الصاوى بزواجه ونتساءل هل سيظل يملأ مجلته الغرامية بالحب الرخيص والعشق التافه . . أو بما يكون فيه فائدة للقراء ونفع لمن يطالعونها

في وزارة المعارف التي جومل فيها إلى حد أن اشترك في أكثر من خمسمائة نسخة من مجلد هذه، لقد شكا لي أحد الأدباء من أن وزارة المعارف تقرر مثل هذه المجلة في مدارس البنات بينما هي عبارة عن مجموعة أقوال وكلمات في الحب والغرام مما يفتح عيون الفتيات ويلقي في روعهن أن التبذل معناه رقة العواطف .

الصاوي في مجلة الجامعة

وكتب صاحب الجامعة :

نشأ الصاوي يتيما من الوالد وكفلته السيدة والدته حتى نال البكالوريا فاستخدم في الحكومة في مصلحة . . الناجم ! وهناك تفتحت كنوز أدبه وبدأ يظهر رسائل صغيرة للأهرام اتخذ لها إسما ثانيا هو « ماقل ودل » ثم أخذ يخلق فرص الحياة حتى اتصل بسيدة عظيمة من زعمات النهضة النسوية بمصر فأوفدته إلى باريس ليتم دراسة فسافر ورجع . ولست أدري ماذا حمل من باريس، بلد الشهادات ، ثم اختير محررا في الأهرام وأوفده الأهرام إلى باريس ورجع ولا أدري ماذا حمل هذه المرة أيضا من باريس من الشهادات وأن كنت أدري يقينا أنه اكتسب من باريس أسلوبا ظريفاً شائقا وعقلية لا بأس بها .

وتمكن وهو موظف بسيط يحمل من اللغة الفرنسية بضعة ألفاظ بمعونة زميل له موظف في المصلحة من خريجي الفرير أن يترجم روايتي تاييس والزنبقة الحمراء . وتمكن من أن يتصل بالأهرام الذي أفسح له صدره وأن يسافر على نفقة جهة غير حكومية لاتمام الدراسة ، وبعد فان كثيرين من قراء الصاوي ليعتقدون فيه الغرور، ويظنون أيضا أن الرسائل التي ينشرها على اعتبار أنها مرسلة إليها جلها منتحل ومفتعل . والصاوي أن كان فشل في أن يكون قاسم أمين في الكتابة عن المرأة المصرية كما فشل طه حسين في كشفه عن كنوز الأدب الفرنسي كما فشل في أن يكون قائداً من قواد القصة المصرية فهو على أي حال كاتب من أقوى كتاب الشباب .

الأدب المكشوف

ولم تتوقف هذه المجلات عند هذا الحد من المزائم فى مجال الأسلوب والمضمون بل ذهبت مجلة الراديو التى كان يصدرها محمود عزت المفتى إلى محاولة هدم القيم الأخلاقية والاجتماعية ، حتى جاءت مرافعة النيابة فى محاكمته على هذا النحو : قال حسن صالح الجداوى :

الصحافة مهنة نبيلة لها جلالها ، ولها خطرها ، والصحافى رجل نبيل خطير ، يكد نهاره أو ليله أو إن شئتم الحق نهاره وليله فى تلقط الأخبار وتنسيق البيانات وجمع المعلومات ليصبح الناس ويمسيهم بأخبار كل ما هو جار فى جميع أنحاء المعمورة . فالصحيفة إذن مدرسة يستكمل فيها المتعلمون علومهم ، ويتلقى عنها أنصاف المتعلمين كل معارفهم ، على أن الصحافة والصحافى لا شأن لهما بقضية (الراديو) إلا بقدر ما يهم طبيب بقضية أحد الدجالين الذين يدعون الطب ، والطب منهم براء ، فما مجلة الراديو ولا صاحبها ومعارفه إلا أدعياء صحافة يظهرون فى ثوبها ويلتصقون بها . انظروا إلى القازورات التى لطخ المتهمان بها صفحات المجلة باسم (الأدب المكشوف) و (الأدب الوضيع) لتحكموا أن المتهمين لم يقصدا أدبا ولا رميا إلى تأدب ، وإنما قصدا إلى اتجار شنيع بضاعته أحط الشهوات وأخسها .

والأدب هو فكرة تسمو بصاحبها عن ماديات الحياة وأردانها ، فيرتفع بنفسه ويمكن أن يحلق بهم إلى أسماء التفكير وينير أمامهم طرقه ويغذى روحهم ، ولست أنكر أن فى بعض كتب الأدب القديمة حكايات وملح تشير من قريب أو بعيد إلى بعض ما يتصل بالعلاقات الجنسية ، كما لا أنكر أن بعض كتاب الغرب فى العهد الحديث قد أخذوا يتجهون نحو دراسة العلاقات والميول ، ولكنى أتحدى للتهم أن يأتى بصحيفة أو كتاب تدنى إلى مثل ما تدنى هو إليه ، وأوقف صفحاته على مثل ما كتب وعثل أسلوبه وألفاظه . أما المشرع المصرى فلم يشأ أن يجارى المشرع الفرنسى فى إلغاء عقوبة كل اعتداء على حرمة الآداب فأبقاها ورفع عقوبة الغرامة ووضع لها حداً أدنى هو عشرون جنيهاً مما يدله

على رغبته فى العقاب لا على انتهاك حسن الأخلاق فقط بل على حرمة الآداب أيضاً، فأما الآداب فهى المبادىء المتمدة من المجموع ، هى تلك المبادىء الأساسية التى لا تقوم الحياة الإجتماعية والأخلاقية إلا بها ، والتى تواضعت العادات وتواضع الناس على الأخذ بها، فمن سولت له نفسه أن يبرر الإباحية أو تزوج المرأة بأكثر من رجل ، أو حرية المرأة فى جسمها ، ينتهك حرمة الآداب ، ويجب أن يأخذه القانون بعقابه وقد فعل المتهم ذلك ، أما حسن الأخلاق فأظن أن من امتهان العقول أن يقال أنها فى حاجه لتعريف، خصوصا بعد ما تعرض المتهم لموضوعات لا جدال فى أنها مما لا يصح نشره على الناس ، لو أن المتهم نشر بحثا علميا تعرض فيه لمثل ما تعرض له الوصول إلى فائدة علمية ، لجاز أن يناقش فيما قصد ، وفى الفائدة مما قصد ، ولو أنه نشر فنا أو أذاع رسما لجاز أن يقول قائل : إن هذا هو الفن ، وإن للفن حقوقا .أما والمتهم يعرض علينا أنواعا من الشهوات والفجور ، لغير ما قصد إلا إهاجة الشهوات الدنيئة ، ورغبة فى الكسب ، فليس من المعقول أن ينسب مثل هذا للعلم أو الفن . إن لنا عادات وأخلاقاً تنير أمامنا سبل التقدير ونعرف بها ما هو حسن وما هو سىء ، فلا تضعوا لقائل يقول ، فى فرنسا أو فى أمريكا يفعلون

معركة سياسية(١)

وقد أثارت الصحافة الهازلة معركة سياسية بين جريدتى السياسة وكوكب الشرق (مايو سنة ١٩٣٣) يقول الدكتور هيكل :

× اتخاذ هذه الصحف أسلحة للنضال السياسى وإفساد أذواق الجماهير ، امتدت هذه الصحف إلى حياة الناس الخاصة ، وروجت لكثير من الفساد ، أن تشجيع هذا النوع من الصحافة جناية على الأخلاق ، أكبر ماجنى على قضية هذه البلاد خلال عشر السنوات الأخيرة الاستهانة بالأخلاق ، واتخاذ الأسلحة للظفر بالخصوم السياسيين .

---

(١) راجع تفاصيل للمعركة فى كتابنا « الصحافة السياسية فى مصر » .

× أى جناية على الأخلاق أكبر من أن تقوم سائر الصحف تتناول حياة الناس الخاصة فى منازلهم ، وبين أهليهم ، ثم تردف ذلك بأخبار كلها الخلاعة والمجون .

× انتشرت هذه الصحافة التى تنال من كرامات الناس وأعراضهم انتشاراً مزعجاً فبعد أن كانت مقصورة على مجلتين أو ثلاث أصبح يظهر منها فى كل يوم مجلة ، وأصبحت تلقى من إقبال الجمهور الساذج الذى ألف هذا النوع من الكتابة ما أصبح خطراً داهماً على الأخلاق وعلى العقول .

× هذه الصحف ليست أقل خطراً ولا أقل فتكا بأخلاق الأمة من المخدرات .

من تجربة أكبر كتاب الصحافة الكاريكاتيرية : حسين شفيق المصرى

تذكرت أيام الصبا والشباب ، فى ذلك الزمن الذى كان يمر مر النسيم ، كانت مصر فى ذلك العهد تبدأ سيرها فى طريق المطالبة بالاستقلال ، كنا نلهو ونلعب ولكن كان لنا أدب وكانت لنا أخلاق ، ولم نكن ننسى أن بلادنا رازحة تحت أعباء ثقال فلم يكن مرحنا ولهونا يصرفنا عن التعاون على إلقاء تلك الأعباء عن عاتق الأمة .

ولست أنسى أن عدد المتعلمين منا كان أقل من عدد الجنيهات وأسألوا عن المهرجان الذى كان يقام تعظيما للتلميذ الذى ينال الشهادة الإبتدائية ، فإذا علمتم هذا عرفتم قلة عدد الذين كانوا يقرأون ولا تذكروا الذين كانوا يكتبون ، فإنهم كانوا كالجن نسمع بهم ولا نراهم ، فى تلك القلة من القراء كانت تعيش الصحافة وليس العجيب أنها كانت تعيش ، ولكن العجيب أنها كانت قوة قاهرة تهابها الأعداء ويتقى حربها الأصدقاء .

نشر قلم المطبوعات عدد قراء الصحف اليومية والأسبوعية فى ديسمبر ١٨٩٢ (٢٧٧٥ الاهرام — ١٤٥٥ المقطم — ١٢٠٠ المؤيد — ١٣٤٥ الأستاذ — ١٣٠٠ المقتطف — ٧٤٠ الهلال — ٦٠٠ الزراعة — ٥٤٥ الفلاح — ٤٤٣ المحروسة) و أوسع الصحف انتشاراً لم يبلغ عدد قراءها ثلاثة آلاف ، وأكبرها حجما وأطولها وأعرضها ، أربع صفحات .

فإذا علمتم أن الأهرام والمقطم كان كثير من نسخها يرسل إلى لبنان والشام والعراق والأناضول وبلاد المغرب الأقصى ، رأينا أن « الأستاذ » كان أوسع الصحف انتشاراً في مصر وصاحبه عبد الله نديم ، الكاتب الشاعر الزجال الجاد الهازل المنقطع النظير ، خطيب الثورة العرابية الذي كان الإنجليز يحسبون له ألف حساب ، وكان المصريون يرفعونه إلى صف العظماء (ومن هنا يكون عمر الصحافة الأسبوعية من عمر الأستاذ) ١٨٩٢ ، وأنها نشأت بين يدى هذا الأديب الكبير ، وهو أول من أجاد الجمع بين الجد والهزل ، في الصحافة ، وقلده المقلدون ، ومنهم من قعد به العجز عن إدراك شأوه ومنهم من لحقه ولكن بعد زمن ، ثم سبقه السابقون من المتأخرين — أما الأدب المحض ، الخالص من العامية الذي يكاد يكون سالما من اللحن ، فبدأ عهده بجريدة مصباح الشرق الأسبوعية التي نشأها « إبراهيم المويلحي » كان مصباح الشرق بأسلوبه وحسن ديباجته في نظر القوم تحفة يقتنونها ، أما الصحافة الهزلية بعد « الأستاذ » فسارت في الطريق الذي رسمه لها عبد الله نديم وارتقت من حيث الصناعة ولكنها انغمست في أقذار الهجاء الشنيع وبذاء الألفاظ ، ولم يسلم من ذلك القبح إلا « الأرغول » فقد نزهه صاحبه الشيخ محمد النجار عما يشينه من تلك السفاهة ، اللهم إلا ألفاظا أصابته بالعدوى .

أخذت الصحافة الأسبوعية بالإرتقاء بحمارة منيتى والخلاعة ، ثم الشجاعة ، ثم السيف والمسامير ، ولكنها إرتقت في كتابتها وتدهورت في أخلاقها إلى أسفل مكان ، ولكل صحيفة من هؤلاء الصحف تاريخ يخجل منه ابليس لأنها كانت تعيش بالطعن على الكبراء والخوض في الأعراض ولم يكن في أصحابها كاتب إلا محمد توفيق صاحب (حمارة منيتى) فقد كان أديبا يكتب وينظم الشعر والزجل بأسلوب يضحك الثكلى والآخرون نأميون ، كان يكتب لهم كتاب مستترون وراءهم فلا يعرفون الجمهور ، اذكر منهم الأدباء أمام العبد ، خليل نظير ، وواحد صاحبنا ندم بعد كده وربنا تاب عليه

(يقصد نفسه) . ظهرت حمارة منيتى ١٨٩٨ فجأة ، فكانت ترفس هذا وتعض هذا وتنهق في وجه هذا ، ولم يسلم الأستاذ محمد عبده من شرها وراجت رواجالم تبلغ إليه صحيفة غيرها، حتى لقد وصل ما يباع منها في الأسواق إلى أكثر من أربعين ألف نسخة مع قلة عدد المتعلمين ، وكان إفحاش الحماره في السب والقذف بالبذاءة المنكرة ، نكبة على الأدب القومي ، فقد قلدها كتاب الصحف الأسبوعية في قبح المذهب ، وخالفها بعضهم في طريقة الكتابة فجاءوا بأساليب جديدة منها النكت التي كانت تنشر في مجلتي الشجاعة والسيف من بعدها وهما لأحمد عباس وقد كان لايحسن القراءة والكتابة ولكنه كان شعلة ذكاء له بديهة ظاهرة وروح من أخف الأرواح وله نوادر ظريفة.

وكانت الصحف في تلك الأيام تحاول أن تكون كالشجاعة والسيف فتسخف سخفاً تشمئز منه النفوس فلا يقام لها وزن فتختفي بعد صدروها بأسابيع ، ولم تكن الصحف الأسبوعية كلها للهزل في تلك الأيام فقد ظهرت على الشجاعة والسيف صحف آخر منذ ثلاثين سنة (١٩٠٦) وأصحابها في حكم الأميين ، وكان يكتبها لهم رجل عجيب يدعى الشيخ الشربتلي ، رأيته رأى العين يجلس في بعض مشارب القهوة بالعتبة الخضراء ويكتب الجريدة كلها في ساعتين ، وهي أربع صفحات من القطع الكبير ، وقد حاولت أن أعرف سبب وجود تلك الصحف فلم أستطع لأني لم أقدر على فهم ما كان الشربتلي يكتبه ولا أظنه كان يفهم ما يكتب .

(٢) ابتدأت بالأستاذ فصباح الشرق ، فحمارة منيتي فالشجاعة فالسيف وجاء بعد ذلك التطهر من ارجاس المطاعن الشخصية والاقذاع فتوليت كتابة جريدة السيف عام ١٩١٤ فجعلتها صحيفة سياسية وأدب وحولت دفة الهجوم عن الأشخاص إلى ناحية الحكومة والمحتلين وأنصارهم من الجماعات والرجال السياسيين ، فراج السيف حتى طبع منه أربعون ألف نسخة في الأسبوع ، ومعاذ الله أن أدعى أنني أول من طهر الصحافة الأسبوعية

من الأردان ، فقد سبقني عبد الله نديم وإبراهيم المويلحى ، والشيخ محمد النجار أصحاب الأستاذ ومصباح الشرق والأرغول وأستاذاى محمد مسعود وحافظ عوض، فقد أنشأ مجلة خيال الظل ١٩٠٦ وهى وجريدة السياسة المصورة لم يعيشا طويلا لأسباب غير الكساد فقد كانتا رائجتين كل الرواج ، لأنهما أقدم الصحف التى ابتدعت التصوير ، وعنها أخذ الكشكول ومجلات دار الهلال وروز اليوسف وآخر ساعة .

(٢) عدت بنفسى إلى عهد الشباب حين كنا ندخل قهوة الرقص والغناء فنرى أعاجيب : الألدرادو وحياة النفوس وألف ليلة ونسمع بهية المحلاوية وليلة وقمر وتوحيده والواندِيه وملكه سرور وأضرابهن من الغيد الحسان ولا سيما الفنانة الباهرة شفيقة القبطية التى طالما جن بها العقلاء ، وتذكرت الوارثين من أبناء العظماء والعمد والأعيان والأغنياء والواحد منهم يدخل الملهى ووراءه العدد العديد من المحاسيب والأتباع الذين إذا غضب غضبوا وهم لا يعلمون سبب غضبة ، وضربوا من يعرفون ومن لا يعرفون بالمراوات والكراسى وبونيات الحديد ، وخلطوا الحابل بالنابل وتركوا المكان قائما حصيفا .

وكان الوارث أو العمدة أو الوجيه يدخل المرقص كما يدخل غيره من أنداده فيتبارون فى البذل والسخاء ، فيطربون وبيوتهم تخرب بالإسراف وهم لا يشعرون .

ولا يزالون فى هذا الجنون حتى يأتى على كل منهم وقت يحتاج فيه إلى الخبز . ولست أنسى ما حييت ذلك المهرج إلا شيب (الشيخ بحر) وكانوا يلقبونه بالخطيب ، ومهمته أن يتقاذف هو وبعض الناس شتائم مضحكة بين فترات الرقص والغناء على النحو المعروف بقولهم اشتمنى . أما شارع وجه البركة فكان قطعة من جنة النعيم، بما فيه من الملاهى الشائعة والحانات الفسيحة الجنبات التى تعج بمن فيها عجيجا ، والمصابيح تتلألأ فيها وعلى أبوابها ولها مثل نور الشمس فى النهار . وفى شارع عبد العزيز ، نجد فرحة المحزون وبهجة المكروب والسعادة التى يصيغها الشيخ سلامة حجازى على قصاد تياترو اسكندر فرج ،

والشيخ سلامه وتلاميذه يمثلون الروايات العربية السامية المعانى الفصيحة الكلام من وضع نجيب الحداد واسماعيل عاصم ، روايات صلاح الدين والسيد وقلب الأسد ، وتلماك ، وعائده ، واليتيمتين وغيرها من قصص التاريخ والأخلاق . والشيخ سلامة يضاهى أعظم ممثلى أوربا ، ويعلو على البلابل بالصوت البديع ، وليس له ند فى إيقاع الألحان لا فى الشرق ولا فى الغرب . ولم يكن الشيخ سلامة حجازى عظيما فى التمثيل والغناء إلا بقدر عظمته فى الأخلاق فلا وقاحة بين المتفرجين ولا تبذل للمتفرجات .

(٣) الكاتب يكتب كلة عن حفلة طرب وأنس وإبتهاج ، وقانون العقوبات يرفرف بأوراقه على رأسه وفيه مواد أشد خطرا من المواد المفرقعة والقلم عن يمينه والمقص عن يساره يقص به من الصحف والكتب والمنشورات ما يستشهد به على صدق ما يقول . فلا يدرى من يراه بمقص ، أمحرر هو أم حلاق . ولا بد لهذه المقتطفات المقصوصة من الصحف ليلصق بالورق الذى يكتب عليه فلا يفرغ من مقاله حتى يكون كالطفل الذى أكل عسلا وطحينة أو الإسكاف الذى رقع حذاء فلوث يديه بالرسراس .

وهذا قليل إذا رأى الصحافى حادثا وكتب عليه كما رآه ثم فوجىء ببلاغ رسمى يكذبه ، وهو مخير بين أن يبتلع هذا التكذيب فى برشامة خوفا من المحاكمة ، وإما أن يجىء بالبراهين على صدقه بعد أن فاتت الحادثة وتفرق الذين رأوها معه وضاعت أدلتها .

الكاريكاتير والصحف الهزلية

يقول سليمان فوزى أبرز رجال الصحافة الهزلية فى مصر (الكشكول) ١٩٢١ — ١٩٤٠ تقريبا — أن أول من أدخل التصوير الهزلى فى الصحف العربية هو (يعقوب أبو نظارة) وكان مدرسا فى المدارس الأميرية واشتغل بالتمثيل وأنشأ جريدته «أبو نظارة» فى أواخر عصر اسماعيل الذى غضب عليه فقصد إلى باريس وأصدر جريدة أبو نظارة وجرائد أخرى، ثم (عبد الحميد زكى)[1] الذى أصدر جريدة مصورة بالألوان باسم السياسة المصورة كانت وطبعها أولا فى فينا ثم فى روما ثم فى مصر وكان (خليل زينيه) المحرر بالأهرام قد إتفق مع جريدة (البتى باريزيان) على أن ترسل إليه إعدادها مصورة بدون متن (مكان الكتابة تحت الصور يترك أبيضا) وكانت متى وردت يملأها بما أعده لها من مادة باللغة العربية، ثم أصدر: الراوى والمرأة والمصور، ثم أصدر (عبد المجيد كامل) جريدة هزلية باسم (البابا غللو المصرى) طبع صورها الكاريكاتورية على الحجر، وأصدر (محمد المويلحى) جريدة أبو نواس فكانت أرقى صحيفة هزلية كاريكاتورية، وأصدر (ابراهيم رمزى) مجلة أسبوعية باسم الفيوم، ثم حولها إلى جريدة وكان يصدرها دائما بصورة هزلية محفورة على الخشب، ثم أصدر (يوسف حتاته) جريدة لها صحيفة هزلية ونشر صورة الملكة فكتوريا (ملكة بريطانيا إذ ذاك) برأس إنسان وجثة حيوان معلق فى مشنقه، واهتمت النيابة بالموضوع وأحس بالعقاب ففر إلى الاستانة.

---

(١) تعد (السياسة المصورة) فى نظر مؤرخى الصحافة الهزلية أول مجلة سياسية مصرية مصورة، وكان عبد الحميد زكى عام ١٩٠٧ ضابطا بالجيش المصرى ثم أصدر مجلة عام ١٩٠٨ — وقد رأينا العدد ٣٩ (يناير ١٩٠٩) وكانت تطبع ١٢ ألف نسخة، وقد توقفت ثم عادت إلى الصدور عام ١٩١٢ وكانت إدارتها فى شارع المعزى وقد اشترك فى تحريرها: حافظ إبراهيم، أحمد نسيم، جرجى زيدان، حفنى ناصف، عبدالعزيز البشرى وقد حوت تعليقات سياسية لاذعة وشعر سياسى ورسوم كاريكاتورية ملونة.

ثم أصدر (محمد مسعود وأحمد حافظ عوض) جريدة (هاهاها) ثم أصدر (حافظ عوض) وحده (خيال الظل) وأصدر (طاهر حقي) الجريدة الأسبوعية كاريكاتريه وبعد الحرب العالمية (١٩٢١) أدخل (الكشكول) في تحريره الصحف الكاريكاتورية ، وبدأها بلون واحد ، وكان ينشر كل أسبوع أربع صور ، لكل فنان صورة ، وكان أربعة من المصورين يعملون معه ، وقد اشترك فيه محمود مختار ومحمد حسن ، وعياد ، وأحمد صبري ، ومحمد مندور ، ومصطفى مختار ، واستمر التصوير الهزلي يتقدم بتتابع الحوادث .

ويرى « سليمان فوزى » أن مهمة الجرائد الكاريكاتورية تختلف عن الجرائد الأخرى ، وأبرز معالم هذا الاختلاف ، هو البحث عن مواطن النقد في الأعمال العامة ، وإبرازها في وجوه أصحابها وتكبير ما يكون منها صغيرا ، وإظهارها واضحة جليا ، ليراه الناظر إليه كأنما يراه في أصله ، فليس شأن المصور الكاريكاتوري أن يرى الحسنات ، كما أن الصور التي تتضمن المدح والثناء ليست إلا عيبا فنيا ، فاضحا في التصوير الهزلي ، ولا يهضمها الفن ولا يتذوقها . وعنده أن مهارة المصور الكاريكاتوري أو مهارة مديري سياسة الجرائد الكاريكاتورية تنصب على تصوير العيوب ، تصويرا يجعلها بارزة بقدر علاقتها بالجمهور والمصلحة العامة ، ومن الناس من يكون مطبوعا على الهزل فتجيء ألفاظه صوراً كاريكاتورية وهو لا يتعمد ، وكلما كان المفكر (ابن بلد) كانت الصورة الهزلية ناضجة لأذعة ، ووضع الصورة الهزلية متعب غاية التعب ، وواضعها يسهر الليالي ويكد ذهنه طوال الأيام لتجيء موفقه ، ويمكن القول أن الصحف الكاريكاتورية لا تتفوق إلا في الحوادث السياسية العامة أو الانقلابات أو في البرلمان الذي تكون جلساته حامية ، ولكي يضع المصور صورة مضبوطة اللامح بارزة الأوضاع المقصودة منها يحتاج إلى جهود ونفوذ ، وإذا كانت قد نجحت في مصر فذلك لأننا كنا نحمل الزعماء والسياسيين والوزراء على الجلوس أمام المصور في الوضع الذي يريده

هذا المصور لا الذى يتطلبه مركز المصور ليرسم شدقيه على حدة ، وانفه على حدة ، وأذنه على حدة ، وفمه على حده ، ولفتته إلى اليمين أو اليسار ، وهكذا حتى لا تتغير ملامح الوجه والشكل فى أى وضع أراد المصور أن يضع صورته .

ويقول سليمان فوزى : أن الكشكول والمتاعب التى لاقاها أصدقائه والمشتغلون فيه لم تستطع الاستمرار فى خدمة فن التصوير الهزلى إلا بفضل القضاء العادل وأحكامه وفضل الذين تولوا الدفاع عنه من المحامين ، فبقوة هذه الأحكام وتحت رايتها أمكن أن يتشجع أصحاب الصحف الهزلية وأن ينهض فن التصوير الهزلى ، وأن تكثر صحفه وتتعدد » ا . ه

فن الكاريكاتير

٢ — ويتحدث ابراهيم هدايه عن فن الكاريكاتير فيقول : يتكون الكاريكاتير من العناصر الثلاثة : الشكل ، الحركة . الأخلاق واللفظ . المفروض أن الرسام يعرف الخطوط المميزة فى وجه الشخص ، ويعرف مقاييس الجمال ومن هذه يسقط على الأجزاء البارزة عن التنظيم فيبرزها أكثر ويبالغ فيها إلى المقدار الذى يراه كافيا . وكل ذلك مع المحافظة على الشبه ثم ينتقل إلى الجسم فان كان نحيلا زاده نحولا ، ويمثل ذلك إن كان طويلا أو قصيرا · وبعد ذلك يعود إلى ملابسه فيهدلها كاللازم ثم إلى عصاه إن كان من عكون العصا أو إلى مظلة إن كان من أصحاب المظلات وغير ذلك من حاجاته التى اشتهر بملازمتها له ، وأخيرا إلى طربوشه ، هذا الطربوش المسكين قد برع الكاريكاتير المصرى بحق ، أكثر من كاريكاتير القبعة ، لأن فورمة الطربوش قابلة للعبث الكاريكاتيرى أكثر من جميع قبعات العالم وخصوصا مسألة الزر إذا كان الشخص خطيب فستجد أن شدقيه مفتوحان بمبالغة مضحكة وتجد الحماس قد طير طربوشه قسرا إلى الوراء أو لعب بزره كيفما يشاء . وهكذا حركات يده التى يحاول بها أن يقنع . لكل شخص أخلاقه ، ولكن الرسام سيعنى بإبرازها وخصوصا المعنية بالذات فى موضوع الصورة ،

جشمه ، نجله ، حرصه ، دهاؤه ، ما يضمر من شريرية . أما اللفظ فيعبر عنه بأسفل الصورة بما يناسب الموقف .

سيكولوجية الكاريكاتير

٣ — وفى حديث مع الرسام «ساروخان» يكشف الرسام عن فنه وفهمه لأخلاق الناس وطبائعهم . س : ماهى المظاهر الخارجية التى تدلك على مواطن الشخص الذى ترسمه .

ج : عندما أنظر إلى شخص أبحث فى وجهه أولا . وفى هندامه وحركاته ثانيا عن الظاهرة الخارجية التى لا بد أن تدل على ناحية من نواحى خلقه وطبيعته ونفسيته ، ولا بد أن يكون فى وجه كل شخص من الأشخاص ظاهرة من هذا النوع . خذ مثلا الطربوش فان طريقه وضعه على الرأس تجعله أحيانا جزءاً متمماً لحبين صاحبه فيصبح قطعة غير منفصلة من شخصيته ، بل يصبح ذلك الطربوش وحده شخصية قائمة بذاتها مادام فى موضعه وفى وضعه على الرأس . وهناك أيضا العيون ، العيون التى هى مرآة النفس ، والتى لا يمكن للباحث المتعمق فى بحثه إلا أن يستدل منها على مكنونات الشخص الذى يراه أمامه ، وهناك أيضا الأنف والابتسامة والأذنان والشعر والعنق والذقن وكل ما يقع عليه النظر . أن كثيرين من الناس يشبه بعضهم بعضا فى الشكل الخارجى ، وهؤلاء لا بد أن يشبه بعضهم بعضا من الناحية النفسية والعقلية أيضا فالشخص الذى يكون هيئته الخارجية عادية أو إذا شئت فقل سخيفة ، لا بد أن يكون شخصيته الداخلية التى لا ترى عادية أو سخيفة، ففى كل إنسان طائفة من المميزات الحسنة والسيئة وفى كل إنسان عيوب وفضائل وليس فى استطاعة أحد من الناس أن يفلت من مراقبة الباحث المدقق وإذا أراد أن يدرس شخصيته ويعرف نفسية من مجرد النظر إليه ، غير أنى ألفت النظر إلى شىء آخر ، هو أننى لا أكتفى بالنظر إلى شخص مرة واحدة أو مرتين لكى استخلص الرسم الذى أضعه له والذى يصبح فى نظرى صورة

حية لصاحبه ، كلا ، بل أنني أراقب الأشخاص مراقبة طويلة فى حياتهم الخاصة والعامة وأقارن بين أعمالهم وبين ماتتبينه من أسارير وجوههم وسماتهم وهكذا أثق فى صحة ملاحظاتى واستخلص من ذلك الدرس الطويل الرسم الذى أضعه .

تطور الكاريكاتير

٤ — وتحدث أحمد راسم عن تطور فن الكاريكاتير فقال :

إن « الإنتقاد مع التهكم » هو أول مفهوم للحرية وأولى خصائصها وقد أخذ منه الكاريكاتور يتطور حتى صار الأسلوب المفضل للانتقاد والتهكم والتعبير . واستمد حيوته من الصحافة واندمج فيها فسعت فى سبيل الذيوع والإنتشار، ظل عاشق الصحافة حتى أصبح فنا قائما بذاته ولا شك أن الكاريكاتور سلاح فى يد المعارض سياسة كانت أو جماعة ويتناول بالنقد مختلف النواحى الإجتماعية وبحيث يمكن التعرف إلى المجتمع فى مختلف ميادينه وفى كل فترة من الزمن .. وبالرغم من الرقابة عليه فإنه استطاع أن ينفذ إلى غايته فى مخاطبة الشعب بالإيعاز المنف والغمز اللطيف ، وقوام الكاريكاتير التعبير بخطوط قليلة وبسيطة وبإيجاز واقتضاب لا عن هيئة المرء فحسب بل عن كامل شخصيته وعما يوحيه على أن يبرز ما فى هذه الشخصية من ناحية الطرافة وأن يضغط على ناحية الضعف فى خلقه ويجسم أغرب ما فى الملامح .

× لا يشترط فيه الأمانة للمؤرخ ولكن إعطاء خطوط تفصح عن المراد بإيجاز وقوة ،وقد سار الكاريكاتير فى طريق طويل مدى مئتى سنة ومر بتطورات كثيرة حتى بلغ هذه المستحبة المنتجة وهذا الإيجاز الرائع، وكان كاريكاتور العصر الماضى مثقلا بخيوط تتشابك وتتعارض ولأول مرة فى مجلة « الالستراسيون » (الفرنسية) وكاريكاتيرها ، بدأ الكاريكاتير فنا مستقلا يثبت على الزمن، ففى فرنسا برز أمثال: سيفيب وايفل وشورد ويد ومونيه وجاك ، لكل واحد مدرسته فى الفن الكاريكاتيرى ومدرسته

فى الفن والإيحاء وخلق الجو واستثارة العاطفة . ولا شىء يسمو على تقدم أو ينجو من تهكمهم . تهكم قوامه « الغمز اللبق — الإشارة البعيدة ، الوحى — السذاجة التى تخفى وخزا هداما » لكل واحد أنموذجه المفضل يعود إليه ويبرزه فى شتى المناسبات والأوضاع ولكل شعب أسلوبه فى هذا الباب . فالكاريكاتير الإنجليزى (لو) وقد أرخ المجمع الإنكليزى بغرائب أطواره السياسية والإنجليزية بعمميانها المحيرة فى براعة وذوق فائض .

أما الكاريكاتور الأمريكى فلا يعدو مجرد الرسم الهزلى . وقد دخل الفن الكاريكاتورى الأمريكى الرسوم المتحركة Dessin Animé التى ابتدعها الفنان دسنى (درنى) إلا رسوما هزلية تناول المجتمع والسياسة والأحداث بنقد لطيف وهى ترمى إلى إثارة المرح والسرور .

وبعد الحرب العالمية الماضية انتشر الكاريكاتير فى الشرق وكانت قبل الحرب جريدة (أبو نضارة) وجريدة الدبور فى لبنان نشرت الفن الكاريكتاتورى والنهار فى لبنان صحيفة يومية وارتقى الفن الكاريكاتورى متطوراً مع الصحافة .

ويرى العقاد أن الرسم الكاريكاتيرى من ناحيته العامة فن جميل يستحق المكانة العالية التى وصل إليها من أوربا وأمريكا وغيرهما من بلاد الحضارة . أما الرسم الكاريكاتيرى فى مصر خاصة فإنه فن حديث العهد إلى حد ما ولكنه بلغ درجة محمودة من التقدم والإرتقاء وقال أن أحسن الصور الكاريكاتيرية التى نشرت لى ، هى صورة تعبر فيها ألطف تعبير عن ناحية بعينها من نواحى شخصيتى أبدعتها ريشة الأستاذ سانتس ونشرت فى الإثنين منذ سنوات .

٥ — ويرى نقاد فن الكاريكاتير : أن أبرز معالم الفن هو :

إبراز ناحية معينة من الشخصية .

المبالغة فى إبراز بعض الصفات المرسومة إلى المبالغة فى تشويهها .

ولما كان صاروخان (روز اليوسف وآخر ساعة) وسانتس (الكشكول) هما من أوائل رسامى النقد الهزلى فى الثلاثينات فقد جرت أبحاث حول كل منهما : أما (صاروخان) فهو يعمد إلى دراسة الشخصية التى يزمع رسمها ويلم بصفات صاحبها وعاداته، أما (سانتس) فهو يبحث عن النواحى المضحكة فى الشخصية التى يتناولها ريشته ، وعما خفى من نقط الضعف فى روحها وعمله يوصف بالتخطيط الباسم ، وكشف النواحى الهزلية للروح والمادة ، وامتزاج موهبة الفن فى الرسم مع بلاغته فى النقد والتعبير مع فلسفته الساخرة .

وريشة صاروخان كما يقول تلميذه «رخا» رغم شدة اللذع فيها ، خالية من الحقد وهو لم يحاول قط أن يجامل شخصياته أو يلين فى رسم فلاح خشن المظهر مثلا فيحيطه بشىء التنعم ، وهو يرحم عن عواطف الضعف فى الشخصيات السياسية ، ووجوهه مليئة بالحياة ، حافظة لأشباهها ، وهو يسجل جميع احساسات الروح بالظل والنور ، ويرسم ملامح الغباوة والضعف والدهاء والمكر مما يعجز عنه الكاتب بقلمه .

* * *

وقد ابتكر الكاريكاتير شخصية (المصرى أفندى) : آخر ساعة ، (مجنون المصور) المصور ، (مصر) فتاة تمثل مصر ، (جحا) مجلة الفكاهة ، (مارس) إله الحرب عند الإغريق ، (جون بول) بريطانيا ، العم سام (الولايات المتحدة) .

وقد حاول عبد القادر حمزة أن يثبت أن فن الكاريكاتير كان من إختراع الفنانين المصريين القدماء على عهد الفراعنة ، وأنهم لم يقصروه على التفكهة بل أرادوا به معانى سياسية واجتماعية .

ويرى (توفيق حبيب) فى صحافة الكاريكاتير رأيا مخالفا لرأى أنصارها يقول : أن صحف الكاريكاتير قد عملت منذ اليوم الأول على نهش الأعراض ، وأن صحف حارة

منيتى ، والخلاعة والشجاعة والسيف كان عمادها الطعن فى الأشخاص وأن (إبراهيم المزبى) أصدر جريدة وأسماها (الهلال العثمانى) للطعن فى منافساته من النسوة الساقطات .

سانتس وصاروخان

توفى « سانتس » فى ديسمبر ١٩٤٥ وقالت جريدة المصور عنه :أنه فنان من أعظم فنانى الكاريكاتير لا تزال رسومه الهزلية تزين صحائف أعداد المصور القديمة بضع سنوات ، كان خلالها عميد رسامى دار الهلال ، ورغم أنه من أصل أسبانى فهو من أقدر الرسامين على فهم الروح المصرية ومجاراتها ، وكأنه مصرى صميم ، وله لوحات فنية غير هزلية ، كما أنه له تماثيل عدة تتألف منها مجموعة ثمينة . وكان سانتس قد أقام فى مصراً كثر من ثلاثين عاما وعمل مدرسا فى الفنون الجميلة وعمل فى الكشكول .

أما صاروخان فقد عمل فى مجلة آخر ساعة ١٥ عاما ، وفنه مشبع بروح النكتة اللاذعة ، ومن أعمال صاروخان إهتمامه بعنق عبد الفتاح يحيى (أحد رؤساء الوزراء السابقين) فقد سافر إلى الإسكندرية وكانت له مقابلة فى مصر فأبرق إلى السفير معتذرا ، ولكن ريشة صاروخان رأت أن عبد الفتاح يحيى كان فى إستطاعته الحضور لمقابلة السفير مستعينا بعنقه الطويل ، فيبعث برأسه من الإسكندرية إلى القاهرة متخطيا كبارى النيل ومزلقانات السكة الحديد وحواجز المرور حتى تدخل غرفة السفير .

جريدة (ها ها ها) (٨ مارس ١٩٠٧)

قدمها صاحبها فى العدد الأول :«صحيفة هزلية تصويرية أسبوعية» لصاحبها محمد مسعود وحافظ عوض (وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا) .

الغرض من الجريدة : أن تصور الحوادث والأشخاص فى المسائل السياسية بصور يبقى لها تأثيرها فى النفوس ، وأن الصور تؤثر فى المجموع ، وتثبت فى العقل أو على شبكة العين بخلاف للمقالات فانها تمسح الواحدة الأخرى ، وتنسى بعد قراءتها ، وبالاختصار نريد أن نوجد شيئاً جديداً فى الصحافة العربية هو « الرسم الهزلى السياسى » :

قال: والغرض من الكاريكاتير — على ما أعرف — التمكن من تصوير الناس على حقائقهم وراء ستار الضحك والاستخفاف والهزل، وقد صار فى أوربا فنا مهما، بل هو اليوم من الفنون الجميلة التى لا يجيد فيها إلا النوابغ، ونوابغ النوابغ الذين لا يوجد لهم فى مصر مثيل، وإذا كان فى القراء من يحتاج إلى تفسير لهذه الصور فليس لمثله تصدر هذه الجريدة، لأن الغرض من هذه الجرائد التلبيس والتعمية والادغام والابهام وكل ما تشاء مما يدخل تحت كلمة (الحدق يفهم) .

وقد أصدرت مجلة (هاهاها) عددا واحداً، ثم أصدر حافظ دوض بمفرده (مجلة خيال الظل) فى الأسبوع الثانى ١٥/٣/١٩٠٧ . ثم أعادها بعد الحرب العالمية الأولى فى مواجهة جريدة الكشكول حيث كانت تمثل وجهة نظر الوفد بينما كانت الكشكول تمثل وجهة نظر خصومه .

صحافة الأدب والثقافة

يمكن أن يوصف بالصحافة الأدبية فى هذه الفترة كل صحافة غير سياسة . فقد كانت الصحف اليومية متخصصة فى شئون السياسة ، بينما مزجت المجلات الشهرية ونصف الشهرية والأسبوعية بين شئون السياسة ودراسات العمران والاقتصاد والتجارة وغيرهم . ثم بدأ تيار جديد فى هذه الصحافة يدخل الأدب ضمن هذه الموضوعات ، وفى عام واحد ظهرت مجلتا « الجنان » فى بيروت و « روضة المدارس » المصرية هذه العبارة تعريفا بهدفها :

تعلّم العلم واقرأ   تحز فخار النبوّة
فالله قال ليحيى   خذ الكتاب بقوة

ومنذ ذلك التاريخ بدأ عهد يمكن أن يطلق عليه « فجر الصحافة الأدبية » يتمثل فى كل صحافة غير سياسة . والواقع أن الكتّاب فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر كانوا يفهمون الصحافة الأدبية على أنها الصحافة التى تأخذ من كل شىء بطرف . وأشار أغلبها فى افتتاحيات أعدادها الأولى إلى تجنب البحث فى السياسة والدين .

أما ما عدا ذلك من مباحثات الاجتماع أو الاقتصاد أو العلوم أو القانون أو الجغرافيا فهى داخلة فى الصحافة الأدبية غير منفصلة عنها . وقد ظل هذا المفهوم ساريا خلال أربعين سنة تقريبا ، ظهرت خلالها مجلات متخصصة فى العلوم وحدها « كالمقتطف » ومجلات متخصصة فى الطب « كاليعسوب » و « الطبيب » ومجلات متخصصة فى الهندسة . ثم تطورت بعض هذه المجلات وأدخلت الأدب ضمن دراستها كما فعل « المقتطف » بعد أكثر من عشر سنوات من صدوره . حتى لفظة (الآداب) عندما أطلقها الشيخ على يوسف على مجلته لم تكن تعنى الأدب وحده وإنما عنيت مختلف مباحث الثقافة .

وفى خلال هذه الفترة كانت الصحف تمزج بين مباحث الأدب والعلم والتاريخ ومختلف الفنون الأخرى ، ولم تظهر صحف متخصصة فى الأدب الخالص إلا فى عام ١٩١٠ بظهور مجلة « الزهور » لأنطوان الجميل وأمين تقى الدين و « البيان » للشيخ عبد الرحمن البرقوقى سنة ١٩١١ . وقد غلب الطابع العلمى على المجلات غير السياسية حتى ليمكن القول بأنه كان أبرز من الطابع الأدبى الخالص . كما كانت دراسات أحوال الوطن الإسلامى والعربى من أبرز موضوعات هذه المجلات ومن الصحافة الأدبية ذات الطابع الخاص : المجلات النسوية وقد صدرت أولاها « أنيس الجليس » عام ١٨٩٨ ثم صدرت « السيدات والرجال » عام ١٩٠٣ و « فتاة الشرق » عام ١٩٠٦ .

وهناك مجلات غلب عليها طابع الدين والثقافة الروحية « كالمنار » و « المشرق » .

وأهم المجلات الأدبية التى صدرت فى هذه الفترة هى :

الجنان (بطرس البستانى) ١٨٧٠ — بيروت

روضة المدارس (رفاعة الطهطاوى) ١٨٧٠

بيروت المقتطف(*) (يعقوب صروف وفارس نمر) ١٨٧٦

القاهرة الآدب (على يوسف) ١٨٨٧

القاهرة : الأستاذ (عبدالله النديم) ١٨٩٢

القاهرة: الهلال (جرجى زيدان) ١٨٩٢

القاهرة : والبيان (إبراهيم اليازجى)١٨٩٧

القاهرة: الضياء(إبراهيم اليازجى) ١٨٩٨ — القاهرة

بيروت: المشرق (لويس شيخو) ١٨٩٨ —

اسكندرية : أنيس الجليس (اسكندره أفرينو) ١٨٩٨

القاهرة: الموسوعات(أحمد حافظ عوض)١٨٩٨

القاهرة: مصباح الشرق(إبراهيم المويلحى) — ١٨٩٨

القاهرة : الجامعة (فرح أنطوان) ١٨٩٩ —

القاهرة : المجلة المصرية(خليل مطران)١٩٠٠

* صدر المقتطف فى بيروت ثم انتقل إلى القاهرة وصدرت الجامعة فى القاهرة ثم انتقلت إلى نيويورك .

القاهرة : مجلة المجلات العربية (محمود حسيب) — ١٩٠١ السيدات والرجال (روز انطوان) ١٩٠٣

القاهرة : مجلة سركيس (سليم سركيس) ١٩٠٥ — القاهرة : فتاة الشرق (لبيبة هاشم) ١٩٠٦ —

المقتبس (محمـــد كرد على) ١٩٠٦ لبنان : العرفان (أحمد عارف الزين) ١٩٠٩ —

القاهرة : الزهور (أنطوان الجميل وأمين تقى الدين) — ١٩١٠ بغداد : لغة العرب (انستاس مارى الكرملى) — ١٩١١

القاهرة : البيان (عبد الرحمن البرقوقى) ١٩١١ .

تطور الصحافة الأدبية

ويبدو صورة تطور الصحافة الأدبية واضحا فى هذه المجلات : ف « الجنان » مجلة سياسية علمية أدبية تاريخية ، شعارها « حب الوطن من الإيمان » ، عنى مؤسسها بطرس البستانى بأحوال العمران وتطور المجتمع فى هذه الفترة ، وجعل للثقافة الأدبية والتاريخية جانبا واضحا فيها . وفى العدد الأول (كانون الثانى ١٨٧٠) يتحدث عن بلاغة العرب . وينشر أولى تجارب القصة له (قصة الهيام فى جنان الشام) ثم يواصل دراساته فيُعنى بالتراجم ويكتب عن سيبويه وابن سينا والمتنبى ، وينشر دراسة عن اللغات (لويس صابونجى) وفى مجلة « الجنان » كتبت أول كاتبة عربية (مريانا مراش) فى الصحف مقالها الأول (شامة الجنان) ثم اتبعته بمقال (جنون القلم) وتضمنت الصفحة الأخيرة ملحا وأشعارا وحكما ، وتناولت أبحاثها : الحرب والتمدن وحقوق النساء وفضل اللغة العربية .

وأبرز دور قامت به فى هذه الفترة هو نشر الدعوة إلى « تحرير المرأة » بخطاب بطرس البستانى المشهور . وبها نشرت فصول الساجلة الأولى تقريبا فى معارك الأدب العربى بين اليازجى والشدياق . وكانت تحمل رأى إبراهيم اليازجى حيث كان ينشر الشدياق رده فى مجلته « الجوائب » . كما نشرت كثيرا من القصائد لنا صيف وإبراهيم اليازجى .

أما « روضة المدارس » فقد صدّرت بعبارة : « تحت نظارة حضرة رفاعة بك » ناظر قلم الترجمة . مباشر تحريرها : على فهمى رفاعة » . وكانت ذات طابع مدرسى الثقافة ، فعنيت

بنشر فصول متعددة من التاريخ والجغرافيا والنحو . وبها نشرت (المقامة الفكرية فى المملكة الباطنية) ترجمة عبد الله فكرى ، و(وقدماء الجرمانيين) لمحمد توفيق أحمد. كما عنيت ببعث المؤلفات القديمة فأحيت (سياحة حسن الطبيب البغدادى إلى مصر)، واهتمت بأبحاث متعددة عن (تخطيط الصحراء الكبرى) لأحمد نجيب ، ونبذة فى الرسم لحسن والى ، والألحان والأغانى لعثمان ممدوح .

كما نشرت كتاب (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) ترجمة رفاعة الطهطاوى ، وأبحاثا إجتماعية وفلسفية مثل (قدوة الفرع بأصله فى حب الوطن وأهله) لعلى فهمى رفاعة ، و (توقف الجمعية على تعاقب الأجيال البشرية) له أيضا ، (وكانوا يطلقون لفظة « الجمعية » على ما يعرف اليوم بالمجتمع) .

أما « المقتطف » فقد بدأ على نحو علمى خالص . ولم تظهر الأبحاث الأدبية فيه إلا بعد عشر سنوات ، أى حوالى عام ١٨٨٥ ، حيث بدأ يكتب عن أصل الكتابة والألفاظ الأدبية والتمثيل العربى والخط العربى ، وأخذ منذ عام ١٩٠١ فى نشر الشعر ونقد دواوينه نقد ديوان حافظ لأسعد داغر) وترجمة الروايات فترجم رواية « أمفية » عن الإنجليزية .

أما « الهلال » فقد كان طابعه فى البحث التاريخى واضح الدلالة ، ولكنه عنى بنشر القصة عندما كتب جرجى زيدان (أرمانوسة المصرية) و (فتاة غسان) واهتم إلى جانب ذلك بدراسات التراجم وأبحاث اللغة والتعريب وتاريخ الأدب .

وعنى « الضياء » ثم « البيان » بالعلوم ، فقد كان الشيخ إبراهيم اليازجى محبا لعلوم الفلك والكواكب ، فكان ذلك أبرز اهتمام مجلتيه . وكان أبرز أعماله فى « الضياء » بحثه عن (لغة الجرائد) والعناية بالمطارحات ومرادفات الألفاظ . وكان فنه هو تحويل الأدب إلى علم ، فهو يتحدث عن القمر كشاعر ثم لا يلبث أن يتحدث عنه كعالم يقول :

« . . . إذا استقل فى فلكه يسبح فوق الوهاد والآكام ، ورأيته يتراجع مع النجم وهو مجدّ فى وجهته إلى الأمام ، فتخطى الأبراج وكأنه واقف لا يحس له الناظرون انتقالا ، مثال الرونق والجمال وآية الأبهة والجلال . . . إذا برز من الأفق إنهزمت فى وجه جيوش الظلماء ، وانفرجت الكواكب لمره فى عرض السماء . . . » .

ثم يقول « .. أما شكل القمر ، فالظاهر أنه كروى على الجملة ، إلا أن الذى يستقبلنا منه إنما هو أحد صفحيه دون آخر . . . » . وقد تناولت مجلتاه (الضياء والبيان) دراسات فى التربية وأشمة رنتجن والقوى النفسية للاطفال والزجاج والطاعون والصائبة .

ونشر شعرا لنجيب الحداد ، من ذلك قوله :

من بدور تسير فى المركبات	ومن القبمات فى هالات
ملكتها أزاهر الصنع من	نبت الأيادى لا أيادى النبات
اقحوان يفاخر الثغر فى الحسن	وورد يفاخـر الوجنـات

وكتب فيها شكيب أرسلان واحمد زكى الملقب من بعد بشيخ العروبة .

وكانت « المجلة المصرية » لخليل مطران فى أوائل القرن علامة على لون جديد من الأدب ، ففيها نشر دعوته إلى وحدة القصيدة واهتم بالشعر ، وجعـل أبوابها مقسمة على مختلف الفنون : التاريخ ، الزراعة ، الاقتصاد النفس ، العلم ، تلخيص الكتب .

وقال فى افتتاحيتها أنه يتجنب البحث فى الدين والسياسة ، وإن هدفه الأدبى هو اطراح مبتذل القول ومطروق المعانى . ونشر فيها للكاظمى ، وإبراهيم رمزى . ونشر شعرا للبارودى وقصائد لحفنى ناصف قاضى محكمة أسيوط ، كما قدم (المرأة الجديدة) لقاسم أمين ، وتعريب الألياذة لسليمان البستانى ، وعنى بالكنوز الدفينة من الكتب النادرة ، وقدم دراسات عنها ونشر طائفة من المؤلفات المترجمة كراوية (بين نارين) لجورج مطران ، وقد وصفه بأنه (شقيق ومعينى فى إنشاء المجلة) ، وزهرة الشاى (قصة صينية) مترجمة لمحمد مسعود .

وكانت مجلة « الزهور » (١٩١٠) قمة هذا التطور ، فقد أصدرها أنطوان الجميل وأمين تقى الدين فى أول مارس ١٩١٠ فكانت « صلة تعارف بين كتاب العرب فى كل الأقطار ، وذلك بنشر ما تجود به قرائحهم الوقادة من النفثات الرائعة . وأعلنا أن عدداً من الكتاب

سيشاركون فى تحرير المجلة ، وقد كانت فعلا مجلة أدبية خالصة لأول مرة فى تاريخ الصحافة الأدبية ، لم تشغل بغير فنون الأدب — وقد قسمت المجلة إلى أبواب : رياض الشعر ، جنائن العرب ، حدائق النرب ، أشواك وأزهار ، حديقة الأخبار ، الروايات .

واستطاعت فعلا أن تجمع الأدباء والكتاب من مصر والشام وبغداد وتونس وطرابلس الغرب والجزائر وأمريكا (المهجر) وقد غلب عليها الاهتمام بالشعر .

وكتب فيها شوقى والكاشف ومحرم ونسيم واسماعيل صبرى وأمين الريحانى وحافظ ابراهيم وحفنى ناصف وخليل مطران وداود بركات وشبلى شميل وفليكس فارس وعبد القادر المغربى ومحمد كرد على ومحمد مسعود ومحمد السباعى والمنفلوطى وحليم دموس .

وكتب فيها أنطون الجميل بتوقيع (حاسد) وعرض بالنقد لطائفة من المؤلفات كـ« النظرات » للمنفلوطى و « الريحانيات » للريحانى و « تاريخ الأدب » لحفنى ناصف الذى أصبح (وكيلا لمحكمة طنطا) و « الجاذبية وتعليلها » للزهاوى . ونشر ابحاثا عن نهضة الأدب فى الشام وفى العراق ، وترجمات لشبلى شميل . وكتب فيها جبران من باريس .

أما « البيان » فقد عنى صاحبها (عبد الرحمن الترقوقى) بالترجمة من اللغات العالمية . وكان ابرز كتابها العقاد والمازنى ومحمد السباعى ولطفى جمعة وعباس حافظ . وقد ترجموا كثيرا من الآثار الأدبية عن اللغة الانجليزية . وكان دور « البيان » هاما فى مرحلة الترجمة . فقد جمعت إلى رصانة الأسلوب العربى جودة المترجمات . ومن أبرز الكتب التى ترجمتها « الأبطال » لكارليل ، و « الواجب » لجول سيمون و « الأكاذيب المقررة فى المدنية الحاضرة » لماكس نورد ، و « أميل القرن التاسع عشر » لروسو ، و « رباعيات الخيام » ، و « اعترافات موسيه » ، وترجمات فن وليم هازلت وتشارلس دكنز ، كما نشر فيها عبد الرحمن شكرى وسلامة موسى ومحمد عبده . ونشرت « مذكرات ابليس » للعقاد ، وأبحاثا عن ابن الرومى للمازنى ودراسة عن ابن زيدون لأحمد زكى (باشا) ومقالات للرافعى عن اللغة العربية فى الرد على لطفى السيد . وكتب فيها دكتور هيكل وصادق عنبر وحسن القاياتى .

وفى هذه المرحلة ظهرت مجلة « لغة العرب » للأب انستاس مارى الكرملى وهى (مجلة متخصصة فى ابحاث اللغة مع العناية بالتاريخ وتحقيقاته) .

وتعد نهاية هذه المرحلة فى أوائل الحرب العالمية الأولى علامة بدء مرحلة جديدة بتخصص عدد من المجلات لأبحاث الأدب منها مجلة «السفور» التى صدرت خلال الحرب العالمية وكتب فيها منصور فهمى ومصطفى وعلى عبد الرازق وأحمد زكى والزيات وهيكل وطه حسين ومما يذكر أن أربعا فقط من هذه المجلات هى التى استطاعت أن تستمر فى الصدور من بعد هى : المقتطف والهلال والعرفان والمشرق ، وقد احتجب «المقتطف» و «المشرق» وبقيت مجلتا «الهلال» و «العرفان» تصدران إلى يومنا هذا ، الأولى فى القاهرة والثانية فى صيداء لبنان .

أما أبرز المجلات الأدبية والثقافية التى صدرت فيما بين الحربين[1] :

(١) السياسة الأسبوعية : هيكل ، المازنى عنان ، طه حسين .
(٢) البلاغ الأسبوعى : العقاد ، لطفى جمعة ، زكى مبارك .
(٣) الرسالة : الزيات ، العقاد ، الرافعى ، طه حسين .
(٤) الهلال : أمير بقطر ، إبراهيم المصرى ، العقاد ، هيكل .
(٥) المقتطف : فؤاد صروف ، الرافعى .
(٦) المشرق : لويس شيخو .
(٧) المنار : رشيد رضا ، شكيب أرسلان ، وغيره .
(٨) المصور : إسماعيل مظهر .
(٩) المجلة الجديدة : سلامة موسى .
(١٠) الفتح : محب الدين الخطيب .
(١١) الزهراء : » »
(١٢) الثقافة : أحمد أمين ، زكى نجيب محمود ، فريد أبو حديد .
(١٣) الصفحات الأدبية الأسبوعية فى : البلاغ ، كوكب الشرق ، الأهرام ، الجهاد ، الوادى .

---

(١) تناولنا دراسة هذه الصحف وكتابها فى كتابنا (النثر العربى المعاصر) . وقد أصدر الدكتور محمود فياض دراستين عن الصحافة الأدبية من أوائلها إلى أوائل الحرب العالمية الثانية .

الكتاب والصحافيون

حفل مجال الصحافة بعدد كبير من الكتاب والصحفيين والصحافيين ، وقد استعملت الاصطلاحات الثلاثة في التفرقة بين أصحاب الأقلام من كتاب الصحف ، وبين الصحفيين المتخصصين في صياغة الخبر ، وبين الكتاب غير المحترفين الذين أطلق عليهم الدكتور محمود عزمي لقب الصحافيين . وكثيراً ما جمع العاملون في الصحافة في هذه الفترة بين عمل الكتاب وبين عمل الصحفيين ، فكانوا ينقدون أخبار الساعة ويحرزون السبق في مجال الخبر ، وفي نفس الوقت كانوا يكتبون الفصول والتعليقات ، هذا وقد جمع معظم كتاب الصحف ، بين الكتابة في مجال السياسة وفي مجال الأدب ، فكانوا صحفيين وأدباء في نفس الوقت . وقد كان المقال الوطني والسياسي هو أبرز مادة الصحافة فيما قبل الحرب الأولى بينما أصبح الخبر موضع الاهتمام في فترة ما بين الحربين .

— ١ —

مرحلة ما قبل الحرب الأولى

(ميخائيل عبد السيد) : وصف سلامه موسى ميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن فقال : تعلم العربية في الأزهر وظل طوال مدة تعلمه متخفيا يتظاهر بالإسلام إلى أن عرف انه مسيحي فأخرج . . أفاده الأزهر وأخره معاً ، أفاده بأن جعله يقرأ ويكتب بالعربية بأحسن ما يمكن أن يصل إليه مسيحي في ذلك الوقت ، وأخره فكان لذلك يتعصب للمسيحية ، بل ان ميخائيل كان ينز بالتعصب وقد ألف كتابه الهداية لذلك ، ومما يحكى أنه أخذه وأهداه إلى اليازجي صاحب مجلة الضياء فلما خرج أشعل اليازجي ثقابا وحرقه ترفعاً عن قراءة المثالب والمطاعن في الإسلام .

(محمد بيرم) : أقام محمد بيرم الخامس فى مصر بعد جولات طويلة بين تونس والعالم العربى وأوربا وصل إليها ١٨٨٤ وأنشأ جريدة الأعلام وكانت له خطة فى مجاسنة الانجليز والاستفادة منهم وقد انتقد عليه بعضهم ذلك، لأنه يخالف الخطة التى كان عليها فى تونس ، وأنه إذا هجرها فراراً من الحكم الأجنبى فكيف يكلف المصريين عكس ذلك (الهلال م١٦) .

(حمزة فتح الله) : صاحب جريدة البرهان ، قال عنهـا محمود عزمى أنها كانت صحيفة السراى ، وأن حمزه كان يقول عن الشورى « لا يحب العمل بها ولـكن يصح الأخذ بها » .

(سليم عنحورى) : كان واحداً من أولياء جمال الدين الأفغانى ، ثم أصبح من أولياء الحكومة التى جاءت بعد ثورة ١٨٨٢ ونظم قصيدة فى مدح بريطانيا .

(أديب اسحق) : كان من أنصار جمال الدين ثم اختلف مع رياض باشا فخرج من مصر وهاجمه فى باريس ، وكان يناصر الحرية ويهاجم الاستعمار ولـكن كان يعادى انجلترا ويناصر فرنسا ويرى أن استعمار فرنسا حلال واستعمار بريطانيا هو وحده الحرام ، أعيد إلى مصر وأعطى درجة ونيشان ومدحه عزيز مصر المرتبة الثانية فبعد الخديو والعهد البريطانى .

(أمين الحداد) : محرر مجلة أنيس الجليس التى كانت تصدرها (اسكندرا افرينو)

(إبراهيم اللقانى) : وصفه السيد رشيد رضا بأنه أرقى تلاميذ السيد جمال الدين بعد الأستاذ الامام .

كانت له المقالات الرائعة والخطب النافعة ولكن الأمراض حالت بينه وبين الإصلاح حتى وافاه الأجل .

(أحمد حلمى) : حرر فى جريدة اللواء أول عهدها، وظهر نبوغه فى تدوين أخبار قضية دنشواى ، عمل مع عبد العزيز جاويش وأمين الرافعى وصادق عنبر وعلى الغاياتى وإبراهيم رمزى وعبدالرحمن الرافعى وسنى القاتى ، وكان مصطفى كامل يبعث إليه من باريس برسائله بوصفه نائبا عنه فى تحرير اللواء ، وقد حوكم أحمد حلمى فى قضية الطعن على الخديو ، بأن نقل إلى جريدة القطر المصرى يوم عيد الجلوس (يناير ١٩٠٩) مقالا نشرته جريد العدل .

(حسن حسنى الطوبرانى) : صاحب جريدة (النيل) : صحفى وشاعر، بدأ حياته بالتأليف والتصنيف ، عمل فى الصحافة فى القسطنطينية بين عربية وتركية . وبرع فى الكتابة باللغتين ، عاد سنة ١٨٩٠ إلى مصر مستأنفاً عمله فى الصحافة . وفى القسطنطينية حرر جريدة الاعتدال والسلام وكتب عدداً من المؤلفات منها (صولة القلم فى دولة الحكم) وبحث مسائل ضعف المسلمين فى كتابه (التصحيح العام فى لوازم عالم الإسلام) وله كتاب الصدع والالتئام فى أسباب انحطاط وارتقاء الإسلام، هاجم إبراهيم اليازجى فى قصائده فى هجاء الترك .أصدر فى مصر جريدة النيل (١٨٩١) والشمس والزراعة ١٨٩٤ والمعارف وكان يفخر بأجداده الأتراك ويتعصب لهم على العرب . وقد أفسح صدرالنيل للكاتبة العربية زينب فواز وله معها مساجلات ، قال عنه أمام العبد : أن حياة حسن حسنى الطوبرانى ضاقت فى وجهه وسئم الحياة وكان يرى نفسه فى المرآة خيالا، ومازالت حالة كذلك حتى جاد بنفسه والله يعلم أن مكانه الرجل من العقل مكانه من العقل .

(الشيخ الشربتلى) : عمل فى الصحافة زهاء ربع قرن أو أكثر . وأشرف على أكثر من عشر صحف يومية وأسبوعية وكان مقره فى قهوة العلم فى باب الخلق : مجمع كتاب مصر وصحفيها .

يحمل تحت أبطه محبرته النحاسية وأوراق تحريره وأقلامه ، ويجلس فى انتظار أصحاب الصحف الذين كان أغلبهم من الأميين . يقول لطالب المقال : هل تريده من النوع المادى ، أم المتوسط أم الفاخر ، الأول من نوع أسلوب المؤيد واللواء وهذا ثمن تحريره خمسة قروش للصحيفة الواحدة ، والثانى من أسلوب محمد عبده وتوفيق البكرى ، بعشرة قروش للصحيفة ، والثالث (الفاخر) من نوع كتابات ابن المقفع ، والجاحظ ، وبديع الزمان ، خمسة عشر قرشا للصحيفة — كتب مائة مقال تحت عنوان (السرطان السيامى) فى إحدى الصحف اليومية ، كان يتحدث فيها عن مجاهل أفريقيا وعادات أهلها وعن الهنود الحمر، وشذوذ طباعهم ، وكان يلفق الحوادث ويرتب وقائعها ترتيبا قصيصيا .

(يوسف الخازن) : وصفت جريدته « الأخبار » بأنها جريدة لا مبدأ لها ولكنها تحافظ على صداقتها للاحتلال وعداوتها للدولة العلية .

وقالت جريدة المكشوف : وهى تنعى يوسف الخازن (آيار ١٩٤٤) لم تكن جريدة الأخبار مع الأسف تساير الحركة الوطنية المصرية بل كانت تقاومها مقاومة جريئة وتساير الأغراض الأجنبية ، فكان المصريون يكرهون الأخبار ويسمونها (الجريدة الصفراء)، وقد أصدر يوسف الخازن جريدة الأخبار بالاشتراك مع داود بركات الذى تركها ١٨٩٩ واستقل بالأهرام ، ثم توقفت الأخبار وكتب يوسف الخازن فى الجوائب والراوى واشتمل فى المقطم ، ثم أعاد الأخبار سنة ١٩٠٧ وقد عرفت مقالاته الماكرة اللئيمة فى مختلف المواقف الوطنية وخاصة عندما هاجم عرابى بعد عودته من منفاه .

يقول صاحب هامش الأهرام : لم يكن يمالىء الوطنيين وكثيراً ما كان ينقد مسلكهم ، كتب جورج طنوس يوماً عن لازمات الكتاب ، فقال أما «لازمة الخازن» فهى « اما سعد باشا » وقال إن الخازن سافر إلى باريس حتى أواخر ١٩١٩ وعاد إلى بيروت

وفى سبتمبر ١٩١٩ تولى عبد الحميد حمدى تحرير الأخبار ، ولما كانت السلطة مانعة إصدار صحف فقد ابتاع أمين الرافعى رخصة الأخبار بمبلغ ٨٠٠ جنيه فى أوائل عام ١٩٢٠ . وراجت رواجا كبيرا . (خليل مطران) : عمل فى جريدة الأهرام ومكث بها بضع سنوات، وهو الذى قدم لها داود بركات الذى أصبح من بعد رئيسا لتحريرها . أكثر من أربعين سنة، يقول : أصبح مرتبى فيها لا يكفى لإعالة عائلتى ، اضطررت أن أهجر اشتغالى بالأهرام ومارست التجارة وأصدرت إلى جانبها المجلة المصرية . ونشرت بها معظم ما نظمه إسماعيل صبرى ، وقد مكثت هذه المجلة تسع سنوات ، وكانت طريقة التوزيع عسيرة لأنها تقوم على الاشتراكات ، وقد ذهب المحصل مرة إلى صديق من أعز أصدقائى لتحصيل الاشتراك فقال صديقى للمحصل : هل هذا عن عيش ، فآلمتنى جدا هذه الكلمة وأغلقت المجلة ، وهجرت الصحافة واشتغلت بالتجارة ، ثم عدت إلى إصدار الجوائب المصرية خمس سنوات ثم انصرفت عنها .

(نقولا الحداد) : وصفته مجلة اللطائف فقالت: فى ١٩١٨ كان فى العقد الرابع من عمره . ويقيم فى عاصمة القطر وله صيدلية باسمه فى شارع شبرا . تلقى علومه فى كليتى صيدا وبيروت شغف منذ صغره بالتحرير والكتابة . مضى عليه فى عالم التحرير نيف وعشرون سنة لم تخل جريدة أو مجلة عربية من كتاباته ، لم يترك موضوعا إلا طرقه ، معرفته باللغة الانجليزية معرفة جيدة وأسفاره إلى أوربا وأمريكا متصلة ، وله رواياته الفكاهة ، وأبحاثه الاجتماعية ـ اشتغل فى الصحافة فكان يحرر جريدة الرائد المصرى ، المحروسة ، جريدة الأهرام ، الجامعة ، جريدة الجامعة فى نيويورك ـ مال منذ اثنى عشر عاما إلى تأليف الرواية وتصنيفها وتعريبها فلم تكد تصدر أول رواية له (عين بعين) حتى تناولها الجمهور برغبة واهتمام ، أشهر رواياته: الحقيبة الزرقاء ، حواء الجديدة ، الصديق المجهول ـ يضع نصب عينه فى رواياته شيئا معلوما لايتعداه ، فاذا أراد أن تكون رواياته مسلية فكاهية كان ذلك ، وإذا أراد أن يكون مغزى اجتماعى أو اقتصادى أو أخلاقى كان له ذلك أيضا ، كما يدرك ذلك كل من تقرأ رواياته الكبيرة وهو يكيف كتاباته تكييفاً يوافق الأحوال . وله مؤلفاته كثيرة فى أبحاث عمرانية واجتماعية تدل على سلطة كلام مداوك فلسفة عقلية فى المقام الأول بين الكتاب والعلماء والأدباء وله شغف بنظم الشعر كلما دعا داع .

٢ - مرحلة ما بين الحربين

(داود بركات) : قال : كان ذلك حوالى عام ١٨٩٣ حين رأى عزيز الزند صاحب المحروسة أنى أجيد الكتابة فبعث إلى وعرض على التحرير فقبلت . كانت الصحافة حزبية فى ذلك العهد . كانت المحروسة والأهرام تدافعان عن مصالح الوطن وتقولان بأن تركيا هى صاحبة الحق فى مصر، ويستندان إلى تأييد فرنسا وروسيا فى مكافحة الانجليز وكان ، (المقطم ومصر) يؤيدان انجلترا . ، وكان الحزب الخديوى يؤيد الصحف الوطنية . وكانت من الجرائد المسموعة فى ذلك الوقت جريدة القاهرة (أسبوعية) والسلام لصاحبها طلميات ولسان العرب للشيخ بخيت الحداد من الجرائد اليومية ، وكلها لاتزيد عن أربع صفحات وبالنسبة للثورة العرابية . كان حزب الخديو يعتقد أن العرابيين خونه ، ولكن الشبان كانوا يعتقدون أنها حركة وطنية رائدها الاخلاص ، فى سنة ١٨٩٦ اتفقت مع الشيخ يوسف الخازن على إصدار جريدة يومية ونجحنا فى ذلك نجاحا لم تكن ننتظره ، إذ كان عندنا ألفى مشترك وكنا نبيع فى اليوم ٨٠٠ نسخة وكان ذلك عدداً عظيما فى ذلك الوقت . كانت الصحافة (إذ ذاك) قليلة الانتشار ، كان المؤيد فى أحسن أيامه لم يكن يطبع أكثر من ٨ آلاف نسخة وطبعت الصحف يوم وفاة مصطفى كامل ٤٠ ألف سنة ١٩٠ ويوم وفاة سعد زغلول ١٢٠ ألف .

(عبد القادر حمزة) : صور عبد القادر حمزة إرتباطه بالصحافة فقال : فى ١٩٠٩ اشتغلت فى الجريدة نحو عام ثم تألفت شركة لإصدار الأهالى فانتخبت رئيسا لتحريرها وبقيت على

ذلك إلى سنة ١٩١٩ ، ثم أدرت (الأهالى) لحسابى ، ونقلها إلى القاهرة ، وفى ١٩٢١ عطلت الحكومة الجرائد المنتمية للوفد ، كنت أحرر الأهالى للدفاع القضية الوطنية مستقلا عن الوفد . أرسل سعد (باشا) حافظ عوض ليعرف رأيى فيما إذا كنت أناصر الوفد أم لا ، أخذت الحكومة تحاربنى فلما عطلت الأهالى ٨ نوفمبر ١٩٢١ ، أصدرت المحروسة . التى عطلت من بعد فأعدت إصدار الأهالى فعطلت فى مارس ١٩٢٣ واعتقلت فى قصر النيل .

(عباس العقاد) : لما توقف الدستور (الجريدة) دعانى حافظ عوض للعمل فى المؤيد ، فى ظل الحرب العالمية تركت الصحافة ، كتبت فى الأهالى بعد الحرب . كانت الأهالى تناصر الوفد فاشتغلت بالتحرير فيها ، ثم انتقلت إلى جريدة الأهرام وكانت تناصر الحركة الوطنية . وكتبت فى الأفكار ، البلاغ ، كوكب الشرق . ويقول العقاد : لم يسبق لسعد باشا أن أملى علىّ خطة معينة لأتبعها فى كتاباتى السياسية ، بل كنت دائما كما أنا الآن استوحى رأيى من عقيدتى السياسية وفكرتى الوطنية .

(ابراهيم عبد القادر المازنى) : صور المازنى علاقته بالصحافة فقال : لما قامت الحركة الوطنية هجرت الإشتغال بالتعليم وانغمرت فى هذه الحركة ، وكان أمين الرافعى يعمل لإصدار الأخبار ، وقد طلب فى أن أعمل معه فى هذه الجريدة ، وفى الفترة التى كان يستعد أمين لإصدار الأخبار سافرت فى رياضة إلى الإسكندرية فطلب منى صاحب جريدة وادى النيل أن أترجم له التلغرافات الخارجية فاجبت طلبه وكنت إلى جانب ذلك أحرر بعض المقالات الخاصة بالقضية المصرية فارتاح صاحب وادى النيل إلى تلك المقالات .

وكان أمين الرافعى ما زال يستعد ، فاشتغلت بجريدة النظام وفى خلال اشتغالى طلب منى عبد القادر حمزة أن أرسل له ببعض المقالات لنشرها فى الأهالى فكنت أقوم بها العمل أيضا إلى أن تم الإستعداد لإصدار جريدة الأخبار .

(أحمد وفيق) : وصفه فكرى أباظة فقال : فى كتاباته ضحية المبدأ ، إرتفعت لغته

بجاءة فى العامين الآخرين لدرجة أنها يجب أن تهبط ، عندما يهدأ يقدم لك آية من آيات البلاغة ، وعندما يثور يقذف عليك ما يقذفه بركان فيزوف ، أعتقد اعتقاداً راسخا أنه أعلم المصريين بتطورات وتاريخ القصة المصرية .

(عبدالله حسين) : يعد من أبرز كتاب الأهرام فى فترة مابين الحربين ، وقد صور صلته بالصحافة فقال : إننى متفرع من أسرة صحافة منذ إنشاء جريدتنااليومية الكبرى « المؤيد » التى كان يصدرها قبل الحرب السيد على يوسف ، وكان والدى من أكبر معاونيه فى إنشائها إذ كان ابن خالته . كانت نشأتى الأولى فى دار المؤيد . عندما كان بشارع محمد على ، ومنذ أن وقعت عينى على نور الدنيا شهدت فى اللحظة تمسها جريدة (المؤيد) والجرائد الأخرى التى كانت ترد إليها . وعندما جاءت الحرب الكبرى وكنت أدرس الحقوق فى السنة الأولى شجعنى الميل إلى هذه الحركة بالكتابة فى الصحف واختصصت جريدتى المقطم والأهرام بالكتابة .

× لا أرى فى الصحافة إلا أنها ميدان للدفاع عن الحقوق الوطنية ، ولذلك ترى كتاباتى مشبعة دائما بهذه الروح وهى أكثر وأبعد من أن تشوبها الروح الصحافة التجارية الظاهرة فى أقلام الكثيرين من الذين يعيشون فى الصحافة . وتضطرهم الظروف إلى التنقل من الصحف بغير رعاية للمبادىء التى تروجها . وقد وجدت فى جريدة الأهرام وسطا كريما وتشجيعا كثيرا ، أن عملى فى الصحافة قد دعت إليه رغبتى فى الدفاع عن المبادىء الوطنية وفى اليوم الذى أرى فى الصحافة متعارضة مع مبادئى فإنى أعتزلها وأكون خصما لها .

× الصحفى الخبر هو صحفى المستقبل ذلك لأن المقالات تهبط قيمتها فى نظر القراء عاما بعد عام وهم يؤثرون معرفة آخر الأخبار وأصدق الحوادث .

(الدكتور محمد أبو طايله) : اشتغل فى الصحافة عشر سنوات ١٩٢٠ — ١٩٣٠ وكتب فى افتتاحيات كوكب الشرق والبلاغ وحرر فى مجلات دار الهلال وخيال الظل

في الكشاف والوطن واللطائف والمصور وكل شيء والفكاهة وكان يوقع «أبو نظارة» .

(جورج طنوس) : كان وكيلا لقلم الرقابة الصحفية في مصر في أثناء الحرب الأولى ، أصدر جريدة المنبر سنة ١٩٢٠ ، مؤلف كتاب يقظة العرب باللغة الإنجليزية ، ولد في لبنان وتعلم في كلية فكتوريا بالإسكندرية وأتم علومه في كمبردج ، وتزوج إحدى كريمات فارس نمر ، وصف بأنه كاتب متفنن يكتب بأساليب مختلفة دون أن يشعر القارىء أن صاحب هذه الأقلام المختلفة شخص واحد ، عمل في تحرير كوكب الشرق ١٩٢٨ توفى (يونيو ١٩٤٢) .

(نجيب هاشم) : عمل في الأهرام منذ ١٨٨٩ ، ثم عمل في المؤيد ، واشتغل في المقطم ومصر والوطن والإكسبريس والجريدة والأخبار (مع يوسف الخازن) ثم البلاغ . أهم ما يذكر رواية خبر الإتفاق الإنكليزى الفرنسى ١٩٠٤ ، وكان عمله في جريدة الأخبار التعليق على الأحوال الحاضرة كما كان مختصا بترجمة تقرير اللورد كرومر في المقطم .
(توفى يوليو ١٩٣٤)

(منيرة ثابت) : برز اسمها في أوائل سنى الثورة الوطنية ، وكانت تتقن اللغة الفرنسية وقد أصدرت جريدة لسبوار اليومية بالفرنسية فكان هذا أول حادث من نوعه ، أصبحت الصحيفة لسان حال الوفد ، ثم أصدرت جريدة الأمل الأسبوعية بالعربية ، وكانت تطالب بحق المرأة المصرية في الإنتخاب وعضوية المجالس النيابية وتعديل شروط الزواج والطلاق لحفظ حقوق المرأة والحد من تعدد الزوجات ومساواة المرأة والرجل في الحقوق السياسية والإجتماعية بوجه عام ، وقد حملت لواء الدعوة إلى انشاء نقابة للصحفيين ، وتزوجت عبد القادر حمزة .

وصف فكرى اباظة أسلوبها سنة ١٩٢٦ فقال : أسلوبها فيه روح — وفيه حياة ، يشعرك أنه أسلوب جديد وإن كان لم يبلغ بعد درجة التكون الكامل ، متدفعة للدرجة

القصوى ، وهى تعتمد فى ذلك على أنها آنسة ، ومن الجنس اللطيف ، جريئة .. فلننظر إلى مستقبلها بعيد اليقظة .

(سيد على) صاحب جريدة النظام : رسم لطفى جمعة (أكتوبر ١٩٣٢) صورة وصفية للصحفى سيد على : كان سيد على صديقى وشريكى فى تحرير جريدة اللواء أيام المرحوم مصطفى كامل . ليس على قيد الحياة الآن من هذه الفئة سوى أحمد حلمى وأمين عمر الذى كان يكتب مقالات فكاهة بتوقيع «أبو حفص» ، أما البقية فقد امتدت إليها يدى الردى فى مدى ثلاثين عاما . كان محرراً مختصا بالترجمة من الفرنسية إلى العربية كما كان عثمان صبرى مختصا بالترجمة إلى اللغة الإنجليزية وفى حياة سيد على ثلاثة فترات : (١) عهد اللواء .

(٢) بعد وفاة مصطفى كامل وعهد تحرير مصر الفتاة وتأسيس النظام والأفكار .

(٣) عهد الانقطاع عن العمل .

وكان فى الفترة الأولى مترجما ينقل ما يراه الباشا (أى مصطفى كامل) جديرا بالترجمة أوما يختاره هو بعد مطالعة صحف البريد الفرنسى وكان قلمه سيالا ، وأسلوبه فوق العادى وكان مصطفى كامل شديد التمسك بالبكور إلى حد « الهوس » ، وكان ينهض من نومه حوالى الفجر ويبدأ العمل فى السابعة وكان أول وجه يلقاه وجه سيد على طربوشه معووج على جنب ، وفى عروة سترته زهرة ، كان صحفيا فقط ، لم يخضع لمبدأ معين ، وقد خدم الحزب الوطنى فى اللواء مصادفة ، وكان محبا لمصطفى كامل ، فلما مات مصطفى تساوت الأمور فى نظره ، ولم ينضج رأيه مع خلفاء مصطفى فى قزان ، فاختلف معهم وأسس جريدة مصر الفتاة وسار جنبا إلى جنب مع الجرائد الوطنية ونالت نصيبا

حين الرواج سيما أثناء المناقشات الحادة التى حصلت فى الجمعية التشريعية حول مد امتياز قناة السويس .

اتصل سيد على ببعض رجال السياسة الأوربية وكانت الوكالة الإنجليزية تخطب ودكل صحفى لين العريكة ، ولكن سيد على كان قليل الإختلاط بهم ، اشترك مع أبو العنين فى جريدة الأفكار ، بدأها فى غبط المدة وانتقلت إلى حى عابدين وفى ١٩١٦ اعتقل سيد ، ثم أفرج عنه بعد وفاة أبو العينين ، اختار جريدة النظام وكان قد أسسها محمد مسعود ، وكان سعد زغلول يدعوه ويكلفه ببعض الأعمال الصحفية . ثم انقطع عن الصحافة منذ ١٩٢٥ تقريبا واتجه نحو الزراعة ، وكان يركب فرسا أسود اسمها عزيزة وقد ألفنا معاً جمعية الدفاع عن حقوق رجال الصحافة والأدب .

(الشيخ صالح روتر) : حاول أحد الصحفيين أن يرسم صورة له فقال : أنشأ شركة أنباء تنقل كل ما تهفو إليه النفس من أسرار ومعلومات ، ولم يكن يحفظ إلا كلمة أفرنجية واحدة هى (ريز يدانس) : أى دار الحماية وكان يقولها فى كل مناسبة وكل وقت . ومهمة الشيخ روتر تنحصر فى أنك تقول له نبأ ما ، فيطوف القهاوى بعد أن يضيف إليه كل ما يتسع له خياله الخصب من رتوش ثم يعود إليك فيخبرك به على أنك لا تعرفه ، فإذا جادلته فى بعض النقط صاح : سبحان الله : هذا خبر من « بز أمه » .

(الدكتور سيد كامل) : وصفه زملائه بأنه كان صحفيا من الطراز الأول : عمل فى جريدة المؤيد ، وكان مندوبا له فى قضية دنشواى ، أتم دراسة الحقوق ١٩٠٨ وسافر إلى فرنسا وأكمل دراسته فى السربون ، وبهر الأساتذة الفرنسيين بذكائه ، نال الدكتوراه فى الحقوق برسالة : «المسألةالشرقيةومصرفىمؤتمر الآستانة»، عمل بعد عودته رئيسا لتحرير المؤيد بعد وفاة مؤسسه الشيخ على يوسف ، رافق الخديوعباس فى أوربا خلال سنى الحرب ،

عاد إلى مصر سنة ١٩٢١ فالتحق بتحرير جريدة الأخبار ثم عمل محررا فى جريدة السياسة ، ثم عمل مع طلعت حرب فى بنك مصر حتى توفى (يونية ١٩٣١) .

له جولات فى وصف الحرب الروسيه اليابانية ، كان يكتب بتوقيع (بيدبا) .

« توفيق حبيب » (صاحب عاموده على الهامش) فى الاهرام: بدأ يعمل فى الصحافه ١٩٠٠ فى جريدة الاهالى ، التقى فى دار العلامة محمود أنيس فى شبرا بكثير من أهل الادبه والسياسة وفى مقدمتهم الشيخ عبده وأحمد زكى باشا ، أصدر جريدة اسمها « الشيطان » ثم التحق بجريدة مصر . اشترك مع جندى إبراهيم فى شراء إمتياز جريدة الوطن من صاحبها ميخائيل عبدالسيد ، ثم أصدر الإكسبريس ، وعمل فى الجريدة مع لطفى السيد ، وفى الاخبار مع يوسف الخازن وفى المصور والكشكول والاتحاد ثم التحق بالاهرام ، وفى عام ١٩٣٢ تسمى «الصحفى العجوز» وبدأ يكتب عاموده : « على الهامش » يقول : بلوت الصحافى أشكالا وألواناً ودرجات وطبقات مختلفة ولم أنل منها إلا الكفاف ، ومع ذلك لا أزال أحبها وأعشقها .

(د . محمود عزمى) : كتب عن نفسه فى ٢٣ أبريل ١٩٣٧ (المصور) يقول اشتغلت بالصحافة ١٨ سنة ، كنت مدرسا فى مدرسة التجارة العليا إلى نوفمبر ١٩١٨ ثم بدأت عملى الصحفى باصدار (المحروسة) ١٩١٩ حتى عطلتها السلطة العسكرية . فأصدرت (الافكار) إلى ١٩٢١ حتى عطلتها السلطة ، فأصدرت (الاستقلال) ١٩٢١ وساهمت فى (السياسة) ١٩٢٢ حتى ١٩٢٨ وأصدرت مع توفيق دياب (وادى النيل) و (الشرق الجديد) ١٩٢٩ ، وجريدة اليوم ، ثم غادرت مصر ١٩٣٠ ـ ١٩٣٤ حيث عملت فى صحبة الخديو السابق وعدت ١٩٣٤ فتعاونت مع توفيق دياب فى إصدار (الجهاد) ثم رأست تحرير جريدة (روزاليوسف) ، اليومية ١٩٣٥ ثم أصدرت مجلة الشباب سنة ١٩٣٦ وكنت أول من كتب (الدبلوميات) فى الجهاد ١٩٣٤ ، إننى أول صحفى مصرى أدخل كلمة «ثقافة» فى متداول الألفاظ العربية .

وأول صحفى مصر حضر مؤتمرات دولة فى لوزان ١٩٢٢ وأول من أدخل بدعة البرلمانيات والتعليق على الحوادث البرلمانية بصراحة وجرأة كبيرة، وأول من سن نظام المقالة فى عامود واحد فى جريدة ألاستقلال . وقد تحدث محمود عزمى عن تطور الصحافة فى محاضرة له عام ١٩٤٦ فقال : انه أصدر الاستقلال سنة ١٩٢١ وكانت فى اتجاهها « مصرى وطنى » مختلفة فى التفاصيل مع سعد زغلول ، وتميل إلى عدلى . وكتب فيها طه حسين وهيكل وعنان، وقال بائع الصحف الصغير عنها انها (جورنال انجليزى) . وكان باعة الصحف يذهبون بها إلى بيت الأمة ويقبضون الفلوس ، وقال أن جريدة الاهرام كتبت على صدرها بعد ثورة سنة ١٩١٩ : جريدة مصرية للمصريين) والصحيح (جريدة مصرية بالمصريين) .

وقال : كان الناس إذا شاهدوا « الهلباوى » يقولون : ليسقط محامى دنشواى ، أو يقولوا : « أطلقنا الحمام » . وقال ان « سعودى » متعهد الصحف الوفدى ، تحدى ثروت باشا عند ما أصدر الأحرار الدستوريين جريدة السياسة ، فأصر سعودى ألا توزع السياسة إلا نالسمر الذى حدده ، وكان لثروت باشا بعض الاشراف على التوزيع، ولم تستطع السياسة أن ترى النور إلا بالاتصال بسعودى .

(فكرى أباظة) : يقول : كنت أحفظ أربعة آلاف بيت من بيوت الشعر المختار . أين ذهبت هذه الآلاف من الذكرة الغبية ٠ وكنت أحفظ مقالات الحريرى كلها .

١٢ يولية ١٩٢٦ . فى تراس حمام سان استفانو جلست أجرعه الكازوزة جرعا بعد حمام متعب كله صحة وعافية ٠ . وإذا شاب سمهرى القد نحيل القوام يقترب منى ويحييني قال : أنا أميل زيدان عندى فكرة فى إصدار مجلة مصورة ويسرنى أن تعاوننا ٠

لم أكن أفهم مطلقا إلا أن أكتب وأفرح بطبع ما أكتب ونشره ، وكنت أكاتب

الأهرام سبعة أعوام (١٩١٩) واصبت نجاحا بلا شك ، وفى ذات يوم من الأيام استدعانى جبرائيل تقلا وقال لى بلهجة رقيقة : أنه جرت العادة فى أوربا أن يقبض الكتاب المشهورون حقهم من الكتابة ، فلا بد أن تحدد لك أجرا وثرت يومها ثورة .. شعرت كأن لطمة مست شرفى وحرجت كرامتى ، وكلما ازداد دهشة من ثورتى ازددت غضبا وخنقا . كنت كاتبا (بكرا) وظننت أن الفلوس تجرح « عذريتى » وأخذت أصيح فى دار الأهرام : أنا محترف . أنا حزب وطنى . أنا أكتب للبلد لا لجيبى . .

وكتبت المقالات الأولى فى الأسابيع الأولى من الزقازيق حيث كنت أقيم ، وإذا بشيك ظريف يتهاوى إلى بالبوستة فأقلبه مندهشا ، ولكن رقمه العالى يخمد ثورتى ويهدىء أعصابى ويحدرنى تحديرا فاقبضه وأنا صامت وأظل أقبض — بصمت — من ١٩٢٦ إلى اليوم ». ا.هـ .

وكان فكرى أباظة أول من مزج بين حرص الفقيه القانونى المتسلح دائما بالمنطق والقانون والأدلة والحيثيات وبين الأسلوب الصحفى الناعم القوى أو السهل الممتنع .

(محمد الهيياوى) : تمرد على الأزهر فى وقت مبكر . المنشىء لأكثر دعابات الكشكول فى الفترة التى وقع الخلاف فيها بين الحزب الوطنى والوفد ، كان أخطر من دافع عن الحزب الوطنى . قاوم مشروع ملنر فى جريدة الأمة ، شاعر وكاتب . وله قصائد هزلية نشرها فى الكشكول بامضاء « الشاعر إياه » ، له كتاب « الطبع فى الشعر » وله كتاب اسمه (مصر فى ثلثى قرن) . وعندما رفعت بريطانيا الحماية وقالت (الكلمة الآن لمصر) كتب تقول (الكلمة لمصر ولكن ليس لمصر أن تتكلم) أول كتاب نشره : الفرائد : مجموعة ما كتب فى مطلع صباه . قبيل أن سعد زغلول كان ينتظر كلماته فى الكشكول كل أسبوع .

توقيعات الصحفيين

(١) ع.م ـ الأهرام: عباس مصطفى (٢) لـكاتب كبير يتم عهه قله — مصطفى لطفى المنفلوطى (٣) س — سعد زغلول (٤) لأمير من أعلام البيان فى الجهاد، كوكب الشرق — (شكيب أرسلان) (٥) محمد واحد: محمدين: كوكب الشرق: كان الناس يظنون أنها حافظ عوض: ولـكنها جورج طنوس (٦) ابن طيبه: السياسة: محمد حامد محسب المحامى (٧) أبو التلاميذ: محمد سليمان عناره (٨) حندس = محمد التابعى (٩) خلدون: محمد خالد (١٠) ابن رشيق = محمد على غريب.

(١١) عليم: فى جريدة الأهرام = اسماعيل أباظه (١٢) محمود المقاصد: محمود فخرى — فى اللواء (١٣) س ا: سعد زغلول فى البلاغ (١٤) حكيم: مكرم عبيد فى المصرى (١٥) غالب القطط.. وديك الجن: أحمد نجيب الهلالى — المصرى (١٦) صريح: محمد محمود — المصرى (١٧) فؤاد، سعاد، ربيعه، ح.ى، = انطون الجميل: الزهور (١٨) مستفهم = اسماعيل صدقى (١٩) هى . بن . بى = داود بركات الأهرام ١٩٠٨/١٩٠٩ (٢٠) ابن غانم = توفيق دياب (٢١). حقوق: إبراهيم دسوقى أباظه (الغزالى أباظه) (٢٢) ع . م: عباس المصنى (٢٣) مصمص: مصطفى أمين (٢٤) صحفى عجوز = توفيق حبيب (٢٥): اشموز: محمد أمين حسونه.

صحفيون اجتذبتهم المناصب

ترك الصحافة كثير من أعلامها أمثال: محمد مسعود وراشد رستم ومحمد أبو طايله وعباس حافظ (فى عام ١٩٢٩) وعملوا بصحيفة التجارة والصناعة والتعاون الرسمية ومن الصحفيين الذين ولوا منصب الوزارة. الدكتور هيكل، والدكتور حافظ عفيفى، والدكتور أحمد ماهر، والدكتور طه حسين.

كان أحمد ماهر مديرا لسياسة جريدة كوكب الشرق فى عهد وزارة صدقى ١٩٣٣ يكتب المقالات الرائعة، وعمل أحمد عبود بالصحافة فاصدر جريدة الـكشاف سنة ١٩٢٧ وهو أول من أدخل تقليد نشر الصور فى الصحف اليومية، وأول من عقد اتفاقات

مع كبريات الصحف الإنجليزية لنقل تلغرافاتها لتنشر فى مصر وانجلترا فى وقت واحد ، وعمل عبد الرحمن عزام فى الصحافة ، وكان مديرا لسياسة الكشاف على مبادىء الوفد ، فلما رأت أن تعلن استقلالها تركها عزام ، وحافظ عفيفى كان صاحب امتياز جريدة السياسة ثم مديرا لسياستها ، والإقتصادى أحمد نجيب انضم إلى أسرة الأخبار بعد صدورها بأيام صحفيات :

المرأة فى الصحافة

عمل فى هذه الفترة عدد من الصحفيات . فى سنة ١٩٣٤ كانت أمينة السعيد فى كوكب الشرق وسهير القلماوى فى الوادى ثم تحولت أمينة السعيد إلى المصور ودار الهلال . أمامنيرة ثابت : فاصدرت الأمل (لاسبوار) بالفرنسية وأصدرت : سيزانبراوى « المصرية » بالفرنسية ، وأصدرت لبيبة أحمد : النهضة النسائية . وأصدرت روز اليوسف : مجلة روز اليوسف ، كما أصدرت فاطمة نعمت راشد مجلة أسبوعية وعملت بالصحافة إيفا حبيب المصرى ومنيرفا عبيد .

وقد صور انطون الجميل دور المرأة فى الصحافة فى نهاية مرحلة ما بين الحربين فقال : إذا كان محور الصحافة « تسقط الأخبار » . فان المرأة إذ تجلس فى قاعة استقبالها بين زائراتها أو تقعد على عتبة دارها مع جاراتها ، هى أبرع من يروى أخبار الناس .

إن الصحافة النسوية لم تعرف عندنا إلا منذ حوالى نصف قرن ، عندما أصدرت (هند نوفل) أول صحيفة نسوية ١٨٩٢ . ثم توالى صدور الصحف ، ولا أغفل مجلة الأجيبسين التى أصدرتها : هدى شعراوى وتولت تحريرها سيزانبراوى وكثر مع استشار تعليم للبنات عدد الكاتبات الأدبيات اللواتى ينشرن فى الصحف والمجلات المقالات والأبحاث . وللصحافة فضل لا ينكر على نهضة المرأة فقد أفسحت الصحف المجال للمرأة ، تكتب وتنشر آراءها وتذيع دفاعها عن حقوقها . وخصصت بعض صحف يومية صفحات أسبوعية كاملة للمرأة والشئون النسوية (الكوكب البلاغ .الجهاد) .

الصحفيون

(فترة ما بين الحربين)

محمود أبو العيون : ظل طوال حياته مكافحا بالقلم فى ميدان محاربة البغاء ومساوىء الشواطىء ، والأخلاق ، والدعوة إلى التعلم الدينى فى المدارس . وله ثلاث مجموعات مقالات هامة نشرها فى الأهرام .

× الصحيفة السوداء ١٩٢١ وهاجم فيها الانجليز أبان سطوة احتلالهم .
× مذابح الأعراض ١٩٢٣ .
× مقالات « يا ضيعة الأخلاق » ١٩٣٣ يقول : فى نفسى آلام أرى فى الكتابة ما يخفف عنها هذه الآلام ويشعرها ببعض اللذة .

أحمد زكى باشا : له أكثر من ألف مقال فى الصحف والمجلات فى الفترة من ١٨٩٢ إلى ١٩٣٤ وكلها تتعلق بالتحقيقات التاريخية وتصحيح الأسماء الجغرافية .

محجوب ثابت : أولى اهتماماته : الكتابة عن السودان ووحدة وادى النيل وشئون العمال .

محمد مسعود : أولى اهتماماته للتصحيحات اللغوية والتحقيقات التاريخية ، قارع شيخ العروبة زكى باشا ، يقول ، اكتب لنفسى وللعالم ذوى أى اعتبار آخر .

منصور فهمى : أمضى وقتا طويلا بعيدا عن العمل الرسمى ، وعاش فى قريته يراسل الأهرام بكلمات من خواطره فى مختلف المجالات تحت عنوان « خطرات نفس » جمع منها القليل فى كتابه والباقى لا يزال منثورا فى دوريات الأهرام .

د. محمد صبرى : بدأ فى سنه ١٩٢٢ كتابات منوعة فى الأهرام ، فى الوطنية والابحاث التاريخية والاجتماعية وما يزال يكتب إلى اليوم .

وحيد : كان يراسل الصحف فى فترة ما بين الحربين بكلمات قصيرة فى التصحيحات اللغوية (أقرأ عنه فى كتابنا الشرق فى فجر النهضة).

محمد لبيب البتانونى : نشر فى صحيفة الأهرام فصولا منوعة عن رحلاته فى أنحاء العالم وأهمها رحلتيه إلى أسبانيا وأمريكا .

التفتازانى (محمد الغنيمى) : كان يحرر حديث الصيام فى الأهرام خلال الثلاثينات ، ويتناول خلالها موضوعات منوعة فى التاريخ والأدب والتراجم .

توفيق اسكاروس : حفلت الصحف بمقالاته فى التحقيقات المنوعة فى التاريخ المسيحى وتاريخ الأديرة ومنابع النيل وعلاقات مصر بالحبشة .

محمد فريد وجدى : نشر عديدا من الفصول والدراسات فى الأهرام وغيرها عن تركيا الجديدة والأديان والمعضلات الفكرية والاجتماعية والعرب والترك والقرآن وله أكثر من ٣٠٠ بحث فى مجلة الأزهر .

سليم حسن : له عشرات الأحاديث والابحاث حول اكتشافات الآثار الفرعونية التى كان يقوم بها .

د. أحمد غلوش : حفلت الصحف والمجلات بكتاباته وأحاديثه وصوره حول تحريم المسكرات .

الكاتبة مى زيادة : ظلت تنشر فصولها فى جريدة الأهرام وقتا طويلا، ثم حررت باب المرأة فى السياسة الأسبوعية فترة من الوقت .

عمر طوسون : أولى اهتماماته للدراسات التاريخية المصرية فى عصر محمد على ، وخاصة الأرساليات ، الحملات العسكرية ، كما سجل رحلاته إلى الصحراء الغربية وغيرها .

أحمد فؤاد (الدكتور) : ركز اهتمامه وكتاباته عن : مصر والسودان فى نظر العلم والتاريخ .

د. على مصطفى مشرفه . نشر عديداً من الابحاث عن العلم وبسط مفاهيم وتحدث عن طبائع الاجرام السماوية .

أحمد شفيق (باشا) : نشر عديدا من مذكراته عن تاريخ مصر فى عصر اسماعيل ومابعده .

عزيز خانكى : نشر عشرات من الدراسات والفصول التاريخية والقانونية .

لطفى جمعه : يضاهى فى نشاطه فى تلخيص المؤلفات الغربية التى تهتم بعصر العرب والمسلمين ، نشاط أحمد زكى باشا ، فقد نشر عشرات من الفصول والدراسات فى مختلف الصحف ، وكانت له فصول أسبوعية فى البلاغ اليومى ، وله مقالات متعددة فى البلاغ الأسبوعى ، ومجلة الرابطة العربية وعشرات المجلات منذ (١٩١٦ — ١٩٥٠) .

عبد المتعال الصعيدى : من خيرة الكتاب فى مباحث الاسلام والدين ، نشر عديدا من الدراسات والمقالات .

محمد رمزى : أولى اهتمامه بدراسة الحواضر والمدن وتاريخها وأعلامها ، وسار فى ذلك على نهج الخطط التوفيقية لعلى مبارك .

شكيب ارسلان : هذا كاتب عربى عاش فترة ما بين الحربين تقريبا فى جنيف ، وقدم للصحف والمجلات المصرية ابحاثا ومقالات لاحد لها ، وكتب فى الأهرام وكوكب الشرق والجهاد والبلاغ وفى مجلتى المنار والفتح ،

وتناول عشرات من أبحاث السياسة والاسلام وألقى نظرات صائبة على آراء المستشرقين وكتاب الغرب فى قضايا العرب والمسلمين .

الأب انستاس الكرملى : نشر فى الصحف المصرية عديدا من أبحاثه اللغوية والأدبية وكانت له مساجلات .

جميل صدقى الزهاوى : نشر فى الصحف المصرية شعره وكتاباته وكانت له مناقشات ومساجلات مع كتاب مصر حول كثير من القضايا العلمية والفلسفية .

حسن القاياتى : أولى اهتمامه بالأنابيش اللغوية وتخصص فيها .

محمد ثابت : نشر كثيرا من الفصول عن رحلاته فى العالم العربى وآسيا وأفريقيا.

وهناك عديد من الصحفين ، شغلوا الصحف بآثارهم ولكنهم كانوا أقل فى الدرجة من حيث النشاط والانتاج فى مقدمة هؤلاء : الدكتور أحمد عيسى ، عبد الحميد أبو هيف ، أحمد تيمور ، عبد المجيد نافع ، أمين واصف ، عبد العزيز البشرى ، عبد الرحمن عزام ، لبيب الكردانى ، محمد عبد المطلب ، أحمد فهمى العمروسى ، الدكتور محمد شرف ، أمين سامى[1] .

---

(١) يستطيع الباحث التوسع فى دراسة هؤلاء الكتاب مراجعة مؤلفاتنا (١) الشرق فى فجر اليقظة (٢) أعلام وأصحاب أقلام (٣) النثر العربى المعاصر (٤) الصحافة السياسية فى مصر .

تكريم الكتاب[1]

أولت الهيئات الصحفية والسياسية كتابها بالاحتفاء والتكريم ، وكان الدكتور هيكل رئيس تحرير جريدة السياسة(١٩٢٢ — ١٩٣٦) فى مقدمة هؤلاء بعد أن ترك الصحافة وبمناسبة إصداره مؤلفاته الاسلامية : حياة محمد والصديق والفاروق ومنزل الوحى .

× محمد على علوبة[2] : صديق الدكتور محمد حسين هيكل رافع لواء الثورتين : ثورة الأدب وثورة الفكر أما الثورة الأدبية فقد شب إوارها وأزكى نارها وهو بعد فى ريع شبابه أما الثورة الدينية فقد حمل الدكتور هيكل لواءها زهاء تلك الفترة أو أكثر .

كان الدكتور هيكل فى ثورية الأدبية والدينية على السواء، قلقا حائر النفس ناقماً ،نوعا ما على الأدب العربى والفكر العربى والتراث العربى بكل ما يحويه من أوضاع وسنن، بعد أن رأى فى أوربا معيما فياضا من المعانى والأفكار والاتجاهات ، وكان فى قلقة وحيرته ونقمته مخلصا ينشر الحقيقه لايتكلف ومعانيا لامباهيا ، ثم أدى به إجتهاده وإخلاصه للحقيقة التى ينشرها من وراء القلق والحيرة والنقمة ويطلبها بالمعاناة والتجرد ، أدى به ذلك إلى النتيجة المنطقية التى لامعدى عنها لكل من يتجرد لفكرة ، لقد عثر الدكتور هيكل على الفردوس المفقود ، الفردوس الذى يكشف له عن عظمة الشرق وسمو آدابه وجلال الشريعة التى ملأت نفسه زهوا وفخرا وإعجابا وغمرتنا بلهجة من الطمأنينة ، فرأينا هيكلا القلق الحائر النفس ، هيكلا الناقم المتسخط على التراث العربى ، يخرج منه هيكل العربى المعالج البانى ، هيكل الذى إمتلأت نفسه يقينا ومغالاة بالشريعة السمحة وزهوا بالمجد العربى ، هيكل الذى يحمل فى إحدى يديه قبسا من نور الحقيقة وفى الأخرى قلمه يترجم عن معانى ذلك النور ويبشر به ،

---

(١) نشرنا فصلا عن تكريم العقاد فى كتابنا (المعارك الأدبية)

(٢) الصحف مايو ١٩٣٥ .

مخلصا فى ذلك آكد الاخلاص وأتمه . لقد قادت الحقيقة هيكلا ، ولو كان الهوى هو الذى قاده كما قاد كثيرا من الباحثين ، لما وصل إلى هذه النتيجة الباهرة ، ولـكنه طلب الحقيقة جاهداً حتى ظفر بها .

× عبد العزيز البشرى : لقد كنا نحن معشر الأزهريين ولعلنا مازلنا نعتقدان المنطق الصحيح حكرة لنا من دون الناس جميعا ، ذلك بأن علم المنطق يدرس فى الأزهر حق درسه . فاذا أصبنا غير أزهرى يرتب المقدمات ترتيبا منطقيا ، ويجرى الأقيسة إجراءا مستقيما ، حتى يصل إلى النتائج الصحيحة ، أخذنا من صنيعه العجب .

ثم عرفت الشاب هيكلا ، ١٩٢٠ فاذا هو على تدفقه فى خاطر الساعة وإذا هو على تعمقه فى طلب دقائق المعانى ونظمها فى أنور الألفاظ لا ينحرف قيد شعره فى سبيل المنطق فى ترتيب المقدمات ونظم الأقيسة ، على إختلاف أشـكالها نظما صحيحا ، لا يطرقه أى خلل فى أى قطر من أقطاره ، وأول ما يشعر به محدث الدكتور هيكل وقارئه على السواء هو ابعاده فى النظر وامعانه فى التفـكير ، حتى لقد يرثى المرء له ولا مثاله ، على ما يذلوه فى ذلك من جهد ، وما عانوا من تعب وكد ، وحسب هيكل فضلا أن خلقا من الناس كانوا يظنون أن هناك تناكراً بين العلم والدين ، فاثبت بكتابة حياة محمد أن الدين لا ينافر العلم ولا يقف عنده هذا ، بل لقد أثبت أن الدين مما يحتمه ويلزم به : العلم الصحيح .

× الدكتور منصور فهمى : إننى عرفت هيكل الذى ارتفع به قلمه الثابت وجهاده الفـكرى إلى أعلى الرتب من نحو ثلاثين سنة ، وهو من طلاب العلم وبين أعضاء الجمعيات العاملة ، وبين ناشئة الـكتاب المتميزين ، وكان يبشر منذ أدب الشباب الرائع عما كان ينتظره فى كهولته من فصيح الأدب ، وكان سمو خياله فى صباه ينبىء بطموحه فى سمو المقاصد ، وكان صدقه وصفاء طويته يشعرنا بصدق وطنيته ، كان هيكل طالب العلم والـكاتب والمحامى فى صفاد من الود لا يتسرب إليه حقد لخلاف فى رأى ، ولم يقطع

صلة من صلات المودة بغضب وهو يتكشف لدى كل من عرفه حسنه بحبها ويرتبط به من أجلها .

الشيخ مصطفى عبد الرازق : كنا شبابا نطلب العلم فى باريس ، وذهبنا ثلاثة إلى بعض الملاهى تلهو كما يلهو الشباب ووجدنا هنالك عرافا يصف للناس أسرار قلوبهم وينبئهم بما يضمر الغيب لهم فى المستقبل المحجوب .

قال لأحدنا وهو يومئذ أصغرنا سنا وأحدثنا عهدا بباريس ، إنك ستكون عظيما بين أصحاب القلم ، ولم تكن هذه البشارة كبرى البشائر ، التى شرح العراف بها صدورنا للمستقبل ، ولكنها كانت على ذلك أكثر روعة فى نفوسنا ، ذلك لأن الشباب المصرى المثقف فى ذلك العهد ، ينزع بحماس إلى مذاهب الديمقراطية التى تريد أن تهدم التفاوت بين الناس بالأموال والإنساب والمناصب ، لتبنى مراتب البشر على أساس الثقافة والعلم ، قد تكون بشارة العراف لزميلنا الشاب قد أعانت على توجيهه وجهة الدراسات الأدبية إلى جانب دراساته القانونية والإجتماعية ، وكان زميلنا من الذكاء والجد والنشاط بحيث نهض بهذه الدراسات المختلفة نهضة السباق الممتازة ، وليس فى إنتاج الدكتور هيكل شىء من نوع الأدب الرخيص ، الذى لا يقتضى جهدا ولا يحمل عناء ، بل تمتاز آثاره الأدبية بالفكر العميق والتحليل الدقيق ، وفى كتاب حياة محمد وفى منزل الوحى توجيه للأدب العربى جديد يصونه عن فقدان شخصية فى الآداب الأجنبية ، من غير أن يضيع عليه أى معنى من معانى النهوض والتجديد والرقى ، ولقد صدق عراف باريس منذ عشرات السنين .

إبراهيم عبد القادر المازنى : إذا كانت الذاكرة لم تخنى فقصة زينب هى أول ما أفتتح به الدكتور هيكل حياته الأدبية ، ويعنينى من أمر هذه القصة التى لقيت بعد ذلك

بسنوات من الإنصاف ما هي جديرة به ، أنها أولا إبتداء في ميدان جديد ، وثانيا: أن روح الإيمان التي برزت جداً في كتابة حياة محمد وفي منزل الوحي ظهرت في هذه القصة .

وهذا هو الذي أريد أن ألفت إليه النظر ، فإن روح الإيمان ظاهرة في كل ما أخرج الدكتور هيكل من الآثار الأدبية ، بل حتى في مقالاته السياسية وبغير الإلتفات إلى هذه الناحية، يستحيل أن يعلل المرء على وجه صريح يستريح إليه العقل، هذا الوثب المفاجىء من الغرب إلى الشرق ، ومن العناية المقصورة على الأدب الأوربي ، إلى العناية المقصودة على ينبوع التاريخ الإسلامي ومصدره الأول ، وقد كنت في أول الأمر وقيل أن تتصل أسبابي بأسبابه أراني في حيرة من أمره ، لا أرى له عناية تذكر بالأدب العربي والتاريخ العربي ، وكنت فوق ذلك أسمع أنه ملحد ، وكان ذلك مضافا إلى ذلك يجعلني أتصور أنه سائح طاب له المقام فاقام ، ولكنه بقي محتفظا بخصائصه التي جاء بها ولم يتأقلم ، ولكنني كنت أعود إلى كتبه وأراجع نفسي في مقالاته السياسية التي يكتبها كل يوم في « السياسة » فاستغرب ذلك ؛ أن روحه هي روح المؤمن العميق الإيمان ، لا روح الملحد الذي يجترىء على الحكم على ما لا يفهم بجرة حكم مريحة ، وسألت نفسي يوما : كيف يكون ملحدا من لا يختار من كتاب رنسا « جان جاك روسو » ليترجم له في العربية .

لماذ لم يختر فولتير مثلا ، وكيف تتطلع النفس وتتجه دائما إلى المثل العليا وصور الكمال في الدنيا ، وتكون مع ذلك نفس ملحد ، وهيكل ثائر فكيف يتأتى أن تنزع إلى الثورة والتمرد ، نفس ملحد يكتفي من النظر بالكف عن النظر، ومن عذاب البحث بالراحة من البحث ، ومضت الأيام فعرفته وكتب لي الحظ أن أعمل معه وأن أكون أحد أعوانه في السياسة، فلم أحدثه في هذا ، فقد أغناني الاتصال به عن السؤال ، فلما شرع يكتب — ونحن في غمرة ثقيلة من المشاغل السياسية — «حياة محمد » وينشرها تباعا في السياسة الأسبوعية، كنت واحداً من القليلين الذين لم يستغربوا منه هذا الاتجاه ، ولم يقع منهم موقع المفاجأة ، بل كنت على يقين جازم بأنه — بفضل إستيلاء روح الإيمان على نفسه — أقدر

حين يكتب حياة محمد كما ينبغي أن تكتب ، وأرجو أن تصدقوني حين أقول أني فرحت بكتابته لحياة محمد ، وأن فرحي وزهوي ما كانا ليزيدا على ذلك ، لو أني كنت الكاتب الموفق لحياة محمد ، ولا أحب أن أكتم أن فرحي لم يخل من أنانية ، فقد أغتبطت لأن ظنوني لم تخطىء ، حين اعتقدت من قبل أنني أعرفه ، أن في نفس هذا الرجل كنزا من الإيمان . كثير أن ينفرد به واحد ، ولو أن بيير بونت مورجان أو روكفلر وزع من ملايينه التي لا يستطيع أن ينفقها كلها ، على بضع مئات لأيسروا ، ولما أحس هو بخسارة أو فرق ، وكذلك هيكل المليونير الروحاني ، فليته يعطينا مما أعطاه الله فيقينا من هذه النار الخالدة ، إذن لكان لمثلي أن يطمع أن يكون يوما من الأيام شيئا .

الصحف العربية في مرآة الصحف الأجنبية

نشرت جريدة ما نشستر جارديان البريطانية مقالا عن الصحافة المصرية ١٩٢٩/٣/٢٣ قالت : تمثل الصحف والمجلات العربية دوراً هاماً نشيطاً في الآداب المصرية ، ليس فقط في البلدان التي تتكلم العربية بل في بلدان يعرف أهلها العربية ولا يتملونها إلا كلغة علمية ، وتحوى مطابع تجمع فيها الحروف العربية . فمصر اليوم المركز الرئيسي لهذا النشاط الأدبي .

وقوة الصحافة في مصر عظيمة جدا وأبناء العرب يحترمون العلم كل الاحترام وهناك كلمة ما ثورة عن مصر ، هي أن المصري إذا رأى شيئا مطبوعا أعتقد أنه حقيق ، فالصحافة المصرية والحالة هذه تحرز نفوذا قويا في نشر الآراء الجديدة ، وفي وسعها أيضا أن تكون مصدر شر واذيه ، كما يفعل بعضها في تضليل الرأى العام لأرب ذاتية ، ولحسن الحظ بزغ الآن فجر جديد في عالم الضحافة وجعلت بعض الصحف من نفسها قدوة في هذا الشأن ، وقد نشأ هناك شعور ، بالكرامة وسيصبح ما كان يدعى منها شاذا مثالا عاما يحتذى ، فهناك صحف عربية تشعر بمسئوليتها نحو قرائها ولا تنهمك الانهماك كله بتكديس الأموال في خزائن أصحابها . وقد إنقضى الآن زمن عدم مراعاة الذمة والضمير ، وبدأ القارىء المصري يحرز الموهبة اللازمة للتمييز بين الأخبار الصحيحة التامة المنزهة التي تقدمها له أفضل الصحف العربية والأخبار المرتبكة والآراء المتخربة التي لا تزال رأسمال الاتجار لبعض الصحف التي هي أحط سمعة وكرامة .

ومن الغريب فى مصر أن الجريدة التى لا تراعى كرامة الصحافة تباع «كالملك السخن» بسبب مقالات يومية تنشرها لبعض مشاهير الكتاب يستعمل فيها كل ما فى حافظته من عبارات القذف والسباب والكلام البلدى البذىء .

وهناك بعض الصحف النكرة تراها تبرز فجأة ، وتأخذ دوراً هاماً بين الجمهور، لأن حزبا من الأحزاب يكون قد فقد جريدته وقتيا بسبب عقوبة تعطيلها يتخذها لسان حاله ، ولم يكن حدوث مثل هذا قليلا فى خلال العشر سنين الأخيرة ، ومثل هذه الصحف لا تشترى وتقرأ لما تحتويه من الأخبار الهامة بل للاطلاع على الآراء التى تنشر فيها بطريقة حماسية مريرة . ولا يستغنى من يشتريها عن شراء غيرها من الصحف التى يعتمد على صدق روايتها ، وهذا هو سر النجاح المستمر الذى صادفته صحيفتان استثناهما القاضى مارشال من كتابه الأخير .

فجريدة الأهرام أنشئت عام ١٨٧٥ وكانت أول جريدة عربية يومية وحافظت منذ صدورها على مكانها الأول فى السبق بنشر الاخبار ، فهى والحالة هذه جريدة جذابة وافية المواد الإخبارية، سلسة اللغة ، جيدة الاسلوب، وهى مشهورة بنوع خاص بتلغرافاتها الخصوصية ، ولا تزال الجريدة العربية الوحيدة ، التى لها مراسلون خصوصيون مقيمون فى عدد غير قليل من العواصم الاجنبية تتلقى منهم يومياً برقيات خصوصية عن الحوادث فى العالم، والاهرام جريدة مستقلة لا يتحكم فيها أى حزب سياسى .

أما جريدة المقطم فقد أنشئت عام ١٨٨٩ وحافظت على سمعتها بنشر الاخبار الموثوقه ولا سيما فيما يتعلق بالاخبار المحلية كترقية الوظفين ونقلهم ، وما إلى ذلك من أخبار مصالح الحكومة ولهذا السبب يطالعها معظم موظفى الحكومة بعد الظهر عند ذهابهم إلى مشارب القهوة والاندية ، وللمقطم مكاتبها الخاص فى لندن ، وهى معتدلة فى آرائها السياسية وميالة إلى تأييد أية حكومة يتولى الحكم .

أما جريدة السياسه فانها أنشئت من قريب، وأنها لسان حال حزب الاحرار الدستوريين، ومن مظاهر التطور الصحافى الحديث النجاح العظيم الذى لقيته بعض الصحف الاسبوعية المصورة ، فانها تصدر فى ثوب بديع من الصور المتقنة الطبع التى لا يقل رونقها وجمالها عن رونق أية صحف أخرى فى سائر أنحاء العالم .

إطار لصورة العصر وملامح المجتمع

من خلال الصحافة العربية فى مصر (فترة ما بين الحربين)

(١٩١٨ – ١٩٣٩)

١ — تحرير المرأة

سجلت ثورة ١٩١٩ إستشهاد عده من الفتيات المجاهدات : شفيقه محمد ، فهيمه رياض ، عيشة عمر ، حميده خليل ، كما سبق بعضهن إلى السجون واتخذن من سجنهن أوكاراً للحركة الوطنية كما اتخذن من حجابهن وسيلة لإخفاء المنشورات السرية .

وعند ماتقرر إعلان اضراب العام لمدة ثلاثة أيام ، أصدر الحاكم العسكرى البريطانى أمرا بفصل كل موظف لا يعود للعمل فى اليوم التالى ، هنالك بكرت كرام السيدات ورابطن على أبواب الوزارات والمصالح الحكومية ومعهن سلال الخبز والطعام والنقود ، فكن إذا رأين موظفا متسللا بادرن بملاقاته ، وقلن له : هذا هو الخبز إذا كنت جائعا ، وهذا هو المال إذا كنت محتاجا، فيعود خجلا على عقبيه ، وعند ما أعلن مقاطعة البضائع الانجليزية بادرت السيدات بمحاصرة المحلات الانجليزية ، دون سواها ، ومعهن جيش مرابط من طالبات المعازل .

٢ — ما كادت لهب الثورة تخف ، وتعود البلاد إلى طبيعتها شيئا ما ، حتى احتفل بذكرى قاسم أمين فى ١٩٢٠/٤/٢٣ وحفلت الصحف فيما بعد ذلك بمعارك ومساجلات ضخمة فيما أطلق عليه « بين السفوريين والحجابيين » وفتحت جريدة الأهرام باب المناقشة على مصراعيه ، واشترك فى ذلك ، عبد ربه مفتاح ، و«ع» هانم فوزى ، وعبد القادر بسيونى وعبد الحميد حمدى (مدير جريدة السفور) وعبد العزيز سليمان ويوسف الدجوى وممن تحدثوا فى يوم قاسم أمين : الدكتور هيكل والشيخ محمد الخضرى .

قال الخضرى : أنه أول من رد على كتاب قاسم (تحرير المرأة) بالمؤيد ، وهو مدرس فى مدرسة المنصورة ، وكتب رده دون أن يقرأ كتابه لما كان متشبعا به من أفكار تخالف أفكار قاسم ، ووصل فى اليوم ذاته إلى المنصورة المرحوم الامام الشيخ محمد عبده فتلا عليه

ذلك الرد منتظراً منه الثناء والمدح ، فلم يفز من الإمام بكلمة ، وهز رأسه استخفافا ، ولما إعترف له بأنه هو الكاتب،وأنه لم يقرأ الكتاب، نصحه بأنه يعرف الكاتب وما كتب ، والغرض من كتابة قبل الرد عليه ، فانتصح ولما ظهر الكتاب الثانى لقاسم « المرأة الجديدة» قرأه وكتب ثلاث فصول عنه ، وتعرف بقاسم ، وأدرك أن الرجل يريد تعليم المرأة التى تصوغ عقول أبناء الأمة ، وكما تصوغ تلك العقول ، تكون الأمة ، وعدا ذلك من حجاب وسواه، فهى ذيول وتفاصيل لا يجوز أن تمس الجوهر وهو « تعليم المرأة » لتعلم الأمة ، لأنها الأساس !.

٣ — مضت الصحف تولى مسألة تحرير المرأة أهمية كبرى حتى ظهرت بواكير خريجات الجامعة (فى الثلاثينات) نعيمة الأيوبى (المفتشة بالمعارف) ، ثروت التونسى (التى كتبت على اللوحة النحاسية) : دكتور لا دكتورة ، سهير القلماوى ، أمينة السعيد ، فضيلة عارف ، نفيسة سماحة (طبيبات) نبوية نصر الشافعى (كلية التجارة) فاطمة سالم (آداب) وكانت نعيمة الأيوبى أول من لبست روب المحاماة: «يوم أن نالت نعيمة الأيوبى ليسانس الحقوق من كلية الحقوق بالجامعة المصرية يومها ثم ثارت ضجة فى القطر كله ، وثارت المناقشات فى أعمدة الصحف حول اندماجها فى سلك المحاماة ، وأرادت نعيمة أن تحقق أمالها إلى النهاية فانخرطت فى تلك المهنة القاسية ، وارتدت الروب الأسود وقامت مدافعة أمام المحاكم وبدأت مدة تمرينها عند محمود فهمى حنديه المحامى . ثم ودعت الروب الأسود وعادت إلى أحضان الحكومة ووزارة المعارف . ثم اختصت بمقابلة السيدات الوافدات إلى ديوان الوزارة . وبعد التدريس ، قررت العودة إلى الروب الأسود .

لم يكن نعيمة الأيوبى أول محامية مصرية ،فهناك الآنسة كريمة الأزربى أبو العز ، التى حصلت على ليسانس الحقوق بالفرنسية . ولم تعمل بالمحاماة . ومضت الصحف تنشر أخبار الخريجات . فالدكتورة نعيمة الأيوبى المفتشة بوزارة المعارف ، تسافر ١٩٣٦ فى بعثة لدراسة

الخدمة الاجتماعية إلى فرنسا ، وتقوم برحلة دراسية إلى ألمانيا والسويد وانجلترا وفرنسا للوقوف على الخدمة الاجتماعية هناك ، ثم التحقت فى بلجيكا بكلية الحقوق وحصلت على أجازتها فى مادة : «الأحوال الشخصية فى بلجيكا» بالمقارنة مع الأحوال الشخصية فى مصر ، وتحدثت «أسما فهمى» عن : كيف إقتحمنا الجامعة لأول مرة عام سنة ١٩٢٤ .

بعد حصولى على الثانوية وقفت أفكر فى طريقة تساعدنى على مواصلة تعليمى بعد إنتهاء مرحلة الدراسة الثانوية ، ولم أجد أمامى غير باب الجامعة المصرية القديمة ، ولكن لم يكن من السهل طرق هذا الباب ، لأن التعليم المختلط لم يكن معروفا ولا مألوفا فى مصر ، على حين أن الفتاة المصرية لطول عهدها بالحجاب تخشى بالضرورة الموجودة بين أفراد الجنس الآخر وتنظر إليهم كما لو كانوا مخلوقات عجيبة نازحة إلى أرضنا من كواكب بعيدة ! .

كما كان الحجاب لا يزال سائدا وأن لم يعد بالنسبة للطبقات المتعلمة أكثر من زى عادى قابل للتغيير والتعديل فى آية لحظة ، وعلى الرغم من ضعف سلطان الحجاب وتبدل حاله لم يكن من اليسير التحرر من تأثيره تماما ، فان للعرف والتقاليد آثارها البعيدة فى النفس ولها قوة الدفع التى يستمر مفعولها مدة طويلة حتى بعد التحرر من نيرها . بيد أن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه ، ولا مفر إذن من الأقدام على هذه المغامرة واقتحام باب الجامعة ، على أنى شعرت بشىء كبير من الاطمئنان عند ما علمت أن سيدتين مصريتين قد سبقانى إلى الميدان الجامعى ، وبذلك مهد الطريق وانقشعت الغيوم ، بيد ان هذا التمهيد لم يؤثر إلا قليلا فى تحقيق ما شعرت به من الهلع عند ما وجدت نفسى لأول مرة وسط قاعة المحاضرات الرحبة بالجامعة ، وتبينت أن مئات العيون تصوب إلى ، ولا أظن أن دخول ميدان الحرب يكون أشد رعبا من الظهور لأول مرة ، فى مكان يستأثر فيه الجنس الخشن على أن زميلتى وقد أنضجتها تجارب الاشتراك فى الثورة المصرية ، كانت من الشجاعة ورباطة الجأش بدرجة ألقت فى روعى شيئا من الهدوء والسكينة فانتحينا جانبا من القاعه ، وجلسنا نستمع

لمحاضرة بليغة من التاريخ الرومانى،ولم يصبح ظهورنا فى الجامعة شيئا مألوفا،إلابعدأن صمدنا لعدد من التجارب القاسية، فقد كانت كل حركة من حركاتنا تحصى علينا بدقة . وشعرنا أن مكاننا وسط الجنس (المضاد) يحتاج إلى تدعيم وتحصين ، وسرعان ما سنحت لنا الفرصة لاحتلال مواقع جديدةحصينة،فلم نتردد فى التقدم والاقتحام، وبعد ثلاثين عاما من وفاة قاسم تحدث الكثيرات عن نهضه المرأة ، قالت هدى شعراوى : كسبت المرأة المساواة بين الجنسين فى التعليم ، تحديدسن الزواج . حق الأم فى الحضانة . إدخال بعض تعديلات فى نظام الخطبة والزواج والطلاق ، اشتراك المرأة المصرية فى العمل على رفاهية الشعوب، وقالت اسما فهمى : (نالت B. A. فى التاريخ و M. A. فى التربية):أعتقد أننا نبالغ فى تقدير ما وصلت إليه المرأة المصرية إذ الواقع أنه قليل وضئيل ،ولو أن قاسم أمين كان موجودا ماسرته حالة المصرية ، ولا يصح أن نحكم على تقدم المرأة بحالة العواصم والمدن ، فالواقع أن الأكثرية العظمى التى تبلغ حوالى تسعين فى المائة فى الأرياف لا تزال المرأة جاهلة ومكبلة بالقيود .

وأثيرت محاولات كثيرة لاستغلال نهضة المرأة بتغيير المقومات الأساسية للاسلام : وقد كتبت هدى شعراوى (الأهرام ٢٨ ديسمبر ١٩٢٨) : دعانى الأستاذ سلامه موسى فى كتاب أرسله إلى بناء على إقتراح وجه إليه أن أطلب إلى وزارةالحقانيةسن قانون يساوى بين المرأة والرجل فى حق الميراث وباطلاعى على ملخص هذه المحاضرة قدرت للمحاضر حسن عطفه على النهضة النسائية، ولما كان تقييد المرأة فى الميراث ليس من المسائل الداخلية فى برنامجها فليس لى أن أتدخل فى هذا الموضوع لا باقرار الحالة الحاضرة أو تعديلها .

وأقول بصفتى الشخصية أنى لست من الموافقين على رأى سلامة موسى فيما يتعلق بتعديل نصيب المرأة فى الميراث، ولاأظن مثله أن النهضة النسوية فى بلادنا لتأثرها بالحركة النسوية بأوربا يجب أن تتبعها فى كل مظهر من مظاهرها ، ذلك لأن لكل بلد تشريعه وتقاليده، وليس كل مايصلح فى بعضها يصلح فى البعض الآخر على أننا لم نلاحظ تذمراً من المرأة فى الميراث .

ومن الرجم بالغيب أن يقال أن المرحوم قاسم أمين لما قام بنشر كتبه فى سبيل تحرير المرأة، كان ينوى المطالبة بمساواة المرأة بالرجل فى الميراث ، وأن الذى أخره عن إعلان هذا الطلب هو انتظار نضوج الرأى العام كما ذكر سلامه موسى، فالمطلع على كتب المرحوم قاسم يقرأ بين سطورها أنه كان يعنى فقط بجعل المرأة عضوا صالحا فى الهيئة الاجتماعية وأن نعد الفتاة لتكون أهلا للقيام بنصيبها من العمل فى خدمه عائلتها ووطنها .

وتحدث الدكتور هيكل عن المرأة المصرية والفن، وما ينقصها فى الماضى . [قال : ما يزال الفن المصرى الرفيع خاليا من وحى المرأة أو يكاد ، ونستطيع أن نستعرض ما نقشت ريشة المصورين المصريين، فلا ترى للمرأة فيه إلا أثرا قليلا ولا تكاد ترى فيه المرأة المهذبة أثرا قط ، والقاء اللوم على المرأة وحدها فيه ظلم كثير، ويحملها تبعات لا يصح أن تنوء بها منفردة ، ولعله من الانصاف أن نقول أن المرأة قد أوحت إلى الفن ورجاله حينما استطاعت هذا الوحى . بل أن فن مختار كله صادر من وحى المرأة .

أن ثمة عاملان أساسيان لهما أكثر الأثر فى ذلك، «أولها» : هذه القطيعة بين معسكرى الرجال والنساء برغم إرتفاع الحجاب فى أكثر طبقات النساء فقل أن تجد المجتمع المشترك الذى يندمج فيه الرجل و المرأة من مختلف الأحاديث فى شتى الأمور «والثانى» : هذا الاتجاه من جانب المرأة لكسب حقوق تعتقد أن الرجل غصبها أياها فى الماضى فلا بد لها من استردادها لتقف من الرجل موقف المساواة ، وهذا الاتجاه يجعل المرأة تنظر للرجل وكأنه خصمها اللدود وكأنه القوة العابثة المستبدة التى يجب محاربتها .

٢ — مجتمع القاهرة

رسم فكرى أباظه صورة مجتمع القاهرة (١٩٣٥) :

ركبت الترام من مخزن شبرا حتى العتبة الخضراء ، ومن العتبة الخضراء حتى الأهرام، ثم انحرفت إلى مصر القديمة ، ومن مصر القديمة إلى مصر الجديدة ، ثم تغلغلت فى الدراسة والحسينية والسيتية ، ثم صعدت القلعة ثم هبطت للمغاورى ، وفى الليل تسللت إلى نوادى والصالات والحانات والحفلات ، ثم ارتقمت إلى كلوب محمد على ، وكلوب الفسطاط ، ثم انحدرت إلى قهاوى باب الشعرية ومنها إلى جروبى وصولت .

أول ما يروع السائرفى القاهرة،حركةالقاهرة : هذا جحش ، وهذا حمار ، بغله ، حصان. بسكليت ، موتسيكل ، عربة كارو ، عربة حنطور ، ترام ، سيارة ، باور زالط ، رشاشة ، زحافة ، هذه المخلوقات الحيوانية والجارية ، تفوق فى عددها المخلوقات الآدمية ، والشوارع ضيقة والمارات لا تخجل ولا تتزحزح . وفى القاهرة كرنفال فى كل لحظة ، طاقية وبجوارها لاسه بجوارها كوفية وعقال ، وبجوارها طربوش . بجوارها عمة بطربوش بجوارها برنيطة ، هذه جرمة راءول ، بجوارها شبشب ، بجوارها قبقاب .

هذه بدلة بطربوش ، هذه بدلة بياقة ولكن بعمة ، هذه جبة وقفطان ولكن بعمة ، هذه جاكتة بجلابية ، وهذه جلابية ببالطو ، وهذا بنطلون بلا جاكتة . هذه ملاية لف ببرقع أسود ، هذه حبرة ببرقع أبيض ، هذا بالطو ببيشة ، هذا فستان بدون قناع .

* * *

إذا ما دقت الساعة الخامسة صباحا ، دق معها صوت بائعة الزبدة وبائعة اللبن ، إذا ما دقت فى الصيف بعد الغذاء ، خرج عامل جروبى بصوته الشنيع معلنا وصول الجيلاتى ، ودقت الآنسة التى تتعلم البيانو بجوارى أدواراً غير رخيمة ، وظل الفونغراف يسمعنى

رغم أنف أصوات المطربين والمطربات، ونادى بائعوا الجرائد على المقطم والبورص، وأخذت خادمة الدور الثانى تنفض السجاجيد والأبسطة من شبا كها .

إن القاهرة الموسرة تعيش على حساب العزب والكفور . إن القاهرة تبنى وتشيد على انقاض البيوت القديمة فى الريف . من يوم أن باع الأعيان قطنهم سنة ١٩٢٠ ، سنة ١٩٢١ بأربعين جنيها للقنطار ، وامتلأت جيوبهم بالمال زحفوا إلى القاهرة ، خفافا فاحتلوها إحتلالها وتخلوا عن قلاعهم وحصونهم فى الأرياف .

عطر المطر فى ميدان الأوبرا وشارع المناخ وحى قصر الدوبارة، فإذا ما انتهى وجدنا ميدان الأوبرا وشارع المناخ وحى قصر الدوبارة أنظف مما كان وأرشق مما كان وعطر المطر فى الدراسة ،وبوابة المتولى وباب الشعرية فتظل آثاره أياما،والقاهرة كما هى تزور وتزيف وتغش وتخدع ، وتبدو للقادمين من المحطة والنازلين من شبرد والكونتينتال وسمير اميس ومينا هاوس عروسا هيفاء ناصعة البياض متقنة التواليت ، ولكنها هى نفسها فى الواقع شمطاء صفراء عليلة فى الدراسة والتربيعة والجمالية والحسين والوايلية .

* * *

إنعدم التزاور فى القاهرة داخل البيوت ، وأصبحت المقابلات فى جروبى وصولت وسيلندديار والأنجلو وباب اللواء والشيشة . عيشة القهوات عيشة عقيمة ، الأنس العائلى مفقود ، قلما يتناول رب البيت طعام العشاء على المائدة مع زوجته وأولاده وقلما يمضى معهم السهرات .

فى القاهرة طرب وموسيقى ، ولكنه طرب متعب . أظل أنا طول الليل من الساعة التاسعة مساء إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل أحدق فى وجه أنسة تندب سوء حظها مع حبيبها وأنا جالس لرواية بين المغنية وحبيبها لا دخل لى فيها .

فى القاهرة سموم قتاله تعصف بشباب الشبان هى الهروين والكوكايين والحشيش .

٣ - المقاهى

وهذه صورة الصحفى العجوز عن المقاهى فى القاهرة (١٩٣٧) .

أقفلت « القهوة الوطنية » أكبر القهوات والأندية العامة وأشهرها فى ميدان العتبة وميدان الخازندار . أنشأها سيد القهوجية الخواجا ماتولى يوانيدس صاحب مرقص ألف ليلة وليلة لنحو عشرين سنة حلت فى عمارة حسن بك عيد المشرفة على شوارع البوسطة والبواكى والباب الشرقى، وعنى بتأثيثها وتأنق فى تنظيم غرفها وقاعاتها ، ومنها قاعات البلياردو وقاعات الطاوله والدومينو والشطرنج وقاعات القهوة والشيشة ومنها أبهاء الصيف وأخرى للشتاء .

وكان الإقبال عليها عظيما ، إذ ترك زبائن أندية العتبة والخازندار مجالسهم فى قهواتها وتهافتوا على القهوة الوطنية وشاركهم فيها بعض زبائن الاسبلندد بار وغيرها حيث تقدم أنخر الشيش ، وكان لرواج الأسواق المالية ونشاط الوطنية أثرهما فى إزدهار هذه القهوة الجديدة التى اتسعت قاعاتها لعقد كثير من الجمعيات الوطنية والمذاكرة فى الشئون العامة خفية وعلنا . فلما أعلن الاستقلال والدستور اتخذها كثيرون من أعضاء البرلمان الريفيين مركزا لهم ، واحتفظ الشيخ سعد مكرم بالولاء لها حتى أعلن اقفالها . وكسب منها الخواجة ماتولى وأثرى ، حتى أنه اشترى عمارتها ، ولكنه لم يلبث حتى باع العمارة والقهوة إثر خسائره المشهورة فى تجارة الدخان وقصر أعماله حتى آخر أيامه على إدارة مرقص ألف ليلة وليلة .

الحلاقو ن

كانت لجماعة الأسطوات المزينين أو الحلاقين فى مصر صولة ودولة ، كان لهم نقيب وكان منهم معلمون كبار وصبيان مزينين . وكانت دكاكينهم أندية لأهل الذوق السليم والظرافة يقصدونها عصر كل يوم للمسامرات . وكان الحلاق لا يقتصر على قص شعر الرأس وحلق اللحى والذقون بل كان يجمع إلى ذلك كثيرا من الحرف والصناعات .

٤ — منع المسكرات

كتب الدكتور أحمد علوش الرئيس العام لجمعية منع المسكرات فى القطر المصرى فى مجلة (الطائف) ١٩٣٢ يصور حركة منع المسكرات .

بما أن جمعيتنا جمعية تسهر على خدمة الأمة المصرية ولا تألوا جهدا فى سبيل ما يعزز الروح القومية ويصون الأخلاق الفاضلة ، لم نر بدأ من أن نرى دلونا بين الدلاء قياما بواجبنا المقـدس إننا نرحب بكل حركة ترمى إلى خير مصر ونفع أبنائها ، ولما كانت مقاطعة البضائع الأجنبية التى يمكن الاستغناء عنها فى مقدمة الأمور النافعة وأساس نهضة الأمة فإننا نضم صوتنا إلى الأصوات الصارخة بضروره مقاطعتها .

غير أننا رأينا خلال الضجة القائمة أموراً من الغرابة بمكان ، وأى أمر أغرب من أن ترى بعض الجرائد تهتف فى صفحة من صفحاتها بحياة الصناعة الوطنية ومقاطعة البضائع الأجنبية ، وفى الصفحة الأخرى من نفس العدد تنشر الإعلانات الخلابة المواد هى شر البضائع الأجنبية وأشدها كيداً وعبثاً ، وأى ضرر يقاس بضرر الخمور شر الآفات الإجتماعية وأفظع ما منيت به الشعوب فى متراخيات العصور .

إذا كانت البضائع الأجنبية تضر من الوجهة الاقتصادية وتحرم أبناء مصر أموالا طائلة هم بها من جميع الشعوب أولى ، فإن الخمور تضرهم فى مالهم ودينهم وشبابهم وأخلاقهم ، أيجهل ناشروا إعلانات الخمور أن ملايين الجنيهات تهدر كل عام فى مصر على موائد الخمور المستوردة إليها من أوربا .

لقد آن لهذه المهزلة أن تنتهى ، لقد صبرنا على هذه الدعوات الضارة مدة طويلة إلى أن بات الصبر ضربا من التقصير والاستهتار .

إننا نمت للأدب بسبب ونتهى إليه بنسب ، ونرعى للاقلام حرمه ونحفظ لأربابها عهداً ولا نريد أن نبعث من غضب اليراعة شرر إنتقاد كالنار مستطيرا وصرير لوم يصغد كالسيف الصقيل صليلا . ولكن طال أمد الصمت ، ولم يبين من أصحاب هذه الجرائد بادرة تنم عن ميلهم للاقلاع عن هذه الدعوة الخطرة فأصبح استمرار سكوتنا عما نسمع ونرى، إساءة لا يقبل لها عذر وليس لها من مساغ .

إحترموا ياقوم روح الأديان ولا تسخروا بعواطف الأمة ولا تتجروا بمصالحها وأخلاقها ، واعلموا أن الأعين ناظرة ليست بمغمضة ، وأن النفوس يقظى وليست بها هجمة ، وأن المصلحين سيصلون هذه الدعوة الثانية من مضاء عزمهم ونور رشدهم ناراً حامية ، نحن أمة تريد النهوض وتتوخى الاستقلال ، وصرح الاستقلال لن يقوم على جدران واهية ، وأركان متداعية يعصف بها ريح السوء وتعبث بها روح الفساد . ولا بد لى من التنويه بفضل الصحف التى تترفع عن الكسب بنشر اعلانات الخمور ، أما نحن فلقد عقدنا النية على إثارة حرب شعواء ضد كل ما يضر بمصالح مصر وسنولى وجهنا شطر هذه الناحية ونسمع المستهترين من آيات الحق مايقض المضاجع ويقلب كل ما يرمى إلى ضرر الأمة رأساً على عقب .

٥ — بنك مصر

تم إنشاء بنك مصر سنة ١٩٢٠ وكتبت مجلة الطائف تحت عنوان « البنك الوطني المصرى الجديد، بنك مصر » في ١٩ يوليو ١٩٢٠ تقول :

نعم لقد قام طلعت بك حرب بنصيبه من العمل، وأوجد بنك مصر فانتهى الدور الأول ودخلنا فى الدور الثانى وهو دور عمل أفراد المصريين ، أغنيائهم قبل متوسطيهم ، فالعيون شاخصة اليهم ، ناظرة إلى كيفية إقبالهم على المشروع . ويقول عـــزيز الأسف أن الأسهم المعروضة للاكتتاب فى تأسيس البنك لم تغط بعد (إلى حين كتابه هذه السطور) ولا يزال من واجب المثرين المصريين وهم يحصون بالألوف وأموالهم مكدسة فى المصارف الأجنبية أن يدركوا مزايا هذا المشروع الوطنى العظيم ويعلموا أنه ميزان حرارة الوطنية التى نرآها تعتقد فى كل آن .

* * *

فى ٧ مايو ١٩٣٥ احتفل بمرور عشرين عاما على إنشاء بنك مصر فى سنة ١٩٢٠ . وتحدث كثيرون عن الخطوات التى حققها .

قال إدوارد كوك محافظ (البنك الأهلى) : يخيل إلينا أحيانا أن هناك رجالا هم أهل إحدى طبيعتين : الحالمون وأصحاب الرأى والانتباء من ناحية ومن الناحية الأخرى : الرجال العمليون وذوو المزعة ، ومن النادر أن تجد رجالا يجمعون بين مميزات الطبقتين، وأمامنا هنا مثال منهم هو « طلعت حرب » أن كل من يعرفون طلعت حرب لا يبهرهم ما يرونه فيه من حدة الذكاء والجهد على العمل وقوة الذاكرة بقدر ما يبهرهم ما يلمسون فيه من قوه البداه وميزة الاستنتاج بالسليقة . ، أن تجربة اللغة العربية نجحت فى الشركات نجاحا باهرا كما نجحت تماما فى أعمال البنك، وأن تجربة جعل الأسهم فى البنك والشركات أسميه لا يملكها إلا مصريون قد ظهر أثرها الطيب .

قال محافظ البنك الأهلى : أن ما تم فى خلال هذه السنوات الخمسة عشر لا يقاس

بالاحصائيات والأرقام وحدها، فقد تم شيء كبير ، بل هناك ما هو أهم من هذا ، وأعنى به التأثير النفسانى فى عقول الشباب المصرى ممن يتوقون إلى خدمة وطنهم ، فقد تولدت فى نفوسهم آمال جديدة وبث فيهم روح احترام النفس ، لقد شق طلعت حرب طريقا جديدا وقد تسنى له فى هذا الباب القيام لبلاده بخدمات أجل كثيرا مما قام به كثيرون .

وقال أحمد عبد الوهاب : فى اعتقادى أن أساس نجاحه وسر توفيقه ، أنه عمل قومى بحت ، تجلت فيه القومية بأكمل معانيها بحيث لا تفريق بين حزب وحزب ولا تمييز بين طائفة وطائفة ، هو فكرة مصرية يستوى عندها المصريون جميعا مهما تباينت مذاهبهم الدينية وتنافرت نزعاتهم السياسية فهو بقوميته الكاملة هذه قد سما فوق الانقسامات والاختلافات ونجا من آفات التحزب والخصومات .

قال طلعت حرب : كان تأسيس بنك مصر ١٩٢٠ مفاجأة أدهشت الجميع واقبل بعضهم على بعض من فرط ما دهشوا يتساءلون عن مستقبل هذا المشروع وعن كفاية الذين يتولون أموره ويهيمنون على شئونه ، وعما إذا كان من المستطاع إستعمال لغة البلاد فى أعماله ، وعن مدى تأثيره من الناحية الاقتصادية المصرية .

لقد هال بنك مصر بلا شك يوم بدأ حملته ألا يجد أثرا لعمل مصرى صميم إلا النادر يدرأ عن الأمة سخرية الساخرين . أما فى ٧ مايو سنة ١٩٣٥ فقد تغيرت الظروف وأصبح لمصر بنك قومى بلغ رأس ماله مليوناً من الجنيهات بعد أن كان فى البداية ٨٠ ألف جنيه ، وبلغت الودائع أكثر من عشرة ملايين ، ونرى إلى جانبه عدد كبير من الشركات تخدم مصر فى الأرض والبحر والسماء .

وقال : طلعت حرب : بنك مصر وشركات مصر ليست إلا معاهد للتربية الاستقلالية يكمل فيها الشباب المتعلم علومه بالعمل والمران عليه ، لسنا نذيع سراً إذا قلنا أن سبب نجاح بنك مصر، هو أولا الابتعاد عن زحام السياسة والحزبيه فهو قد فتح أبوابه لخدمة جميع المصريين عامة وخاصة على السواء ، كما يرجع سر نجاح البنك إلى الأسرة (أسرة بنك مصر) التى تسود فيها المودة والولاء ويستنق فيها البر بالرحمة ، وابتعاد البنك عن السياسة ليس ناتجا

عن عدم اكتراث بمصالح البلد العليا ، فان المصرى الذى لا يكترث بمصالح وطنه لم يولد بعد ، ولكنه إتباع الحكمة المأثورة « لكل عمال رجال ، فالسياسة رجال » وللمال رجال ، من يخلط بين عمل وعمل اختلط عليه الأمر والتوى عليه القصد وأفلت منه سر النجاح ، أنظروا إلى ما عمله البنك فى بحر الخمسة عشر عاما : أنه فتح ميادين عمل مختلفة للشباب المصرى كانت موصدة فى وجهه . ساعد المقاولين المصريين حتى ولجوا باب المنافسة وبزوا فيها أقرانهم كما أسدى فى أيام الأزمة من المساعدات والخدمات الوطنية لمواطنيه ما لا يمكن أن ينسوه ، سلو عملاء البنك عما لاقوه من بنك مصر ويلاقونه من مساعدات لزراعاتهم وصناعاتهم وتجاراتهم ، سلو عن الروح التى عاملهم ويعاملهم بها بنك مصر ، أنها روح عطف ورحمة قبل أن يكون حزما وشدة ، سلوا كم من صانع لولا بنك مصر لما كان له وجود ، وكم من تاجر مدين ببقائه إلى بنك مصر . وكم من دور غنية عامرة وعائلات كبيرة لولا بنك مصر لأصبحت فى أوقات الشدة طعما للخراب والافلاس .

لكم أن تسمو بنك مصر أعجوبة مصر ، فاحكموا علينا أولنا ، وما نحن إلا بشر ، مخطىء ونصيب . فان أخطانا فلنا من حسن نيتنا شفيع ، وأن أصبنا فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وحسبنا راحة الضمير ، حسبنا هذه الثقة أعظم جزاء تقدمه الأمة لخدامها المخلصين . أننى على استعداد دائما للتخلى عن العضوية والإدارة لكل مصرى كفء يتقدم لحمل الأمانة مع حسن النية فى كل عمل يأتيه . لنتواصى جميعا بالصبر والحق ، وبالحرص دائما على هذا الهيكل القومى المقدس ولنجعله للناس آية على أننا أمة النيل ، أمة تستحق الوجود ، بل وتستحق الخلود ولتحي مصر .

وقال عبد الله فكرى أباظه : أننى لأذكر أننى رأيت طلعت حرب فى مستهل حياة البنك يمسك بعض دفاتر البنك بنفسه ويقيد فيها بيده . ويشترك مع صغار الموظفين فى عمل تسوية حسابية أو قيد طلبية . وكان يصرف مرتبات موظفيه القلائل من إدراج مكتبه حتى لا يعرف الواحد ما يتقاضاه سواه من أجر منعا للغيرة وفساد الروح بين الموظفين .

٦ ــ الأزهر

أولت الصحافة إهتماما كبير بتطور الأزهر ، ومن ذلك ما كتبه الدكتور زكى مبارك (١٩٣١) قال : أن الأزهريين يشعرون بالخطر الداهم الذى يواجههم من كل جانب . فقد أصبح بديهيا أن الأزهر يجب أن يساير الحياة أو أن يزول . ومسايرة الأزهر للحياة ليست مسألة هينة . توضع أصولها فى يوم أو يومين ، وإنما هى عقيدة صعبة الحل ، لأنها تضم إلى جنباتها عناصر الثورة على القديم ، والشوق إلى الجديد . أهم ما يلاحظ على رجال الأزهر أنهم يهتمون أشد الاهتمام بطنطنة الألفاظ وجلجلة الحروف . ومن شواهد ذلك أنهم حين فكروا فى إصلاح الأزهر منذ سنين كان أول ما بدأو به أن سموه (الجامعة الأزهرية) ولقد أولع صديقنا الشيخ أبو العيون بتلك الكلمة ، ولكنها رآها على طرافتها ليست كافية فسمى الأزهر فى بعض مقالاته « الجامعة الأزهرية الكبرى » ومن أغرب ما شهدناه من غرام رجال الأزهر بالألفاظ أنهم كانوا يستغلون لفظ « العالمية » فكان المتخصصون منهم ولا يزالون يكتبون على بطاقاتهم كلمة (دكتوراه) وقال فى موضع آخر : أن الخلاف بين الأفندى والشيخ هو خلاف فى العقلية . يلتفت الأفندية إلى الماضى فيرون عظماء مصر كانوا من المشايخ ، أو الأفندية الذين اصطنعوا مذاهب المشايخ ، يرون أسماء سعد زغلول ومحمد عبده وعبد العزيز جاويش وابراهيم الهلباوى وهؤلاء كانوا مشايخ ، سيرون أسماء مصطفى كامل ومحمد فريد واسماعيل رأفت وهؤلاء وأمثالهم كانوا أفندية يصطنعون مذهب المشايخ ، ما رأيكم فى الشيخ مكرم عبيد ، أن هذا الرجل يحفظ القرآن ويروى الأشعار ويصرح بأنه مسلم وطنا أزهرى ثقافة ، والمشايخ فى كلية الآداب : طه حسين ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين وابراهيم مصطفى وأمين الخولى وأحمد الشايب وعبد الوهاب عزام ، وفى الصحافة على يوسف وعبد العزيز شاويش ومحمد

عبده وسعد زغلول وأن أول مظاهرة قامت ١٩١٤ أقامها الأزهريون ، وأول دكتور فى الآداب كان أزهريا ، وأول بعثة علمية كانت أزهرية .

× وكتب أحد الصحفيين الأمريكيين سنة ١٩٤٤ مقالا عن الأزهر قال : أن الشيخ الباجورى كان يبلغ اعتزازه بكرامة الدين والعلم أن والى مصر فى ذلك الحين عباس الأول كان معتاداً أن يرد الأزهر أثناء الدرس فكان يذهب إلى حلقة الشيخ ، فما كان الشيخ يفعل أكثر من أن يرد عليه السلام وهو جالس فى مكانه لا يتحرك ، بينما يأخذ الوالى مكانه على مقعد من الجريد يسمع إلى الدرس ماشاء ثم ينصرف فى هدوء، والشيخ رابض حيث هو لا يخف لاستقبال الوالى ولا توديعه ، والشيخ الشربينى ولى مشيخة الأزهر ١٣٢٣ هـ فرأى الخديو توفيق أن يكرمه فدعاه لتناول الأفطار على مائدته فى أحد أيام رمضان، فاعتذر الشيخ اعتذاراً أقرب إلى أن يكون رفضا، فما زال به رجال القصر حتى قبل ولكن اشترط شرطا عجيبا ، هو أن يأخذ معه طعامه وشرابه ، ودنت ساعة الأفطار وامتلأت ردهات القصر بالمدعوين وإذا بالشيخ يقبل على ظهر بغلته، وفى إحدى يديه قلة ماء غطيت بقطعة من الليف الأحمر وفى الأخرى منديل محلاوى ، ظهر فما بعد أنه كان يحوى طعام الأفطار، وتطاولت الأعناق وأسقط فى أيدى رجال القصر ولكن أحد لم يستطع أن يناقش الشيخ، بل أفسحوا له صدر المكان، حتى إذا انطلق المدفع فتح الشيخ منديله، فاذا هو يحوى رغيفا وقطعة من الجبن القريش وقليلا من التمر، تناول الشيخ واحدة منها فى سكون، ثم خلع عباءته وفرشها وأقام الصلاة حتى إذا ما أتمها عاد إلى طعامه فأكله دون أن ينظر إلى شيء مما كانت المائدة تذخر به من فاخر الطعام والشراب ، وهذا هو الشيخ الذى زاره كرومر فى داره ومعه عقيلته فاذا هما يجدانها خالية من الآثاث، لأن الشيخ كان ينام على حصير ولا يمس من مرتبه ولا من الأموال الطائلة

التى كانت تؤول إليه غير ما يكفى لطعامه وشرابه، ثم يوزعها جميعا ، ومن شيوخ الأزهر الذين كانوا على كثير من التقوى والزهد الشيخ حسونة النواوى ، حدث فى عهد توليه أن توفى الشيخ عبده الذى لم يكن موضع رضا الخديو، وإذا بأحد رجال المعية يزور الشيخ حسونة ليفهمه ويفهم بقية العلماء أن الإمام لم يكن مخلصا للخديو، وأنه لذلك يحسن عدم الاشتراك فى جنازته ، فظل الشيخ يصغى إليه دون أن يتكلم حتى إذا فرغ من كلامه التفت إلى من كان معه من العلماء قائلا : « بالله بنا يامشايخ أحسن ميعاد الجنازة قرب » ورأى الرسول أن كلامه لم يؤثر التأثير المطلوب فلم يجد بدا من مصارحه الشيخ بأنه يحمل إليه أمر أفندينا بعدم الاشتراك فى الجنازة فنظر إليه الشيخ وهو يقول : ان الله وحده هو أفندينا ، فاذهب وقل لأفنديك أن حسونة النواوى سيشيع جنازة الإمام ا . ه .

* * *

ومن أخبار الأزهر إشتراك كبير من نوابغ المسيحين فى دراسة اللغة العربية والفقه فى الأزهر متخفين، ومن ذلك ماوقع لوهبى بك مدير مدارس الأقباط ، فقد قضى تسع سنوات فى الأزهر مجاورا ، قال له الشيخ الانبابى : لولم تكن ياوهبى نصرانيا لمددناك من شيوخ الأزهر . ثم أصبح يتردد على دار العلوم والأزهر ، قبل أن ينشأ الرواق العباسى وكان من شيوخه الذين حضر عليهم: محمد الشريف، عبدالهادى الابيارى وكان الطلبة يجهلون أمره ، فهو يتردد على الأزهر متأبطا المحفظة بشرح عابدين فى فقه أبى حنيفة وصحيح البخارى وتفسير الخازن وشرح ابن عقيل على الألفية والأشمونى على الألفية ، وقد اتصل بكبار رجال الأزهر وخاصة جمال الدين الذى أعجب بذكائه واتخذه لنفسه مدرسا للغة الفرنسية ، وقد صلى صلاة الجمعة مرة واحدة فى حياته، ليحضر خطبة منبرية للشيخ ابراهيم السقا، كما ألف عدة خطب منبرية فى موضوعات مختلفة نشرتها الوقائع ومن ذلك قوله : « الحمد لله جلا من آياته البينات عجبا وجلى لأولى البصائر من أسرار الكائنات حجبا ، فوصب على مختار بديعها خطيب المعانى وصبا ، واستطيب بحلى حسنات صنفها وصبا .

٧ — سهرات رمضان

وتحدثت الصحف عن سهرات رمضان : وهذه صورة منها :

مجالس وسهرات رمضان في بيت طلعت حرب . إنه حريص على أن يدعو جلساءه إلى مائدة السحور متى جاء وقتها ، الحديث في العلم والأدب والمال والفكاهة والظرف. مضيفة القاياتي ، حسن القاياتي ، لما كان بيت القاياتي بيتا صوفيا قبل كل شيء ، فرنين تقبيل الأيدي لا ينقطع ، وجفان الثريد واللحم المسلوق تملأ المكان وتطعم كل البطون ، ولعلماء الأزهر وطلابه ورجال الشعر والأدب نصيبهم الكبير في هذا المجلس الحاشد ، تجرى المناقشات في مسائل فقهية وصوفيه وأدبية ، وتروى القصائد والأزجال ويقرأ القرآن وترتل ترانيم دينية بأصوات جميلة منبعثة من بطن الريف ، الزاوية حمام ، ومنهم الأديب حسن القاياتي وقد احتلوا ركنا هادئا في مقهى الفيشاوى ، جماعه الصحفيين فريق يتزعمه الأستاذ الهمياوى يلتف حول الشيخ عزوز ، فكاهة الحى ، وهو رجل بادن الجسم صغير الرأس ، في سرعة اليدين وحلاوة النكتة وأهل الفن زكى طليمات وعزيز عبيد .

٨ — المولد النبوى

كتب الدكتور زكى مبارك (١٩٣١) يتحدث عن تقاليد المولد النبوى قال :

قبل المولد بأيام قابلت بعض مشايخ الطرق ومنهم ناس ظرفاء ، سألت ماذا اعتزمتم هذا العام في مهرجان المولد ، فأجاب : تريد الزفة ، قلت نعم ، فقال : لقد رأينا لشدة الحر أن نلغى الزفة في هذه المرة ، وابتدأ المولد مبكرا وقد بكرت أنا أيضا لمشاهدته وقد لاحظت أن الجانب الدنيوى سبق الجانب الدينى بأيام ، الأول لأصحاب الملاهى والثانى للصوفية . أما الصوفية

فلم يبتدئوا موسمهم إلا متأخرين ، فى حين أن أصحاب الملاهى أسرعوا فنصبوا خيامهم وأعدوا ملاعبهم فى خفة ونشاط . أصحاب الملاهى يستفيدون ماديا من ملاعبهم . أما مشايخ الطرق فإنهم يتهيبون نفقات الاستقبال من قهوة وقرفة ، وفول نابت وحمص بجوهر ولحم مقدد أومسلوق ، لقدغشيت خيام الملاهى لأعرف بعض ما هناك . . الشيخ شمس الدين شيخ السادة المرازقه ، زرته فى خيمته مرتين واتفق أن أحد المريدين وقع مغشيا عليه فسألت فى خشوع عن ذلك فأجاب : داخ فوقع .

وقضيت لحظات فى خيمة الشيخ التفتازانى ، وكنت أعلم أنه إستقدم الموسيقار عبد الوهاب للانشاد على حلقة الذكر : فأخبرنى أنه لاقى فى ذلك مشقة شديدة حيث قضى اثنى عشر يوما يعلم محمد عبد الوهاب كيفية القيام والقعود ، حتى استطاع أن يؤدى المهمة . . وفى خيمة الشيخ التفتازانى أديب مطلع هو الشيخ حسن الغزالى أحد أدباء نجع حمادى بالصعيد ، وللصعايدة غرام بالشعر البليغ والفصيح من الكلام ، وقد مررت بخيمة الشيخ الجربى وهو يعظ عند الشيخ حامد سلامة وهو زعيم من زعماء الشاذليه ، وكنت قرأت له فقرات فى غاية الجودة ، وقد رأيت خيمته أكبر الخيام فى ساحة المولد ، ورأيت أتباعه أكثر عدداً من جميع المريدين .

٩ ـ الطرق الصوفية

وحفلت الصحف بأخبار الطرق الصوفية ورجالها :

وللصوفية مجلس أعلى : شيخ المشايخ السيد عبد الحميد البكرى وهو نفسه شيخ السجادتين البكرية والوفائية ، وقد تلقى ذلك عن عمه الأديب المشهور محمد توفيق البكرى عن أخيه عبد الباقى البكرى . والطرق الصوفية فى مصر : تضم : الطريقة السعدية : الطريقة الغزالية : المرازقة الأحمدية ، الطريقة الشاذلية ، الرفاعية ، البراهمة ، القادرية ، البكرية ، السباعية ، الخلوتية .

الطريقة الدمرداشية : تولى المغفور له عبد الرحيم الدمرداش الطريقة من عام ١٢٩٤هـ إلى ١٣٤٨هـ . فأحيا أربعة وخمسين مولدا، يقدر عدد رجالها الآن بخمسة آلاف شخص ، لم يجعل له خلفاء فى الأقاليم ، من يريد الدخول فيها لا بد أن يأتى القاهرة ويتقدم إلى شيخ الطريقة ويلقنه نقيب النقباء بحضوره ، وعبد الرحيم الدمرداش هو ابن مصطفى بن صالح أغا أحد المماليك الشراكسة الموالين لمحمد على . تزوج والده من إحدى كريمتى الشيخ محمد محمد الدمرداش ، وتوفى فى ٥ فبراير ١٩٣٠ — ١٠ شعبان ١٣٤٨ .

رسالة الولاية

من عبد الرحيم مصطفى شيخ الطريقة الدمراشية الخلوتية إلى صاحب السماحة السيد عبد الحميد البكرى شيخ المشايخ الصوفية بالديار المصرية ورئيس المجلس الصوفى العالى .

حضرة صاحب السماحة :

السلام على مقام سماحتكم ورحمة الله وبركاته وبعد : فقد تعينت شيخا لطريقة السادة الدمرداشية عام ١٢٩٥هـ فى عهد جدكم المغفور له السيد على البكرى ومعلوم لسماحتكم أن مشيخة هذه الطريقة فى بيتنا من بدئها ، ومنذ ما عينت شيخا لها بدلا من المرحوم والدى بعد وفاته ، وأنا قائم بخدمتها خير قيام ومشيد لأركانها وموطد لدعائمها وساهر على مصلحتها ليل نهار، ولم أفرط يوما من الأيام فى أقل واجب من واجباتها ، والآن قد أصبحت بفضل الله تامة النظام من الطرق الرفيعة التى يشار إليها بأطراف البنان، وإنى قد بلغت سن الشيخوخة مع أنى حافظ لقواى العقلية والأوصاف الشرعية ، ولا بد من يوم يلاقى كل إنسان فيه ربه ، وإنى أحب أن أكون فى كل حين مطمئنا على طريقتى عاملا على ما يحفظ كيانها فى الحال والاستقبال ، وأريد أن أعهد فى مشيختها لمن يقع فى قلبى أن فيه الخير والصلاح لهذه الطريقة ، ولما لم يكن عندى ذكور من الأولاد وقع إختيارى على سبطى عبد الرحيم مصطفى الدمرداش ، وذلك لما عهدته فيه من حبه للطريقة وميله إليها كل الميل وحضوره معى فى حفلاتها ، ولما أراه من كونه ميسور الحال

فيكون ذلك سببا لتوطيد أركان الطريقة ، ولقد لقنته العهد بحضور رجال الطريقة وكلهم راضون عن ذلك ، وإنى لازالت قائما بأعمال الطريقة باعتبارى شيخا لها ما مت حيا ، فإذا قضى الله عما هو كائن وهى سنة الله فى خلقه، فيكون من عهدت إليه فى هذا الأمر شيخا لها بدلا منى ، بدون منازع ولا معارض له فى ذلك ، وإذا لم يكن قد بلغ سن الرشد حينذاك فيكون الوكيل عنه فى إدارة شؤونها هو نقيب نقباء للطريقة وقتذاك .

فبناء عليه :

التمس من سماحتكم صدور قراركم الكريم بذلك حفظا لكيان الطريقة واستبقاء لبيتنا الذى قام بخدمتها الأزمان الطويلة ولما قدمته لهذه الطريقة من الخدمات الجليلة مدة حياتى والله أسأل أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير والسلام .

« إمضاء »

عبد الرحيم مصطفى الدمرداش

على أثر ورود هذا الكتاب لمقام المشيخة إنتدب سماحة السيد البكرى شيخين من شيوخ الطرق الصوفية وأعضاء المجلس الصوفى لعيادة الشيخ الدمرداش والوقوف على حالته الصحية ومناقشته فى محتويات كتابه . وعاد الشيخان المرحوم الشيخ الدمرداش وقدما تقديرهما لسماحة شيخ المشايخ بأنه فى حالة عاديه، واضح الحديث مستقيم التفكير حاضر البديهية ، وقد أكد لهما أن رغبته فى إسناد مشيخة الطريقة من بعده إلى حفيده عبد الرحيم مصطفى مختار الدمرداش هى رغبة جدية .

وتوفى عبد الرحيم مصطفى الدمرداش بعد ذلك بشهر تقريبا ، ونعته المشيخة العامة إلى جميع مشايخ الطرق الصوفية الذين شهدوا تشييع جنازته بأتباعهم وأعلامهم باعتباره واحداً منهم كما هى عادتهم،وقد تلقى سماحة شيخ المشايخ طلبات عن محمود رشيد القاضى ، الدكتور محمد بدر الدين ، كامل محمود عثمان الدمرداش برغبة كل منهم فى أن يعين شيخا لطريقة السادة الدمرداشية،باعتبارهم من أفرادالأسرةومن بيت المشيشة ، الأولان من بنات اخوات المرحوم الشيخ الدمرداش الإناث والأخير ابن أخيه لأمه ، ورفض المجلس الصوفى

طلبهم عند عرضه ، إذ ثبت لديه أنهم جميعا لم يسلكوا طريقة السادة الدمرداشية ولم يلقنوا عهدها ولا يحفظون أولادها وأحزابها ولم يمارسوا خلوتها ولا اذكارها ، وهى الشروط واجبة المراعاة فيمن يعين شيخا لأى طريقة صوفية .

وانحصر الطلب فى ترشيح حفيد شيخها المتوفى لأنه معزز بطلب شيخ الطريقة فى حياته . وتأيد هذا الترشيح من نقباء الطريقة الإثنى عشر ، وهم فى العرف أصحاب التحدث النيابى عن سائر رجالها ، ووصلت عرائض بتأييد هذا الترشيح مقدمة إلى سماحة شيخ المشايخ من أعيان رجل الطريقة الدمرداشية وبهم عدد من العلماء والأعيان والتجار والموظفين ، وعدد يربو على الاربعين من علماء الأزهر ومدرسيه وكلهم من أتباع الطريقة الدمرداشية ، الشيخ محمد الحلبي أحد أعضاء هيأة (هكذا كانوا يكتبونها) كبار العلماء بالأزهر .

ثم إنعقد المجلس الصوفى العالى للنظر فى تعيين شيخ لطريقة السادة الدمرداشية ، وأصدر قراره بتعيين الشيخ عبـــد الرحيم الدمرداش التاجر شيخا للطريقة وسعى خصوم الشيخ الجديد جهدهم لإثارة الشكوك حول هذا التعيين ، واعترضوا لدى وزاة الداخلية . وأحالت الداخلية إعتراضهم إلى فضيلة مفتى الديار المصرية ، فأفتى بما أفتى به ، طبق نصوص مذهبه . وردت المشيخة على فتوى فضيلته . وعاد فضيلته ففند رد المشيخة ، وأصرت المشيخة على قرارها معلنة أنه ليس هذا هو الأول من نوعه بين مشايخ الصوفية وأن هذه الوراثة تقليد من تقاليدهم ، لو عدل عنها لهدمت بيوت ولتفرق أتباعهم .

١٠ ـــ أصحاب اللحى

تحدثت الصحف فى مجال الدعابة عن ثلاثة من أصحاب اللحى : الدكتور محجوب ثابت والدكتور أحمد غلوش وحسن شافعى الجيزاوى .

قال الدكتور محجوب ثابت : أطلقت لحيتى منذ ٣٥ عاما زهدا . فى عام ١٩٠٣ بدأت أطلق لحيتى سنة ، وكنت قد أحسست قبلها بانصراف عن الدنيا وميل إلى الزهد ، وكان للحية فى تركيا مقام كبير فهى علامة الوقار الاحتشام كما أنها توحى إلى نفس صاحبها بكثير من معانى الرجولة والعظمة .

وقال الدكتور غلوش : إنما أطلقتها تصوفا فقد أخذت العهد على شيخى المرحوم عبد الله البنا شيخ الطريقة الخلوتية بالإسكندرية وكان الناس يتبركون به ويعرفون فضله، وأنا الآن مسلك على الطريقة الشاذلية والطريقة الخلوتية . وقد وضعت رسالة عن التصوف فى الإسلام باللغة الإنجليزية قدمتها لجامعة روكسل ، كما قررت جامعة بوسطن منحى لقب دكتوراه شرف فى الآداب . ولكنى مع ذلك لا أفخر بهذا اللقب قدر ما أفخر بأنى «مسلك طريقه»، لقد كنت فى شبابى عياقة ككل شباب هذه الأيام، ولكنى بعد أن درست كتب الإمام الغزالى منذ أكثر من عشرين عاما سنة ١٩١٥ اتجهت نيتى إلى التصوف تقربا إلى الله وزلفى .

وقال حسن شافعى الجيزاوى : اللحية فضلا عن كونها مظهراً دينيا فإنها تدعو أصحابها إلى التزام الوقار والاحتشام والمحافظة على الآداب .

١١ — لباس الرأس

كانت لحركة تغيير لباس الرأس معارك وتطورات وهذه صورة منها :

(توفيق الحكيم) دعوت إلى خلع الطربوش ولبس القبعة ليس فقط لأسباب صحية واجتماعية ولكن لسبب آخر هو مركزنا الدولى كافة بين الأمم ذات الحضارة . لا يدهش شيء مثل أولئك الذين يستنكرون لبس القبعة ، لأن ذلك تقليداً للأوربيين ، أن فكرة التقليد نفسها أصبحت الآن لا محل لها ولا معنى ومع ذلك فهل نحن لم نقلد العالم المتمدن فى كل شيء .

(الدكتور سليمان عزمى) : إن مسألة لباس الرأس مسألة عادة وقليل منها ما يخص الطب ومن يزعم أن الطربوش يحدث عند لابسه إستعداداً لضربة الشمس رددت عليه بأن الإصابة بضربة الشمس إنما ترجع للاستعداد الشخصى .

ولا يمكن القول بأن القبعة بشكلها الحالى تمنع لطشة الشمس لأننا إذا أردنا غطاءاً

للرأس يستوفى الشروط وجب أن يتوافر تغطية الصدغين والقفا . ومن أراد حقيقة لباسا للرأس يقى لطشة الشمس فمليه بالعمامة المستعملة فى جنوب الصعيد . (ذات الرفارف) إن العالم تجتاز الآن موجة ترمى إلى هدم تغطية الرأس بالمرة .

١٢ — التمثيل

كتب عبد الرحمن رشدى فصلا عن : ذكرياته فى التمثيل قال : ذاع فى الإسكندرية خبر مؤذن جامع (تربانة) وتناقلته الألسن فوصل خبره إلى اسكندر فرج الذى كان له مسرح باسمه فى شارع عبد العزيز فاستقدم الشيخ سلامه (حجازى) ومنحه مرتبا لا بأس به، وأخذ فى تدريبه على الأدوار الرئيسيه . صارفا كل همه فى استغلال هذا الصوت المذب المدهش .

وقد استقبلته الجماهير بتشجيع لم يتله فتى قبله، فقد عرف كيف علا مركزه ويصادق على حسن ظن الجمهود فيتقدم بقدم ثابتة . . وكان أحمد الفار القديم وناجى وسيد قشطة أول من جاء بالتمثيل الكوميدى ، ومن البلاهة أن يقول أحد أن أولئك كانوا أرق من السينما والتمثيل الهزلى ، ولكنهم كانوا على الطبيعة وكانت أعمالهم أدخل إلى النفوس لخلوها من عنف التأليف والتكلف الذى نراه فى التياترات . وكانت طائفة الأدباتية يرتجلون الأزجال الآخذة بمجامع القلوب .

١٣ — الفكاهة

مازال اسم الشيخ حسن الآلاتى معروفا لدى الذى شاهدوا رجال الجيل الماضى ، وما كان لهم من أدب وفكاهة ونوادر ، وقد أشتهر من ظرفاء الجيل الماضى بمضحكانية التى أسماها « المضحكانة الكبرى » للضحك والتنكيت . ، كان حسن الفكاهة لطيف النادرة جذابا فى أحاديثه . يجيد الزجل بأنواعه . رأى أعضاء هذا الحرب

أن البيوت لا تتسع لعددهم الكبير، فاختاروا مقهى فى شارع الخليفة بحى السيدة زينب بالقاهرة ، أطلقوا عليه اسم (المضحكانة الكبرى) واختاروا له رئيساهوالشيخ حسن الآلاتى وأطلقوا عليه اسم (الشيخ العتيد). أطلق الرئيس على وزرائه أسماء: ناظر مقاطف ، باش مفترى ، يسرع الغراب ، بلطجى وخاب إلخ وابتـــدع أمام العبد طريقة القفش فى الصحف الهزلية فكان أول من برع من الصحفين الهزليين . كان من زبائن ملاهى الأزبكية يجتمع بحافظ إبراهيم والبابلى فى قهوة بشارع خيرت ، ومنهم عبد العزيز البشرى ، وحسين انترزى ، أمام العبد هو صاحب فكرة نادى البؤساء الذى ينعقد تحت شجرة على رصيف ميدان لاظوغلى برئاستة وعضوية حافظ إبراهيم وخليل نظير وأحمد فؤادصاحب الصاعقة .

× ومحمد البابلى وحفنى ناصف وأبو النصر المنفلوطى ومحمد عثمان جلال وعلى الليثى ، ومحمود ثابت ومحمود لاشين وإبراهيم ناجى .

١٤ - الأغانى الشعبية

حفلت الصحف طوال هذه الفترة بأبحاث ودراسات وكتابات مختلفة عن الأغانى الشعبية والأناشيد القومية ، وقد إتصل ذلك بثورة ١٩١٩ وما ظهر خلالها من أناشيد ، وقد أشارت هذه الكتابات إلى أن الأغانى قبل الحركة الوطنية كانت مبتذلة تخدش الأذان فلما جاءت الحركة هذبتها ، وكان سيد درويش أكثر انتاجا ، وقدظهر التجديد فى الأغانى فى روايتى « هدى وشهر زاد » ورواية هدى هى التى افتتحت بها فرقة عكاشة مسرح الأزبكية ١٩٢٢ (عمر عارف) وكانت مقدماتها على هذا النحو :

« بلادنا نهيمنا ، هماؤنا ، أنا فداؤها ، نحب بلادنا ، تعيش » ومن بينها أغانى رواية العشرة الطيبة ، وأعلن عن مسابقة لنظم النشيد الوطنى المصرى فتقدم للمسابقة ٥٩ شاعرا فاختارت لجنة النشيد أنشودة شوقى وكتبت جريدة الأهرام إفتتاحيتها

فى ١٩٢٠/١١/٢٧ عن النشيد القومى فقالت : أشهر أناشيد اليونان من أناشيد أورفه وهوميروس وكاليالك وأشهر أناشيد الرومان أناشيد هوارس . أما العرب فإن لكل قبيلة منهم أناشيدها ، وتقدمهم فى ذلك السريان فوصلوا إلى منتهى البلاغة فى أناشيدهم حتى قيل أنهم حفروها على جدار الصين لما اتسع ملكهم اتساعا عظيما ، حتى أنهم وجدوا من آثارهم على سواحل الاوقيانوس الأطلنطى ، وكانت الشعوب جميعا تنشد أناشيدها فى الحروب فتثير همم الرجال بتلك الأناشيد . وقال مؤرخو اليونان الحديثة والبلغار أن الذى حفظ اليونان من الضياع ، أناشيد أجدادهم ورجال دينهم وكلا العاملين كان باعثا للحياة ولم يكن الأناشيد من الأمور الدينية أقل منها أهمية فى الأمور الدنيوية .

ويستهل شوقى نشيدة على هذا النحو :

بنى مصر مكانكمو تهيـــا فهيا مهدوا للملك هيـــا

وقد غناه الشباب ، ثم انصرفوا عنه وفى ١٩٢٢ نظم مصطفى صادق الرافعى نشيده المعروف :

اسلمى يا مصر إننى الفدا ذى يدى إن مدت الدنيا يداً

وناصرته جريدة الأخبار ، ثم نظم عباس العقاد نشيدا وطنيا عام ١٩٣٤ وجرت معركة أدبية بين مصطفى الرافعى والعقاد فى المفاضلة بين النشيدين ، ثم عقدت سنة ١٩٣٦ مباراة فى النشيد القومى نظم فيها نحو ما ئتين من الشعراء ، وفاز منهم : محمود صادق ، والرافعى ومحمد المراوى ومحمد فضل إسماعيل . وكان نشيد الرافعى يبدأ بقوله: :

إلى العلا إلى العلا بنى الوطن إلى العـلا كل فتاة وفتى

وقد وضع له الشيخ حسن المملوك النوتة الموسيقية

الأغانى القومية

وكتب عبد الفتاح عباده سنة ١٩٢٦ عن الأغانى القومية التى تستحق البقاء فقال :

مادخل على الفتيات فى حذورهن والمواتق فى حجالهن أضر عليهن وأدعى لأن يتورطن من هذه الأغانى والألحان الملوثة بجراثيم الفجور . ألم تسمع تلك الحناجر المطربة بأوتارها الرنانة ذات الصوت الشجى الرخيم ، وهى تدفع فى آذان الجمهور ميكروب الفساد ، وجراثيم هجر القول وفحشه مع ماتدفع الأغانى .

ألست ترى السم يسرى فى أحشاء هذه الأمة ، وينساب فى عرقها النابض ، وشبابها الغض ، عدة المستقبل ، بفعل الموسيقى ، وما أشد فعلها فى النفوس ، وأخطر أثرها فى الأخلاق ومن فى الحياة ينكر ما للموسيقى والأغانى من الخطر وعظيم الأثر فى تكييف تربية النفوس وتوجيه الميول وإيقاظ العواطف وتنبيها ، وفعلها بالاجمال فى الأخلاق وفى الحياة القومية والتربية الوطنية ، وقال « المصور » أن شركات الفونغراف لا تدون على أقراصها إلا الأدوار المشهورة المتداولة .

* * *

وقد تناول الأستاذ العقاد موضوع الأغانى بين الأمس واليوم قال : أغانينا اليوم ليست بخير ولا أجمل من أغانينا بالأمس ، وربما صح أنها تأخرت من جهة المعنى والصياغة عما كانت عليه قبل جيل أو جيلين حيث يمكن تقسيم الغناء إلى عهد الحجاب وعهد الشمور .

فى عهد الحجاب كان للرجال غناء وللنساء غناء . غناء النساء بين أيدى العوالم والراقصات وبنات الهوى ، وكان يغنى ويسمع فى حدود الحجاب ، فيقال فيه كل ما يطيب للعالمة أو الراقصة أو بنت الهوى أن تتغنى به ولا حرج فيه عندهن من السخف والتكشف والإباحية .

أما غناء الرجال فقد كان غناء الطبقة الممتازة من الأمة ولا سيما الرؤساء والكبراء وذوى الحيثيات ، لم يكن نظام الحفلات العمومية معروفا ، فى تلك الأيام ، وهى الحفلات التى يحضرها السامعون بتذاكر .

ثم انطوى عهد الحجاب وتلاه على التدريج عهد السفور ، وشاع في العواصم والمدن نظام الحفلات العمومية والتذاكر المروضة ، وظهرت السيدات والفتيات في تلك الحفلات وأصبح الحكم على الأغاني مسألة عدد كثير وجمهور مزدحم لا مسألة ذوق واختيار ، فكانت النتيجة أن الفن الذي كان في أيدي النخبة الممتازة من الرجال أصبح معرضا لسيطرة المرأة وهي في بواكير نهضتها قبل أن تستوفي تلك النهضة حظها من النماء ، وأصبح معرضا لسيطرة الجماهير التي لم تستوف حظها من الدراية والتهذيب ، ونظر هؤلاء وهؤلاء إلى الغناء نظرة حسية جسدية لأنهم لم يستطيعوا أن تبطروا إليه نظره فنية روحية ، كما ينبغي أن ينظر إلى الفنون العالية ، فغرابة ذلك عجب من العجب . فمن أكثر المتشيعين لغناء أم كلثوم الرجال بلا جدال ، ومن أكثر المتشيعين لغناء عبد الوهاب النساء ولأمراء ، وعلى هذا لا موضع للدهشة إذا لحظنا أن غناء عبد الوهاب يكثر فيه الحنين والتوجع والشكاية ، ولحظنا أن أم كلثوم لم تلحق به في هذا المضمار ، وقد كان المعقول والمنتظر أن نسبقه بمراحل ، ومنذ عشرين سنة دخلت الألحان والأنغام عندنا في دور جديد ، تصرف الملحنون في التوفيق بين الأغراض والألحان ، وجعلوا اللحن لغة مفهومة تضاف إليها لغة الكلام ، وتوسع الملحنون في الاقتباس من الموسيقى الغربية والشرقية بل من الموسيقى الشعبية في مصر وفيها كثير من الأنغام السهلة التي بقيت على الفطرة ولم تفسدها رخاوة المترفين في عصور الضعف والانحلال ، منذ عشرين سنة ظهر سيد درويش الذي يعد بحق أمام فن الغناء الحديث ، ومنشىء المذهب الذي يمضي عبد الوهاب على طريقته .

١٥ ـ الأفراح الشعبية

هذه صورة الأفراح كما كانت ترسمها الصحف :

جرت عادة الجمهور فى المبالغة أن نقول عن الفرح المشهور أن صاحبه أقامه أربعين ليلة وليلة . ومن حق الفن علينا أن نعزو تقدم صناعة الغناء والموسيقى وتطورهما إلى هذه الأفراح والموالد ، لأنه لم يكن فى مصر مسارح ودور للملاهى ، إلا بعض القهاوى ، لم يكن الغناء مقصوراً على الرجال فقد كانت هناك جماعة العوالم ، وكان لهن غناء خاص بهن أشتقت منه الطقاطيق ، على أن بعض العالمات (العوالم) قد برعن فى غناء الرجال مثل « الظ » زوجة عبده الحمولى ، والست اسما الـكمسارية وقد كانتا مضرب الأمثال فى نقاء الصوت وموسيقية ومهارة الأداء واتقان الصنعة ، وكان فى مصر جماعة من المهرجين والبهلوانات والمضحكين يحيون ليالى الأفراح ويعرضون بضاعتهم فى الموالد داخل صواوين أو وسط حلقات فى الهواء الطلق ، وربما كانت الليلة السابقة لليلة الدخلة لا تقل عنها ابهة واحتفالا . لـكن الصباحية وهى صبيحة ليلة الزفاف كانت أقل زينة وبهجة وحبوراً .

أما زفة العروسة فعلى نوعين نوع يسير فى الطريق من دار أبيها إلى دار زوجها ، والنوع الآخر يخترق حجرات المنزل ، وزفة الشارع كانت تسير على نطاق متفق عليه . فى المقدمة تجتهد المهرج الذى يرتدى لباسا من الجلد ويمسك بيده قطعة من الجلد على شـكل الطاقية ويضرب بها على يديه وفخذه ويثب فى الهواء ويتشقلب ، ويجىء بعده الطبالون على الجمال يتقدمهم شاعر بربابته وكل جمل يمسك به رجل فى الزى العربى ، وأمام الشاعر أبطال زائفون فى زى العرب أيضا ، بيدهم بنادق وسيوف غير صالحة للفتك ، يتظاهرون بالـكر والفر والهجوم والدفاع ، وفى بعض الأحيان كان يسير بعدهم موكب ملك يشبه كثيرا ملك بيت التمثيل إيهاما بأنه صاحب الأمر والنهى تنازل فسار فى موكب العروسة ، ومن خلف الجمال يتهادى التختروان

وهو حجرة من الخشب تناهت عندها صناعة النجارة العربية (الأرابسكا) وزخرفت بالصدف والعاج والأبنوس .

ثم بعد ذلك (الطبل البلدى) والعادة هى أن الفتوات كانوا ينتهزون فرصة مرور الزفف ، فيستوقفونها ليظهروا براعتهم فى الرقص بالعصى ، وكان بعض الفتوات يتربصون للزفة القادمة من خط أى حى يعادونه فيقفون فى وجهها وتدور بينهم وبين فتواتها معركة حامية ، وأكثر ما يحدث ذلك فى حى الحسين . وبعد الطبل البلدى تجىء المزيكة . وقد اشتهرت من بينها مزيكة حسب الله ومزيكة فرحات ، وتتألف من فلول الموسيقى الأميرية وموسيقى الجيش .

ثم تأتى عربة مزدانة بالشيلان الكشميرى والورد وحولها جماعة الضوية يصيحون قائلين(هوالسعيد اللى يصلى على النبى) وكانوا يرتدون لباسا واسعا مصنوعا من قماش اسمه (القبانى) . وعربة العروسة يجرها جياد أربعة ويركب خلفها مملوكان يلبس كل منهما بذلة خاصة وطربوشا أحمر ، وخلف عربة العروسة تسير عربات أخرى من صنف (الكوبيل) المغلقة، ويتولى الأشراف على الزفة رجال يثق بهم والد العروس وكنت تسمع الزغاريدتنطلق من العربات كلها إذا كانت الزفة لأولاد البلد . ويرش الملح على صيحات (ملحة فى عين اللى مايصلى على النبى) ومتى وصلت العروسة نزلت من العربية وسارت فى دهليزمن الخيام، وإذ ذاك تبدر النقود وتظل تبدر حتى تستقر على كرسى خاص يسمى الكوشة .

وبزف العروسة داخل المنزل العوالم بالأغنية المشهورة « اتخطرى ياحلوة يازينه » . .

وتسير المدعوات بين يدى العروسة حاملات الشمعدانات وباقات الورد ، وتبدر عليها قطع الذهب المسمى (الخريات) . وعند مايصعد العريس قادما من زفته التى تخترق الشوارع تزف العروسة ثانية معه .

الشاعر على الربابة

قصص أبو زيد الهلالى ، الزير سالم ، الظاهر بيبرس ، عنترة بن شداد ، الأميرة ذات الهمة ، على الزيبق المصرى ، ينشد على الربابة بتوقيع موسيقى . فى القهوة بعد صلاة العشاء حيث يقوم الشاعر فى الأسواق والموالد بانشادها .

وكان الجمهور ينقسم فريقين فمثلا كان الأكثرية يتشيعون لأبى زيد الهلالى ويسمونه أنفسهم بالهلالية والآخرون يتشيعون للزناتى خليفة ويسمون أنفسهم (الزغابة) .

ولا شىء كان يزعج الجمهور إذ ذاك كوقوع البطل فى ورطة أو إصابته بطعنة ولكنهم يثقون فى فوزه وانتصاره . فاذا فاز على خصمه وإجتاز العقبات فرحوا واغتبطوا وقد اعتاد بعض المحدثين والشعراء أن يأخذوا قسطا من الراحة ساعة يكون البطل فى موقف حرج موروطا حائرا .

١٦ — المجتمع بعد ثورة ١٩١٩

كتب الشيخ محمود أبو العيون عدة مقالات (١٩٣٤) تحت عنوان: « يا ضيعة الأخلاق فى عهد الحرية » : قال كانت ثورة الشعب ١٩١٩ ونتائجها من الناحية السياسية يقدرها دهاقين السياسة ، أما هذا الكاتب فإنه لا يشك فى أن نتائجها من النواحى المختلفة كانت من أكبر الشرور والويلات على مصر ، فالناحية الدينية والناحية الخلقية والناحية الإجتماعية قد تصدعت وعصفت بها العواصف والأرزاء فما كنا نراه من الصفات الحميدة ، والآثار الحميدة فى تلك النواحى ، أصبحت الآن لا يحلها الناس فيما بينهم محل الاستحسان ولا ينظرون إليها بعين القبول بل قابلوها بما شاءوا من الإغفال والإهمال .

إن الفضائل والأخلاق والآثار الأدبية لا تتأثر بالظروف ولا حكم للحوادث عليها فهى هى ثابتة ، ولكن تقديرها ووضعها فى منزلتها الملائمة لشرفها والوقوف بها عند حدها ، كل ذلك يختلف باختلاف الأغراض التى تتولد فى النفوس ، فالنفوس قبل ثورة ١٩١٩ كانت بعيدة عن الأغراض والهوى ، فكانت أحكام الدين والأخلاق وقواعد الإجماع الذى تواضعت عليها الأمة تدرك مقبولة متعدلة ، أما الآن فقد غشى الناس ما غشيهم من طغيان المدنية وسحرهم من بهرجها الزائف ما جعلهم فى فتنة وضلالة فانقلبوا ساخرين بكل كمال ذاتى .

إن الناس بما أصابهم من الشكوك والريب فقدوا الثقة فى كل شىء حتى فى أنفسهم ، وأصبحوا يقفون بإزاء ضرورات الحياة موقفا حرجا وجعلهم من بعضهم فى شبه عزلة ، لا يكاد يلوى أحدهم على أخيه إلا لمصلحة مشتركة ، والشباب المصرى كان زينة الشباب ، أصبح بعد الثورة والحرية أرجوحة فى يد الأهواء وعبث الأيام فقد فقد قداسة العقيدة والثقة بالنفس وشرف الحرية وعزة الوطن .

إن القحط الخلقى قد أصاب أكثر جماعة الشباب فأوهى بينهم الروابط الإجتماعية والشعور بالواجب . أصبح الكثير من شبابنا يحذقون الملق والكذب والنفاق ، ويألفون الذلة والهوان والضعة ، وأصبحت الكفاءات والمؤهلات بمقدار ما يبذله الشاب لرئيسه من التخضع والمداهن والرشوة ، وبعد أن كانت قيمة العاملين بما يحسنون من الأعمال أصبحت قيمتهم بمقدار ما يعرفونه من وسائل الزلفى للرؤساء . وبذلك نعلم سر ايثار هذه (الأممات) على غيرها الباهين .

وقد جعل كثير من الشباب ينعمون بتلك الحرية ، وينزعون إلى الصبوة والفناء فى بحبوحتها ، وما هى إلا أن جنحوا إلى الدعة والترهل ، ولم يتحرجوا عن مقارفة المآثم الفاجرة .

ما أعجب ما نرى من أولئك الشبان أنهم بذلك يهدمون الخلق والفضلة والشرف ، أنهم لم يخلقوا أثاثا ولكنهم خلقوا شبابا ليؤدوا رسالة الجيل الماضى إلى الجيل المستقبل ، حشيت أفكار الشباب بصور الأوهام الفاسدة ، والهفوات الشائعة ، وأنهم فى مغداهم ومراحهم يحملون أوزاراً وأثاما من ألفاظ مستهجنة ونظرات خائبة .

وفى مواسم الصيف تجد الشبان يقيمون عرائسهم (أكشاكهم) على شواطىء البحار ويقيمون فيها المقاصف وصنوف الملاهى ، لا شىء أفضل للفضيلة ولا أزرى للمروءة ولا أحط لكرامة الشعوب من تلك الإباحية الخاسرة ، هذه هى ثمار الحرية التى أفدناها بالعذابات الأليمة والدم المسفوك ، أيتها الحرية كم لك من صرعى . .

إن ثورة ١٩١٩ قد تركت أثراً بالغا فى آداب الامة المصرية وأخلاقها ولكننا لا نفهم أن ما كنا نسميه نهضة سامية ترمز إليها بالتماثيل وتقيم لها الانصار ، وما كنا نود أن نأخذ من معناه كماله الاوفى يحور إلى انتكاس واضمحلال فى كل معانى الحياة الناهضة . نقول أن ثورة ١٩١٦ التى طأطأ لها التاريخ اجلالا وهومت لها الامم إكبارا وإعظاما كانت فى حياة مصر فجرا كاذبا لمع ثورة فى أفاقها كاسان الشمعة ثم خبا وأظلم وها نحن فى ديجور الظلم تائهين حيارى .

١٧ — توت عنخ آمون

كان كشف قبر توت عنخ آمون عام ١٩٢٢ حدثا ضخما إشترك فيه كارنارفون وكارتر وقد توفى اللورد كارنارفون مكتشف قبر تون عنخ آمون ، بالأقصر فى ابريل ١٩٢٣

قالت الأهرام فى أوائل هذا العام: دخل اللورد كارنارفون الحجرة المقدسة من مدفن الملك توت عنخ آمون فى الأقصر وكان الناس يجهلون من هو ذلك اللورد حتى فى مصر رغم بقائه سبعة عشر عاما بمصر ويقيم مع شريكه كارتر فى وادى الملوك وفى يوم وليلة تبوأ اللورد كارنارفون أعظم مركز فى العالم فان رجاله ما كادوا يعثرون على درجات قبر توت عنخ آمون ويدخلون الغرفة الأولى ويرون كنوزها المكدسة المدهشة ، حتى كانت الجرايد فى ممالك الأرض ومغاربها قد أذاعت الخبر ورفعت اللورد كارنارفون من مستوى الباحثين العاديين إلى مراتب أشهر رجال التاريخ والعلم والاختراع ، وقد توفى اللورد بالموت العاجل الذى حار العلم فى تعليله غداة ثبوته ذلك المقام الجليل فمن لسعة ناموسة مصرية صغيرة إلى تسمم فى الدم إلى ذات الرئة وكان له استئثار بالسلطة فى وادى الملوك والتحيز فى إعطاء الأخبار لجرائد بلاده، وقد جاء الاكتشاف فى وقت تسعى فيه الامة المصرية إلى نيل استقلالها وحريتها واستعادة مجدها فكان عمل اللورد أشبه برفع الستار عن ماضى مصر والمصريين أمام العالم، بأن المصريين هم سلالة أولئك الفراعنة العظام الذين سبقوا العالم فى المدن والعمران وها هو مجدهم الأمثل .

وتحدث اللورد كارنارفون عن اكتشافه فقال : فى ٥ نوفمبر ١٩٢١ كان المستر كارتر يعمل فى مكان لم يستطع مسه من قبل لانه كان أمام مدفن رعمسيس الرابع، وهو مقصد الزوار والسياح فعثر على درجة محفورة فى الصخر، فواصل إزالة الانقاض، وبعد ما كشف درجات أخرى بلغ جداراً مغطى بالسمنت وعليه أختام المدافن الملكية والختم مؤلف من تسعة

أسرى واقفين فى صفوف وفى كل صف منها ثلاثة وفوقهم ثعلب رابض وهو ختم لا يستعمل إلا فى الاجزاء الملكية فى مدافن طيبة . وبعد ما فحص المستر كارتر السقوف فحصا دقيقا أرسل إلى يقول أنه عثر على اكتشاف بديع ثم عاد فردم المكان ومكث ينتظر وصولى إلى مصر من إنجلترا .

ولما وصلت إلى طيبة شرعت فى الحال فى إزالة الردم وقضينا نهاراً بطوله فى صنع باب من الخشب على منوال (الشعرية) وأحكمنا غلقه بأربعة أقفال احتياطا من السرقة . وفى اليوم الثانى بدأنا تطهير المدخل (الدهليز) فوجدنا أن طوله نحو ثمانية أمتار، وكنا نلقى أشياء كثيرة معظمها مكسور فى طريقنا وكان من جملة ما لقيناه صندوق محطم ومنقوش على ضلعه الاعلى أسماء عديدة ضمن حلقات بيضاويه ، وكنا أكملنا تطهير المدخل بلغنا بابا مخنوقاً أو جداراً عليه عين الاختام التى على الجدار السابق، فتساءلنا: هل يمكن أن يكون وراء هذا الجدار سلم آخر مسدود ، أو هل أننا سنبلغ غرفة أخرى من الغرف وكانت مستر كارتر أن ينزع بضعة أحجار، وينظر إلى الداخل ففعل ذلك فى دقائق معدودة وأدخل رأسه فى الثغر فتمكن أن يشاهد ما فى الداخل على نور شمعة وتلا ذلك سكوت عميق فسألته بصوت مرتجف ما هذا ؟

فأجابنى : إن هناك أشياء عجيبة غريبة . فكان جوابه بشرى عظيمة ونزل من مكانه فذهبت أنا وكريمتى إلى الثغرة وعسر على أن أضبط شدة إنفعالى، فإن كل ما تقع عليه عين الناظر لاول وهلة فى نور الشمعة الضئيل يبين لى أن هذه الاشياء ليست سوى مقاعد عظيمة مذهبة لها رؤوس غريبة وصناديق صغيرة هنا وهناك .

ثم وسعنا الثورة فتمكن مستر كارتر من الدخول إلى المرفة وهى أوطأ من أرض المدخل ، ولما أخذ يطوف فى أنحاء الغرفة على نور الشمعة علمنا أننا عثرنا على شىء فريد لم يسبق له مثيل على الاطلاق، فإن الإنسان كان يستطيع أن يرى حتى على نور الشمعة

الضئيل مجموعة عجيبة من الاثاث والتماثيل وبعد ماوسعنا الفتحة قليلا ، دخلنا الغرفة وأدركنا هذه المرة حق الإدراك عظم الاكتشاف ، وكنا قد أوصلنا النور الكهربائي إلى المدفن الذى فوقنا فيمكننا بذلك من فحص الموجودات بدقة .

لعنة الفراعنة

وتردد الحديث عن : « لعنة الفراعنة » فقال الدكتور محرم كمال :

أول من أصابته اللعنة : اللورد كارنفون ، صاحب إمتياز الحفر للكشف عن توت عنخ أمون ويذكر أن مقبرة توت عنخ اكتشفت فى نوفمبر ١٩٢٢ غير أن غرفة الدفن التى كانت تحتوى جثة الملك بقيت مغلقة وظل بابها مسدوداً حتى فبراير ١٩٢٣ .

وقد ظهر يوم ١٦ فبراير ١٩٢٣ كانت الشمس ترسل أشعتها المشرقة فى ذلك الوقت . كان نحو العشرين من الاشخاص بينهم الاستاذ بريستد يستعدون لدخول المقبرة ليقوموا بهدم باب غرفة الدفن ، إلى ذلك الباب المسدود المختوم الذى ظل أربعة آلاف سنة مغلقا مختوما لم تمسسه يد بشر . فى هذه اللحظة الرهيبة أراد اللورد كارنارفون أن يمزح فإذا به يقول : إننا لا شك مقيمون حفلة موسيقى وسحر فى ذلك المكان الذى سننزل إليه فى داخل المقبرة .

١٨ – أمير الشعراء

وصف أحمد شوقى بأنه أمير الشعراء فكيف جاء هذا اللقب، يقول داود بركات رئيس تحرير الأهرام (١٩٢٦/٥/٩) .

منذ ربع قرن ونيف جرت على لسان « الأهرام » كلمتان فى وصف أحمد بك شوقى وشعره الذى كان الأدباء بل الجمهور كله خاصته وعامته يرقب نشره على صفحاتها فى كل ظرف من الظروف كالأعياد والحوادث الجسام ، فقالت فى وصف الشاعر أنه «أمير الشعراء» وقالت فى وصف شعره « الشوقيات » لأن هذه الكلمة تتضمن فى نفسها كل تعريف ، وفى هذا التعريف كل مدح ، فأقر هذا الوصف بل التعريف الكتاب جميعا ، وأقره الشعراء ذاتهم ومن ورائهم الجمهور ، وما كان ذلك تبرعاً لأحمد شوقى وشعره ، والناس مطبوعون على الضن بمثل هذه النعوت والأوصاف، وقديما قالوا : كل ذى نعمة محسود، وقالوا «والسيل حرب للمكان العالى » ولكنه كان حقا يؤدى لصاحبه ولم يكن هذا الثوب عارية يزول بل كان الثوب الصحيح فثبت وبقى وازداد مع الزمان رواء وجمالا ومتانة .

فلماذا استحق «شوقى» هذا الوصف ولماذا لقى بلقبيه بهذا اللقب ذلك الاجماع : سؤال يرجع فى الجواب عليه إلى تعريف الشعر ، وهل وصل شوقى منه إلى الذروة حتى صار أميره وحتى صار شعره إذا نسب إليه فى غنى عن كل مدح أو هو فوق المدح المتعارف بين الناس، ليس غرضنا اليوم درس شعر شوقى وما فيه من الروائع ، فان ذلك لا يتسنى لباحث من الباحثين استيفاؤه إلا إذا كان كل ما نظمه شوقى مبسوطا لديه فى مجلداته الأربعة التى لم يصدر فيها الآن سوى مجلد واحد ، وكل ما نقصده ، والجزء الأول من الشوقيات أمامنا أن شوقى كان « أمير الشعر » بلا منازل لأن صفات الشاعرية توافرت لشعره كل التوافر .

١٩ - جمال الدين ومحمد عبده

نشر فتح الله بركات مذكراته التى كانت يمليها عليه سعد زغلول فى منفاه وقد تناولت هذه المذكرات شخصين هامين هما جمال الدين ومحمد عبده قال (١٤/١/١٩٢٢):

إن سعدا حدثهم فى مساء ذلك اليوم عن السيد جمال الدين الأفغانى فقال : نفى السيد جمال الدين من بلاد الأفغان فجاء إلى مصر واحتضنه رياض باشا وجعل لى مرتبا قدره عشرة جنيهات شهريا، وكان رجلا واسع الفكر قوى الذاكرة جدا حلو الحديث ، جذابا لكل من سمعه ولم يكن واسع العلم ولكن ما اكتسبه من سياحاته العديدة ومشاهداته المستوعبة وحرية فكره ، كل ذلك جعله يخلب ألباب سامعيه، فيتأثرون بآرائه ويتعرفون طريقة تعلم العلم الصحيح ، وكان يلقى دروسا فى منزله فالتف حوله كثير من طلبة الأزهر وفى مقدمتهم محمد عبده وإبراهيم الهلباوى والسيد وفا زغلول (سعد).

وإليه يرجع الفضل فى تحسين التحرير باللغة العربية الفصيحة بعد ما كان مملوءاً لحنا وغلطا ، وكان يحث تلاميذه على أن يكتبوا ماسمعوه منه من المحاضرات ثم يتلوه عليه فى اليوم التالى من مجلسه فكان ذلك داعيا لأن يتبارى التلاميذ فى هذا المضمار، وثانيا: سعى فى نشر الجرائد وهو الذى سعى فى تأسيس جريدة الأهرام وغيرها، ثالثا : سعى فى تحرير الفكر من قيود التقاليد ، وقد كان الناس قبل ذلك مقيدين باتباع ما يقرأونه من الكتب التى كان تعلمها مقصوراً على فهم الكتب بذاتها بقطع النظر عن العلم ، وكانت الحكومة مقدسة ، لا يمكن لأحد أن يتطلع إليها ينقد مهما كان لها من سيئات ، فأطلق التعلم من قيود التقاليد مسترسلا مع حرية الفكر التامة وأخذ يعود الناس على نقد الحكومة بطريقة غير ظاهرة ومنها إنشاء الجرائد الزجلية الهزلية .

سأل جمال الدين سعد زغلول ذات يوم : هل تريد أن تكون مثل الشيخ الأنبابى،

(وكان شيخ الأزهر يومئذ) فرد عليه سعد قائلا : كيف يكون لى ذلك وبينه وبينى بون هائل،وظن أنه يسخر منه، فقال لى السيد : أنك ستكون أحسن منه ؟ وقال سعد : بعد نبى جمال الدين كان الشيخ محمد عبده أكبر تلاميذه وكان تفوقه فى العلم ، وكان رجل جلد واستمرار على العمل من غير ملل ، وكان فيلسوفا ومسدلا شعر رأسه ومرسلا لحيته على خلاف الأزهرية جميعا .

كتب مرةمقالافى جريدة جاء فيها :«الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وأبنائه أساطين الأولين والآخرين» فوشى به أحدهم إلى الشيخ عليش الذى كان عالما تقيا ورعا وفسر كلمة «أساطين» بغيرمعناها فقال أنها جمع اسطوانة وأن هذا كفر بالانبياء فغضب الشيخ عليش على الشيخ عبده وقال : اعطونى سكينا لذبح هذا الكافر . فتدخل بعضهم فى الشفاعة له، فعفا عنه بعد حلق رأسه . ولما تقدم لامتحان العالمية كان متضلعا قويا ، فتآمر الممتحنون على إسقاطه حسداً منه، فلم يتمكنوا من ذلك لتفوقه عليهم فاعطوه شهادة العالمية من الدرجة الثانية أو الثالثة ، والواقع أنه كان أحق بالدرجة الأولى وكان له الفضل فى تدريس العلوم الفلسفية والمنطقية فى الأزهر وكان الأزهر محروما منها .

وقد إتصل رياض باشا بعد عودته من الشام ، حيث ظل منفيا ثلاث سنوات لأنه كان له (رياض باشا) دخل فى العفو عنه فعين مديراً لتحريراً الوقائع المصرية فأخذ معه سعد زغلول ثم إبراهيم الهلباوى ، وبذلك تطورت الوقائع المصرية من جريدة رسمية إلى جريدة لإرشاد الناس إلى حسن التحرير واصلاح الأخلاق ونقد الأحكام لغة وموضوعا، وكان سعد يتولى نقد المضابط (الأحكام)وذلك أن الجريدة كانت تنقل الإفادات التى ترد عليها من جهات الحكومة بلغتها العقيمة وتعلق عليها بما يجب أن يكون على لغتها ويرسلها نسخا من الجريدة إلى الجهة التى صدرت منها تلك الإفادة .

وحدث أن مدير بنى سويف (الياس شقيق خيرى باشا المهردار الخديوى) وجه

إليه نقد ، فغضب منه وأمر رسميا بمنع وصول جريدة الوقائع الرسمية إلى بنى سويف.
ولكن الشيخ عبده إحتج لدى رياض واستكتبه خطابا كله توبيخ وتعنيف لذلك المدير .

وكان الشيخ محمد عبده غفوراً رحيما ومن ذلك أن الذى وشى به عند الشيخ عليش سعى أيضاً لدى مأمور السجن الذى كان به الشيخ عبده لكى ينزع منه المصحف الذى كان يقرأ فيه والكتب الأخرى، ثم سامحه على هذا كله بعد ذلك وساعده . وقال سعد : أنه كان له نقد على طريقة التعلم فى الأزهر منذ أول انخراطه فى تلك المجاورة، فإنه أولا لم يتقيد بتتبع دراسة الكتب على الطريقة التى كانت جارية فيه، وثانيا أنه فكر مع المرحوم السيد وفا زغلول فى عقم طريقة التعليم فيه ولما لم يستطيعا نشر انتقادهما فى الصحف ابتكرا طريقة للنقد بمنشور كتباه بخطهما من سبع نسخ وألصقاه بأعمدة الأزهر قبل الفجر والناس نيام فأحدث ذلك رجه فى الأزهر فى الصباح ، وكان المجاورون يتقاطرون على هذه المنشورات لقراءتها فكان ذلك باعثا للشيخ أحمد رافع لأن يكتب مقاله ملأها طعنا صريحا على الطريقة المذكورة ونشرها فى الصحف فضربه الأزهريون علقة حامية وانتقده سعد زغلول فى الوقائع المصرية بطريقة يؤيد جوهرها وجهة نظره فى النقد .

وقال سعد : أنه لما بدأ الدراسة فى الازهر قضى فيه شهرين لم يفهم فى أثنائهما شيئا حتى أدركه اليأس وحدثته نفسه بالعودة إلى بلده ولكنه تدرع بالصبر إلى أن أصبح قادراً على الإحاطة بدروسه فيها فى القاهرة ، (سنة ١٨٩٢) .

وقال سعد أنه فى ١٨٩١ وقد سافر إلى ألمانيا فرأى عزبة من عزبها ودخل كنيسة القرية فرأى الصبيان والبنات يؤدون الصلاة وهى على غاية ما يكون من الأداء والخشوع والنظافة ، فلما شاهد ذلك قال فى نفسه أنه لابد أن يكون هذا الرقى نتيجة علم لا يعرفه إلا الخبير بلغة الاجانب وبكى ومن ساعتها طلب مدرسا يعرف الافرنسية .

٢٠ - جوليت أدم

أولت الصحف اهتماما كبيراً لمدام جوليت آدم الصحفية الفرنسية التى شجعت مصطفى كامل على الدعوة لمصر فى صحف فرنسا وقد تحدث « توفيق حبيب » صاحب الهامش عنها (١٩٣٣) قال :

لولا مدام آدم لما عرف مصطفى كامل كيف يتصل بكثار الكتاب الفرنسيين فيحملهم على خدمة مصر . التعاون السياسى كان بالكتابة على صفحات الجرائد والمجلات وإلقاء الخطب والمحاضرات والتقارير والرسائل التى كان يكتبها مصطفى كامل وأنصاره إلى آدم . التعاون الروحى الذى يتجلى فى الرسائل الخاصة التى كان يبعث بها مصطفى كامل إلى آدم ونشرت بعد وفاة صاحب اللواء فى كتاب عنوان (رسائل مصرية فرنسوية) . كانت رسائل مصطفى كامل الخاصة إلى مدام آدم تكاد تكون بعيدة عن السياسة إلا بعض إشارات فيها إلى ما يتعلق به .

وكتبت إحدى الصحف بمناسبة وفاتها ١٩٣٦ :

توفيت فى الأسبوع الماضى (١١ سبتمبر ١٩٣٦) مدام جوليت آدم عن مائة عام طوتها فى الدفاع عن وطنها وعن حرية الأمم المهضومة الحقوق حتى لقبت فى عالم السياسة بمحررة الأمم . كانت أديبة كبيرة وسياسية خطيرة ووطنية مخلصة ، أشتهرت بالحماسة والدفاع عن حقوق بلادها منذعام ١٨٧١ ، وهوالعام الذى عقدت فية معاهدة فرانكفورت بعد انتصار الألمان على الفرنسيين فى الحرب السبعينية وأملت فيها ألمانيا على فرنسا شروطا مجحفة ، منها دفع الأخيرة ملياراً من الفرنكات أى ما يعادل مائتى مليون جنيه غرامة حربية . وساعدها فى ذلك أنها تزوجت بصحافى كبير هو مسيو أدمون آدم وكانت تنشىء الفصول السياسية والأدبية فى صحيفتها « لانوفل ريفو » وإليها يرجع الفضل فى بروز الأديب

الفرنسي الكبير (بيرلوتى) وقد أجلها الفرنسيون واعترفوا بفضلها ، حتى أن كليمانصو أرسل لها سيارة حملتها إلى الإجتماع الذى عقدت فيه معاهدة فرساى بين الألمان والحلفاء ، وقد دافعت على حرية مصر منذ الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ ، ولماسافر مصطفى كامل إلى أوربا وجد منها عضوا قويا اعتمد عليه فى الدفاع عن بلاده . وكانت مدام آدم من أشد المعارضين لاتفاقية ١٩٠٤ بين انجلترا وفرنسا . وقد أجلت مصطفى كامل وحنته بعطفها وكانت تدعوه ابنها . ووصفت تعارفهما فقالت : طالما اتفق أثناء مقامى فى هذا الدار — وقد عمرت — جاءنى البريد بالمدهشات التى تتردد فى حياتى بقدر ما أحرز أصحاب الرسائل من الشهرة وعلى نسبة مانالوا من المقام .

نموزج من رسائل مصطفى إلى مدام أدم : طولوز ١٢ سبتمبر ١٨٩٥

سيدتى : إنى لا أزال صغيرا ولكن لى أطماعا جساما فإنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة « مصر القناة » ، هم يقولون أن وطنى لا وجود له ، وأنا أقول ياسيدتى أنه موجود وأشعر بوجوده ، بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى ، وأفديه بشبابى وأجعل حياتى وقفا عليه . إنى أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة وقد نلت شهادة الليسانس فى الحقوق من طولوز منذ عهد قريب وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص للوطن اللذين أجدهما فى نفسى وقد قيل لى أكثر من مرة أنى أحاول محالا ، وحقيقة تصبوا نفسى إلى تحقيق هذا المحال ، فاعينينى ياسيدتى فإنك من الوطنية بمكان يفردك بعزية تدبر قولى وتقوية عزمى ومساعدتى .

وعلقت مدام جوليت على المحطات فقالت : : حقيقة أعجبنى كثيرا هذا الكتاب الذى لا يتجاوز عشر صفحات ، حتى أنشأت فى ١٥ سبتمبر مقالى عليه واقتبست منه أسانيد جديدة فى المسألة المصرية ، واثنيت على المؤلف فى مقالتى وضربت لى موعد اللقاء ، وواعدته فى دار لانوفل ريفو ، فأقبل على شاب خلته ابن ثمانى عشر سنة فقلت له ضاحكة — لم تصدقنى سنك فإنك لم تبلغ الحادية والعشرين قال : قد بلغتها ياسيدتى وأكلتها .

وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث رأيت أن عقل هذا الشاب قد بلغ أشده واستوى قبل أوانه ، ورأيت أنه قد أطال التدبر والتروى فى إمكان مصيره ، كما يقول خطيب مصر ورأيت أغراضه الجسام محالة ممكنة معا ، ربما لاح لغيرى أن هذا الفتى إنما كل زاده وهم ودعوى ، ولـكن جاء كتابه دالا على حقيقته .

٢١ — مصريون فى مالطة

كشف حامد الليجى عن حياة المصريين المعتقلين فى مالطة إبان الحرب العالمية الأولى فقال: لما اندلعت الحرب فى أوربا . ساورت بريطانيا المخاوف من موقف السلطة العثمانية بالنسبة لمصر وأهلها مقدمون لسياسة الاختلاف . كان الأسرى فى جزيرة مالطة موزعين على ثلاث ثـكنات تضمها جميعا قلعة واحدة قديمة اسمها (سانت كلمنت) لا تزال عليها نقوش بأيدى العرب الذين حكموا مالطة نحو ٢٣٠ عاما وكنا ٢٧ مصريا . فاقترحت تأليف رواية مصرية سياسية الموضوع نقوم نحن المصريين بتمثيلها، فقبلوا الفـكرة ولـكن أبت أكثريتهم إلا اختيار رواية عربية ألفت منذ حين هى رواية حرب الباسوس . فألفت روايةومثلت ولم يكن رجال السلطة يعلمون موضوعها السياسى، ولـكنهم فوجئو بالأمر الواقع، ولم يجدوا بدا من استغلال هذا الأمر لمصلحة حكومتهم ، فبعد مؤاخذتى بشدة على إدخالى السياسة فى هذه الرواية عادوا فطلبوا تصوير مناظرها ثم نشروا فى صحفهم بمالطة هذه المناظر ، وفى سويسرا فظهرت تحت عنوان« كيف يعامل الانجليز أسراهم» وطلب منى قومندان المعسكر أن أعيد تمثيل الرواية فأعدت تمثيلها خمس مرات متوالية، أما موضوع الرواية فيتلخص فى سبيل بسط تاريخ دخول الإنجليز البلاد المصرية وذكر شىء عن معاملتهم للمصريين وفيها حادث دنشواى ، وحوادث القبض على المصريين ومحاكماتهم ، وما يتحملونه من الصبر فى السمو بمصلحة البلاد والتضحية فى سبيلها .

الـكتاب القادم : جبرتى العصر الحديث : « الأخبار والتراجم » .

الثمن ٧٥ م